كتاب
الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني
المتوفى ٣٥٦هـ
تحقيق
الدكتور يوسف البقاعي
غريد الشيخ
طبعة كاملة مصححة ومحققة وملونة
طوبقت على عدة نسخ مخطوطة مع فهارس شاملة
مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت


كتاب
الأغاني



كتاب

الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

المتوفى ٣٥٦هـ

تحقيق

الدكتور يوسف البقاعي — غريد الشيخ

طبعة كاملة مصححة ومحققة وملونة
طوبقت على عدة نسخ مخطوطة مع فهارس شاملة

الجزء العاشر

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

PUBLISHED BY
Al Alami Library
BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة.
ملك الأعلمي - ص.ب: ٧١٢٠
الهاتف: ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أخبار دريد بن الصمة ونسبه

[توفي ٨ هـ/ ٦٣٠م]

هو دُرَيْد بن الصِّمَّة. واسم الصِّمَّة، فيما ذكَر أبو عمرو، معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر بن بكر بن عَلَقَة، وقيل عَلْقمة، بن خُزَاعة بن غَزِيَّة بن جُشَمَ بن معاوية بن بَكْر بن هَوَازِن. وأما أبو عُبَيْدة فقال: هو دُرَيد بن الصِّمَّة، واسمه معاوية بن الحارث بن بكر بن عَلَقَة ولم يذكر معاوية. وقال ابن سَلاَّم: الحارث بن معاوية بن بكر بن عَلَقَة.

ودريد بن الصِّمَّة فارسٌ شجاع شاعر فَحْل، وجَعله محمد بن سَلاَّم أوّل شعراء الفُرْسان. وقد كان أطولَ الفُرْسان الشعراءِ غَزْواً، وأبعدَهُم أثراً، وأكثرهم ظَفَراً، وأيمنَهم نَقِيبةً[1] عند العرب وأشعرهم، دريد بن الصِّمَّة.

وقال أبو عبيدة: كان دريد بن الصِّمَّة سيِّدَ بني جُشَمَ وفارسهم وقائدَهم، وكان مظفَّراً ميمونَ النَّقِيبة، وغزا نحوَ مائة غَزاةٍ ما أَخْفَق في واحدة منها، وأدرك الإسلامَ فلم يُسْلِم، وخرج مع قومه في يوم حُنَيْنٍ مُظاهِراً للمشركين، ولا فضلَ فيه للحرب، وإنما أخرجوه تيمّناً به وليقتبسوا من رأيه، فمنعهم مالكُ بن عَوْف من قبول مَشُورته، وخالفه لئلا يكون له ذِكر، فقُتِل دُرَيد يومئذ على شرْكه. وخبرُه يأتي بعد هذا.

---

(١) النقيبة: النفس، والفعل، والمشورة. وأيمنهم نقيبة: أفضلهم رأياً وفعلاً ونفساً.

[إخوته وأبناؤه]

وكان لدريد إخوةُ وهم عبد الله الذي قتلته غَطَفان، وعبد يغوث قتله بنو مُرَّة، وقَيْسٌ قتله بنو أبي بكر بن كِلاَب، وخالدٌ قتله بنو الحارث بن كَعْب، أمُّهم جميعاً رَيْحانةُ بنت مَعْدِ يكربَ الزُّبيدي أخت عمرو بن معد يكرب كان الصِّمَّة سباها ثم تزوّجها فأولدها بنيه. وإيّاها يَعني أخوها عمرو بقوله في شعره: [الوافر]

أمِـنْ رَيْـحـانـةَ الـدَّاعِـي الـسَّـمِـيـعُ ... يُـؤَرِّقُـنِـي وَأصْـحـابـي هُـجُـوعُ[1]
إذا لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْ شَـيْـئـاً فَـدَعْـهُ ... وَجـاوِزْه إلـى مـا تَـسْـتَـطِـيـعُ

وكان لدُرَيْدٍ بْنٌ يقال له سَلَمةُ، وكان شاعراً وهو الذي رمى أبا عامر الأَشْعَريّ فأصاب ركبته فقتله وارتجز فقال: [الرجز]

إن تَـسْـأَلـوا عـنّـي فـإنـي سَـلَـمَـهْ ... ابـنُ سَـمَـادِيـرَ لِـمَـنْ تَـوَسَّـمَـهْ[2]
أضْـرِب بِـالـسَّـيْـفِ رُؤوس الـمُـسْـلِـمَـه

وكانت لدُرَيْد أيضاً بنت يقال لها عَمْرَةُ وكانت شاعرة، ولها فيه مَرَاثٍ كثيرة.

أخبرني بخبره هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال: حدّثنا أبو غسّانَ دَمَاذ عن أبي عُبَيْدة وأخبرني به محمد بن الحسن بن دُرَيد عن أبي حاتم عن أبي عُبيدة، وأخبرني بأخبار له مجموعةٍ ومتفرّقة من شيوخنا أذكرهم في مواضعهم، وأخبرني أيضاً بخبره محمد بن خَلَف بن المَرْزُبان عن صالح بن محمد عن أبي عمرو الشَّيْبانيّ وقد بَيّنتُ رواية كل واحد منهم في موضعها. قال أبو عبيدة سمعت أبا عمرو بن العَلاَء يقول: أحسنُ شعرٍ قيل في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِّمة حيث يقول: [الطويل]

تَـقُـولُ ألا تَـبْـكـي أخـاك! وقـد أرَى ... مكانَ البُكا لكن بُنِيتُ على الصَّبْرِ
لِـمَـقْـتَـلِ عَـبْـدِ الله والـهـالـكِ الَّـذي ... على الشَّرَف الأعْلَى قَتِيل أبي بكرِ
وَعـبـدِ يَـغُـوثٍ أو خَـلِـيـلِـيَ خـالِـدِ ... وعَزَّ مُصَاباً حَثْوُ قَبْرٍ على قَبْرِ
أَبَـى الـقَـتْـلَ إلاّ آلُ صِـمَّـةَ إنَّـهُـمْ ... أَبَوْا غَيْرَهُ والقَدْرُ يَجْرِي إلى القَدْرِ
فـإمّـا تَـرَيْـنـا مـا تـزال دمـاؤنـا ... لدى واترٍ يَشْقَىٰ بها آخر الدهر[3]

---

(١) هُجوع: نائمون.
(٢) سمادير: والدة سلمة بن دريد بن الصمّة. وتوسّمه: تخيله وتفرسه.
(٣) الواتر: الظالم الذي قتل أحداً من ذوي الموتور. والموتور من له ثأر.

فإنّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ ... ونَلْحَمُهُ حِيناً وَلَيْسَ بِذِي نُكْرِ
يُغَار علينا واتِرين فَيُشْتَفَى ... بنا إن أُصِبْنَا، أو نُغِيرُ على وَتْرِ
بذاك قَسَمْنا الدَّهرَ شَطْرَيْنِ قِسْمَةً ... فما يَنْقَضِي إلا وَنَحْنُ على شَطْرِ

وأخبرني ابن عَمّار قال: حدّثني يعقوب بن إسرائيل قال: حدّثني محمد بن القاسم الأسَدِيّ عن صاعِدٍ مولى الكُمَيْت بن زيد يقول: أحسَنُ شعرٍ قيل في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِّمَّة، وذكَر هذه الأبيات.

قال أبو عُبيدة: فأما عبد الله بن الصِّمَّة فإن السبب في مقتله أنه كان غزا غَطَفانَ ومعه بنو جُشَمَ وبنو نَصْرٍ أبناءُ معاوية فظفِر بهم وساق أموالَهم في يوم يقال له يوم اللِّوَى ومضى بها. ولما كان منهم غير بعيد قال: انزلوا بنا، فقال له أخوه دُرَيد: يا أبا فُرْعان ـ وكانت لعبد الله ثلاث كُنًى: أبو فُرعانَ، وأبو ذُفَافَة، وأبو أَوْفَى، وكلُّها قد ذكَرها دُرَيدٌ في شعره ـ: نَشَدْتُك الله أَلاَّ تنزل فإنّ غَطَفانَ ليست بغافلةٍ عن أموالها، فأَقسم لا يَرِيمُ حتى يأخذ مِرْبَاعه[١] وينْقعَ نَقِيعَه[٢]، فيأكلَ ويُطْعِمَ وَيقْسِمَ البقيَّةَ بين أصحابه، فبينا هم في ذلك وقد سَطَعتِ الدَّواخنُ، إذا بغُبارٍ قد ارتفع أشدَّ من دُخانهم، وإذا عَبْسٌ وَفَزارةُ وأَشْجعُ قد أقبلتْ فقالوا لربيئتهم[٣]: انظر ماذا تَرَى؟ فقال: أرى قوماً جِعاداً كأن سَرَابيلَهم قد غُمِستْ في الجادِيِّ[٤] قال: تلك أشْجعُ، ليست بشيء. ثم نظر فقال: أرى قوماً كأنهم الصِّبْيان، أَسِنَّتُهم عند آذان خيلهم. قال: تلك فَزَارةُ. ثم نظر فقال: أرى قوماً أُدْماناً[٥] كأنما يَحْملون الجبلَ بسوادهم، يَخُدُّون الأرضَ[٦] بأقدامهم خَدًّا، ويَجُرُّون رماحَهم جَرًّا، قال: تلك عَبْسٌ والموتُ معهم، فتلاحَقُوا بالمُنْعَرَج من رُمَيْلَةِ اللِّوَى فاقتتلوا فَقتل رجلٌ من بني قارِبٍ وهم من بني عَبْس عبدَ الله بن الصِّمَّة فتنادَوْا: قُتل أبو ذُفَافة! فعطَف دُرَيد فَذبَّ عنه فلم يُغْنِ شيئاً وجُرِح دُرَيد فسقط فَكفُّوا عنه وهم يَرَوْن أنه قُتِل، واستنقذوا المالَ ونجا مَنْ هَرَب. فمرّ الزَّهْدمانِ وهما من بني عبس،

(١) المرباع: حصة الأمير من الغنيمة، وهي الربع.
(٢) النقيع: المنقوع بالماء. ويتخذ منه النبيذ.
(٣) الربيئة: الطليعة.
(٤) الجاديُّ: الزعفران.
(٥) الأُدمان: جمع آدم، وهو الأسمر.
(٦) يخدّون الأرض: يشقونها.

وهما زَهْدَمٌ وقيسٌ ابنا حَزْن بن وهب بن رَوَاحَة وإنما قيل لهم الزَّهْدَمان تغْليباً لأشهر الاسمين عليهما، كما قيل العُمَرانِ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والقمران للشمس والقمر. قال دُرَيد: فسمعتُ زَهْدَماً العَبْسِيَّ يقول لكَرْدَم الفَزَارِيِّ: إني لأحْسَب دُرَيداً حياً فانزلْ فأجهِزْ عليه، قال: قد مات، قال: انزل فأنظر إلى سُبَّته[١] هل تَرمَّزُ[٢]؟ قال دُرَيد: فسَدَدتُ من حِتارها[٣] أي من شَرَجها، قال فنظر فقال: هيهات، أي قد مات، فولّى عنّي، قال ومال بالزُّجِّ[٤] في شَرَج دُرَيد فطعنه فيه فسال دَمٌ كان قد احتقن في جوفه، قال دُرَيد: فعرفت الخِفَّةَ حينئذ فأمْهَلْتُ، حتى إذا كان الليلُ مَشَيت وأنا ضعيف قد نَزَفني الدَّمُ حتى ما أكاد أُبْصِر، فجُزْتُ بجماعةٍ تسير فدخلت فيهم، فوقعتُ بين عُرْقُوبَيْ بعيرِ ظَعِينة، فنفَر البعيرُ فنادتْ: نعوذ بالله منك، فانتسبتُ لها فأَعْلَمت الحيَّ بمكاني، فغُسِل عنّي الدم وزوِّدتُ زاداً وسِقاء فنجوت، وزعم بعض الغَطَفانيِّين أن المرأة كانت فَزَارِيّة وأنّ الحيَّ كانوا علموا بمكانه فتركوه فداوتْه المرأةُ حتى بَرأ ولحِق بقومه، قال: ثم حَجّ كَرْدَم بعد ذلك في نَفَرٍ من بني عَبْس، فلما قاربوا ديار دُرَيد تنكَّروا خوفاً، ومَرَّ بهم فأنكرهم، فجعل يمشي فيهم ويسألهم من هم؟ فقال له كَرْدم: عمَّن تسأل؟ فدفعه دُرَيد، وقال: أمّا عنك وعمَّن معك فلا أسأل أبداً، وعانقه، وأهْدى إليه فرساً وسلاحاً وقال له: هذا بما فعلتَ بي يوم اللِّوَى.

وقال دُرَيد يرثي أخاه عبد الله: [الطويل]

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ ... بعاقِبةٍ وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ[٥]
وبانَتْ ولم أحْمَدْ إليكَ جِوَارَها ... وَلَمْ تَرْجُ منّا رِدَّةَ اليَوْمِ أوْ غَدِ

وهي طويلة وفيها يقول:

أعاذِلَتي كُلُّ امرىءٍ وابْنُ أُمِّهِ ... مَتاعٌ كَزَادِ الرَّاكِبِ المُتَزَوِّدِ
أعاذِلُ إنَّ الرُّزْءَ أمثالُ خالِدِ ... ولا رُزْءَ مما أهلك المرءُ عن يدِ[٦]

---

(١) السُّبَّة: الإست.
(٢) ترمّز: تتحرّك.
(٣) الحتار: ما أحاط بالشيء.
(٤) الزجّ: الحديدة التي في أسفل الرمح.
(٥) العاقبة: آخر كل شيء.
(٦) الرزء: الخسارة والمصيبة.

نَصَحْتُ لعارِضٍ وَأَصْحاب عارضٍ ورَهْطِ بَنِي السَّوْداء وَالقَوْمُ شُهَّدِي(١)
فَقُلْتُ لهم ظُنّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهمُ في الفارِسِيّ المُسَرَّدِ(٢)
أَمَرْتُهمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ يَسْتبينوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ
فَلَمّا عَصَوْني كُنْتُ منهم وَقَدْ أَرَى غَوَايَتَهُمْ وَأَنَّنِي غَيْرُ مُهْتَدِ
وهل أنا إلاّ من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غَوَيْتُ، وإن تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرشُدِ(٣)
دعاني أخِي وَالخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فلما دعانِي لَمْ يَجِدْنِي بقُعْدُدِ(٤)
تَنادَوْا فقالوا أَرْدَتِ الخَيْلُ فارِساً فَقُلْتُ أَعَبْدُ الله ذلكُمُ الرَّدِي
فإن يَكُ عبدُ الله خَلَّى مكانَه فلم يكُ وَقَّافاً ولا طائشَ اليَدِ
ولا بَرِماً إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ برَطْبِ العِضاهِ والهَشِيم المُعَضَّدِ(٥)
نَظَرْتُ إليه وَالرِّماحُ تَنُوشُهُ كوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسيج المُمدَّدِ(٦)
فَطاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حتى تبدَّدتْ وحتى عَلاَنِي أشْقَرُ اللونِ مُزْبِدُ(٧)
فما رِمْتُ حتى خرَّقتْني رماحُهم وغُودِرتُ أكبو في القَنا المتقصدِ(٨)
قِتالَ امرئٍ واسَى أخاهُ بنفسهِ وأيقَنَ أنّ المَرْءَ غيرُ مُخَلَّدِ(٩)
صبورٌ على وقع المصائبِ حافظٌ مِنَ اليَوْمِ أعقابَ الأحادِيثِ في غَدِ

في بعض هذه الأبيات غناء وهو:

صوت

أَمَرْتُهُمُ أمرِي بِمُنْعَرِجِ اللِّوَى فَلَمْ يَسْتبينُوا الرُّشْدَ إلاَّ ضُحَى الغَدِ
فَلَمَّا عَصَوْني كُنْتُ منهم وَقَدْ أَرَى غَوايَتَهُمْ وأنَّنِي غَيْرُ مُهْتَدِ
وَهَلْ أنا إلاّ من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

(١) بنو السوداء: أصحاب أخيه عبد الله.
(٢) المدجّج: الكامل السلاح، وسراة القوم: سادتهم، والمسرّد: الدّرع المتتابع الحلق.
(٣) غزية: قبيلة من هوازن ومنها الشاعر.
(٤) القعدد: الجبان اللئيم القاعد عن المكارم.
(٥) البرم: الضجر. تناوحت الرياح: هبّت تارة شمالاً وتارة جنوباً، والعضاه: شجر شائك عظيم مفرده عضاهة، والهشيم: النبت اليابس المتكسر، والمعضّد، المقطّع بالمِعْضَد.
(٦) تنوشه: تتناوله، والصياصي: جمع صيصية، وهي شوكة الحائك التي يسوّي بها السداة واللُّحمة.
(٧) في البيت إقواء.
(٨) المتقصّد: المتكسّر.
(٩) واسى: ساوى.

الغناء ليحيى المكيّ ثاني ثقيلٍ بالسبّابة في مجرى البنصر من رواية ابنه أحمد، وذكره إسحاق في هذه الطريقة ولم ينسُبه إلى أحمد. وهذه الأبيات تمثَّل بها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عند مُنْصَرَفِه من صِفِّين.

حدّثني أحمد بن عيسى بن أبي موسى العِجْليّ قال حدّثنا حسين بن نصر بن مُزَاحِم قال: حدّثنا عمر بن سعيد عن أبي مِخْنَف عن رجاله أن علياً عليه السلام لمّا اختلفتْ كلمةُ أصحابه في أمر الحَكَميْن وتفرَّقت الخوارجُ وقالوا له: ارجع عن أمر الحَكَميْن وتُبْ واعترفْ بأنك كفرتَ إذ حَكَّمتَ، ولم يَقْبل ذلك منهم، وخالَفوه وفارقوه تمثَّل بقول دُرَيد:

أمَـرْتُـهُـمُ أمْـرِي بِـمُـنْـعَـرَجِ الـلِّـوَى فَلَمْ يَسْتبينوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ
الأبيات

قال أبو عُبَيدة: كانت لعبد الله بن الصِّمَّة ثلاثةُ أسماءٍ وثلاثُ كُنى: عبد الله ومعْبد وخالد. ويكنى أبا ذُفَافَةَ وأبا فُرْعَانَ وأبا أَوْفَى.

وقال دُرَيد: [البسيط]

أبـا ذُفـافَـةَ مَـنْ لِـلْـخَـيْـلِ إذ طُـرِدَتْ فاضطرَّها الطَّعْنُ في وَعْثٍ وإيجافِ[١]
يا فارِسَ الخَيْلِ في الهَيْجاء إذ شُغِلَتْ كِـلْـتـا الـيَـدَيْـنِ دَرُوراً غـيـرَ وَقّـافِ

أخبرني محمد بن الحسن بن دُرَيد قال: حدّثنا أبو حاتم عن أبي عُبَيدة عن يونس أنه كان يقول: أفضلُ بيت قالته العرب في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِّمَّة: [الطويل]

قـلـيـل الـتَّـشـكِّـي لـلـمُـصـيـبـاتِ حـافـظ مـن الـيـوم أعـقـابَ الأحـاديـثِ فـي غـد

[طلاقه زوجته]

أخبرني الحَرَميّ بن أبي العَلاَء عن الزُّبَير عن أبي المُهاجِر، وذكر مثلُه أبو عمرو الشَّيْبانيّ، أنّ أمّ مَعْبَد التي ذكرها دُرَيد في شعره هذا كانت امرأتَه فطلَّقها، لأنها رأته شديدَ الجَزَع على أخيه، فعاتبته على ذلك وصغَّرتْ شأن أخيه وسبَّتْه، فطلَّقها وقال فيها: [الطويل]

أرَثَّ جَـدِيـدُ الـحَـبْـلِ مِـنْ أمّ مَـعْـبَـدِ بـعـاقِـبَـةٍ وأَخْـلَـفَـتْ كُـلَّ مَـوْعِـدِ

(١) الوَعْث: الطريق العسر، والإيجاف: سرعة السير.

وبـانَـتْ ولـم أحْـمَـدْ إلـيـك جِـوارَهـا   وَلَـمْ تَـرْجُ مِـنّـا رِدَّةَ الـيَـوْمِ أوْ غَـدِ

فقالت له أمُّ مَعْبَد: بئسَ والله ما أَثنيتَ عليَّ يا أبا قُرَّة! لقد أطعمتُك مأْدُومي، وبَثَثْتُك مكتومي، وأتيتُك باهِلاً[١] غيرَ صِرَار وما اسْتَفْرَمْتُ[٢] قبلك إلاّ من حَيْض.

وقال أبو عُبَيدة في خبره: بلغ دُرَيدَ بن الصِّمَّة أن زوجته سَبَّتْ أخاه فطلَّقها وألحقها بأهلها وقال في ذلك: [الوافر]

أعَـبْـدَ الله إنْ سَـبَّـتْـكَ عِـرْسِـي   تَـقَـدَّمَ بَـعْـضُ لَـحْـمِـي قَـبْـلَ بَـعْـض
إذا عِـرْسُ امْـرِىءٍ شَـتَـمَـتْ أخَـاهُ   فَـلَـيْـسَ فُـؤادُ شـانِـئِـهِ بِـحَـمْـضِ[٣]
مَـعَـاذَ الله أن يَـشْـتُـمْـنَ رَهْـطِـي   وَأنْ يَـمْـلِـكْـن إبْـرامِـي ونَـقْـضـي

[يوم الغدير وحرب القبائل ومقتل إخوته]

أخبرنا هاشم بن محمد قال: حدّثنا غَسّان دَمَاذ عن أبي عُبَيدة قال:

أغار دُرَيد بن الصِّمَّة بعد مقتل أخيه عبدِ الله على غَطَفانَ يطالبهم بدمه. فاستقراهم[٤] حَيّاً، وقَتل من بني عَبْسٍ ساعدةَ بن مُرّ، وأَسَر ذُؤابَ بن أسماء بن زيد بن قارِب، أَسَرة مُرّةُ بن عَوْف الجُشَمِيّ. فقالت بنو جُشَم: لو فادَيْناه[٥]! فأبى ذلك دُرَيد عليهم، وقتله بأخيه عبد الله، وقتل من بني فَزَارةَ رجلاً يقال له حِزَام وإخوة له، وأصاب جماعةً من بني مُرّةَ ومن بني ثَعْلبة بن سَعْد ومن أحياء غَطَفانَ، وذلك في يوم الغَدِير. وفي هذا اليوم وفي مَنْ قُتِل فيه منهم يقول: [المتقارب]

تَـأبَّـدَ مِـنْ أهْـلِـهِ مَـعْـشَـرُ   فَـجَـوُّ سُـوَيْـقَـةَ فـالأَصْـفَـرُ[٦]
فَـجِـزْعُ الـحُـلَـيْـفِ إلـى واسِـطِ   فـذلـكَ مَـبْـدًى وذا مَـحْـضَـرُ[٧]

---

(١) أتيتك باهلاً: أراد أنها أتته مبيحة نفسها له.
(٢) اسْتَفْرَمْتُ: وضعت خرقة في فرجها واحتشت بها لقطع الدم.
(٣) العِرْس: زوجة الرجل، والفؤاد الحمض: الفاسد المتغيّر.
(٤) استقراهم: تتبّعهم.
(٥) فاداه: أطلقه وقبل فديته.
(٦) تأبّد: أقفر، وجو سويقة: اسم لموضع، انظر (معجم البلدان ٣/ ٢٨٧)، والأصفر: جمعه أصافر، وهي جبال مجموعة تسمى بهذا الاسم ويجوز أن تكون سميت بذلك لصفرها أي خلوّها. (معجم البلدان ١/ ٢٠٦).
(٧) الجزع منعطف الوادي، والحليف: موضع بنجد (معجم البلدان ٢/ ٢٩٥) وواسط: اسم لعدة مواضع (انظر معجم البلدان ٥/ ٣٤٧).

فأَبْلِغْ سُلَيْمَى وأَلْفافَها وقد يَعْطِفُ النَّسَبُ الأكبرُ[1]
بأنّي ثأرْتُ بإخوانِكُمْ وَكُنْتُ كأنّي بهم مُخْفِرُ[2]
صَبَحْنا فزارةَ سُمْرَ القَنا فَمَهْلاً فَزارةُ لا تَضْجَروا
وأبْلِغْ لَدَيْكَ بني مازِنٍ فَكَيْفَ الوَعيدُ وَلَمْ تَقْرروا
فَإنْ تَقْتُلوا فِتْيَةً أُفْرِدُوا أَصابَهُمُ الحَيْنُ أَوْ تَظْفَروا[3]
فَإنَّ جِزاماً لَدَى مَعْرَكٍ وَإخْوَتَهُ حَوْلَهُمْ أَنْسُرُ
وَيَوْمَ يَزيدُ بَني ناشبٍ وَقَبْلُ يَزيدُكُمُ الأكْبَرُ
أثَرْ صَريخَ بني ناشِبٍ وَرَهْطَ لَقيطٍ فلا تَفْخَرُوا
تَجُرّ الضِّباعُ بأوْصالِهِمْ وَيَلْقَحْنَ مِنْهُمْ وَلَمْ يُقْبَرُوا

ويقول في ذلك أيضاً دُرَيد بن الصِّمَّة في قصيدة له أُخرى: [الطويل]

جَزَيْنا بَني عَبْسٍ جَزاءً مُوَفَّراً بِمَقْتَلِ عَبْدِ الله يَوْمَ الذَّنائِبِ[4]
وَلَوْلا سَوادُ اللَّيْلِ أَدْرَكَ رَكْضُنا بِذِي الرِّمْثِ وَالأَرْطَى عِياضَ بن ناشِبِ[5]
قَتَلْنا بِعَبْدِ الله خَيْرَ لِداتِهِ ذُؤابَ بْنَ أَسْماءَ بْنِ زيدِ بنِ قارِبِ

قال أبو عبيدة: أُنْشِد عبدُ الملك بن مروان شعرَ دريد بن الصِّمَّة هذا فقال: كاد دريد أن يَنْسُب ذؤابَ بن أسماء إلى آدمَ. فلما بَلغ المُنْشِدُ قولَه:

وَلَوْلا سَوادُ اللَّيْلِ أَدْرَكَ رَكْضُنا بِذِي الرِّمْثِ والأَرْطَى عِياضَ بْنَ نَاشِبِ

قال عبد الملك: ليت الشمس كانت بقيتْ له قليلاً حتى يُدْرِكَه.

قال أبو عبيدة: وقال دريد أيضاً في هذه الوقعة [الطويل]

قَتَلْنا بِعَبْدِ الله خَيْرَ لِداتِهِ وَخَيْرَ شَبابِ النَّاس لَوْ ضُمَّ أَجْمَعا
ذُؤابَ بْنَ أَسْماءَ بْنِ زَيْدِ بنِ قارِبٍ مَنِيَّتُهُ أَجْرَى إلَيْها وَأَوْضَعا[6]
فَتىً مِثْلُ مَتْنِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى كَعَالِيَةِ الرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ أَرْوَعا

(١) ألفافها: مفرده لِف، وهم قومها المجتمعون حولها.
(٢) أخفر: نقض عهده.
(٣) الحَيْن: الموت.
(٤) الذَّنائب: يوم من أيام العرب.
(٥) ذو الرمث: اسم واد لبني أسد (معجم البلدان ٣/ ٦٨) والأرطى: ضرب من الشجر.
(٦) أجرى إليها: قصد إليها.

وقال ابن الكَلْبيّ: قالت رَيْحانة بنت معد يكرب لدُرَيد بن الصِّمَّة بعد حولٍ من مَقْتَل أخيه: يا بنيّ إن كنتَ عَجزتَ عن طلب الثأر بأخيك فاستعِنْ بخالك وَعشيرته من زُبَيْد[1]، فأنف من ذلك وحلَف لا يَكْتَحِل ولا يَدَّهِنُ ولا يَمسُّ طِيباً ولا يأكل لحماً ولا يشربُ خمراً حتى يُدرِكَ ثأرَه، فغَزَا هذه الغَزَاةَ وجاءها بذُؤاب بن أسماء فقتله بِفنائها، وقال: هل بلغت ما في نفسك؟! قالت: نعم مُتِّعتُ بك! ورُوِيَ عن ابن الكَلْبيّ لرَيْحَانةَ في هذا المعنى أبياتٌ لم تَحْضُرْني وقد كتبتُ خبرها.

وأمّا قتيل أبي بكر الذي ذكره دُريد فإنه أخوه قَيْس بن الصِّمَّة، قتله بنو أبي بكر بن كِلاب. وكان السببُ في ذلك، فيما أخبرني به هاشم بن محمد عن دَمَاذَ عن أبي عُبَيدةَ، أنّه غزا في قومه بني خُزَاعةَ من بني جُشَمَ، فأغاروا على إبلٍ لبني كَعْب بن أبي بكر بن كِلاَب، فانطلقوا بها وخرج بنو أبي بكر بن كِلاب في طلبها حتى إذا دنَوا منهم قال عمرو بن سُفْيانَ الكِلابيّ، وكان حازماً عاقلاً: امكثوا، ومضى هو متنكِّراً حتى لقِي رجلاً من بني خُزَاعةَ فسلَّم عليه واستسقاه فسقاه وانتسب له هِلاليّاً، فسأله عن قومه واين مَرْعَى إبلهم، وأعلمه أنه جاء رائداً لقومه يريد مجاورتَهم، فخبَّره الرجل بكلّ ما أراد، فرجعَ إلى قومه وقد عرف بُغْيتَه، فصبَح القومَ فظفِرتْ بهم بنو كِلاَبٍ وقتلوا قيسَ بن الصِّمَّة، وذهبوا بإبل بني خُزَاعة وارتجعوا إبلهم. وكان يقال لعمرو بن سُفْيَانَ ذو السيفيْن، لأنه كان يَلْقَى الحربَ ومعه سيفان خوفاً من أن يخونه أحدُهما وإيّاه عنَى دُرَيدُ بن الصِّمَّة بقوله: [البسيط]

إنّ امْـرأً بـاتَ عـمـرٌو بَـيْـن صِـرْمَـتِـه ... عَمْرُو بن سُفيانَ ذُو السَّيفَيْنِ مَغرورُ[2]
يـا آلَ سُـفْـيَـانَ مَـا بَـالِـي وبَـالُـكُـم ... هَـلْ تَـنْـتَـهـونَ وبَـاقِـي الـقَـوْلِ مَـأثُـورُ؟
يـا آلَ سُـفْـيَـانَ مـا بَـالِـي وبَـالُـكُـمُ ... أَنْـتُـمْ كَـبِـيـرٌ وَفَـي الأَحْـلاَم عُـصْـفُـورُ
هَـلاّ نَـهَـيْـتُـمْ أَخـاكُـمْ عـنْ سَـفـاهَـتِـهِ ... إِذْ تَـشْـرَبُـونَ وَغَـاوِي الـخَـمْـرِ مَـذْخُـورُ؟
لا أعْـرِفَـنْ لِـمَّـةً سَـوْدَاءَ دَاجِـيَـةً ... تَـدْعُـو كِـلاباً وَفِـيـهـا الـرُّمْـحُ مَـكْـسُـورُ[3]
لَـنْ تَـسْـبِـقُـونِي وَلَـوْ أَمْـهَـلْـتُـكُـمْ شَـرَفـاً ... عُـقْـبَـى إذا أَبْـطأَ الـفُـحْـجُ الـمَـخَـاصِـيـرُ[4]

(١) زبيد: اسم موضع (معجم البلدان ٣/ ١٣٢).
(٢) الصِّرْمَة: القطيع من الإبل والغنم اختلف في عدده.
(٣) اللمَّة: الشعر المجاوز لشحمة الأذن.
(٤) الفُحجُ: جمع أفحج، وهو الذي تباعد ما بين أوساط ساقيه. والمخاصير: جمع مخصور وهو الذي يشتكي خصره.

وأخبرنا بخبر ابتداء هذه الحروب محمد بن العبَّاس اليَزيديّ قال: قرأت على أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابيّ قال: أغارت بنو عامر بن صَعْصَعَةَ وبنو جُشَمَ بن معاوية على أَسَدٍ وغَطَفانَ، وكان دُرَيد بن الصِّمَّة وعمرو بن سفيان بن ذي اللِّحْية مُتسانِدَين[١]، فدُريد على بني جُشَمَ بن معاوية، وعمرو بن سفيان على بني عامر. فقال عبد الله بن الصِّمَّة لأخيه: إنّي غيرُ مُعْطِيكَ الرِّياسةَ، ولكنّ لي في هذا اليوم شأناً. ثم اشترك عبدُ الله وشَراحِيلُ بن سفيان، فلما أغار القوم أخذ عبدُ الله من نَعَم بني[٢] أَسَدٍ ستّين وأصاب القومُ ما شاءُوا. وأدرك رجل من بني جَذِيمةَ عبد الله بن الصِّمَّة فقال له عبد الله بن الصِّمَّة: ارجع فإني كنتُ شاركتُ شَراحِيلَ بن سُفْيَانَ، فإن استطاع دُرَيد فليأتِه وليأخذ مالي منه: وأقام دُرَيدٌ في أواخر الحيّ فقال له عمرو: ارْتحلْ بالناس قبل أن يأتيك الصُّراخُ، فقال: إني أنتظر أخي عبدَ الله. حتى إذا أطال عليه قال له: إن أخاك قد أدرك فوارسَ من الحُلَيْفِيِّينَ يسوقون بظُعُنِهم[٣]فقتلوه. فانطلَقوا حتى إذا كانوا بحيث يفترقون قال دُرَيد لشَرَاحِيلَ: إن عبد الله أنبأني ولم يَكذِبْني قَطُّ أن له شَرِكةً مع شَرَاحيلَ فأدُّوا إلينا شَرِكتَه. فقالوا له: ما شاركناه قطّ. فقال دريد: ما أنا بتارككم حتى أستحلِفَكم عند ذي الخَلَصَة (وثنٍ من أوثانهم). فأجابوه إلى ذلك وحلَفوا، ثم جاء عبدُ الله بغَنيمةٍ عظيمة فجاءُوه يَنْشدونه الشِّرْك[٤]. فقال لهم دريد: ألم أُحَلِّفكم حين ظننتم أن عبد الله قد قُتل. فقالوا: ما حلَفْنا وجعلوا يُناشِدون عبدَ الله أن يُعطيَهم، فقال: لا، حتى يرضى دريدٌ، فأبى أن يَرْضَى فتوعَّدوه أن يَسْرقوا إبلَه. فقال دريد في ذلك:

[البسيط]

هل مِثْلُ قَلْبِكَ في الأَهْواءِ مَعْذُورُ والحُبُّ بَعْدَ مَشِيبِ المَرْءِ مَغْرُورُ

وذكر الأبياتَ التي تقدّمتْ في الخبر قبل هذا وزاد فيها: [البسيط]

إذا غَلَبْتُمْ صَديقاً تَبْطُشُونَ بِهِ كَما تَهَدَّمَ في الماءِ الجَماهِيرُ[٥]

---

(١) متساندين: متعاضدين.

(٢) النَّعَم: الإبل وتطلق على البقر والغنم.

(٣) الظُعُن: جمع ظَعينة، وهي المرأة في الهَوْدِجِ.

(٤) الشِّرك: المشاركة.

(٥) الجماهير: الرمال الكثيرة المتراكمة.

وَأنتُمْ مَعْشَرٌ في عِرْقِكُمْ شَنَجٌ بُزْخُ الظُّهورِ وَفِي الأَسْتاهِ تأخِيرُ(١)
قَد عَلِمَ القَوْمُ أنّي من سَراتِهِمُ إذا تَقبَّضَ في البَطْنِ المَذاكِيرُ
وَقَدْ أرُوعُ سَوامَ القَوْمِ ضاحِيَةً بِالجُرْدِ يَرْكُضُها الشُّعْثُ المَغَاوِيرُ(٢)
يَحْمِلْنَ كُلَّ هِجَانٍ صارِمٍ ذَكَرٍ وَتَحْتَهُمْ شُزَّبٌ قُبٌّ مَضَامِيرُ(٣)
أوْعَدْتُمُو إبِلِي كَلاَّ سَيَمْنَعُها بَنو غَزِيَّةَ لا مِيلٌ ولا صُورُ(٤)

وأمّا عبد يَغُوث بن الصِّمَّة وخبرُ مقتله فإنه كان ينزل بين أظْهُر بني الصَّادر فقتلوه. قال أبو عُبَيدة في خبره: قتله مُجَمِّع بن مُزَاحِم أخو شَجْنَةَ بن مُزَاحِم وهو من بني يَرْبُوع بن غَيْظ بن مُرَّة. فقال دُرَيد بن الصِّمَّة: [البسيط]

أبْلِغْ نُعَيْماً وأوْفَى إنْ لَقِيتَهُما إنْ لَمْ يَكُنْ كانَ في سَمْعَيْهِمَا صَمَمُ
فما أخِي بأخِي سَوْءٍ فَيَنْقُصَهُ إذا تَقَارَبَ بابْنِ الصَّادِرِ القِسَمُ
وَلَنْ يَزالَ شِهاباً يُستضاءُ بِهِ يَهْدِي المَقَانِبَ ما لم تهْلِكِ الصِّمَمُ(٥)
عارِي الأشاجِعِ(٦) مَعْصُوب بِلِمَّتِهِ أمرُ الزَّعامةِ، في عِرْنِينِهِ شَمَمُ(٧)

قال أبو عُبَيدة: أمّا قوله «أو نَدِيمَي خالدٍ»، فإنه يعني خالدَ بن الصِّمَّة؛ فإن بني الحارث بن كعب غَزَتْ بني جُشَمَ بن معاوية، فخرجوا إليهم فقاتلوهم فقتلتْ بنو الحارث خالدَ بن الصِّمَّة، وإيّاه عَنَى. وقال غيرُ أبي عُبيدةَ: خالد بن الحارث الذي عناه دُرَيْدٌ هو عمُّه خالد بن الحارث أخو الصِّمَّة بن الحارث قتلتْه أحْمَسُ (بطنٌ من شَنُوءة)، وكان دُرَيد بن الصِّمَّة أغار عليهم في قومه فظفِر بهم وأستاق إبِلَهم وأموالَهم وسبَى نساءَهم وملأ يديه وأيديَ أصحابه، ولم يُصَبْ أحدٌ ممّن كان معه إلاّ خالدَ بن الحارث عمَّه، رماه رجل منهم بسهم فقتله؛ فقال دُرَيْد بن الصِّمَّة

(١) العِرَق: الأصل، والشَّنَج: التقلُّص والتشنج، والبزخُ: دخول الظهر وخروج الصدر وهو تشوه في الخلْقة. وأراد أنهم غير أهل للرياسة.
(٢) الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر، والشُّعث: جمع أشعث وهو المتلبّد الشعر، والمغاوير: جمع مغوار، وهو المقاتل الكثير الغارات.
(٣) الهِجَانُ: الكريم الحسيب، والشُزَّبُ: جمع شازب وهو الضامر، اليابس، والقُبُّ: جمع أقبّ. وهو الدقيق الخصر الضامر البطن.
(٤) الصُورُ: جمع أصْوَر، وهو المائل العنق.
(٥) المَقانب: مجموعة الخيل تجتمع للغارة، والصِّمَمُ: جمع صِمّة وهو الرجل الشجاع.
(٦) الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكفّ، أو هي عروق ظاهر الكفّ.
(٧) العرنين: الأنف.

يَرْثيه: [البسيط]

يـا خَـالِـداً خَـالِـد الأَيْـسـارِ وَالـنّـادِي وخَـالِـدَ الـرِّيـحِ إذ هَـبَّـتْ بِـصُـرّادِ[1]
وخـالِـدَ الـقَـوْلِ والـفِـعْـلِ الـمَـعِـيشِ بـهِ وَخَـالِـدَ الـحَـرْبِ إذ عَـضَّـتْ بـأزْرَاد[2]
وخَـالِـدَ الـرَّكْـبِ إذ جَـدَّ الـسِّـفـارُ بِـهِـمْ وخَـالِـدَ الـحَـيِّ لـمّـا ضُـنَّ بـالـزَّادِ[3]

وقال أبو عُبَيدة: قال دُرَيد يَرْثي أخاه خالداً: [الطويل]

أُمَيْـمَ أَجِـدِّي عـافِـيَ الـرُّزءِ وٱجْـشَـمِـي وَشُدِّي على رُزْءٍ ضُلُوعَكِ وأبأسِي[4]
حَـرامٌ عَـلَـيْـهَـا أن تَـرَى فـي حَـيَـاتِـهـا كَـمِثْلِ أبي جَعْدٍ فَعُودِي أو ٱجْلِسِي
أَعَـفَّ وأَجْـدَى نَـائِـلاً لِـعَـشِـيـرَةٍ وأكْـرَمَ مَـخْـلُـودٍ لَـدَى كُـل مَـجْـلِـسِ
وَأَلْـيَـنَ مِـنْـهُ صَـفْـحَـةً لِـعَـشِـيـرَةٍ وخَـيْـراً أَبـا ضَـيْـفٍ وخَـيـراً لِـمَـجْـلِـس
تَـقُـولُ هِـلالٌ خَـارِجٌ مِـنْ غَـمَـامَـةٍ إذا جَـاءَ يَـجْـرِي فـي شَـلِـيـلٍ وقَـوْنَـس[5]
يَـشُـدُّ مُـتُـونَ الأَقْـرَبِـيـن بَـهَـاؤه ويُـخْـبِـثُ نَـفْـسَ الـشَّـانِـىءِ الـمُـتَـعَـبِّـس
وَلَـيْـسَ بِـمِـكْـبـابٍ إذا الـلَّـيـلُ جَـنَّـهُ نَـؤومٍ إذا مـا أدْلَـجُـوا فـي الـمُـعَـرَّس[6]
وَلْـكِـنَّـهُ مِـدْلاجُ لَـيْـلٍ إذا سَـرَى يُـنِـدُّ سُـراهُ كـلَّ هـادٍ مُـمَـلَّـسِ[7]

هذه روايةُ أبي عُبَيدة.

وأخبرني محمد بن الحَسَن بن دُرَيد عن عمِّه عن العبّاس بن هشام عن أبيه أن خالد بن الصِّمَّة قُتل في غارةٍ أغارتْها بنو الحارث بن كَعْب على بني نَصْر بن معاوية في يومٍ يقال له يوم ثيل، فأصابوا ناساً من بني نصر. وبلغ الخبر بني جُشَمَ فلحِقوهم، ورئيس بني جُشَمَ يومئذٍ مالكُ بن حَزْن، فٱستنقَذوا[8] ما كان في أيديهم من غنائم بني نصر، فأصابوا ذا القَرْن الحارثي أسيراً وفقأوا عينَ شهاب بن أبَانَ

---

(١) الصّراد: الغيم الرقيق لا ماء فيه.
(٢) الأزراد: جمع زردة، وهي الحلقة من حلقات الدرع.
(٣) ضُنَّ: بُخِل.
(٤) الرُّزْء: المصيبة.
(٥) الشليل: الغلالة التي تلبس تحت الدّرع، والقونس: أعلى البيضة، والبيضة: الخوذة..
(٦) المكباب: الكثير النظر إلى الأرض، والمُعرَّس: المكان ينزلون من السفر فيه للاستراحة.
(٧) يندّ: ينفر ويشرد، والسُّرى: السير ليلاً. والمملس: الشديد الملاسة، ويظهر أنها محرفة عن عملّس، وهو الشديد القويّ.
(٨) استنقذ: استرجع.

الحارِثيّ بسهم، وقُتل يومئذ خالد بن الصِّمَّة وكان مع مالك بن حَزْن، وأصابت بنو جشم منهم ناساً، وكان رئيسُ بني الحارث بن كعب يومئذ شِهَابَ بن أَبَانَ، ولم يشهَد دُرَيد بن الصِّمَّة ذلك اليوم؛ فلما رجعوا قتلوا ذا القَرْن بخالد بن الصِّمَّة، ولما قُدِّم لتُضرَبَ عُنقُه، صاح بأوْس بن الصِّمَّة، وكان له صديقاً، ولم يكن أوس حاضراً، فلم ينفعه ذلك وقُتل. فلما قَدِم أوْسٌ غضِب وقال: أقتلتم رجلاً ٱستجار باسمي! فقال عَوْف بن معاوية في ذلك: [البسيط]

نُبِّئتُ أَوْساً بَكَى ذا القَرْنِ إذ شَرِبا ... على عُكَاظَ بكاءً غالَ مَجْهُودِي
إنّي حلَفتُ بما جَمَّعْتُ من نَشَبٍ ... وما ذبَحْتُ على أنصابِكَ السُّودِ[1]
لَتَبْكِيَنَّ قَتيلاً منك مُقْتَرِباً ... إنّي رأيتُكَ تَبْكِي للأباعِيدِ

أخبرني هاشم بن محمد الخُزاعي قال: حدَّثنا أبو غسّان دَمَاذ عن أبي عُبَيدة، وأخبرني عبد الله بن مالك النحويّ الضَّرير قال حدّثنا محمد بن حَبيب عن ابن الأعرابي قال: تزوّج دُرَيد بن الصِّمَّة امرأةً فوجدها ثَيِّباً، وكانوا قالوا له إنها بكر، فقام عنها قبل أن يصل إليها، وأخذ سيفَه فأقبل به إليها ليضربها، فتلقَّتْه أمُّها لتدفَعه عنها، فوقَف يدَيها (أي حَزَّهما ولم يقطعهما)، فنظر إليها بعد ذلك وهي معصوبة فقال: [الوافر]

أَقَرَّ العَيْنَ أنْ عَصَبَتْ يَدَيْها ... وما إن تُعْصَبانِ على خِضَابِ
فأبْقاهُنَّ أنَّ لَهُنَّ جَدّاً ... وَواقِيَةً كَواقِيَةِ الكِلابِ

قالوا: يريد أن الكلب يُصيبه الجُرْح فَيلْحَس نفسَه فَيَبْرأ.

[خبر دريد مع عياض]

قال أبو عُبيدة وابن الأعرابي جميعاً في هذه الرواية: أَسَر دُرَيْدُ بن الصِّمَّة عِيَاضاً الثَّعْلَبِيّ أحدَ بني ثَعْلبة بن سعد بن ذُبْيان فأنعم عليه[2]. ثم إن دُرَيداً أتاه بعد ذلك يَسْتثيبه[3]. فقال له: إيتِ رَحْلَكَ حتى أبعثَ إليك بثوابك؛ فانصرف دُرَيْدٌ. فبعث إليه بوَطْبٍ[4] نصفُه لبن ونصفهُ بول. فغضب دريد ولم يلبث إلاّ قليلاً حتى

(١) النَّشَب: المال.
(٢) أنعم عليه: أراد: أطلقه.
(٣) يستثيبه: يطلب ثوابه.
(٤) الوَطْب: سقاء للّبن يتّخذ من جلد.

أغار على بني ثَعْلبةَ، واْستاق إبلَ عياض، وأفْلتَ عياضٌ منه جريحاً؛ فقال دُريد في ذلك من قصيدةٍ: [الطويل]

فَـإنْ تَـنْـجُ يَـدْمَـى عـارِضـاكَ فـإنّـنـا تَـرَكْـنـا بـنـيـكَ لِـلـضِّـبَـاع وَلِـلـرُّخَـم(١)
جَـزيْـتُ عِـيـاضـاً كُـفْـرَهُ وعُـقُـوقَـهُ وَأَخْـرَجْـتُـهُ مِـنَ الـمُـدَفَّـأةِ الـدُّهْـمِ(٢)
ألاَ هَـلْ أتـاهُ مـا رَكِـبْـنـا سَـرَاتَـهُـمْ وَمـا قَـدْ عَـقَـرْنـا مِـنْ صَفِيٍّ وَمِـنْ قَـرْمِ(٣)

أخبرني هاشم بن محمد الخُزَاعي قال حدّثنا دَمَاذ عن أبي عُبيدة قال: هجا دُرَيد بن الصِّمَّة عبدَ الله بن جُدْعانَ التَّيْميّ تَيْم قُرَيْش فقال: [البسيط]

هَـلْ بِـالـحَـوادِثِ والأيّـامِ مِـنْ عَـجَـبِ أمْ بـابْـنِ جُـدْعـانَ عَـبْـدِ الله مِـنْ كَـلَـبِ
إسْتٌ حَـمِـيـتٌ وَهْـي فـي عِـكْـم رَبَّـتِـهِ فـي يَـوْم حَـرٍّ شَـدِيـدِ الـشَّـرِّ والـهَـرَبِ(٤)
إذا لَـقِـيـتَ بَـنِـي حَـرْبٍ وإخْـوَتَـهُـمْ لا يـأكُـلُـونَ عَـطِـينَ الـجِـلْـدِ وَالأُهُـبِ(٥)
لا يَـنْـكُـلُـون ولا تُـشْـوِي رِمـاحُـهُـمْ مِـنَ الـكُـمَـاةِ ذَوِي الأبْـدانِ وَالـجُـبَـبِ(٦)
فـاقـعُـد بَـطِـيـنـاً مَـعَ الأقـوامِ مـا قَـعَـدُوا وإنْ غَـزَوْتَ فـلا تُـبْـعِـدْ مِـنَ الـنَّـصَـبِ(٧)
فَـلَـوْ ثَـقِـفْـتُـكَ وَسْـطَ الـقَـوْمِ تَـرْصُـدُنِـي إذاً تَـلَـبَّـس مِـنْـكَ الـعِـرْضُ بـالـحَـقَـبِ(٨)
ومـا سـمِـعْـتُ بِـصَـقْـرٍ ظَـلَّ يَـرْصُـدُهُ مِـنْ قَـبْـلِ هٰـذا بِـجَـنْـبِ الـمَـرْجِ مِـنْ خَـرَبِ(٩)

قال: فلقيه عبد الله بن جُدْعان بعُكاظ فحيّاه وقال له: هل تعرفني يا دُرَيد؟ قال: لا. قال: فلِمَ هجوتَني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا عبد الله بن جُدْعان. قال:

---

(١) الرُّخَم: جمع رخمة وهي طائر أبقع يشبه النّسر خلقة.
(٢) المدفَّأة: الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم، والدُّهْم: جمع أدهم وهو الأسود.
(٣) الصَّفِيّ: الناقة الغزيرة اللبن، والقَرْم: الفحل.
(٤) الحَمِيت: المتين، والعِكْم: العِدْل يجعل فيه المتاع ويُشَدّ عليه بالعِكام أي الحبل. ويلاحظ أن الشطر الأول من القصيدة غير واضح، ويظهر أن كلمة ربّته: تصحيف.
(٥) العطين: الجلد المدبوغ، والأُهُب: جمع الإهاب: الجِلْد، أو ما لم يُدبغ منه.
(٦) تُشْوِي: تصيب الشَّوَى ولا تقتل. والشوى: الأطراف، والأبدانُ: جمع بدن وهو يقصد هنا الدرع القصيرة، والجُبب: جمع جبة: ويقصد الدرع أيضاً.
(٧) البَطِينُ: الكبير البطن والنصَب: التعب.
(٨) ثقِفه: صادفه، والعِرْضُ: الجسد، والحَقَب: جمع حُقُب وهو شيء تتخذه المرأة تعلّق به الحلي وتشدّه على وسطها، والقصد هنا هو إذا صادفتك وسط القوم لبِست لِبسة النّساء واستخفيت.
(٩) المَرْج: هكذا في الأصل، ولعله المرخ: وهو شجر سريع الوَرْي يُقتدح به. والخَرَب: ذكر الحبارى، والحبارى: طائر أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقاً منه، وجمعه حبارات.

هجوتك لأنك كنتَ أمرأً كريماً، فأحببتُ أن أضع شعري موضعَه. فقال له عبد الله: لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ؛ وكساه وحمله على ناقة برَحْلِها. فقال دُرَيد يمدحه:

[المتقارب]

إلَيْكَ ابْنَ جُدْعَانَ أعْمَلْتُها ... مُخَفَّفَةً لِلسُّرَى وَالنَّصَبْ
فَلا خَفْضَ حَتَّى تُلاقِي أمْرَأً ... جَوادَ الرِّضا وَحَلِيمَ الغَضَبْ
وَجَلْداً إذا الحَرْبُ مَرَّتْ بِهِ ... يُعِينُ عَلَيْها بِجَزْلِ الحَطَبْ[1]
رَحَلْتُ البِلادَ فَما إنْ أرَى ... شَبِيهَ ابنِ جُدْعانَ وَسْطَ العَرَبْ
سِوَى مَلِكٍ شامِخٍ مُلْكُهُ ... لَهُ البَحْرُ يَجْرِي وعَيْنُ الذَّهَبْ

[خطبته للخنساء ورفضها له]

أخبرنا أبو خَلِيفةَ عن محمد بن سَلاَّم موقوفاً عليه لم يتجاوزه إلى غيره، وحدَّثني حَبيبُ بن نَصْر المهلَّبي وأحمد بن عبد العزيز الجوهري قالا: حدّثنا عمر ابن شَبّة عن الأصمعيّ وأبي عُبيدة، وأخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال: حدّثنا أبو غَسّان دَماذَ عن أبي عبيدة، وأخبرني الحَرَمِيّ بن أبي العَلاَء قال: حدَّثنا الزُّبير ابن بَكّار قال: حدثني عليُّ بن المُغيرة عن أبي عُبَيدة، وأخبرني محمد بن خَلَف بن المَرْزُبان قال: حدّثني أبو بكر العامريّ قال: حدّثني ابن نوبة عن أبي عَمْرو الشَّيْباني، وأخبرني عمِّي قال: حدثنا ثَعْلَب عن ابن الأعرابيّ، وقد جمعتُ أخبارَهم على اختلاف ألفاظهم في هذا الموضع، أن دُرَيد بن الصِّمَّة مرّ بالخنْساء بنت عمرو بن الشَّريد، وهي تَهْنَأ[2] بعيراً لها وقد تبدَّلت حتى فرغت منه، ثم نَضَتْ عنها ثيابَها فاغتسلتْ ودُرَيد بن الصِّمَّة يراها وهي لا تشعر به فأعجبتْه؛ فانصرف إلى رَحْله وأنشأ يقول:

[الكامل]

حَيُّوا تُماضِرَ وَارْبَعُوا صَحْبِي ... وَقِفُوا فإنَّ وُقُوفَكُمْ حَسْبِي
أَخُناسُ قَدح هامَ الفُؤادُ بِكُمْ ... وأصابَهُ تَبْلٌ مِنَ الحُبِّ[3]
ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْتُ بِهِ ... كاليَوْمِ طالِيَ أيْنُقٍ جُرْبِ[4]

---

(١) الحطب الجَزْلُ: الحطب الغليظ.
(٢) هنأ البعير: طلاه بالقطران ليشفيه من الجرب.
(٣) التبلُ: السقم من جرّاء الهوى.
(٤) الأينق: جمع ناقة. والجُرْب: جمع جرباء وأجرب.

مُـتَـبَـذِّلاً تَـبْـدُو مَـحَـاسِـنُـهُ يَـضَـعُ الـهِـنَـاءَ مَـوَاضِـعَ الـنُّـقْـبِ[(١)]
مُـتَـحَـسِّـراً نَـضَـحَ الـهِـنَـاءُ بِـهِ نَـضْـحَ الـعَـبِـيـرِ بِـرَيْـطَـةِ الـعَـصْـبِ[(٢)]
فَـسَـلِـيـهِـمُ عَـنِّـي خُـنَـاسُ إذا عَـضَّ الـجَـمِـيـعَ الـخَـطْـبُ ما خَـطْـبِي

ـ قالوا: وتُمَاضِرُ اسمُها. والخنساء لقبٌ غلَب عليها ـ فلما أصبح غدا على أبيها فخطبها إليه. فقال له أبوها: مرحباً بك أبا قُرَّة! إنك لَلْكريمُ لا يُطْعَن في حَسَبِه، والسيِّد لا يُرَدُّ عن حاجته، والفحل لا يُقْرَع أنفُه. ـ وقال أبو عبيدة خاصة مكانَ «لا يُطعن في حسبه» «لا يطعن في عيبه» ـ ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرك لها وهي فاعلةٌ. ثم دخل إليها وقال لها: يا خَنْساء، أتاك فارس هوازنَ وسيِّدُ بني جُشَمَ دُرَيْد بن الصِّمّة يخطُبك وهو من تعلمين، ودُرَيد يسمع قولَهما. فقالت: يا أبتِ، أتُراني تاركة بني عمّي مثل عَوَالِي الرِّماح وناكحةً شيخ بني جُشَم هامَةَ[(٣)] اليوم أو غدٍ! فخرج إليه أبوها فقال: يا أبا قُرَّة قد امتنعتْ، ولعلَّها أن تُجيب فيما بعد. فقال: قد سمعتُ قولَكما، وانصرف. هذه رواية مَنْ ذكرتُ. وقال ابن الكلبي: قالت لأبيها: أَنْظِرْني حتى أُشَاوِرَ نفسي، ثم بعثتْ خَلْفَ دريد وليدةً فقالت لها: انظري دُرَيداً إذا بال، فإن وجدت بولَه قد خرَق الأرضَ ففيه بقيّة، وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا فضلَ فيه. فاتَّبعتْه وليدتُها ثم عادت إليها فقالت: وجدتُ بولَه قد ساح على وجه الأرض، فأمسكتْ. وعاود دُرَيد أباها فعاودها فقالت له هذه المقالة المذكورة؛ ثم أنشأتْ تقول: [الوافر]

أَتَـخْـطُـبُـنِـي، هُـبِـلْـتَ، عَـلَـى دُرَيـدٍ وَقَـدْ أَطْـرَدْتَ سَـيِّـدَ آلِ بَـدْرِ![(٤)]
مَـعَـاذَ اللهِ يَـنْـكِـحُـنِـي حَـبَـرْكَـى يُـقَـالُ أَبُـوهُ مِـنْ جُـشَـمَ بْـنِ بَـكْـرِ[(٥)]
وَلَـوْ أَمْـسَـيْـتُ فـي جُـشَـمٍ هَـدِيّـاً لَـقَـدْ أَمْـسَـيْـتُ فـي دَنَـسٍ وفَـقْـرِ[(٦)]

(١) الهِنَاءُ: القطران، والنُّقَبُ: القطع المتفرقة من الجرب. والواحدة نُقبة، وقيل هي أول ما يبدو من الجرب.
(٢) العَصْب: ويقال العطب: وهو القطن.
(٣) هامة اليوم أو غد: أي يموت اليوم أو غداً.
(٤) أطْردته: أمَرْتَ بطرده.
(٥) الحبركى: الغليظ الطويل الظهر، القصير الرجلين. والأنثى منه حبركاة.
(٦) الهَدِيّ: العروس.

فغضِب دُرَيد من قولها وقال يهجوها: [الوافر]

وَقــاكَ اللهُ يــا بْـنَـةَ آلِ عَـمْـرو ... مِـنَ الـفـتْـيَـانِ أمْـثـالِـي ونَـفْـسِـي
فـلا تَـلِـدي ولا يَـنْـكِـحْـكِ مِـثْـلِـي ... إذا مـا لَـيْـلَـةٌ طَـرَقَـتْ بِـنَـحْـس
لَـقَـدْ عَـلِـمَ الـمَـراضِـعُ فـي جُـمـادَى ... إذا اسـتَـعْـجَـلْـنَ عَـنْ حَـزٍّ بِـنَـهْـسِ[١]
بِـأنّـي لا أبِـيـتُ بِـغَـيْـر لَـحْـم ... وَأَبْـدأُ بـالأرامِـلِ حِـيـنَ أُمْـسِـي
وَأنّـي لا يَـنَـالُ الـحَـيُّ ضَـيْـفِـي ... ولا جَـاري يَـبِـيـتُ خَـبِـيـثَ نـفـسِ[٢]
إذا عُـقَـبُ الـقُـدُورِ تَـكُـنَّ مـالاً ... تَـحُـتُّ حَـلائِـلَ الأَبْـرام عِـرْسِـي[٣]
وَأَصْـفَـرَ مِـنْ قِـداحِ الـنَّـبْـعِ صُـلْـبٍ ... خَـفِـيِّ الـوَسْـم فـي ضَـرْسٍ ولَـمْـسِ[٤]
دَفَـعْـتُ إلـى الـمُـفِـيـضِ إذا اسْـتَـقَـلُّـوا ... عَـلـى الـرُّكُـباتِ مَـطْـلَـعَ كُـلِّ شَـمْـسِ[٥]
فـإنْ أَكْـدَى فَـتـامِـكَـةٌ تُـؤدَّى ... وإنْ أَرْبَـى فـإنّـي غَـيْـرُ نِـكْـسِ[٦]
وَتَـزْعُـمُ أنّـنِـي شَـيْـخٌ كَـبِـيـرٌ ... وَهَـلْ خَـبَّـرْتُـهـا أنّـي ابـنُ أمْـسِ
تُـرِيـدُ شَـرَنْـبَـثَ الـقَـدَمَـيْـنِ شَـثْـنـاً ... يُـبـادِرُ بـالـجَـدَائِـر كُـلَّ كِـرْسِ[٧]
ومـا قَـصُـرَتْ يـدي عـن عُـظْـمِ أمـرٍ ... أَهُـمُّ بـه ولا سَـهْـمِـي بِـنِـكْـسِ
وَمـا أنـا بـالـمُـزَجَّـى حِـيـنَ يَـسْـمُـو ... عَـظِـيـمٌ فـي الأمـورِ ولا بِـوَهْـسِ[٨]

قال: فقيل للخَنْساء: ألاَ تُجِيبِينَه؟ فقالت: لا أَجْمَع عليه أن أرُدَّه وأَهْجُوَه.

[نهاية دريد]

أخبرني هاشم بن محمد قال: حدّثنا دَمَاذ عن أبي عُبيدة قال: لما أَسَنَّ دُرَيد جعل له قومه بيتاً مفرداً عن البيوت، ووكّلوا به أَمَةً تخدُمه، فكانت إذا أرادت أن تُبْعِدَ في حاجة قَيَّدَتْه بقيد الفرس. فدخل إليه رجل من قومه فقال له:

(١) الحزّ: القطع، والنَهس: أخذ اللحم بمقدّم الأسنان.
(٢) ورد الشطر الأول في رواية الأمالي للقالي: «وأنّي لا يهرّ الضيف كلبي».
(٣) عقبة القدر: ما التزق بأسفلها من تابل وغيره، وتحتُّ: تعجّل، والأبْرام: اللئام، والواحد: برم والبرم في الأصل الذي لا يدخل مع القوم في الميسر.
(٤) ضَرْس السهم: عَجْمَه.
(٥) المفيض: الضارب بالقداح.
(٦) أكدى: أخفق، والتامكُ: الناقة العظيمة السّنام، والنّكس: الرجل الضعيف الذي لا خير فيه.
(٧) الشَّرَنْبَث: الغليظ، والجدائِر: جمع جديرة وهي الحظيرة، والكرس: المتراكم بعضه فوق بعض.
(٨) المزجى من القوم: المزلج وهو الملصق بالقوم وليس منهم، والبخيل. والوهس: الذليل.

كيف أنت يا دُرَيد؟ فأنشأ يقول: [البسيط]

أَصْبَحْتُ أَقْذِفُ أَهْدافَ المَنُونِ كما يَرْمِي الدَّرِيئَةَ أَدْنَى فُوقَةَ الوَتَرِ(١)
في مَنْصَفٍ مِنْ مَدَى تِسعِينَ مِنْ مائةٍ كَرَمْيَةِ الكاعِبِ العَذْراءِ بالحَجَرِ(٢)
في مَنْزِلٍ نازِحٍ م الحَيِّ مُنْتَبَذٍ كمَرْبَطِ العَيْرِ لا أُدْعَى إلى خَبَرِ
كأَنَّنِي خَرَبٌ قُصَّتْ قَوادِمُهُ أو جُثَّةٌ مِنْ بُغَاثٍ في يَدَيْ خَصِرِ
يُمْضُونَ أَمْرَهُم دُوني وما فَقَدُوا مِنِّي عَزِيمَةَ أَمْرٍ ما خَلا كِبَرِي
وَنَوْمَةُ لَسْتُ أَقْضِيها وَإِنْ مَتُعَتْ وما مَضَى قَبْلُ مِنْ شَأْوِي وَمِنْ عُمُرِي(٣)
وأَنَّنِي رَابَنِي قَيْدٌ حُبِسْتُ بهِ وَقَدْ أَكُونُ وما يُمْشَى على أَثَرِي
إِنَّ السِّنِينَ إذا قَرَّبْنَ من مائةٍ لَوَيْنَ مِرَّةَ أَحْوالٍ على مِرَرِ(٤)

أخبرني هاشم بن محمد قال: حدّثنا دَمَاذ عن أبي عُبَيدة قال: قالت امرأة دريد له: قد أَسْنَنْتَ وضعُف جسمك وقُتل أهلك وفَنِيَ شبابك، ولا مال لك ولا عُدَّة، فعلى أيّ شيء تعوّل إن طال بك العمر أو على أي شيء تُخَلِّف أهلَك إن قُتِلتَ؟ فقال دُرَيد:

صوت

[الوافر]

أعاذِلُ إِنَّما أَفْنَى شَبابِي رُكوبي في الصَّرِيخِ إلى المُنادِي
مَعَ الفِتْيَانِ حَتَّى كَلَّ جِسْمِي وَأَقْرَحَ عاتِقِي حَمْلُ النِّجادِ
أعاذلُ إِنَّهُ مَالٌ طَرِيفٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن مالٍ تِلادِ(٥)
أعاذِلُ عُدَّتِي بَدَنِي وَرُمْحِي وَكُلُّ مُقَلَّصٍ شَكِسِ القِيادِ(٦)
وَيَبْقَى بَعْدَ حِلْمِ القَوْمِ حِلْمِي وَيَفْنَى قَبْلَ زادِ القَوْمِ زادِي

هذا الشعر رواه أبو عُبيدة لدُرَيد، وغيرُه يرويه لعمرو بن معد يكرب، وقول

---

(١) الدّريئة: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها، وهي أيضاً كل ما استتر به من الصيد. والفوق: مَشَق رأس السهم حيث يقع الوتر.
(٢) منصف الشيء: وسطه.
(٣) متعت: طابت.
(٤) المِرّة: طاقة الحبل.
(٥) الطريف: المال المستحدث. والتلاد والتليد: المال الموروث.
(٦) البدن: هنا الدرع، والمقلّص: الطويل القوائم المنضم البطن. وشكس القياد: صعب القياد.

أبي عُبيدة أصحّ. لابن محرز في هذه الأبيات ثاني ثقيلٍ بالخِنْصر في مجرى البنصر عن إسحاق. وذكر عمرو بن بانة أن لابن سُرَيج فيها ثاني ثقيل بالبنصر. وخلط المغنّون بهذا الشعر قول عمرو بن معد يكرب في هذين اللحنين: [الوافر]

أريـدُ حَـيـاتَـهُ وَيُـريـدُ قَـتْـلِـي عَـذِيـرَكَ مِـنْ خَـلِـيـلِـكَ مِـنْ مُـرادِ
وَلَـوْ لاقَـيْـتَـنِـي وَمَـعِـي سِـلاحِـي تَـكَـشَّـفَ شَـحْـمُ قَـلْـبِـكَ عَـنْ سَـوادِ

وقال أبو عُبيدةَ فيما رويناه عن دَمَاذ عنه: قتلتْ بنو يَرْبُوع الصِّمَّةَ أبا دُرَيد غَدْراً، وأسروا ابن عمٍّ له، فغزاهم دُرَيدُ ببني نصر فأوقع ببني يَرْبُوع وبني سعدٍ جميعاً، فقتَل فيهم. وكان فيمن قُتل عَمّار بن كَعْب؛ وقال فيهم: [الوافر]

دَعَـوْتُ الـحَـيَّ نَـصْـراً فـاسْـتَـهَـلُّـوا بِـشُـبَّـانٍ ذَوِي كَـرَمٍ وَشِـيـبِ
عَـلَـى جُـرْدٍ كـأمْـثـالِ الـسَّـعَـالِـي وَرَجْـلٍ مِـثْـلِ أهْـمِـيَـةِ الـكَـثِـيـبِ(١)
فَـمـا جَـبُـنُـوا وَلٰـكِـنّـا نَـصَـبْـنـا صُـدُورَ الـشَّـرعَـبِـيَّـةِ لِـلْـقُـلُـوبِ(٢)
فَـكَـمْ غـادَرْنَ مِـنْ كَـابٍ صَـرِيـعٍ يَـمُـجُّ نَـجِـيـعَ جـائِـفَـةٍ ذَنُـوبِ(٣)
وَتِـلْـكُـمْ عـادَةٌ لِـبَـنِـي رِبـابٍ إذا مـا كـانَ مَـوْتٌ مِـنْ قَـرِيـبِ
فَـأجْـلَـوْا وَالـسَّـوامُ لَـنـا مُـبَـاحٌ وَكُـلُّ كَـرِيـمَـةٍ خَـوْدٍ عَـرُوبِ(٤)
وَقَـدْ تُـرِكَ ابـنُ كَـعْـبٍ فـي مَـكَـرٍّ خَـبِـيـسـاً بَـيْـنَ ضِـبْـعَـانٍ وَذِيـبِ

قال أبو عبيدة: وكان الصِّمة أبو دريد شاعراً، وهو الذي يقول في حربِ الفِجَار التي كانت بينهم وبين قُرَيْش: [المتقارب]

لاقَـتْ قُـرَيْـشٌ غَـداةَ الـعَـقِـيـ ـقِ أمْـراً لَـهـا وجَـدْتَـهُ وَبِـيـلا
وَجِـئْـنـا إلَـيْـهِـمْ كَـمَـوْجِ الأَتِـيِّ يَـعْـلُـو الـنِّـجـادَ وَيَـمْـلا الـمَـسِـيـلا(٥)
وَأعْـدَدْتُ لِـلْـحَـرْبِ خَـيْـفَـانَـةً وَرُمْـحـاً طَـوِيـلاً وَسَـيْـفـاً صَـقِـيـلا(٦)
وَمُـحْـكَـمَـةً مِـنْ دُرُوعِ الـقُـيُـو نِ تَـسْـمَـعُ لِـلـسَّـيْـفِ فـيـهـا صَـلِـيـلا

---

(١) السعالي: الغيلان، واحدتها سعلاة، والكثيب: التلّ من الرمل.
(٢) الشرعبيّة: الطويلة، والمقصود بها هنا الرماح.
(٣) الجائفة: جمع جوائف: وهي الطعنة التي تبلغ الجوف. والذنوب: أي طويلة الشر والأذى.
(٤) السّوام: الإبل الراعية، الخود: المرأة الشابة، والعرُوب: المرأة الضاحكة.
(٥) الأتيّ: السيل العاتي.
(٦) الخيفانة: الفرس السريعة. والخيفانة في الأصل: الجرادة، شبهت الفرس بها في السرعة والخفة.

قال: وكان أخوه مالك بن الصِّمَّة شاعراً؛ وهو القائل يَرْثي أخاه خالداً:

[الكامل]

أَبَـنِـي غَـزِيَّـةَ إنَّ شِـلْـواً مـاجِـداً وَسْطَ البُيوت السُّود مَدْفَعَ كَرْكَرِ[1]

لا تَسْقِنـي بِيَدَيْكَ إنْ لَـمْ أَلْتَمِسْ بِالخَيْلِ بَيْنَ هبولةٍ فالقَرْقَرِ[2]

أخبرني هاشم بن محمد قال: حدثنا أبو غَسَّان دَمَاذ عن أبي عُبيدة قال: تحالف دُرَيد بن الصِّمَّة ومعاويةُ بن عمرو بن الشَّرِيد وتواثقا إن هلَك أحدهما أن يَرْثِيَه الباقي بعده، وإن قُتل أنْ يطلب بثأره. فقُتل معاوية بن عمرو بن الشَّريد، قتله هاشم بن حَرْمَلَةَ بن الأشْعَر المُرِّيّ. فرثاه دُريد بقصيدته التي أولها: [الوافر]

ألاَ هَـبَّـتْ تَـلُـومُ بِـغَـيْـرِ قَـدْرِ وَقَـدْ أحْـفَـظْـتِـنِـي وَدَخَـلْـتِ سِـتْـرِي

وَإلاّ تَـتْـرُكِـي لَـوْمِـي سَـفَـاهـاً تَـلُـمْـكِ عَـلَـيْـهِ نَـفْـسُـكِ غَـيْـرَ عَـصْـرِ

وفيها يقول:

فَـإنَّ الـرُّزْءَ يَـوْمَ وَقَـفْـتُ أدْعُـو فَـلَـمْ أُسْـمَـعْ مُـعـاوِيَـةَ بـن عـمْـرِو

وَلَـوْ أسْـمَـعْـتُـهُ لأتـاكَ يَـسْـعَـى حَـثِـيـثَ الـسَّـعْـي أو لأتـاكَ يَـجْـرِي

بِـشِـكَّـةِ حـازِمٍ لا غَـمْـزَ فِـيـهِ إذا لَـبِـسَ الـكُـمَـاةُ جُـلُـودَ نِـمْـرِ[3]

عَـرَفْـتُ مـكـانَـهُ فَـعَـطَـفْـتُ زَوْراً وَأيْـنَ مَـكـانُ زَوْرٍ يـابْـنَ بَـكْـرِ[4]

عَـلَـى إرَمٍ وَأحْـجـارٍ ثِـقَـالٍ وأغْـصـانٍ مِـنَ الـسَّـلَـمَـاتِ سُـمْـرِ[5]

وَبُـنْـيَـانُ الـقُـبُـورِ أتَـى عَـلَـيْـهـا طَـوَالُ الـدَّهْـرِ شَـهْـراً بَـعْـدَ شَـهْـرِ

أخبرني عبد الله بن مالك النحويّ قال: حدّثنا محمد بن حَبِيبَ عن ابن الأعرابي قال: وقف عارضٌ الجُشمِي على دُرَيد وقد خَرِف وهو عُرْيانٌ وهو يكوِّم

(١) الشِلو: الجسد، وكركر: انظره في (معجم البلدان ٤/٤٥٣).

(٢) هبولة: يتبين أنها اسم موضع، ولكني لم أجده في معجم البلدان. وانظر قرقر في (معجم البلدان ٤/٣٢٦).

(٣) الشّكّة: السلاح. والكُماة: جمع كميّ: وهو الفارس الشاكي السلاح.

(٤) الزور: اسم الجمل الذي يملكه.

(٥) الإرَم: حجارة تنصب في المفازة يُهتَدَى بها. والسّلماتِ: جنس شجر شائك يستعمل ورقه في الدبغ.

كُوَمَ بَطْحاءَ[١] بين رجليه يلعب بذلك؛ فجعل عارضٌ يتعجّب مما صار إليه دُرَيد. فرفع رأسه دُرَيد إليه وقال: [مجزوء الرجز]

كَـأَنَّـنِـي رَأسُ حَـضَـنْ ... فـي يَـوْمِ غَـيْـمٍ ودُجَـنْ[٢]
يـا لَـيْـتَـنِـي عَـهْـدَ زَمَـنْ ... أَنْـفُـضُ رَأْسِـي وذَقَـنْ
كـأنَّـنِـي فَـخْـلُ حُـصُـنْ ... أُرْسِـلَ فـي حَـبْـلٍ عُـنُـنْ[٣]
أُرْسِـلَ كـالـظَّـبْـيِ الأَرِنْ ... أَلْـصَـقَ أُذْنـاً بـأُذُنْ[٤]

قال: ثم سقَط؛ فقال له عارضٌ: انهض دُرَيدُ! فقال: [الرجز]

لا نَـهْـضَ فـي مِـثْـلِ زَمـانِـي الأَوَّلِ ... مُـحَـنَّـبَ الـسَّـاقِ شَـدِيـدَ الأَعْـصَـلِ[٥]
ضَـخْـمَ الـكَـرَادِيـسِ خَـمِـيصَ الأَشْـكَـلِ ... ذِي حَـنْـجَـرٍ رَحْـبٍ وَصُـلْـبٍ أَعْـدَلِ[٦]

حدّثنا محمد بن جَرير الطَّبري قال: حدّثنا محمد بن حُمَيْد قال: حدثنا سَلَمةُ ابن الفَضْل عن محمد بن إسحاق عن الزُّهريّ عن عُبَيْد الله بن عبد الله قال: لما فتح رسول اللهﷺ مكة أقام بها خمس عشرة ليلةً يَقْصُر[٧]، وكان فتحُها في عشر ليالٍ بَقِينَ من شهر رمضان. قال ابن إسحاق: وحدّثني عمرو بن شُعَيْب عن أبيه عن جدّه قال: لمّا سمعتْ به هَوَازنُ جَمَعها مالك بن عَوْف النَّصري، فٱجتعت إليه ثقيف مع هوازنَ، ولم يجتمع إليه من قَيْس إلا هوازنُ وناسٌ قليلٌ من بني هِلال، وغابت عنها كَعْبٌ وكلاَب، فجمعت نَصْرٌ وجُشَمُ وسَعْدٌ وبنو بكر وثَقيف وٱحتشدتْ، وفي بني جُشَم دُرَيدُ بن الصِّمَّة شيخٌ كبيرٌ فانٍ ليس فيه شيء إلا التيمُّنَ برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرِّباً، وفي ثَقيف في الأحلاف قاربُ بن الأسود بن مسعود، وفي بني مالك ذو الخمار سُبَيْع بن الحارث، وجمَاعُ أمر الناس إلى مالك بن عوف. فلمّا أجمع مالكُ المسيرَ حَطَّ مع الناس أموالَهم وأبناءهم ونساءهم.

---

(١) بَطْحاءَ: دقاق الحصى وجمعها بطائح.
(٢) حَضَن: جبل بأعلى نجد (معجم البلدان ٢/ ٢٧١). والدجن: جمع دجنة الغيم المطبق المظلم.
(٣) العُنُن: الحظيرة من الخشب.
(٤) الأَرِنْ: النشيط.
(٥) التحنيب: الإحديداب وهو ما يوصف صاحبه بالشدّة. والأعصل: المعوج الشديد، ومنه: نابٌ أعصل.
(٦) الكراديس: جمع كردوس، كل عظمين التقيا في مفصل. والشاكلة: الخاصرة.
(٧) قصر الصلاة: أن يصلي ركعتين من أصل الأربع ركعات.

فلمَّا نزلوا بأَوطاس[(١)] اَجتمع إليه الناسُ وفيهم دُرَيد بن الصِّمَّة في شِجارٍ له[(٢)] يُقاد به. فقال لهم دريد: بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجالُ الخِيل، ليس بالحَزْن الضَّرِس[(٣)] ولا السَّهْل الدَّهِس[(٤)]. ما لي أسمع رُغاءَ الإبل ونَهِيقَ الحمير وبكاءَ الصغير وثُغاءَ الشاء؟! قالوا: ساق مالكُ بن عَوْف مع الناس أبناءَهم ونساءَهم وأموالَهم. فقال: أين مالكٌ؟ فدُعي له به. فقال له: يا مالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنّ هذا اليوم كائن له ما بعدَه من الأيام! ما لي أسمع رُغاء البعير وَنهِيقَ الحمير وبكاء الصِّبْيان وثُغاء الشاء؟ قال: سُقْتُ مع الناس نساءَهم وأبناءَهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أن أجعل مع كلّ رجل أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. قال: فانقضّ به ووبّخه ولامه، ثم قال: راعي ضأنٍ[(٥)] والله (أي أحمق)! وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيء! إنها إن كانت لك لم يَنْفعك إلاّ رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك. ثم قال: ما فعلتْ كَعْبٌ وكِلاب؟ قال: لم يَشْهَدْها أحدٌ منهم. قال: غاب الحَدّ والجِدّ! لو كان يومَ عَلاَءٍ ورفعة لم تَغِبْ عنه كَعْبٌ وكِلاب! ولَوَ دِدْتُ أنكم فعلتم مثلَ ما فعلوا. فمَنْ شَهِدها منهم؟ قالوا: بنو عمرو بن عامر وبنو عوف بن عامر. قال: ذانك الجَذَعانِ[(٦)] من عامرٍ لا ينفعان ولا يَضُرَّان. ثم قال: يا مالك إنك لم تَصْنَع بتقديم البَيْضة[(٧)] بَيْضةِ هَوازنَ إلى نُحور الخيل شيئاً. إرْفعهم إلى أعلى بلادهم وعَلْياءِ قومهم ثم ألْقَ القومَ بالرجال على مُتونِ[(٨)] الخيل، فإن كانت لك لَحِق بك مَنْ وراءَك، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزت أهلك ومالك ولم تفضح في حريمك. قال: لا والله ما أفعل ذلك أبداً! إنك قد خَرِفتَ وخَرِفَ رأْيُك وعلمُك. والله لتُطِيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتَّكِئَنّ على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهري ـ فنفِس على دريد أن يكون له في ذلك اليوم ذكرٌ ورأيٌ ـ فقالوا

(١) أوطاس: وادٍ في ديار هوازن (معجم البلدان ١/ ٢٨١).
(٢) الشِجار: مركب أصغر من الهودج مكشوف الرأس.
(٣) الضَّرِس: الصعب.
(٤) الدَّهس: السهل اللين.
(٥) الضأن: الغنم.
(٦) الجذعُ: الصغير السنّ.
(٧) بيضة القوم: أصلهم ومجتمعهم.
(٨) مُتون الخيل: ظهورها.

له: أَطَعْناكَ وخالفنا دُرَيداً. فقال دريد: هذا يوم لم أشْهَدْه ولم أغِبْ عنه. ثم قال: **[مشطور الرجز]**

يــا لَـيْـتَـنـي فِـيـهـا جَـذَعْ   أَخُـبُّ فِـيـهـا وأَضَـعْ
أَقُـودُ وَطْـفـاءَ الـزَّمَـعْ   كـأنَّـهـا شـاةٌ صَـدَعْ(١)

قال: فلما لَقِيهم رسول اللهﷺ أنهزم المشركون فأتَوا الطائف ومعهم مالك ابن عَوْف، وعَسْكَر بعضُهم بأَوْطَاس وتوجَّه بعضُهم نحوَ نَخْلةَ(٢)، وتبعتْ خيلُ رسول اللهﷺ مَنْ سَلَك نَخلَةَ، فأدرك رَبيعةُ بن رُفَيْع السُّلَمِيّ أحدُ بني يَرْبُوعَ بن سَمَّال بن عَوْف دُرَيْدَ بن الصِّمَّة فأخذ بِخطَام جمله وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه كان في شِجَارٍ له، فأناخ به فإذا هو برجلٍ شيخ كبير ولم يعرفه الغلامُ. فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتُلُك. قال: ومن أنتَ؟ قال: أنا رَبيعة بن رُفَيْع السُّلَميّ. فأنشأ دُرَيد يقول: **[المتقارب]**

وَيْـحَ ابـن أكْـمَـةَ مـاذا يُـريـدُ   مِـنَ الـمُـرْعَـشِ الـذاهِـب الأَدْرَدِ
فَـأُقْـسِـمُ لَـوْ أنَّ بِـي قُـوَّةً   لَـوَلَّـتْ فَـرائِـصُـهُ تُـرْعَـدُ
وَيـا لَـهْـفَ نـفْـسِـيَ ألاّ تَـكُـونَ   مَـعِـي قُـوَّةُ الـشَّـارِخ الأمْـرَدِ(٣)

ثم ضربه السُلَميُّ بسيفه فلم يُغْن شيئاً. فقال له: بئس ما سلَّحتْك أُمُّكَ! خذ سيفي هذا من مَؤْخَر رحلي في القِراب فأضرِبْ به وأرْفَع عن العظام واخْفضْ عن الدِّماغ، فإنِّي كذلك كنتُ أفعل بالرجال، ثم إذا أتيت أُمَّكَ فأخْبِرْهَا أنك قتلتَ دُرَيْدَ ابن الصِّمَّة، فرُبَّ يوم قد منَعتُ فيه نساءك!. فزعمتْ بنو سُلَيم أن ربيعة قال: لمّا ضربتُه بالسيف سقَط فأنكشف، فإذا عِجَانُه(٤) وبطن فخذيه مثلُ القراطيس من ركوب الخيل أعْرَاءً(٥). فلمّا رجع رَبيعةُ إلى أمّه أخبرها بقتله إياه؛ فقالت له: لقد أعْتَق قتيلُك ثلاثاً من أمهاتك. وبعث رسول اللهﷺ في آثار من توجّه قبلَ أَوْطَاس أبا عامر الأشعريّ ابنَ عمّ أبي موسى الأشعريّ، فهزمهم الله جلّ وعزّ وفتح عليه.

---

(١) الوَطْف: كثرة شعر الحاجبين والأشفار.
(٢) نخلة: اسم واد (انظر معجم البلدان ٥/ ٢٧٧).
(٣) الشارخ: الشاب.
(٤) العِجَان: الإست.
(٥) أعراء: جمع عري. والفرس العري: غير المسرج.

فيزعُمون أنّ سَلَمَة بن دُرَيد بن الصِّمَّة رماه بسهم فأصاب رُكْبَته فقتله(يعني أبا عامر).

فقالت عَمْرَةُ بنتُ دُرَيْد تَرثيه: [الوافر]

جَـزَى عَـنّـا الإلَـهُ بَـنِـي سُـلَـيْـم ... وَأَعْـقَـبَـهُـمْ بِـمَـا فَـعَـلُـوا عَـقَـاقِ
وَأَسْـقَـانـا إذا سِـرْنـا إلَـيْـهِـمْ ... دمـاءَ خِـيـارِهـم يَـوْمَ الـتَّـلاقِـي
فَـرُبَّ مُـنَـوِّهٍ بِـك مِـنْ سُـلَـيْـم ... أُجِـيـبَ وَقَـدْ دَعـاكَ بِـلا رِمَـاقِ[1]
وَرُبَّ كَـرِيـمَـةٍ أعْـتَـقْـتَ مِـنْـهُـمْ ... وأُخْـرَى قَـدْ فـكـكـتَ مِـنَ الـوثَـاق

وقالت عَمْرةُ ترثيه أيضاً: [البسيط]

قـالـوا قَـتَـلْـنـا دُرَيْـداً قُـلْـتُ قَـدْ صَـدقـوا ... وَظَـلَّ دَمْـعِـي عـلـى الـخَـدَّيـنِ يَـبْـتَـدِرُ
لَـوْلا الَّـذِي قَـهَـرَ الأَقْـوامَ كُـلَّـهُـمُ ... رَأتْ سُـلَـيْـمٌ وَكَـعْـبٌ كَـيْـفَ تـأتَـمِـرُ
إذاً لَـصَـبَّـحَـهُـمْ غِـبّـاً وَظـاهِـرَةً ... حَـيْـثُ اسْـتَـقَـرَّ نـواهُـمْ جَـحْـفَـلٌ ذَفِـرُ[2]

[شعره عندما استُحِثَّ على الأخذ بثأر أخيه]

ونسختُ من كتاب مترجَم بأنه نُسخ من نسخة عمرو بن أبي عمرو الشّيباني يأثِرُه عن أبيه قال: قال محمد بنُ السّائب الكلبي: كان دُرَيْد بن الصِّمَّة يوماً يشرَب مع نَفَرٍ من قومه، فقالوا له: يا أبا ذُفَافَة ـ وكان يُكنى بأبي ذُفَافةَ وبأبي قُرَّة ـ أينجو بنو الحارث بن كَعْبٍ منك وقد قتَلوا أخاك خالداً!؟ فقال لهم: إنّ القوم جَمْرةُ مَذْحِجٍ[3]، وهم أكفاءُ جُشَمَ، ولا يَجْمُل بي هجاؤهم. فأحْفظُوه بكثرة القول وأغضبوه، فقال: [الرمل]

يـا بَـنِـي الـحـارِثِ أنْـتُـم مَـعْـشَـرٌ ... زَنْـدُكُـمْ وارٍ وفـي الـحَـرْبِ بُـهَـمْ[4]
وَلَـكُـمْ خَـيْـلٌ عَـلَـيْـهـا فِـتْـيَـةٌ ... كـأُسُـودِ الـغـابِ يَـحْـمِـيـنَ الأَجَـمْ
لَـيْـسَ فـي الأرضِ قَـبِـيـلٌ مِـثْـلُـكُـمْ ... حِـيـنَ يُـرْفَـضُ الـعِـدَا غَـيْـرَ جُـشَـمْ

---

(١) الرِّماق: العيش القليل، الذي يمسك الرمق.

(٢) غِبّ الماشية: أن تشرب يوماً ويوماً لا تشرب. والظاهرة من الورد: أن ترد الإبل كل يوم نصف النهار. والذّفَر: الرائحة النتنة.

(٣) الجمرة: كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم ولا يحالفون أحداً ولا ينضمون إلى أحد.

(٤) البُهَم: جمع بهمة: وهو الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

لَسْتُ لِلصِّمَّةِ إنْ لَمْ آتِكُمْ بِالخَنَاذِيذِ تَبَارَى في اللُّجُمْ[١]
فَتَقَرُّ العَيْنُ مِنْكُمْ مَرَّةً بانبِعاثِ الحُرِّ نَوْحاً تَلْتَدِمْ[٢]
وَتَرَى نَجْرانُ مِنْكُمْ بَلْقَعاً غَيْرَ شَمْطَاءَ وَطِفْلٍ قد يَتِمْ
فَانْظُروها كالسَّعالِي شُزَّباً قَبْلَ رأسِ الحَوْلِ إن لَمْ أُخْتَرَمْ[٣]

قال: فَنُمي قولُه إلى عبد الله بن عبد المَدَان، فقال يُجيبه: [البسيط]

نُبِّئْتُ أنَّ دُرَيداً ظَلَّ مُعْتَرِضاً يُهْدِي الوعِيدَ إلى نَجْرانَ مِنْ حَضَنِ
كالكَلْبِ يَعْوِي إلى بَيْداءَ مُقْفِرَةٍ مَنْ ذا يُوَاعِدُنا بالحَرْبِ لم يَحِنِ[٤]
إنْ تَلْقَ حَيَّ بَنِي الدَّيَّانِ تَلْقَهُمُ شُمَّ الأنُوفِ إلَيْهِمْ عِزَّةُ اليَمَنِ[٥]
ما كان في النَّاسِ للدَّيَّانِ مِنْ شَبَهٍ إلاّ رُعَيْنٌ وإلاّ آلُ ذي يَزَنِ
أَغْمِضْ جُفُونَكَ عَمَّا لستَ نائِلَهُ نَحْنُ الَّذِينَ سَبَقْنا النَّاسَ بالدِّمَنِ
نَحْنُ الذينَ تَرَكْنا خالِداً عَطِباً وَسْطَ العَجَاجِ كأنَّ المَرْءَ لم يَكُنِ
إنْ تَهْجُ نَهْجُنا أَنْجاداً شَرَامِحَةً بِيضَ الوُجوهِ مَرَافِيداً على الزَّمَنِ[٦]
أَوْرَى زِيادٌ لَنَا زَنْداً وَوَالِدُنا عَبْدُ المَدَانِ وأَوْرَى زَنْدَهُ قَطَنُ[٧]

أخبرني محمد بن خَلَف وَكِيع قال: حدّثنا أبو بكر العامريّ عن ابن الأعرابيّ قال: أغار دُرَيد بن الصِّمَّة في نفر من أصحابه، فمرّوا بأَسْماءَ بن زِنْباع الحارثيّ ومعه ظَعِينته[٨] زينب، فأحاطوا به ليَنْتزعوها من يده، فقاتلهم دونهَا فقتَل منهم وجرَح، ثم اختلف هو ودُرَيدٌ طعنتين: فطعنه دُرَيدٌ فأخطأه، وطعنه أسماءُ فأصاب عينَه، وانهزم دُرَيدٌ ولَحِق بأصحابه؛ فقال دريدٌ في ذلك. [البسيط]

شَلَّتْ يَمِينِي ولا أشْرِبْ مُعَتَّقَةً إذْ أَخْطأ المَوْتُ أَسْمَاءَ بْنَ زِنْباعِ

قال: وهي قصيدة.

(١) الخناذيذ: جياد الخيل واحدها: خِنْذيذ.
(٢) تَلتدِم: تضرب صدرها ووجهها وهي تنوح على ميت.
(٣) السَّعالي: جمع سعلاة وهي أنثى الغول. والشُزَّب: جمع شازِب: وهو المتغير اللون الضامر.
(٤) لم يَحِنْ: لم يهلك.
(٥) عِزَّة: وردت في الأصول «غرة» ويظهر أن كلمة غرة: تصحيف.
(٦) الشرامحة: جمع شرمح: وهو الطويل والقوي.
(٧) يوجد إقواء في هذا البيت من الشعر.
(٨) الظعينة: المرأة في الهودج.

ونسختُ من كتاب أبي عمرو الشيبانيّ الذي ذكرتُه يأثُره عن محمد بن السّائب الكَلْبي قال: جاور رجلٌ من ثُمالةَ عبد الله بن الصمَّة، فهلكَ عبدُ الله وأقام الرجل في جوار دُرَيدٌ. وأغار أَنَسُ بن مُدْرِكَةَ الخَثْعَميّ على بني جُشَمَ، فأصاب مالَ الثُّماليّ وأصاب ناساً من ثُمالة كانوا جيراناً لدُريد؛ فكفَّ دُرَيدٌ عن طلب القوم وشُغِل بحرب من يَليه، وقال لجاره ذلك: أمْهِلْني عامي هذا. فقال الثمالي: قد أمهلتُك عامين. وخرج دُرَيدٌ ليلةً لحاجته وقد أبطأ في أمر الثُّماليّ، فسمعه يقول:

[الطويل]

كَسَاكَ دُرَيدُ الدَّهْرَ ثَوْبَ خَزايَةٍ ... وَجدَّعَكَ الحامِي حَقِيقَتَهُ أَنَسْ
دَع الخَيْلَ وَالسُّمْرَ الطِّوالَ لِخَثْعَمٍ ... فما أنتَ وَالرُّمْحُ الطَّويلُ وما الفَرَسْ
وما أنتَ والغَزْوُ المُتابَعُ لِلْعِدا ... وَهَمُّكَ سَوْقُ العَوْدِ والدَّلْوُ والمَرَسْ(١)
فَلَوْ كانَ عَبْدُ الله حَيّاً لَرَدَّها ... وما أصْبَحَتْ إبلي بنَجْرانَ تُحْتَبسْ
ولا أصْبَحَتْ عِرْسِي بأشْقَى مَعِيشَةٍ ... وَشَيْخٌ كَبيرٌ من ثُمالَة في تَعَسْ
يُراعِي نُجُومَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ ... إلى الصُّبْحِ مَحْزوناً يُطاوِلُهُ النَّفَسْ
كُنْتُ وَعَبْدُ الله حَيٌّ وَما أرى ... أبالي من الأعداءِ مَنْ قامَ أو جَلَسْ
فأصْبَحْتُ مَهْضوماً حَزِيناً لِفَقْدِهِ ... وَهَلْ مِنْ نَكيرٍ بَعْدَ حَوْلَيْنِ تَلْتَمِسْ

قال: فضاق دُرَيْدٌ ذَرْعاً بقوله، وشاور أُولي الرأي من قومه؛ فقالوا له: ٱرحَلْ إلى يزيد بن عبد المَدَان؛ فإنّ أنساً قد خلَّف المالَ والعيالَ بنَجْرَانَ للحرب التي وقعتْ بين خَثْعَم، وإن يزيد يردُّها عليك. فقال دُرَيْد: بل أُقدِّم إليه قبل ذلك مِدْحةً ثم أنظر ما مَوْقعي من الرجل، فقال هذه القصيدة وبعث بها إلى يزيد: [الوافر]

بَني الدَّيَّانِ رُدُّوا مالَ جاري ... وَأَسْرَى في كُبُولِهِمُ الثِّقالِ
وَرُدُّوا السَّبْيَ إن شِئْتُمْ بِمَنٍّ ... وإن شِئْتُمْ مُفاداةً بِمالِ
فأنْتُمْ أهْلُ عائِدَةٍ وَفَضْلٍ ... وَأَيْدٍ في مَواهِبِكُمْ طِوالِ
مَتى ما تَمْنَعُوا شَيْئاً فَلَيْسَتْ ... حَبائِلُ أخْذِهِ غَيْرُ السُّؤالِ
وَحَرْبُكُمُ بَني الدَّيَّانِ حَرْبٌ ... يَغَصُّ المَرْءُ مِنْها بالزُّلالِ
وَجارَتُكُمْ بَني الدَّيّانِ بَسْلٌ ... وَجارُكُمُ يُعَدُّ مَعَ العِيالِ(٢)

---

(١) العَوْد: المسنّ من الإبل والشاءِ. والمرس: جمع مَرَسة، وهو الحبل.
(٢) البَسْلُ: الحرام.

حَـذَا عَـبْـدُ الـمَـدَانِ لَـكُـمْ حِـذاءً ... مُـخَـصَّـرَةَ الـصُّـدورِ عـلـى مِـثـالِ
بَـنِـي الـدَّيَّـان إنَّ بَـنِـي زِيـادٍ ... هُـم أهْـلُ الـتَّـكَـرُّمِ والـفَـعَـالِ
فَـأَوْلُـونِـي بَـنـي الـدَّيَّـان خَـيْـراً ... أُقِـرَّ لَـكُـمْ بـهِ أُخْـرَى الـلَّـيَـالِـي

قال: فلما بلغ شعرُه قال: وجب حقُّ الرجل! فبعث إليه أن اقدَمْ علينا. فلما قَدِم عليه أكرمه وأحسن مَثْواه. فقال له دُرَيد يوماً: يا أبا النَّضْر، إني رأيتُ منكم خِصالاً لم أرَها من أحد من قومكم: إني رأيتُ أبْنيتكُم متفرِّقة، ونتاجَ خيلكم قليلاً، وسَرْحَكُم يجيء مُعَتِّماً، وصبيانكم يَتَضاغَوْن[1] من غير جوع. قال أجَلْ! أمّا قلّة نِتاجنا فنِتاجُ هَوازِنَ يكفينا وأمّا تفرُّق أبنيتنا فللغَيْرة على النساء. وأمّا بكاء صبياننا فإنّا نبدأ بالخيل قبل العيال. وأمّا تَمَسِّينا بالنَّعَم فإنّ فينا الغرائبَ والأراملَ، تخرج المرأة إلى مالها حيث لا يراها أحدٌ. قال: وأقبلت طلائعُهم على يزيد، فقال شيخ منهم: [المتقارب]

أَتَـتْـك الـسـلامـةُ فـأَرْعَ الـنَّـعَـمْ ... ولا تَـقُـلِ الـدَّهْـرَ إلاّ نَـعَـمْ
وسَـرِّحْ دُريـداً بِـنُـعْـمَـى جُـشَـمْ ... وإن سَـالَـكَ الـمرءُ إحدَى الـقُـحَـمْ[2]

فقال له دُرَيد: من أين جاء هؤلاء؟ فقال: هذه طلائعُنا لا نَسْرَحُ ولا نصْطَبحُ حتى يرجعوا إلينا. فقال له: ما ظَلَمكم مَنْ جعلكم جَمْرةَ مَذْحج. وردّ عليه الأسارَى من قومه وجيرانه، ثم قال له: سَلْنِي ما شئتَ، فلم يسأله شيئاً إلا أعطاه إيّاه، فقال دريد في ذلك: [المتقارب]

مَـدَحْـتُ يَـزِيـدَ بْـنَ عَـبْـدِ الـمَـدَانِ ... فـأَكْـرِمْ بـه مِـنْ فَـتـىً مُـمْـتَـدَحْ
إذا الـمَـدْحُ زانَ فَـتَـى مَـعْـشَـرٍ ... فـإنَّ يَـزِيـدَ يَـزِيـنُ الـمِـدَحْ
حَـلَـلْـتُ بـه دونَ أصـحـابِـهِ ... فـأَوْرَى زِنَـادِيَ لَـمَّـا قَـدحْ
ورَدَّ الـنِّـسـاءَ بـأَطْـهـارِهـا ... وَلَـوْ كـانَ غَـيْـرُ يـزيـدِ فَـضَـحْ
وَفَـكَّ الـرِّجـالَ وَكُـلُّ امْـرِىءٍ ... إذا أَصْـلَـحَ الله يَـوْمـاً صَـلَـحْ
وَقُـلْـتُ لـهُ بَـعْـدَ عِـتْـقِ الـنِّـسـاءِ ... وفَـكِّ الـرِّجـالِ وَرَدِّ الـلُّـقَـحْ[3]
أَجِـزْ لـي فَـوَارِسَ مِـنْ عـامِـرٍ ... فـأَكْـرِمْ بِـنَـفْـحَـتِـهِ إذ نَـفَـحْ

---

(١) تضاغن: تضوّر وتلوى من الجوع.
(٢) القُحَم: جمع قحمة: وهي الأمر الشاقّ.
(٣) اللُّقَح: جمع لقحة وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

وَمـا زِلْـتُ أعْـرِفُ فِـي وَجْـهِـهِ بِـكْـرِيِّ الـسُّـؤالَ ظُـهُـورَ الـفَـرَحْ
رَأيْـتُ أبـا الـنَّـضْـرِ فـي مَـذْحِـجٍ بِـمَـنْـزِلَـةِ الـفَـجْـرِ حِـيـنَ اتَّـضَـحْ
إذا قـارَعُـوا عَـنْـهُ لـم يُـقْـرَعُـوا وإنْ قَـدَّمُـوهُ لِـكَـبْـشٍ نَـطَـحْ
وَإنْ حَـضَـرَ الـنَّـاسَ لَـمْ يُـخْـزِهِـمْ وإنْ وازَنُـوهُ بِـقِـرْنٍ رَجَـحْ
فَـذاكَ فَـتـاهـا وَذو فَـضْـلِـهـا وإن نـابِـحٌ بِـفَـخـارٍ نَـبَـحْ

[دريد ومسهر بن يزيد الحارثيّ]

قال: وقال ابن الكلبيّ: خرج دريد بن الصِّمَّة في فوارس من قومه في غَزَاة له، فلَقِيه مُسْهِر بن يزيد الحارثيّ، الذي فَقأ عين عامر بن الطُّفَيْلِ، يقود بامرأته أسماء بنت حزْن الحارثيّة. فلما رآه القوم قالوا: الغنيمة، هذا فارسٌ واحد يقود ظَعِينةً، وخليقٌ أن يكون الرجل قرشياً. فقال دريد: هل منكم رجل يمضي إليه فيقتله ويأتينا به وبالظَّعينة؟ فانتدب إليه رجلٌ من القوم فحمَل عليه، فلقيه مُسْهِر فاْختلفا طعنتين بينهما، فقتله مُسْهِر بن الحارث. ثم حمل عليه آخر فكانت سبيلهُ سبيل صاحبه، حتى قتَل منهم أربعةَ نفر. وبقي دريد وحدَه فأقبل إليه؛ فلما رآه ألقى الخِطام من يده إلى المرأة وقال: خُذي خِطَامك؛ فقد أقبل إليّ فارسٌ ليس كالفُرسان الذين تقدَّموه؛ ثم قصد إليه وهو يقول: [الرجز]

أمَـا تَـرَى الـفَـارِسَ بَـعْـدَ الـفـارِسْ أرْدَاهُـمُ عـامِـلُ رُمْـحٍ يـابِـسْ

فقال له دُرَيد: من أنت لله أبوك؟ قال: رجلٌ من بني الحارث بن كعب، قال: أنت الحُصَيْن؟ قال لا. قال: فالمُحجَّل هَوْذَة؟ قال لا. قال: فمن أنت؟ قال: أنا مُسْهِر بن يزيد. قال: فانصرف دُرَيد وهو يقول: [الطويل]

أمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى مَاءُ عَيْنَيْكَ يَهْمِلُ كَمااْنَهَلَّ خَرْزٌ مِنْ شَعَيْبٍ مُشَلْشِلُ(١)
ومَـاذا تُـرَجِّـي بـالـسَّـلامَـةِ بَـعْـدَمـا نأتْ حِقَبٌ واْبَيَضَّ مِنْكَ المُرَجَّلُ(٢)
وحَالَتْ عَوَادِي الحَرْبِ بَيْنَها وبَيْنَها وَحَرْبٌ تَـعُـلُّ الـمَـوْتَ صِرْفاً وتُنْهِلُ
قِـرَاهـا إذا بـاتَـتْ لَـدَيَّ مُـفَـاضَـةٌ وذو خُصَلٍ نَـهْـدُ الـمَرَاكِلِ هَيْكَلُ(٣)

(١) مشلشل: متتابع القطر.
(٢) المرجَّل: الشعر المسرَّح.
(٣) المفاضة: الدّرع. وذو خُصلٍ: وصف للفرس، والمراكل: جمع مركل: وهو ما تصيبه رجلك من الدابة إذا ركلتها. والهيكل: الضخم من كل شيء، وأراد حصاناً عالياً طويلاً ضخماً.

كَمِيشٌ كَتَيْسِ الرَّمْلِ أَخْلَصَ مَتْنَهُ ... ضَرِيبُ الخَلاَيا وَالنَّقِيعُ المُعَجَّلُ(١)
عَتِيدٌ لأَيَّام الحُرُوبِ كأَنَّهُ ... إذا انجابَ رَيْعانُ العَجَاجَةِ أَجْدَلُ(٢)
يُجَاوِبُ جُرْداً كالسَّرَاحِينِ ضُمَّراً ... تَرُودُ بأبْوابِ البيوتِ وتَصْهَلُ(٣)
على كُلِّ حَيٍّ قَدْ أطَلَّتْ بِغارَةٍ ... ولا مِثْلِ ما لاَقَى الحِماسُ وزَعْبَلُ

ـ الحماس وزَعْبَل: قبيلتان من بني الحارث بن كعب ـ

غَدَاةَ رَأَوْنا بالغَرِيفِ كأنَّنا ... حَبِيٌّ أدَرَّتْهُ الصَّبَا مُتَهَلِّلُ(٤)
بِمُشْعَلَةٍ تَدْعُو هَوازِنَ، فَوْقَها ... نَسِيجٌ مِنَ المَاذِيِّ لأَمٌ مُرَفَّلُ(٥)
لَدَى مَعْرَكٍ فيها تَرَكْنا سَرَاتَهم ... يُنادُونَ، مِنْهُمْ مُوثَقٌ ومُجَدَّلُ
نَجُذُّ جِهاراً بالسُّيُوفِ رُؤوسَهُمْ ... وأرْمَاحُنا مِنْهُمْ تَعُلُّ وتَنْهَلُ
ترى كُلَّ مُسْوَدِّ العِذَارَيْنِ فارِسٍ ... يُطِيفُ بِهِ نَسْرٌ وعَرْفَاءُ جَيْأَلُ(٦)

قال مؤلِّف هذا الكتاب: هذه الأخبار التي ذكرتُها عن ابن الكلبيِّ موضوعةٌ كلُّها. والتوليد بيّن فيها وفي أشعارها، وما رأيتُ شيئاً منها في ديوان دُرَيد بن الصِّمة على سائر الروايات. وأعجبُ من ذلك هذا الخبرُ الأخيرُ؛ فإنه ذكَر فيه ما لحق دريداً من الهُجْنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قُتل معه وانصرافه منفرداً، وشعرُ دريد هذا يفخر فيه بأنّه ظفر ببني الحارث وقتل أماثِلَهم؛ وهذا من أكاذيب ابن الكلْبي؛ وإنما ذكرتُه على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناسُ وتدَاوَلُوه.

(١) الكميش: السريع. والضريب: اللبن يحلب من عدة لقاح في إناءٍ. والخلايا: جمع خلية: وهي الناقة المخلاة للحلب.
(٢) والأجدل: الصقر.
(٣) السراحين: جمع سرحان؛ وهو الذئب.
(٤) الحَبِيُّ: السَّحاب الكثيف المتراكم.
(٥) الماذيّ: الدروع الليّنة السهلة. واللأم: أيضاً الدروع وجمعه لأمة. والمرفَّل: المسبغ.
(٦) العرفاء: ذات العُرف، وهي الضبع لطول عُرفها وكثرة شعرها. وجيأل: من أسماء الضبع.

أخبار المُعتَضِد في صنعة هذا اللحن وغيره من الأغاني

[٢٤٢ - ٢٨٩هـ ٨٥٧ - ٩٠٢م]

- دون أخباره في غير ذلك لأنها كثيرة تخرج عن حدّ الكتاب - وشيء من أخباره مع المغنِّين وغيرهم يصلح لما هاهنا.

حدّثني محمد بن خَلَف بن المَرْزُبان قال: حدّثني عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتضد بعث إليه - لما صنعتْ جاريتُه شَاجِي اللحن الذي يجمع النّغَمَ العشرَ - بظَبْي وحبيب جاريَتَيْ أخيه سليمان بن عبد الله بن طاهر حتى أَخَذَتَا اللحنَ عنه ونقَلَناه إليه وألْقَتَاه على جواريه. قال: ولم يزل يُراسِلُني مع عبد الله بن أحمد ابن حمدون في أمر النَّغَم العشر ويسألني عنها وأشرحُها له، حتى فهِمها جيِّداً وجمَعها في صوتٍ صنعه في شعر دُرَيْد بن الصِّمَّة: [مشطور الرجز]

يـا لَـيْـتَـنِـي فِـيـهـا جَـذعْ أخُـبُ فـيـهـا وَأضَـعْ

وألقاه عليهما حتى أدَّتاه إليَّ مستعلِماً بذلك هل هو صحيحُ القِسمة والأجزاء أم لا، فعرَّفتُه صحّتَه ودللتُه على ذلك حتى تيقَّنه فسُرَّ بذلك؛ وهو لَعَمْرِي من جيِّد الصنعة ونادرها. وقد صنع المُعْتضد ألحاناً في عدّة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمُحْدَثين وعارضَهم بصنعته فأحسن وشاكَل وضاهَى، فلم يَعْجِزَ ولا قصَّر ولا أتى بشيء يُعْتَذر منه. فمن ذلك أنه صنع في: [البسيط]

أمّا القَطاةُ فإنّي سَوْفَ أنعتُها نَعْتاً يُوافِقُ نَعْتِي بَعْض ما فِيها

لحناً من الثقيل الأوّل بالبنصر في نهاية الجودة، سمعت إبراهيم بن القاسم بن زُرزُور يُغَنِّيه، فكان من أحسن ما صُنع في هذا الصوت على كثرة الصنعة فيه

وٱشتراك القدماء والمُحْدَثين في صنعته مثل مَعْبَد وَنَشِيط ومالك وابن محْرِز وسِنانٍ وعُمَر الوادي وابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وعَلُّوَيْهِ. وأظرفُ من ذلك أنه صنع في: [الطويل]

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرْيَ لَمَّا جَهَدْتُهُ وَبَيَّنَ لَوْ يَسْطِيعُ أنْ يَتَكَلَّما

لحناً من الثقيل الأوّل بالوسطى، وقد صنع قبله ابن سُريج لحناً هو من الألحان الثلاثة المختارة من الغناء كلِّه، فما قصَّر في صنعته ولا عَجَز عن بلوغ الغاية فيها؛ هذا بعد أن صنع إسحاقُ فيها لحناً من الثقيل الثاني عارض ابن سُرَيْج به في لحنه، فما ٱمتنع من أن يتلو مثل هذين ولا نظيرَ لهما في القدماء والمحدَثين ثم جوَّد غاية التجويد فيما ٱتّبعهما به وعارضهما فيه. هذا مع أصوات له صنَعها تُزاهِي[1] المائة صوت، ما فيها ساقطٌ ولا مَرْذُول، وسأذكر منها ما يَصْلُح ذكْره في موضعه إن شاء الله تعالى.

ومن نادر صنعة المعتضد: [الطويل]

أَناةً فَإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بَعْدَها وَعيداً، فإنْ لم يُغْنِ أغْنَتْ عَزائِمُهُ

الشعر لإبراهيم بن العبّاس، والغناء للمعتضد ثقيلٌ أوّل. هذا بيتٌ قاله إبراهيم وهو لا يعلم أنه شعر، وإنما كتب به في رسالة عن المعتصم إلى بعض أصحاب الأطراف فقال في فصل منه: «وإن عند أمير المؤمنين في أمرك أناةً، فإن لم تُغْن عقَّب بعدها وعيداً، فإن لم يُغْنِ أَغْنَتْ عزائمُه». فلما تأمّله رأى أنه شعر وأنه بيتٌ نادر فأخرجه في شعره.

(١) تزاهي: تضاهي.

أخبار إبراهيم بن العبّاس ونسبه

[١٧٦ ـ ٢٤٣هـ/ ٧٩٢ ـ ٨٥٧م]

إبراهيم بن العبّاس بن محمد بن صُولٍ، وكان صُولٌ رجلاً من الأتراك، ففتح يزيد بن المهلّب بلدَه وأسلم على يديه، فهم موالي يزيدَ. ولما دعا يزيدُ إلى نفسه لَحِق به صُولٌ لينصرَه فصادَفه قد قُتل. وكان يقاتل كلَّ مَنْ بينه وبين يزيد من جيش بني أميّة ويكتب على سهامه: صُولٌ يدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه. فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك، فاغتاظ وجعل يقول: وَيْلي على ابن الغَلْفاء! وما له وللدُّعاء إلى كتاب الله وسنّة نبيّه! ولعلّه لا يَفْقه صَلاتَه!. وكان ابنه محمد بن صُول من رجال الدولة العبّاسية ودُعاتها. وقد كان بعضُ أهليهم ادَّعَوا أنهم عربٌ وأن العباس بن الأحنف خالُهم. وأمّا صول فإن خالد بن خداش ذكر عن أهله قالوا: كان صولٌ وفَيروزُ أخوين ملَكا على جُرجان[1]، وكانا تركيَّيْن تمجَّسا وتشبَّها بالفُرس. فلما حضر يزيدُ بن المُهَلَّب جُرْجَانَ أمّنهما، فأسلم صُولٌ على يديه ولم يزل معه حتى قُتل يومَ العَقْر[2] وكان محمد بن صُول يُكْنى أبا عُمَارة، أحَد الدُّعاة، وقتله عبد الله بن علي لما خالف مع مُقاتل بن حَكيم العَكّيِّ وعِدَّةٍ آخرين. وأمّا إبراهيم بن العباس وأخوه عبد الله فإنهما كانا من وجوه الكُتّاب، وكان عبدُ الله أسنَّهما وأشدَّهما تقدُّماً، وكان إبراهيم آدبهما وأحسنَهما شعراً، وكان يقول الشعر ثم يختاره، ويُسْقط رَذْله، ثم يُسقط الوسَط، ثم يسقط ما يُسْبَق إليه، فلا يَدَعْ من القصيدة إلا اليسيرَ، وربما لم يَدَعْ إلاّ بيتاً أو بيتين؛ فمن ذلك قوله:

(١) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. (معجم البلدان ٢/ ١١٩).

(٢) تمجّس: دان بالمجوسية، وهي دين الفرس قبل الإسلام.

(٣) العَقْر: هي عقر بابل قرب كربلاء. (معجم البلدان ٤/ ١٣٦).

وَلَـكِــنَّ الــجَــوادَ أبــا هِــشــامٍ وَفِـيُّ الـعَـهْـدِ مَـأمُـونُ الـمَـغِـيـبِ

وهذا ابتداء يدُلّ على أن قبله غيرَه؛ وقولُه في أخيه:

وَلْكِنَّ عبدَ الله لما حَوَى الغِنَى وصَارَ لَهُ مِنْ بينِ إخْوَتِهِ مالُ

وهذا أيضاً ابتداء يدلّ على أنّ قبله غيرَه. وكان إبراهيم وأخوه عبد الله من صنائع ذي الرِّياستين، اتَّصلا به فرفع منهما. وتنقَّل ابراهيمُ في الأعمال الجليلة والدواوين إلى أن مات وهو يتقلّد ديوانَ الضِّياع(١) والنفقاتِ بِسُرَّ مَنْ رأى في سنة ثلاث وأربعين ومائتين للنصف من شعبان. قال محمد بن داود: وحدّثني أحمد بن سَعيد بن حَسّان قال: حدّثني ابن إبراهيم قال: سمعت دِعْبِلاً يقول:

لو تكسَّب إبراهيم بن العبّاس بالشعر لتركنا في غير شيء. قال: ثم أنشدَنا له، وكان يستحسن ذلك من قوله: [السريع]

إنّ امْــرأً ضَــنّ بِــمَــعْــروفِــهِ عَــنِّــي لَــمَــبْــذُولٌ لَــهُ عُــذْرِي
مــا أنــا بــالــرّاغِــبِ فــي عُــرْفِــهِ إنْ كــانَ لا يَــرْغَــبُ فــي شُــكْــرِي

[هجاؤه محمد بن عبد الملك الزيات]

وكان إبراهيم بن العباس صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيّات، ثم آذاه وقصده وصارت بينهما شَحْناء(٢) عظيمة لم يمكن تلافيها، فكان إبراهيم يهجوه؛ فمن قوله فيه: [الطويل]

أبا جَعْفَرٍ خَفْ خَفْضَةً بَعْدَ رِفْعَةٍ وَقَصِّر قَلِيلاً عَنْ مَدَى غُلَوائِكا
لَئِنْ كانَ هٰذا اليَوْمُ يوماً حوَيْتَهُ فإنَّ رجائِي في غَدٍ كَرَجائِكا

وله فيه أيضاً:

دَعَوْتُكَ في بَلْوَى ألَمَّتْ صُرُوفُها فأوْقَدْتَ مِنْ ضِغْنٍ عَلَيَّ سَعِيرَها
فَإنِّي إذا أدْعُوكَ عِنْدَ مُلِمَّةٍ كَدَاعِيَةٍ عِنْدَ القُبُورِ نَصِيرَها

وقال فيه لمّا مات: [الرجز]

لَــمّــا أتــانِــي خَــبَــرُ الــزَّيّــاتِ وأنّــهُ قَــدْ صــارَ فــي الأمْــواتِ

---

(١) ديوان الضِّياع: ديوان العقارات.
(٢) الشحناء: العداوة.

أيـقـنـتُ أنّ مـوْتَـهُ حَـيـاتِـي

أخبرني جَحْظة[١] قال: حدّثني ميمون بن هارون قال: لما انحرف محمد بن عبد الملك الزيّات عن إبراهيم تحاماه الناس أن يلقَوْه، وكان الحارث بن بُسْخُنَّر صديقاً له مصافياً، فهجره فيمن هجره من إخوانه؛ فكتب إليه: [الطويل]

تَـغَـيَّـرَ لِـي فِـيـمَـنْ تَـغَـيَّـرَ حـارثُ وَكَـمْ مِـنْ أخٍ قَـدْ غَـيَّـرَتْـهُ الـحَـوادِثُ
أحـارِثُ إن شُـورِكْـتُ فِـيـكَ فَـطـالَـما غَـنِـيـنـا ومـا بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـكَ ثـالِـثُ

وقد قيل: إن هذه الأبيات لإسحاق بن إبراهيم الموصليّ.

ومن جيِّد قولِ إبراهيم بن العباس وفيه غناء:

صوت

[مجزوء الكامل]

خَـلِّ الـنِّـفـاقَ لأهْـلِـهِ وَعَـلَـيْـكَ فـالْـتَـمِـسِ الـطَّـرِيـقـا
وَٱذْهَـبْ بِـنَـفْـسِـكَ أَنْ تُـرَى إلاّ عَـدُوّاً أوْ صَـدِيـقـا

الغِناء لأبي العُبَيْس بن حمدون، ثقيلٌ أوّل.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: كان إبراهيم بن العباس يهوَى قَيْنة بُسرَّ مَنْ رأى، فكان لا يكاد يفارقها. فجلس يوماً للشرب ومعه إخوان له، ودعا جماعةً من جواري القيان، ودعاها فأبطأت، فتنغّص عليهم يومُهم لِما رأَوْا من شُغْل قلبه بتأخُّرها، ثم وافتْ فُسرِّيَ عنه وطابت نفسه وشرب وطرِب، ثم دعا بدواة فكتب: [المتقارب]

أَلَـمْ تَـرَنـا يَـوْمَـنـا إذ نَـأَتْ فَـلَـمْ تَـأتِ مِـنْ بَـيْـنِ أتْـرابِـهـا
وَقَـدْ غَـمَـرَتْـنـا دَواعِـي الـسُّـرورِ بِـإشْـعـالِـهـا وبِـإلْـهـابِـهـا
وَمَـدَّتْ عَـلَـيْـنـا سَـمـاءَ الـنَّـعِـيـمِ وَكُـلُّ الـمُـنَـى تَـحْـتَ أطْـنـابِـهـا[٣]

(١) جحظة: هو أحمد بن جعفر أبو حسن، نديم أديب مغنٍّ، من أهل بغداد، كان في عينيه نتوء فلقبه ابن المعتز بجحظة، فلزمه اللقب. كان متصرفاً في فنون العلم كاللغة والنجوم، والشعر، عارفاً بالموسيقى والغناء.

(٢) القِيان: الجواري، وهنا الجواري المغنيات.

(٣) الأطْناب: جمع طُنب: حبل طويل يشدّ به سُرادِق البيت.

وَنَحْنُ فُتورٌ إلى أنْ بَدَتْ ... وَبَدْرُ الدُّجى بَيْنَ أثْوابِها
فَلَمَّا نَأَتْ كَيْفَ كُنَّا لَها ... وَلَمَّا دَنَتْ كَيْفَ صِرْنَا بِها

وأمر من حضَر فقرأ عليها الأبيات؛ فتجنَّتْ وقالت: ما القصّةُ كما وصفتَ، وقد كنتم في قَصْفكم مع مَنْ حضر، وإنما تجمَّلتم لي لمّا حَضَرتُ. فأنشأ يقول:

[المجتث]

يا مَنْ حَنِيني إلَيْهِ ... وَمَنْ فُؤادِي لَدَيْهِ
وَمَنْ إذا غابَ مِنْ بَيْنِهِمْ أسِفْتُ عَلَيْهِ
إذا حَضَرْتِ فَما مِنْـ ... ـهُمُ مَنَ اصْبُو إلَيْهِ
مَنْ غابَ غَيْرِكِ مِنْهُمْ ... فَأمْرُهُ في يَدَيْهِ

قال: فرضيتْ عنه، وأتممنا يومَنا على أحسن حال.

وقال محمد بن داود: حدّثني محمد بن القاسم قال: حدّثني إبراهيم بن المدبّر قال: حدّثني إبراهيم بن العباس ـ قال: حدّثني به دِعْبِلٌ أيضاً فكانا متفقَيْن في الرواية ـ قال: كنّا نطلُب جميعاً بالشعر، فخرجنا وكنا في مَحْمِل، فابتدأتُ أقول في المُطَّلب بن عبد الله بن مالك:

أمُطَّلِبٌ أنت مُسْتَعْذِبٌ

فقال دِعْبِل: لِسمِّ الأفاعِي ومُسْتَقْتِلُ [المتقارب]

فقلت: فإنْ أشْفِ مِنْكَ تَكُنْ سُبَّةً

فقال دِعْبِل: وإنْ أعْفُ عَنْكَ فما تَفْعَلُ

أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العباس وكان يُفضِّلها ويستجيدها: [الوافر]

أمِيلُ مَعَ الذِّمام عَلى ابْنِ أمّي ... وآخُذُ لِلصَّدِيقِ من الشَّقِيقِ
وَإنْ ألْفَيْتَني حُرّاً مُطاعاً ... فإنَّكَ واجِدِي عَبْدَ الصَّديقِ
أُفَرِّقُ بَيْنَ مَعْروفِي ومَنِّي ... وَأجْمَعُ بَيْنَ مالِي وَالحُقُوقِ

أخبرني عمّي قال: حدّثني أبو الحسن بن أبي البَغْل قال: حدّثني عمّي قال: اجتاز محمد بن عليّ برد الخيار على أبي أيوب ابن أخت الوزير وهو متولّي ديار

مُضَر فلم يتلقَّه، ونزل الرَّقَّة[1] فلم يصل إليه ولم يَبَرَّه، وخرج عنها فلم يُشَيِّعه. فلامه إخوانُه وقالوا: يشكوك إلى إبراهيم بن العباس. فكتب إلى إبراهيم يعتذر مما جرى بعلَّةٍ. فكتب إليه إبراهيم على ظهر كتابه: [الرمل]

أَبَـداً مُـعـتَـذِرٌ لا يُـعْـذَرُ ... وَرَكُـوبٌ لِـلَّـتِـي لا تُـغْـفَـرُ
ومُـلَـقًّـى بِـمَـسـاوٍ كُـلُّـهـا ... مِـنْـهُ تَـبْـدُو وإِلَـيْـهِ تَـصْـدُرُ
هِـيَ مِـنْ كُـلِّ الـوَرَى مُـنْـكَـرَةٌ ... وَهْـيَ مِـنْـهُ وَحْـدَهُ لا تُـنْـكَـرُ

أخبرني عمّي قال: حدّثني ابن برد الخيار عن أبيه قال: كان إبراهيم بن العباس يهوى جارية لبعض المغنِّين بسرَّ مَنْ رَأى يقال لها سامر، وشُهِر بها، فكان منزله لا يخلو منها. ثم دُعِيَتْ في وليمة لبعض أهلها فغابت عنه أياماً ثم جاءته ومعها جاريتان لمولاتها. وقالت له: قد أهديتُ صاحبتيَّ إليك عوَضاً من مَغيبي عنك؛ فأنشأ يقول:

صوت [البسيط]

أَقْبَلْنَ يَخفُقْنَ مِثْلَ الشَّمْسِ طالِعَةً ... قَـدْ حَـسَّـنَ الله أُولاهـا وأُخْـراهـا
مـا كُـنْـتِ فِـيـهِـنَّ إلاّ كُـنْـتِ واسِـطَـةً ... وَكُـنَّ دُونَـكِ يُـمْـنـاهـا ويُـسْـرَاهـا

الغناء لسَلْسَل مولى بني هاشم، ثاني ثقيلٍ بالوسطى مطلقٌ. وليس لسلسلَ خبر يُدَوَّن ولا هو من المشهورين ولا ممّن خدم الخلفاء أو دُوِّن له حديث. وذكر حَبَش أنه لسلسل مولاة محمد بن حرب الهِلاليّ. وسَلْسَل هذه كانت من أحسن الناس وجهاً وغِناءً، وكانت لبعض المغنِّين بالبصرة، وكان محمد بن حرب هذا يتعشَّقها ولم تكن مولاته. فأخبرني الحرميّ بن أبي العَلاَء قال: حدّثنا إسحاق بن محمد النَّخَعيّ قال: حدّثني حمّاد بن إسحاق قال: أتى أبَانُ بن عبد الحميد الشاعر رجلاً بالبَصرة وله قَيْنة يقال لها سَلْسَل، فصادف عندها محمد بن قَطَن الهِلاليّ وعثمان بن الحَكَم بن صخر الثَّقَفي فقال: [الرمل]

فَـتَـنَـتْ سَـلْـسَـلُ قَـلْـبَ ابنِ قَـطَـنْ ... ثُـمَّ ثَـنَّـتْ بـابْـنِ صَـخْـرٍ فـافْـتَـتَـنْ
فـأَتَـيْـتُ الـيَـوْمَ كَـيْ أُنـقِـذَهُـمْ ... فـإذا نَـحْـنُ جَـمِـيـعـاً فـي قَـرَنْ

---

(١) الرَّقَّة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام. (معجم البلدان ٣/ ٥٩).

فأظُنّ الغَلَطَ وقع على حَبَش من هاهنا أو سمع هذا الخبر فتوهَّم أنها مولاة محمد بن حرب.

أخبرني عمّي ووكيع قالا: حدّثنا الحسن بن عُلَيْل العَنَزي قال: حدّثني محمد ابن عيسى بن عبد الرحمن قال: خرج إبراهيم بن العباس ودِعْبل بن عليّ وأخوه رَزِين في نُظَرائهم من أهل الأدب رَجّالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون[1]، فلقِيَهم قوم من أهل السواد من أصحاب الشَّوْك، فأعطَوْهم شيئاً وركِبوا تلك الحميرَ؛ فأنشأ إبراهيم يقول: [الهزج]

أعِيضَتْ بَعْدَ حَمْلِ الشَّوْ ... كِ أحْمالاً من الحَرْفِ
نَشاوَى لا مِنَ الصَّهْبا ... ءِ بَلْ من شِدَّة الضَّعْفِ

فقال رَزِين: [الهزج]

فَلَوْ كُنْتُمْ عَلَى ذاكَ ... تَؤولونَ إلى قَصْفِ
تَساوتْ حالُكُمْ فِيهِ ... وَلَمْ تَبْقَوْا على خَسْفِ

فقال دِعْبِل: [الهزج]

وإذ فاتَ الَّذِي فاتَ ... فَكُونُوا مِنْ بَنِي الظَّرْفِ
وَمُرُّوا نَقْصِفِ اليَوْمَ ... فإنّي بائِعٌ خُفّي

فانصرفوا معه فباع خُفَّه وأنفقه عليهم.

[رثاؤه لابنه]

أخبرني الحسن بن علي قال: حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: قال لي عليّ بن الحسين الإسكافيّ: كان لإبراهيم ابنٌ قد يَفَع[2] وترَعْرَعَ، وكان مُعْجَباً به فاعتلّ عِلّةً لم تَطُل ومات؛ فرثاه بمراثٍ كثيرة، وجزع عليه جَزَعاً شديداً. فممّا رثاه به قوله: [مجزوء الكامل]

كُنْتَ السَّوادَ لِمُقْلَتِي ... فَبَكَى عَلَيْكَ النّاظِرُ

(١) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد، وهو سابع الخلفاء العباسيين.

(٢) يفَع: شبّ.

مَـنْ شـاءَ بَـعْـدَكَ فَـلْـيَـمُـتْ فَـعَـلَـيْـكَ كُـنْـتُ أُحـاذِرُ

فيه رَمَلٌ لابن القَصَّار. ومن مراثيه إيّاه قوله: [المتقارب]

ومـا زِلْـتُ مُـذْ لَـدُ أُعْـطِـيـتُـهُ أُدافِـعُ عَـنْـهُ حِـمـامَ الأَجَـلْ
أُعَـوِّذُهُ دائِـبـاً بـالـقُـرانِ وَأَرْمِـي بِـطَـرْفِـي إلـى حَـيْـثُ حَـلْ
فـأضْـحَـتْ يَـدِي قَـصْـدُهـا واحِـدٌ إلـى حَـيْـثُ حَـلَّ فَـلَـمْ يَـرْتَـحِـلْ

وقال أحمد بن أبي طاهر: حدّثني أبو وائلة قال: قلت لإبراهيم بن العبّاس: قد أخملتَ نفسك ورضِيتَ أن تكون تابعاً أبداً لاقتصارك على القَصْف واللعب؛ فأنشأ يقول: [مجزوء الخفيف]

إنَّـمـا الـمَـرْءُ صُـورَةٌ حَـيْـثُ حَـلَّـتْ تَـنـاهَـتِ
أنـا مُـذْ كُـنْـتُ فـي الـتَّـصَـرُّ فِ لِـي حـالُ سَـاعَـتِـي

أخبرنا محمد بن يحيى الصُّوليّ قال: حدّثني ابن السَّخِيّ قال: وهَب عبد الله بن العبّاس لأخيه إبراهيم ثُلُثَ ماله، ووهب لأخته الثلث الآخر، فسار مساوياً لهما في الحال؛ فقال إبراهيم: [الطويل]

وَلٰكِـنَّ عَـبْـدَ الله لـمَّـا حَـوَى الـغِـنَـى وَصـارَ لَـهُ مِـنْ بَـيْـنِ إخْـوَتِـهِ مـالُ
رَأى خَـلَّـةً مِـنْـهُـمْ تُـسَـدُّ بـمـالِـهِ فَسَاهَمَهُمْ حَتَّى ٱسْتوتْ بِهِمُ الحالُ

وهذا مما عِيبَ على إبراهيم قولُه ابتداءً «ولكنّ عبد الله». وقد كرَّره في شعره فقال:

وَلٰـكِـنَّ الـجَـوادَ أبـا هِـشـام وَفِـيُّ الـعَـهْـدِ مـأْمُـونُ الـمَـغِـيـبِ
بَـطِـيءٌ عَـنْـكَ مـا اسْـتَـغْـنَـيْـتَ عَـنْـهُ وَطَـلاَّعٌ عَـلـيـكَ مَـعَ الـخُـطـوبِ

والسبب في ذلك اختيارُه شعرهَ وإسقاطُه ما لم يرْضَه منه.

[عزله عن الأهواز]

وقرأت في بعض الكتب: لمّا عُزِل إبراهيم بن العبّاس عن الأهواز[1]، في

(١) الأهواز: مدينة في جنوب إيران.

أيام محمد بن عبد الملك الزيّات اعتُقِل بها وأُوذِي، وكان محمد قَبْل الوزارة صديقَه، وكان يؤمِّل منه أن يُسامحه ويُطْلِقَه، فكتب إليه: [الطويل]

فَلَوْ إذ نَبَا دَهْرٌ وأُنْكِرَ صاحِبٌ ... وسُلِّطَ أعداءٌ وغابَ نَصِيرُ
تَكُونُ عَنِ الأهْوازِ دارِي بِنَجْوَةٍ ... وَلَكِنْ مَقادِيرٌ جَرَتْ وأمُورُ
وَإنِّيْ لأرْجُو بَعْدَ هٰذا مُحَمَّداً ... لأفْضَلِ ما يُرْجَى أخٌ وَوَزِيرُ

فأقام محمد على قصدِه وتكشُّفِه والإساءةِ إليه حتى بلغ منه كلَّ مكروه، وانفرجت الحال بينهما على ذلك، وهجاه إبراهيم هجاءً كثيراً.

وأخبرني محمد بن يحيى الصُّوليّ قال: حدّثني أبو عبدالله الباقْطانيّ أو الطَّالْقانيّ قال: حدّثني عليّ بن الحسين بن عبد الأعْلَى قال: وجَّه محمد بن عبد الملك بأبي الجَهْم أحمد بن سيف إلى الأهْواز ليكشِف إبراهيم بن العبّاس، فتحامل عليه تحاملاً شديداً. فكتب إبراهيم إلى محمد بن عبد الملك يُعَرِّفه ذلك ويشكوه إليه ويقول له: أبو الجهم كافرٌ لا يُبالي ما عمِل، وهو القائل لمّا مات غلامُه يخاطب مَلَكَ الموت: [المتقارب]

وَأقْبَلْتَ تَسْعَى إلى واحِدِي ... ضِراراً كأنِّي قَتَلْتُ الرَّسُولا
تَرَكْتَ عَبِيدَ بَنِي طاهِرٍ ... وَقَدْ ملأوا الأرْضَ عَرْضاً وَطُولا
فَسَوْفَ أَدِينُ بِتَرْكِ الصلاةِ ... وأصْطَبِحُ الخَمْرَ صِرْفاً شَمُولا

فكان محمد لعصبيَّته على إبراهيم وقَصْدِه له يقول: ليس هذا الشعر لأبي الجَهْم، إنما إبراهيم قاله ونَسَبَه إليه.

[إبراهيم يمدح المتوكل والرضا]

أخبرني أحمد بن جَبر بن رفعة قال: حدّثني أبي قال: دعاني إبراهيم بن العبّاس وقال: قد مدحتُ أمير المؤمنين المتوكِّل ببيتين، فغنِّ فيهما وأشِعْهما، ودعا لي بِطيب كثير فأعطانيه، وخلع عليَّ خلعة سَرِيَّة؛ فغنَّيتُ فيهما. والبيتان:

صوت [مجزوء الكامل]

ما واحِدٌ مِنْ واحِدِ ... أوْلَى بِفَضْلٍ أو مُرُوَّهْ
مِمَّنْ أبُوهُ وَجَدُّهُ ... بَيْنَ الخِلافَةِ وَالنُبُوَّهْ

وأشَعْتُهما وغنّى فيهما المتوكّل فأستحسنهما ووصله صلةً سنيّة.

لحنُ جعفر بن رفعة في هذين البيتين رَمَلٌ بالبِنصر.

أخبرني محمد بن يونس الأنْبَاريّ قال: حدّثني أبي أن إبراهيم بن العباس الصُّوليّ دخل على الرِّضا لمّا عقَد له المأمون وولاّه العهد، فأنشده قولَه:

[الطويل]

أزالَتْ عَزاءَ القَلْبِ بَعْدَ التَّجَلُّدِ مَصارِعُ أولادِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضُرِبت بأسمه. فلم تزل عند إبراهيم، وجعل منها مُهور نسائه، وخلّف بعضَها لكَفَنه وجَهازه إلى قبره.

أخبرني محمد بن يحيى الصُّوليّ قال: حدّثني أبو العبّاس بن الفُرات والباقْطانيّ قالا: كان إسحاق بن إبراهيم ابن أخي زيدان صديقاً لإبراهيم بن العبّاس، فأنسخه شعرَه في مدح الرِّضا، ثم ولِيَ إبراهيمُ بن العبّاس في أيام المتوكِّل ديوانَ الضِّياع، فعزله عن ضِياع كانت بيده بحُلْوان[1]، وطالبه بمال وجب عليه، وتباعَد بينُهما. فقال إسحاق لبعض من يثق به: قل لإبراهيم بن العبّاس: والله لئن لم يَكْفُف عمّا يفعله فيّ لأُخرجنّ قصيدتَه في الرِّضا بخطّه إلى المتوكِّل. فأحجم عنه إبراهيم وتلافاه، ووجَّه من أرتجع القصيدةَ منه وجعله على ثقةٍ من أنه لا يُظهرها، ثم أفرج عنه وأزال ما كان يطالبه به.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثنا إبراهيم بن المُدَبِّر قال:

راكَبتُ إبراهيمَ بن العبّاس، فلَقِينا رجلٌ كان إبراهيم يستثقله، فسلَّم عليه. فلمَّا مضى قال: يا أبا إسحاق إنه جَرْميّ. فقلت: ما كان عندي إلاّ أنه من أهل السَّوَاد[2]. فضحِك وقال: إنما أردتُ قولَ الشاعر: [مجزوء الوافر]

نُسائِلُ عَنْ أخِي جَرْمٍ ثَقِيلٌ وَالَّذِي خَلَقَهْ

أخبرني الصُّوليّ قال: حدّثني محمد بن السَّخِيّ قال: حدّثني الحسن بن عبدالله الصُّوليّ قال: كتب عمّي إبراهيمُ بن العباس شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه:

---

(١) حُلْوان: اسم لعدة مواضع انظر (معجم البلدان ٢/ ٢٩٠).

(٢) السَّواد: موضعان: أحدهما قرب البلقاء سميت لسواد حجارتها، والثاني: رستاق العراق. (معجم البلدان ٣/ ٢٧٢).

فلان ممّن يَزْكُو شكره، ويحسُن ذكرُه، ويَعْنِي أمرُه، والصنيعةُ عنده واقعةٌ موقِعَها، وسالكةٌ طريقَها. [الطويل]

وأفضَل ما يَأْتِيهِ ذو الدِّينِ وَالحِجا إصابَةُ شُكْرٍ لم يَضِعْ مَعَهُ أجْرُ

أخبرني عمّي عن أبي العَيْناء قال: كان عُبَيْد الله بن يحيى يقول للمتوكِّل: يا أمير المؤمنين، إن إبراهيم بن العبّاس فضيلةٌ خَبَأَهَا الله لك، وذخيرةٌ ذخَرَها لدولتك.

وذُكر عن عليّ بن يحيى أنّ المتوكل بعث إلى إبراهيم بن العبّاس يأمره أن يصف له القُدور الإبراهِيميّة، وكان ٱبتدعها؛ فكتب له صِفَتَها، وكتب في آخرها في ذكر الأبازير: «ووزن دَانَقٍ» ونسيَ أن يكتب من أيّ شيء. فلمّا وصلتْ إليه الصفةُ اغتاظ ثم قال لعليّ بن يحيى: إحلفْ بحياتي أن تقول له ما آمُرك به، ففعل. فقال له: قل وزنُ دانق من أي شيء؟ أمِن بظْر أمّك! قال عليّ بن يحيى: فدخلتُ إليه فقلت: إني جئتك في رسالة عزيز عليّ أن أُؤدِّيها؛ فقال: هاتها، فأدّيتُها. قال: فارجع إليه وقل له عنّي: يا سيّدي، إن عليّ بن يحيى أخي وصديقي وقد أدَّى الرسالة؛ فإن رأيت أن تجعل وزن الدّانق من بَظْر أمّي وبَظْر أمِّهِ جميعاً تفضّلتَ بذلك. فقلت: قبَحك الله! وأنا أيْشٍ ذنبي! قال: قد أدّيتَ الرسالة وهذا جوابُها. فدخلتُ إلى المتوكّل فقال: إيهِ ما قال لك؟ فقلتُ: قَبَح الله ما جئتُك به! وأخبرته بالجواب، فضحِك حتى فَحَص برجله وجعل يَشْرب عليه بقيَّةَ يومِه. وإذا لَقِيتُه قال لي: يا عليّ، وزن دانق أَيْشٍ! فأقول: لعنة الله على إبراهيم.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني محمد بن موسى بن حمّاد قال: دعا الحسنُ بن وَهْب إبراهيمَ بن العبّاس؛ فقال له: أرْكَبُ وأجيئك عشيّاً فلا تنتظرني بالغَداة. فأبطأ عليه، وأسرع الحسنُ في شُرْبه فسكِر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدواة وكتب: [البسيط]

رُحْنا إليكَ وَقَدْ راحَتْ بِكَ الرَّاحُ وأسْرَعَتْ فِيكَ أوتارٌ وأقْداحُ

قال: وحدّثني محمد بن موسى قال: نظر إبراهيم بن العباس الحسنَ بن وَهْبٍ وهو مخمورٌ فقال له:

عَيْنَاكَ قَدْ حَكَتا مَبِيـ ـتَكَ كَيفَ كُنتَ وكيفَ كانا

وَلَرُبَّ عَيْنٍ قَدْ أرَتْـ ـكَ مَبِيتَ صاحِبِها عِيانا

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها؛ فكتب إليه بأربعة أبيات

وطالبه بأربعين بيتاً. وأبياتُ إبراهيم: [الكامل]

أَأَبا عَلِيَ خَيْرُ قَوْلِكَ ما حَصَّلْتَ أَنْجَعَهُ ومُخْتَصَرَهْ
ما عِنْدَنا في البَيْعِ مِنْ غَبَنٍ لِلْمُسْتَقِلِّ بواحِدٍ عَشَرَهْ
أنا أَهْلُ ذلكَ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ أَرْضَى القَدِيمَ وأَقْتَفِي أَثَرَهْ
ها نَحْنُ وَفَّيْناكَ أَرْبَعَةً والأربعونَ لَدَيْكَ مُنْتَظَرَهْ

أخبرني الصُّوليّ قال: حدّثني القاسم بن إسماعيل قال: سمعتُ إبراهيمَ بن العبّاس وقد لبِس سوادَه يوماً يقول: يا غلامُ هاتِ ذلك السيفَ الذي ما ضرَّ الله به أحداً قطُّ غيري.

[استثقاله ابن أخيه]

قال: وسأل يوماً عن ابن أخيه طماس وهو أحمد بن عبد الله بن العبّاس فقيل له: هو مشغول بطبيب ومُنجِّم عنده، وكان يستثقله، فقال: قل له يا غلام: والله مالك في الناس طَبْعٌ؛ ولا في السماء نجم، فما لك تَكَلُّفُ هذا التّكلّف.

أخبرني الصّوليّ قال: حدّثني أحمد بن السَّخِيّ قال: أمر إبراهيم بن العبّاس أن يُجْمَعَ كلُّ أعور يَمرُّ في الطريق، فجمعوهم ووقَفُوهم وخرج ومعه طماس، فلما رأى العُور مجتمعين قال لطماس: كُلُّهم مثلُك، فاترك هذا الصَّلَف فإنه داعية إلى التَّلف.

أخبرني الصُّولِيّ قال: حدّثني مَيْمون بن موسى قال: قال الحسن بن وَهْب لإبراهيم بن العبّاس: تعالَ حتى نَعُدَّ البُغَضَاء؛ قال: ابدأ بي أوّلاً من أجل ابن أخي طماس ثم ثَنِّ بمن شئتَ.

أخبرني الصُّولِيّ قال: قال جعفر بن محمود: ركِبتُ بين يَدَيْ إبراهيم بن العبّاس. فأمَرَ الحسن بن مُخَلَّد[1] بأمرٍ فاستبطأه فيه فنظر إليه فقال:

[مجزوء الخفيف]

مُعْجِبٌ عِنْدَ نَفْسِهِ وَهْوَ لي غَيْرُ مُعْجِبِ

(١) ابن مخلد: الحسن بن مخلد بن الجراح، أبو محمد، تولى ديوان الضّياع للمتوكل العباسي، وتولى الوزارة للمعتمد. توفي سنة ٢٦٩ هـ.

إنْ أقُــلْ لا يَــقُــلْ نَــعَــم   عــاتــبٌ غَــيْــرُ مُــغْــتِــبِ
مُــوَلَــعٌ بــالــخِــلافِ لِــي   عــامِــداً وَالــتَّــجَــنُّــبِ
قُــلْــتُ فــيــهِ بِــضِــدِّ مــا   قِــيــلَ فــي أمِّ جُــنْــدبِ

يريد قولَ امرىء القيس:

«خَلِيلَيَّ مُرّا بِي عَلَى أمِّ جُنْدُبِ»

أي فأنا لا أريد أن أمرَّ بك.

قال: وأخبرني الصُّوليّ قال: حدّثناأحمد بن يزيد المُهَلَّبيّ عن أبيه قال: كان المتوكل قد ولَّى ابنَ الكلبيّ البريدَ، وأحلَفه بالطَّلاق ألاّ يَكتُمَه شيئاً من أمر الناس جميعاً ولا من أمره هو في نفسه. فكتب إليه يوماً أن امرأته خرجت مع حُبَّتها[١] في نُزْهة، وأن حُبّتها عَرْبَدتْ عليها فجرحتْها في صُدغها. فقرأه إبراهيم بن العبّاس على المتوكِّل ثم قال له: يا أمير المؤمنين، قد صحّف[٢] ابنُ الكلبيّ، إنما هو: «جرحتْها في سُرْمها»[٣]، فضحك المتوكِّل وقال: صدقتَ. ما أظن القصة إلاّ هكذا. قال: ولم يكن ابن الكلبيّ هذا من العرب، إنما كان أبوه يُلَقَّب «كلب الرَّحْل» فقيل له الكلبيّ.

[إبراهيم يستعطف محمد بن عبد الملك الزيات]

أخبرني عمِّي قال: حدّثنا ميمون بن هارون قال: كتب إبراهيم بن العبّاس إلى محمد بن عبد الملك يستعطفه: كتبت إليك وقد بلغت المُدْية[٤] المَحَزَّ، وعَدَتِ الأيامُ بك عليّ، بعد عَدْوِي بك عليها، وكان أَسْوأ ظنّي وأكثر خوفي، أن تسكُن في وقت حركَتِها، وتَكُفَّ عند أذاها، فصرتَ عليَّ أضرَّ منها، وكفَّ الصديقُ عن نُصْرتي خوفاً منك، وبادر إليَّ العدوُّ تقرُّباً إليك. وكتب تحت ذلك: **[مجزوء الوافر]**

أخٌ بَــيْــنِــي وَبَــيْــنَ الــدَّهْــرِ   صــاحَــبَ أَيُّــنــا غَــلَــبَــا
صَــدِيــقِــي مــا اسْــتَــقَــامَ فــإنْ   نَــبَــا دَهْــرٌ عَــلَــيَّ نَــبَــا

---

(١) الحُبَّة: المحبوبة.

(٢) صحّف الكلمة: حرّفها عن وضعها.

(٣) السُّرم: طرف المِعى المستقيم، والدُّبُر.

(٤) المُدْية: السّكّين.

وَثَـبْـتُ عَـلَـى الـزَّمـانِ بـهِ فَـعَـادَ بـهِ وَقَـدْ وَثَـبـا
وَلَـوْ عـادَ الـزَّمـانُ لَـنـا لَـعَـادَ بـهِ أخـاً حَـدِبـا

قال وكتب إليه: أمَا والله ولو أمِنتُ ودَّك لقلت؛ ولكني أخاف منك عَتْباً لا تُنصفني فيه، وأخشى من نفسي لائمةً لا تحتملها لي. وما قد قُدِّر فهو كائن، وعن كل حادثة أُحدوثة. وما استبدلت بحالةٍ كنتُ فيها مغتبطاً حالةً أنا في مكروهها وألَمِها أشدَّ عليَّ من أنّي فزِعت إلى ناصري عند ظلم لَحِقني، فوجدتُ من يظلِمني أخفَّ نيّة في ظُلْمي منه، وأحْمَدُ الله كثيراً. ثم كتب في أسفلها: [المتقارب]

وَكُـنْـتَ أخِـي بـإخـاءِ الـزَّمـانِ فـلـمـا نَـبـا صِـرْتَ حـرْبـاً عَـوانَـا[1]
وَكُـنْـتُ أذُمُّ إلَـيْـكَ الـزَّمـانَ فـأصْـبَـحْـتُ فِـيـكَ أذُمُّ الـزَّمـانـا
وَكُـنْـتُ أُعِـدُّك لِـلـنَّـائـبـاتِ فـأصْـبَـحْـتُ أطْـلُـبُ مِـنْـكَ الأمـانـا

أخبرني الصُّوليّ قال: أخبرني الحسين بن فَهْم قال: كان محمد بن عبد الملك قد أغْرَى الواثق بإبراهيم بن العبّاس، وكان إبراهيم يُعاتبه على ذلك ويُداريه، ثم وقف الواثق على تحامُله عليه فرفَع يدَه عنه وأمر أن يُقْبَل منه ما رَفعه، وردَّه إلى الحضْرة مَصُوناً، فلما أحسَّ إبراهيمُ بذلك بَسط لسانَه في محمد، وحسُن ما بينه وبين ابن أبي دُوَاد. وهجا محمدَ بن عبد الملك هِجاءً كثيراً؛ منه قوله:

[الطويل]

قَـدَرْتَ فَـلَـمْ تَـضْـرُرْ عَـدُوّاً بِـقُـدرةٍ وَسُـمْـتَ بـهـا إخْـوانَـكَ الـذُّلَّ والـرَّغْـمـا
وَكُـنْـتَ مَـلِـيـئاً بـالَّـتِـي قـد يَـعـافُـهـا مِـنَ الـنَّـاسِ مَـنْ يـأبَـى الـدَّنـيـئَـة والـذَّمّـا

أخبرني الصُّوليّ قال: حدّثنا ابن السَّخِيّ قال: حدّثني الحسين بن عبد الله قال: سمِعتُ إبراهيم بن العبّاس يقول لأبي تَمّام الطائي وقد أنشده شعراً له في المعتصِم: يا أبا تَمّام، أمراءُ الكلام رعِيّةٌ لإحسانك. فقال له أبو تَمّام: ذلك لأني أستضيء بك وأرِدُ شريعتَك.

أخبرني محمد بن يحيى الصُّوليّ قال: سمعت إبراهيم[2] بن المُدَبّر يقول: جرى بين إبراهيم بن العبّاس وبين أخي أحمد بن المدبّر شيء، وكان يَوَدُّني دون

(١) العَوَان: الحرب التي قوتل فيها مرّةً بعد أُخرى. والحربُ العَوانُ، أشد الحروب، وجمعها عُونٌ.
(٢) إبراهيم بن المدبّر: هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبّر أبو إسحاق، وزير وكاتب وشاعر. توفي ببغداد سنة ٢٧١ هـ.

أخي؛ فَلقِيتُه فاعتذرتُ إليه عنه؛ فقال لي: يا أبا إسحاق:

صوت [مجزوء الكامل]

خَــلِّ الــنِّــفــاقَ لأهْــلِــهِ وَعَـلَـيْـكَ فـٱلْـتَـمِسِ الـطَّـرِيـقـا
وَاذْهَــبْ بِـنَـفْـسِـكَ أنْ تُـرَى إلاّ عَــدُوّاً أوْ صَــدِيــقــا

الغناء لأبي العُبَيْس.

[احتياله على المتوكل]

أخبرني الصُّولِيّ قال: حدّثني القاسم بن إسماعيل قال: انصرف إبراهيم بن العبّاس يوماً من دار المتوكِّل فقال لنا: أنا والله مسرورٌ بشيء مغمومٌ منه. فقلنا له: وما ذاك أعزّك الله؟ قال: كان أحمد بن المُدَبّر رفَع إلى أمير المؤمنين أن بعض عُمّالي اقتطع مالاً، وصدَق في الذي قاله، وكنتُ قد رأيت هلال الشهر ونحن مع أمير المؤمنين على وجهه فدعوتُ له، وضحك إليَّ فقال لي: إن أحمد قد رَفَع على عاملك كذا وكذا فاصدُقْني عنه؛ فضاقت عليَّ الحُجّة، وخِفتُ أن أحقِّق قولَه إن اعترفت، ثم لا أرجع منه إلى شيء فيعود عليَّ الغُرْم، فعدَلْت عن الحُجَّة إلى الحيلة فقلت: أنا في هذا يا أمير المؤمنين كما قلتُ فيك:

صوت [الخفيف]

رَدَّ قَــوْلِــي وَصَــدَّقَ الأقْــوالا وَأطَــاعَ الــوُشَــاةَ والــعُــذَّالا
أتُــراهُ يَــكُــونَ شَــهْــرُ صُــدُودِ وَعَــلَــى وَجْــهِــهِ رأيْــتُ الــهِــلالا؟

قال: لا يكونُ والله ذلك بحياتي يا إبراهيم! رَوِّ هذا الشعرَ بَنَاناً حتى يُغَنِّيني فيه. فقلت: نعم يا سيدي على ألاّ يُطالَبَ صاحبي بقول أحمد. فقال للوزير: تقبَّل قولَ صاحبه في المال. فسُررتُ بالظَّفَر، واغتممتُ لبُطلان هذا المال وذَهابه بمثل هذه الحيلة، ولعله قد جُمع في زمن طويل وتعبٍ شديد.

أنشدتُ عمِّي رحمه الله أبياتاً لابن دُرَيْد[1] يمدح رجلاً من أهل البصرة:

---

(١) ابن دريد: هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أبو بكر من أئمة اللغة والأدب، من كتبه الاشتقاق والجمهرة. توفي سنة ٣٢١ هـ.

[الكامل]

يا مَنْ يُقَبِّلُ كَفَّ كُلِّ مُخَرِّقٍ ... هٰذا ابنُ يَحْيَى لَيْسَ بالمِخْراقِ
قَبِّلْ أنامِلَهُ فَلَسْنَ أنامِلاً ... لٰكِنَّهُنَّ مَفَاتِحُ الأرْزاقِ

فقال: يا بُنَيَّ هذا سرقَه هو وابنُ الرّوميّ جميعاً من إبراهيم بن العبّاس؛ قال إبراهيم بن العبّاس يمدح الفضل[1] بنَ سَهْل: [مجزوء المتقارب]

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ ... تَقَاصَرَ عَنْهَا الأمَلْ
فَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى ... وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ
وَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى ... وَسَطْوَتُهَا لِلأجَلْ

وسرقه ابن الرُّوميّ فقال: [الكامل]

أصْبَحْتُ بَيْنَ خَصاصَةٍ وَمَذَلَّةٍ ... وَالحُرُّ بَيْنَهُما يَمُوتُ هَزِيلا
فامْدُدْ إليَّ يَداً تَعَوَّدَ بَطْنُها ... بَذْلَ النَّدَى وَظُهُورُها التَّقْبِيلا

[شهادة ثعلب في إبراهيم بن العباس]

أخبرني الصُّوليّ قال: سمعتُ أحمدَ بن يحيى ثَعْلباً يقول: كان إبراهيم بن العبّاس أشعرَ المُحدَثين. قال: وما روى ثعلبٌ شعرَ كاتبٍ قطّ قال: وكان يَستحسنُ كثيراً قولَه: [الطويل]

لنا إبِلٌ كُومٌ يَضِيقُ بها الفَضا ... وَيَفْتَرُّ عَنْها أرْضُها وَسَماؤُها[2]
فَمِنْ دُونِها أنْ تُسْتَباحَ دماؤُنا ... وَمِنْ دُونِنا أنْ تُسْتَباحَ دِماؤها
حِمًى وَقِرًى فَالمَوْتُ دُونَ مَرامِها ... وَأيْسَرُ خَطْبٍ يَوْمَ حَقَّ فَناؤُها

ثم قال: والله لو كان هذا لبعض الأوائل لاستُجِيد له.

أخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال: حدّثنا محمد بن يزيد قال: سمعتُ الحسن بن رَجاء يقول: كنّا بفَم الصُّلْح[3] أيامَ بَنَى المأمونُ ببُورانَ بنتِ الحسن بن سَهْل؛ فقدِم إبراهيم بن العبّاس علينا ودخل إلى الحسن بن سَهْل فأنشده: [الطويل]

---

(١) الفضل بن سهل: هو الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس، كان حازماً عاقلاً فصيحاً من الأكفاء. توفي سنة ٢٠٢ هـ.

(٢) الكوم: الإبل العظيمة السنام واحدتها كوماء.

(٣) فم الصُّلح: نهر كبير فوق واسط عليه عدة قرى. (معجم البلدان ٤/ ٢٧٦).

لِيَهْنِئْكَ أصهارٌ أَذَلَّتْ بِعِزِّها … خُدوداً وَجَدَّعَتَ الأُنوفَ الرَّواغِما
جَمَعْتَ بها الشَّمْلَيْنِ مِنْ آلِ هاشِمٍ … وَحُزْتَ بها لِلأَكْرَمِينَ الأكارِما
بَنُوكَ غَدَوْا آلَ النَّبيّ ووارِثو الـ … خلافةِ والحاوُون كِسْرَى وهاشِما

فقال له الحسن: «شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أَخْزَمٍ»[1] أي إنَّك لم تزل تمدحنا، ثم قال له: أحسَنَ الله عنّا جزاءك يا أبا إسحاق؛ فما الكثير من فِعلنا بك بجزاءٍ لليسير من حقِّك.

أخبرني عمّي قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سَعْد قال: أنشدني إبراهيم بن العبّاس لنفسه في قَيْنة اسمها سامِر كان يهواها فغضبتْ عليه: [الطويل]

وَعَلَّمتِني كَيْفَ الهَوَى وجَهالَتِهِ … وَعَلَّمَكُمْ صَبْري على ظُلْمِكُمْ ظُلْمي
وَأَعْلَمُ ما لي عِنْدَكُمْ فَيَرُدُّني … هَوايَ إلى جَهْلٍ فأَقْصِرُ عَنْ عِلْمي

[شعره في قصر الليل]

أخبرني الصُّوليّ قال: سمعتُ عُبَيْدَ الله بن عبد الله بن طاهر يقول: لا يُعْلَمُ لقديمٍ ولا لمُحْدَثٍ في قِصَر اللّيل أحسن من قول إبراهيم بن العبّاس: [الرجز]

وَلَيْلَةٍ مِنَ اللَّيالي الزُّهْرِ … قابَلْتُ فيها بَدْرَها بِبَدْرِ
لَمْ تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وَفَجْرِ … حَتَّى تَوَلَّتْ وَهْيَ بِكْرُ الدَّهْرِ

أخبرني أحمد بن عُبَيْد الله بن عمّار قال: حدّثني أحمد بن بِشْر المَرْثَديّ قال: كان إبراهيم بن العبّاس يوماً عند أحمد بن أبي دُوَاد، فلمّا خرج من عنده لَقِيَه محمد بنُ عبد الملك الزيّات وهو خارج من داره؛ فتبيّن إبراهيمُ في وجه محمدٍ الغضبَ فلم يخاطبه في العاجل بشيء. فلما انصرف إلى منزله كتب إليه.

[مجزوء الكامل]

دَعْني أُواصِلْ مَنْ قَطَعْـ … ـتَ يَراكَ بي إذْ لا يَراكا
إنّي مَتَى أَهْجُرْ لِهَجْـ … ـرِكَ لا أَضُرُّ بِهِ سِواكا

(١) مثل قاله أبو أخزم الطائي بابنه أخزم وكان معاقاً، مات وترك له بنين، وثبوا يوماً على جدهم فأدموه فقال بهم هذا المثل:

إن بَنِيَّ ضرّجوني بالدم … شنشنة أعرفها من أخزم
من يلق آساد الرجال يكلم

وَإذا قَطَعْتُكَ فِي أخِيـ ـكَ قَطَعْتُ فيكَ غداً أخاكا
حَتَّى أرَى مُتَقَسَّماً يَوْمِي لِذا وغَدِي لذاكا

أخبرني الصُّولِيّ قال: حدّثني أبو العَيْناء قال: كنت عند إبراهيم بن العبّاس وهو يكتب كتاباً، فنقَّط من القلم نقطةً مُفسِدةً فمسَحها بكمّه؛ فتعجَّبتُ من ذلك؛ فقال: لا تَعْجَبْ، المال فرع والقلم أصل، ومن هذا السَّواد جاءت هذه الثياب، والأصل أحوج إلى المُراعاة من الفرع. ثم فكّر قليلاً وقال: [الوافر]

إذا ما الفِكْرُ وَلَّدَ حُسْنَ لَفْظٍ وَأَسْلَمَهُ الوُجُودُ إلى العِيانِ
وَوَشَّاهُ فَنَمْنَمَهُ مُسِدٌّ فَصِيحٌ في المَقالِ بلا لِسانِ[1]
تَرَى حُلَلَ البَيانِ مُنَشَّراتٍ تَجَلَّى بَيْنَها صُوَرُ المَعانِي

[المأمون يتّهمه بإفشاء سرّ]

أخبرني الصُّولِي قال: حدّثني محمد بن صالح بن النَّطاح قال: لمّا عزَم المأمون على الفتك بالفَضل بن سَهْل، وندَب له عبدَ العزيز بن عمران الطائيّ، ومُؤْنساً البِصْريّ، وخَلَفاً المِصْريّ، وعليّ بن أبي سَعْد ذا القلمين، وسِراجاً الخادم، نُمِيَ الخبرُ إلى الفضل، فأظهره للمأمون وعاتبه عليه. فلمّا قُتل الفضلُ وقتل المأمون قَتَلَتَه، سأل من أين سقَط الخبر إلى الفضل؟ فعُرِّف أنه من جهة إبراهيم بن العبّاس، فطلبه فاستتر. وكان إبراهيم عرَف هذا الخبرَ من جهة عبد العزيز بن عمران، وكان الفضل استكتب إبراهيمَ لعبد العزيز بن عِمران، فأخبر به الفضلَ. قال: وتحمَّل إبراهيمُ بالناس على المأمون، وجرَّد في أمره هشاماً الخطيبَ المعروفَ بالعبَّاسيّ وكان جريئاً على المأمون لأنه ربَّاه، وشخَص إليه إلى خُراسان في فتنة إبراهيم بن المهديّ، فلم يُجِبه المأمون إلى ما سأل. فلقِيَه إبراهيم مستتراً وسأله عمّا عمِل في حاجته. فقال له هشام: قد وعَدني في أمرك بما تُحِبّ. فقال له إبراهيم: أظنّ أن الأمر على غير هذا! قال: وما تظنّ؟ قال: محلُّك عند أمير المؤمنين أجلُّ من أن يَعِدَك شيئاً فترضَى بتأخيره، وهو أكرم من أن يَعِد مثلَك شيئاً فيؤخِّرَه، ولكنك سمعتَ ما لا تحبّ فيَّ فكرِهت أن تغمَّني به فقلت لي هذا القولَ، وأحْسَنَ الله على كل الأحوال جزاءك، فمضى هشام إلى المأمون فعرَّفه خبرَ إبراهيم، فعجِب من فِطْنته

(١) مُسِدّ: مُصيبٌ، والسداد: الصواب والاستقامة.

وعفا عنه. قال: وفي هشام يقول إبراهيم بن العبّاس: [السريع]

مَـنْ كـانَـتِ الأَمْـوالُ ذُخْـراً لَـهُ فَـإنَّ ذُخْـرِي أَمَـلِـي فـي هِـشَـام
فَـتًـى يَـقِـي الـلاَّمَـةَ عَـنْ عِـرْضِـهِ وَأَنْـهَـبَ الـمـالَ قَـضَـاءَ الـذِّمـام

[إبراهيم يمدح الفضل بن سهل]

أخبرني عمّي قال: حدّثني أبو الحسين بن أبي البَغْل قال: دخل إبراهيم بن العبّاس على الفَضْل بن سَهْل فاستأذنه في الإنشاد، فقال هاتِ، فانشده: [الكامل]

يُـمْـضِـي الأُمُـورَ عـلـى بَـدِيـهَـتِـهِ وَتُـرِيـهِ فِـكْـرَتُـهُ عَـوَاقِـبَـهـا
فَـيَـظَـلُّ يُـصْـدِرُهـا وَيُـورِدُهـا فَـيَـعُـمُّ حـاضِـرَهـا وغـائِـبَـهـا
وإذا أَلَـمَّـتْ صَـعْـبَـةٌ عَـظُـمَـتْ فـيـهـا الـرَّزِيَّـةُ كـانَ صـاحِـبَـهـا
الـمُـسْـتَـقِـلُّ بـهـا وَقَـدْ رَسَـبَـتْ وَلَـوَتْ عـلـى الأيّـامِ جـانِـبَـهـا
وَعَـدَلْـتَـهـا بِـالـحَـقِّ فـاعْـتَـدَلَـتْ وَوَسِـعْـتَ رَاغِـبَـهـا وَرَاهِـبَـهـا
وإذا الـحُـرُوبُ غَـلَـتْ بَـعَـثْـتَ لَـهـا رَأيـاً تَـفُـلُّ بـه كـتـائِـبَـهـا
رأيـاً إذا نَـبَـتِ الـسُّـيـوفُ مَـضَـى عَـزْمٌ بـهـا فَـشَـفَـى مَـضـارِبَـهَـا
أَجْـرَى إلـى فِـئَـةٍ بِـدَوْلَـتِـهـا وأقـامَ فـي أُخْـرَى نَـوادِبَـهـا
وإذا الـخُـطُـوبُ تـأثَّـلَـتْ ورَسَـتْ هَـدَّتْ فَـوَاصِـلُـهُ نَـوَائِـبَـهـا[١]
وإذا جَـرَتْ بِـضَـمِـيـرِه يَـدُهُ أَبْـدَتْ بـهِ الـدُّنْـيـا مـنـاقِـبَـهـا

وأنشدني عمّي لإبراهيم بن العبّاس في الفَضْل بن سهل وفيه غِناء:

صوت

[المتقارب]

فَـلَـوْ كـانَ لِـلـشُّـكْـرِ شَـخْـصٌ يَـبِـيـنُ إذا مـا تَـأَمَّـلَـهُ الـنَّـاظِـرُ
لَـمَـثَّـلْـتُـهُ لَـكَ حَـتَّـى تَـرَاهُ فَـتَـعْـلَـمَ أَنّـي امْـرُؤٌ شـاكِـرُ

الغناء لأبي العُبَيْس ثقيل أوّل. وفيه لرَذَاذ ثاني ثقيل. حدّثني أبو يعقوب إسحاق بن يعقوب النُّوبَختيّ قال: حدّثني جماعة من عُمومتي وأهلِنا أن رَذَاذاً صنع في هذين البيتين لحناً أُعجب به الناسُ واستحسنوه، فلما كثُر ذلك صنع فيه أبو العُبَيْس لحناً آخر، فسقَط لحنُ رذاذ واختار الناس لحنَ أبي العُبَيْس.

---

(١) تأثّلت: تأصلت.

[يمدح المتوكل وولاة العهود]

أخبرني حَنْظلة قال: حدّثني ميمون بن هارون قال: لمّا عَقَد المتوكِّلُ لولاة العهود من وَلَده ركِب بسُرَّ مَنْ رأى رَكْبةً لم يُر أحسنُ منها، وركب ولاةُ العهود بين يديه، والأتراكُ بين أيديهم أولادُهم يمشونَ، بين يدَي المتوكّل بمناطق الذهب، في أيديهم الطَّبَرْزِيناتُ[1] المُحَلاَّة بالذّهب، ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجوانحيّات[2] وسائر السفن، وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العَروس، وأذِن للناس فدخلوا إليه. فلما تكاملوا بين يديه، مَثَل إبراهيم بن العبّاس بين الصفّين، فاستأذن في الإنشاد فأذِن له، فقال: [المتقارب]

وَلَـمّـا بَـدا جَـعْـفَـرٌ فـي الـخَـمِـيـ ... ـسِ بَيْـنَ الـمـطـلّ وبَـيْـنَ الـعَـرُوس[3]
بَـدا لابِـسـاً بِـهِـمـا حُـلَّـةً ... أُزِيـلَـتْ بـهـا طـالِـعـاتُ الـنُّـحُـوس
وَلَـمَّـا بَـدا بَـيْـنَ أحْـبَـابِـهِ ... وُلاة الـعُـهُـودِ وَعِـزِّ الـنُّـفُـوس
غَـدا قَـمَـراً بَـيْـنَ أقْـمَـارِهِ ... وَشَـمْـسـاً مُـكَـلَّـلَـةً بِـالـشُّـمُـوس
لإِيـقـادِ نـارٍ وإطْـفـائِـهـا ... ويـومِ أنـيـقٍ ويـومٍ عَـبُـوس[4]

ثم أقبل على ولاة العهود فقال: [الكامل]

أضَحتْ عُرَى الإِسلام وهي مَنُوطَةٌ ... بـالـنَّـصْـرِ والإِعـزاز والـتـأيـيـدِ
بِـخَـلـيـفَـةٍ مـن هـاشِـمٍ وثـلاثـةٍ ... كَـنَـفُـوا الـخِـلافـةَ مِـنْ وُلاة عُـهُـودِ
قَـمَـرٌ تَـوافَـتْ حَـوْلَـهُ أقْـمـارُهُ ... فَـحَـفَـفْـنَ مَـطْـلَـعَ سَـعْـدِهِ بِـسُـعُـودِ
رَفَـعَـتْـهُـمُ الأيـامُ وارْتَـفَـعُـوا بـهِ ... فَـسَـعَـوْا بـأكْـرَم أنْـفُـسٍ وجُـدُودِ

قال: فأمَر له المتوكِّل بمائة ألف دِرهم، وأمر له وُلاةُ العهود بمثلها.

أخبرني عمّي قال: اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن برد الخيار في مجلس عبيد الله بن سليمان قبل وَزارته، فجعل هارون يُنشد من أشعار

---

(١) الطبرزين: الفأس وهو آلة من السلاح.
(٢) الجوانحيّات: نوع من السفن.
(٣) المطلّ: اسم مكان، والعَرُوس: من حصون البحار باليمن: (معجم البلدان ٤/ ١١٢).
(٤) عبوسٌ: شديد.

أبيه محاسنها، ويفضلها ويقدِّمها. فقال له ابن برد الخيار: إن كان لأبيك مثلُ قول إبراهيم بن العبّاس: [الرمل]

أَسَدٌ ضارٍ إذا هَيَّجْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إذا ما قَدَرا
يَعْرِفُ الأَبْعَدُ إنْ أَثْرَى ولا يَعْرِفُ الأَدْنى إذا ما افْتَقَرا

أو مثلُ قوله: [الكامل]

تَلِجُ السّنونَ بُيُوتَهُمْ وتَرَى لَهُمْ عَنْ جارِ بَيْتِهِمُ ازْوِرارَ مَناكِبِ
وَتَراهُمُ بِسُيُوفِهِمْ وشِفارِهِمْ مُسْتَشْرِفِينَ لِرَاغِبٍ أوْ راهِبِ
حامِينَ أو قارِينَ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ نَهْبَ العُفاةِ ونُهْزَةً للرَّاغِبِ

فاْذكُرْه واْفخَر به، وإلاّ فأَقْلِلْ من الافتخار والتَّطاول بما لا طائل فيه؛ فخجِل هارون. وقال عبيد الله بن سليمان: لَعَمْري ما في الكتّاب أشعر من أبي إسحاق وأبي عليّ، (يعني عمَّه الحسن بن وَهْب) ثم أمر بعضَ كُتَّابه بكَتْب المقطوعتين اللتين أنشدهما ابن برد الخيار.

أنشدني عليّ بن سليمان الأخفش لإبراهيم بن العبّاس يُهَنِّىء الحسن بن سهل بصِهْر المأمون: [البسيط]

هَنَتْكَ أُكرُومَةٌ جُلِّلْتَ نِعْمَتَها أعْلَتْ وَلِيَّكَ واجْتَثَّتْ أعادِيكا
ما كانَ يَحيا بها إلا الإمامُ وما كانَتْ إذا قُرِنَتْ بالحَقّ تَعْدُوكا

[هجاؤه محمد بن عبد الملك الزيات ومدحه المعتز]

أخبرني عمِّي قال: حدّثني محمد بن داود بن الجَرَّاح قال: حدّثني أبو محمد الحسن بن مَخْلَد قال: أودِعَ محمد بن عبد الملك الزيّات مالاً عظيماً وجوهراً نفيساً، وقد رأى تغيُّراً من الواثق فخافه وفرّق ذلك في ثِقاته من أهل الكَرْخ[1] ومُعَامِليه من التِّجَار. وكان إبراهيم بن العبّاس يُعاديه ويَرْصُد له بالمكاره لإساءته إليه، فقال أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثقَ يُغرِيه به: [مخلع البسيط]

نَصِيحَةٌ شَانَها وَزِيرُ مُسْتَحْفَظٌ سارِقٌ مُغِيرُ

(١) الكَرْخ: انظر (معجم البلدان ٤/ ٤٤٧).

وَدائِــعٌ جَــمَّــةٌ عِــظَــامٌ قَــد أُسْبِـلَـتْ دُونَـهـا الـسُّـتُـورُ
تِــسْــعَــةُ آلافِ أَلْــفِ تِـلـكَ خِـلالَـهـا جَـوْهَـرٌ خَـطِـيـرُ
بِـجـانِـبِ الـكَـرْخِ عِـنْـدَ قَـوْمٍ أَنْـتَ بِـمـا عِـنْـدَهُـمْ خَـبِـيـرُ
وَالـمَـلِـكُ الـيَـوْمَ فِـي أُمُـورٍ تَـحْـدُثُ مِـنْ بَـعْـدِهـا أُمُـورُ
قَـد شَـغَـلَـتْـهُ مُـحَـقَّـراتٌ وصَـاحِـبُ الـكَـارَةِ الـوَزِيـرُ[1]

أنشدني عليّ بن سليمان الأخفش لإبراهيم بن العبّاس يمدح المعتز[2] وفيه غناء:

صوت

[مجزوء الوافر]

سَـحُـورُ مَـحَـاجِـرِ الـحَـدَقَـهْ مَـلِـيـحٌ وَالَّـذِي خَـلَـقَـهْ
سَـواءٌ فِـي رِعَـايَـتِـهِ مُـجَـانِـبُـهُ وَمَـنْ عَـشِـقَـهْ
لِـعَـيْـنِـي فِـي مَـحَـاسِـنِـهِ رِيَـاضُ مَـحَـاسِـنٍ أَنِـقَـهْ
فَـأَحْـيَـانـاً أُنَـزِّهُـهـا وَطَـوْراً فِـي دَمٍ غَـرِقَـهْ

يقول فيها في مدح المعتزّ بالله:

فَـيَـا قَـمَـراً أَضَـاءَ لَـنَـا يُـلأْلِـىءُ نُـورُهُ أُفُـقَـهْ
يُـشَـبِّـهُـهُ سَـنَـا الـمُـعْـتَـزْ ذُو مِـقَـةٍ إِذا رَمَـقَـهْ
أَمِـيـرٌ قَـلَّـدَ الـرَّحْـمٰـ نُ أَمْـرَ عِـبَـادِهِ عُـنُـقَـهْ
وَفَـضَّـلَـهُ وَطَـيَّـبَـهُ وَطَـهَّـرَ فِـي الـوَرَى خُـلُـقَـهْ

في الأربعة الأبيات الأُوَل رَمَلٌ ذكر الهِشاميّ أنه لابن القَصَّار، ووجدتُه في بعض الكتب لعَرِيب[3].

أنشدني الأخْفَش لإبراهيم بن العبّاس يقولها لأحمد بن المُدَبّر وقد جاءه بعد

---

(١) الكَارَة: ما يجمع ويحمل على الظهر من ثياب، والمراد هنا أنه شغل بذلك الوزير الذي يهمه سرقة المال والإغارة على أموال الدولة.

(٢) المعتز: هو محمد المعتز بالله بن المتوكّل أحد الخلفاء العباسيين توفي سنة ٢٥٥ هـ.

(٣) عريب: هي بنت جعفر بن يحيى البرمكي، تكنى عريب المأمونية، شاعرة ومغنية وأديبة توفيت سنة ٢٧٧ هـ.

خلاصه من النكبة مهنِّئاً، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه، وبلغه أنه كان يحرِّض عليه ابن الزيّات: [الطويل]

وَكُنْتَ أخِي بالدّهرِ حَتّى إذا نَبا ... نَبَوْتَ فلمّا عادَ عُدْتَ معَ الدَّهْرِ
فَلا يَوْمَ إقبالٍ عَدَدْتُكَ طائلاً ... ولا يَوْم إدبارٍ عَدَدْتُكَ في وِتْرِ
وما كُنْتَ إلاّ مِثْلَ أحلامِ نائمٍ ... كِلاَ حالَتيْكَ مِنْ وفاءٍ ومن غَدْرِ

وأنشدني الصّوليّ له في أحمد بن المدبر أيضاً وقد عاتبه أحمد بن المدبّر على شيء بلغه فقال: [المجتث]

هَبِ الزَّمانَ رَماني ... الشَّأنُ في الخُلاّنِ
فِيمَنْ رمانيَ لَمّا ... رأى الزَّمانَ رمانِي
وَمَنْ ذَخَرتُ لِنَفْسِي ... فصارَ ذُخْرَ الزَّمانِ
لَوْ قِيلَ لي خُذْ أماناً ... من أعْظَمِ الحَدَثانِ
لَمَا أخَذْتُ أماناً ... إلاّ مِنَ الإخْوانِ

ومن أخبار المُعْتَضِد بالله الجارية مَجْرى هذا الكتاب: حدّثني عمّي عن جَدّي رحمهما الله قال: قال لي عُبَيد الله بن سليمان، وكان يأنس بي أُنْساً شديداً لقديم الصُّحبة وأتِلاف المَنْشأ: دعاني المعتضد يوماً فقال: ألاَ تُعاتب بدراً[1] على ما لا يزال يستعمله من التخرّق في النّفقات والإثابات والزيادات والصِّلات! وجعل يؤكِّد القول عليّ في ذلك؛ فلم أخرج عن حضرته حتى دخل إليه بدر فجعل يَستأمره في إطلاقات مُسرفةٍ ونفقات واسعة وصِلات سنيّة وهو يأذن له في ذلك كلِّه. فلما خرج رأى في وجهي إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بيني وبينه؛ فقال لي: يا عُبَيد الله قد عَرفتُ ما في نفسك، وأنا وإيّاه كما قال الشاعر:

صوت

[البسيط]

في وَجْهِهِ شافِعٌ يَمْحُو إساءَتَهُ ... مِنَ القُلوبِ مطاعٌ حَيثُما شَفَعا
مُسْتَقْبَلٌ بِالّذِي يَهْوَى وإن كَثُرَتْ ... مِنهُ الإساءةُ مَغْفُورٌ لما صَنَعا

(١) بدر: غلام المعتضد، ولاّه الشرطة يوم ولي الخلافة، ثم ولاّه فارس. قتله المكتفي سنة ٢٨٩ هـ لأنه رفض مبايعته.

وفي هذين البيتين خفيفُ رَمَلٍ. حدّثني محمد بن إبراهيم قُرَيْض قال: حدّثني أحمد بن العَلاَء قال: غنَّيتُ المُعْتَضِدَ: [مجزوء الرمل]

كَـلِّـلانـي تَـوِّجـانـي وَبِـشِـعْـرِي غـنِّـيـانـي
أطـلِـقـانـي مِـنْ وَثـاقـي وَاشْـدُدانـي بـعِـنـانـي

فاستحسنه جدّاً، ثم قال لي: ويحك يا أحمد! أمَا ترى زَهْوَ المُلك في شعره وقولِه:

كَـلِّـلانـي تَـوِّجـانـي وَبِـشِـعْـرِي غـنِّـيـانـي

واستعاده مِراراً، ثم وصَلَني كلَّ مرَّة استعاده بعشرة آلاف دِرهم، وما وصل بها مغنِّياً قبلي ولا بعدي. قال: واستعاده منِّي ستَّ مرَّاتٍ ووهب لي ستِّينَ ألفاً. وقال النُّوشجانيّ: بل وصَله بعشرة آلاف درهم مرَّةً واحدة.

صنعة أولاد الخلفاء الذُّكور منهم والإناث

(١٦٢ ـ ٢٢٤هـ ٧٧٩ ـ ٨٣٩م)

فأوّلُهم وأتقنهم صنعة وأشهرهم ذِكراً في الغِناء إبراهيم بن المهديّ؛ فإنه كان يتحقّق به تحقُّقاً شديداً ويبتذِل نفسَه ولا يستتر منه ولا يُحاشي أحداً. وكان في أوّل أمره لا يفعل ذلك إلاّ من وراء سِتر وعلى حال تصوُّنٍ عنه وتَرفُّع، إلا أن يدعوَه إليه الرَّشيد في خَلْوة والأمينُ بعدَه. فلمّا أمَّنه المأمونُ تَهتَّك بالغِناء وشُرْبِ النَّبيذ بحضرته والخروج من عنده ثَمِلاً ومع المغنِّين، خوفاً منه وإظهاراً له أنه قد خلع رِبْقَةَ[1] الخلافة من عُنُقه وهتَك سِتْره فيها حتى صار لا يصلُح لها. وكان من أعلم الناس بالنَّغم والوَتَر والإيقاعات وأطبعِهم في الغِناء وأحسنِهم صوتاً. وهو من المعدودين في طِيبِ الصّوت خاصّةً؛ فإنّ المعدودين منهم في الدولة العبّاسية: ابن جامع وعمرو بن أبي الكَتَّات وإبراهيم بن المهديّ ومُخارق، وهؤلاء من الطبقة الأولى، وإن كان بعضهم يتقدَّم. وكان إبراهيم مع علمه وطبعه مُقَصِّراً عن أداء الغِناء القديم وعن أن ينحوَ في صنعته، فكان يَحذِف نَغَم الأغاني الكثيرة العمل حذفاً شديداً ويُخفِّفها على قَدْر ما يَصلُح له ويَفِي بأدائه. فإذا عِيب ذلك عليه قال: أنا مَلِكٌ وابن ملك، أُغنِّي كما أشتهي وعلى ما ألتذّ. فهو أوّل من أفسد الغِناء القديمَ، وجعل للناس طريقاً إلى الجَسارة على تغييره. فالناس إلى الآنَ صِنفان: من كان منهم على مذهب إسحاق وأصحابه ممّن كان يُنكر تغييرَ القديم ويُعظِم الإقدام عليه ويَعيب مَنْ فعله، فهو يُغنِّي الغِناء القديمَ على جهته أو قريباً منها. ومن أخذ بمذهب إبراهيم بن المهديّ أو اقتدى به مثل مُخارق وشاريةَ ورَيِّق ومن أخذ عن هؤلاء إنما يغنِّي الغِناء القديم كما يشتهي هؤلاء لا كما غنّاه من يُنْسَب إليه،

(١) خلع ربقة الخلافة: أي خلع البيعة.

ويجد على ذلك مساعدين ممّن يشتهي أن يَقْرُبَ عليه مأخذُ الغِناء ويكره ما ثقل وثقلت أدواره، ويستطيل الزمانَ في أخذ الغِناء الجيّد على جهته بقِصَر معرفته. وهذا إذا اطّرد فإنّما الصنعة لمن غنّى في هذا الوقت لا للمتقدّمين؛ لأنهم إذا غيّروا ما أخذوه كما يَرون وقد غيّره مَنْ أخذوه عنه وأخذ ذلك أيضاً عمّن غيّره، حتى يَمضي على هذا خمسُ طبقات أو نحوُها، لم يتأدّ إلى الناس في عصرنا هذا من جهة الطبقة غِناء قديم على الحقيقة البتّة. وممن أفسد هذا الجنسَ خاصّةً بنو حَمْدون بن إسماعيل فإن أصلهم فيه مُخارق، وما نفع الله أحداً قطّ بما أخذ عنه، وزِريابُ الواثقيّة فإنها كانت بهذه الصورة تُغَيِّر الغِناء كما تريد، وجواري شارية وريِّق. فهذه الطبقة على ما ذكرتُ. ومَنْ عداهم من الدُّور بمثل[1] دُورِ غريب ودُورِ جواريها والقاسم بن زُرْزُور وولده ودُورِ بَذْل الكبرى ومن أخذ عنها، وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن مُعاذ ودُورِ آل الرَّبيع ومن جرى مجراهم ممّن تمسّك بالغِناء القديم وحمله كما سمعه، فعسى أن يكون قد بقي ممّن أخذ بذلك المذهب قليل من كثير، وعلى أن الجميع من الصحيح والمُغَيَّر قد انقضى في عصرنا هذا. فمن مشهور غِناء إبراهيم بن المهديّ:

صوت

[الكامل]

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّماءِ نُجُومَها ... بِأَكُفِّكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلالَها
أَوْ تَدْفَعُونَ مَقالَةً مِنْ رَبِّكُمْ ... جِبريلُ بَلَّغَها النَّبِيَّ فَقالَها
طَرَقَتْكَ زائرةً فَحَيِّ خَيالَها ... زَهْراءُ تَخْلِطُ بالدَّلالِ جَمالَها

الشعر لمروان بن أبي حَفْصة. والغِناء لإبراهيم بن المهديّ، ثقيلٌ أوّل بالبنصر، وذكر حَبَش أن فيه لابن جامعٍ لحناً ماخوريّاً.

---

(١) كذا في النسخ، والصواب مثل.

أخبار مروان بن أبي حَفصة ونسبه

(١٠٥ ـ ١٨٢هـ ـ ٧٢٣ ـ ٧٩٨م)

[اسمه وكنيته ونسبه وبعض أخبار آبائه]

هو مَرْوان بن سليمان بن يحيى بن أبي حَفْصة. ويُكنى أبا السِّمْط واسم أبي حَفْصة يزيد. وذكر النَّوْفَليّ عن أبيه أنه كان يهودياً، فأسلم على يَدَيْ مَرْوانَ بن الحَكَم. وأهلُه يُنكرون ذلك ويذكرون أنه من سَبْي إصْطَخْرِ[١]، وأنّ عثمان آشتراه فوهبه لمروان بن الحكم. وأخبرنا يحيى بن عليّ بن يحيى قال: حدّثنا محمد بن إدريس بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة بمثلِ ذلك. قال: وشهِد أبو حفصة الدّارَ[٢] مع مولاه مروان بن الحكم، وقاتل قتالاً شديداً وقَتل رجلاً من أَسْلَمَ يقال له بَنَان. وجُرح مروان يومئذ، أصابته ضربة قطعتْ عِلْباءه[٣] فسقط. فوثب عليه أبو حفصة واحتمله، فجعل يحمله مرَّة على عنقه ومرّة يجرُّه؛ فيتأوّه؛ فيقول له: أُسكت وٱصْبِر، فإنه إن علموا أنك حيٌّ قُتِلتَ. فلم يزل به حتى أدخله دار ٱمرأة من عَنزة فَدَاواه فيها حتى بَرِئ؛ فأعتقه مروان ونزل له عن أمّ ولدٍ له يقال لها سُكّر كانت له منها بنت يقال لها حَفْصة؛ فحضَنَها، فكُنِيَ أبا حَفْصة؛ فحفصةُ بنت مروان. قال: وكان مروان إذا ولِيَ المدينةَ وجّه أبا حَفْصة إلى اليمامة ـ وكانت مُضَافةً إلى المدينة ـ ليجمع ما فيها

---

(١) إصطخر: بلدة بفارس، وهي من أعيان حصونها ومدنها. وبها مسجد يعرف بمسجد سليمان عليه السلام (معجم البلدان ١/ ٢١١).

(٢) الدّار: يقصد بها دار عثمان بن عفان، حين قامت الفتنة ضده فقتل في عقر داره، وبذلك سمي يوم الدار.

(٣) العلباء: عَصَبةٌ في صفحة العنق.

من المال ويحمِله إليه. قال: فمرّ أبو حفصة بقريةٍ من قُرَى اليمامة يقال لها العِرْض[١]، فوقف على باب فاستسقى ماء، فخرجت إليه جارية مُعْصِرٌ[٢] فسَقَتْه فأعجَبته؛ فسأل عنها ليشتريها؛ فقيل له: هي حرّة؛ وهي مولاةٌ لبني عامر بن حنيفة. فمضى حتى قدِم حَجْراً[٣]، ثم تبِعتْها نفسُه فتزوّجها، فلم يخرج من اليمامة حتى حَمَلتْ بيحيىٰ بن أبي حَفْصة، ثم حملتْ بمحمد ثم بعبد الله ثم بعبد العزيز. فلما وقَعَتْ فتنة ابن الزُّبَيْر خرج أبو حفصة مع مروان إلى الشام.

قال محمد بن إدريس: وحدّثني أبي قال: كان مروان بن أبي الجَنُوب يقول: أمّ يحيى بن أبي حفصَة لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجَعْدي، وإنّ الشعر أتى آل أبي حفصة بذلك السبب. قال: وشَهِد أبو حَفْصة مع مَرْوان يوم الجَمَل وقاتل قتالاً شديداً. فلما ظفِر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لجأ مروان إلى مالك ابن مِسْمَع فدخل دارَه ومعه أبو حَفْصة، فقال لمالك: أغلقْ بابك. فقال له مالك: إن لم أَمْتَعْك والبابُ مفتوحٌ لم أمنعك والبابُ مُغْلَقٌ. فطلب عليّ رضي الله عنه مروانَ منه، فلم يدفعه إليه إلا برَهينة، فدفع مالكٌ الرهينَة إلى أبي حَفْصة، ومضى مروان إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال لأبي حفصة: إن حَدث حَدَثٌ بصاحبك فعليك بالرَّهينة. فلما أتى مروانُ علياً كساه كُسْوةً، فكساها مروانُ أبا حَفْصة، فغدا فيها أبو حفصة. وبلغ علياً رضي الله عنه ذلك فغضب وقال: كسوته كُسْوةً فكساها عبداً!. وشهِد أبو حفصة مع مروان مَرْجَ راهِط[٤]، وكان له بلاء. وكان أبو حفصة شاعراً.

قال أبو أحمد: قال لي محمد بن إدريس: أخبرني أبي أن أبا السِّمْط مروان ابن أبي الجَنُوب أنشده لأبي حَفْصة يوم الدّار: [الطويل]

وما قُلْتُ يَومَ الدَّارِ لِلْقَوْمِ صالِحُوا ... أَجَلْ لا، ولا اخْتَرتُ الحَياةَ على القَتْلِ
وَلٰكِنَّني قَدْ قُلْتُ لِلْقَوْمِ جالِدوا ... بأسْيافِكُمْ لا يُخْلَصَنَّ إلى الكَهْلِ

(١) العِرْض: وادي اليمامة. انظر (معجم البلدان ٤/ ١٠٢).
(٢) أعصرت: أدركت عصر شبابها.
(٣) حَجْر: مدينة اليمامة، وأم قراها. (معجم البلدان ٢/ ٢٢١).
(٤) مَرْجَ راهِط: بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج في الشعر (معجم البلدان ٥/ ١٠١).
(٥) الأصَرّ: اسم تفضيل من صَرّ الرّجل إذا صاح صياحاً شديداً.

قال: وأنشدني لأبي حَفْصة أيضاً: [الرجز]

لَسْتُ على الزِّحامِ بالأصَرّ إنّي لَوَرَّادُ حِياضَ الشَّرّ[1]
مُعاوِدٌ لِلْكَرّ بَعْدَ الكَرّ

قال يحيى وأخبرني محمد بن إدريس قال: عُكْلٌ تدّعي أنّ أبا حفصة منهم، يقولون: هو من كِنَانةَ بن عَوْف بن عبد مَنَاةَ بن طابِخة بن إلياس بن مُضَر، وقد كانوا آستَعْدَوْا عليه مروانَ بن الحَكَم، وقالوا: إنما باعته عمَّتُه لمجاعةٍ؛ فأبى هو أن يُقِرَّ لهم بذلك. ثم آستَعْدَوْا عليه عبد المَلك بن مروان أيضاً؛ فأبى إلاّ أنه رجل من العجم من سَبْي فارس، نَشأ في عُكْل وهو صغير. قال محمد بن إدريس: وولَدُ السَّمَوْأَل بن عادِياء يدَّعُونَه، والسموأل من غَسَّان. قال محمد: وزعم أهل اليمامة وعُكْلٌ وغيرهم أنّ ثلاثةَ نَفَرٍ أتَوْا مروانَ بن الحَكَم وهم أبو حفصة ورجل من تميم ورجل من سُلَيْم، فباعوا أنفسَهم منه في مجاعة نالتهم، فآستعدى أهلُ بيوتاتهم عليهم، فأقرَّ أحدُهم وهو السُّلَميُّ أنه إنما أتى مروان فباعه نفسَه وأنه من العرب؛ فدسَّ إليه مروانُ مَنْ قتله. فلمّا رأى ذلك الآخران ثَبَتا على أنهما مَوْلَيان لمروان. فأخبرني الحَسَن بن عليّ قال: حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: زعم المدائنيّ أنه كان لأبي حفصة ابنٌ يقال له مروان سمّاه مروانُ بن الحَكَم بآسمه، وليس بالشاعر، وأنه كان شجاعاً مجرّباً، وأمدَّ به عبدُ الملك بن مروان الحجّاجَ وقال له: قد بعثنا إليك مولاي ابن أبي حفصة وهو يَعْدِل ألفَ رجل. فشهد معه محاربة ابن الأشْعَث[2]، فأبْلَى بلاء حسناً وعُقِرتْ تحتَه عِدَّةُ خيول، فآحتَسَب بها الحجَّاجُ عليه من عطائه. فشكاه إلى عبد الملك وذمَّ الحجّاجَ عنده؛ فعوّضه مكانَ ما أغرمَه الحجّاجُ. وكان يحيى جدّ مروان بن سليمان جواداً مُمَدَّحاً.

أخبرنا محمد العبّاس اليزيديّ قال: حدّثنا أبو سعيد السُّكّريّ عن محمد بن حَبِيبَ عن ابن الأعرابيّ قال: أراد جرير أن يوجِّهَ ابنَه بلالَ بن جريرٍ إلى الشام في بعض أمره، فأتى يحيى ابن أبي حفصة فأودعه إيّاه، ثم بلغ بلالاً أنّ بعض بني أميَّة

(١) السموأل بن عادياء اليهودي صاحب حصن «الأبلق». اشتهر بالوفاء والشعر. توفي سنة ٦٥ قبل الهجرة.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي، وهو صاحب المعارك مع الحجاج الثقفي توفي سنة ٨٥ هـ.

يريد الخروج، فقال لأبيه: لو كَلَّفتَ هذا القرشيَّ أمري! فقال له جرير: [الطويل]

أزاداً سِوى يَحْيَى تُرِيدُ وَصاحِباً ألاَ إنَّ يَحْيَى نِعْمَ زادُ المُسافِرِ
وَما تأمَنُ الوَجْناءُ وَقْعَةَ سَيْفِهِ إذا أنْفَضُوا أو قَلَّ ما فِي الغَرائِرِ[١]

أخبرني أبو الحسن الأسَديّ قال: حدّثني الحسن بن عُلَيْل العَنزِيّ قال: يحيى تزوّج بن أبي حفصة بنتَ زياد بن هَوْذَةَ بن شَمّاس بن لأي بن أَنْف الناقة؛ فاستعدى عليه عمَّاها عبدَ الملك بن مروان وقالا: أينكِح إبراهيمُ بن عَدِيّ وهو من كنانة منك وإليك بنتَها، ويَنكِح هذا العبدُ هذه!. فقال عبد الملك: بل العبد ابن العبد والله إبراهيمُ بن عديّ ـ وكان مغمور النسب في الإسلام ـ والله لَهذا أشرفُ منه، وإن لأبيه من البلاء في الإسلام ما ليس لأبيها ولا لأبيكما، وما أُحِبُّ أنّ لي بيحيى ألفاً منكما. والله لو تزوّج بنتَ قيس بن عاصم ما نزعتُها منه. ومَنْ زوّجه فقد زوّج ابني هذا، وأشار إلى ابنه سليمان. وتخلّف يحيى بعدهما؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنهما قد أنْضيا رِكابَهما وأخلقا ثيابهما والتزما مؤونة في سفرهما، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعوضهما عِوَضاً! فقال: أبْعَدَ ما قالا فيك! قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: بل أعطيك أنت ما سألتَ لهما وتُعطيهما ما شئتَ. فكساه ووصَله وحمله. فخرج يحيى إليهما ففرّق ذلك عليهما، وزوّج ابنَه سليمان بنتَ أحدهما، وولدتْ بنتُ زياد منه أولاداً. أخبرني عليّ بن سليمان الأخْفَش قال: حدّثنا الفضل اليزيديّ قال: حدّثني إسحاق بن إبراهيم الموصليّ قال: حدّثني مروان بن أبي حفْصة قال:

دخل يحيى بن أبي حفصة على الوليد بن عبد الملك لمّا بُويع له بالخلافة بعد أبيه، فهنّأه وعزّاه وأنشده: [الكامل]

إنَّ المَنايا لا تُغادِرُ واحِداً يَمْشِي بِبِزَّتِهِ ولا ذا جُنَّةْ[٢]
لَوْ كانَ خَلْقٌ لِلْمَنايا مُفْلِتاً كانَ الخَلِيفَةُ مُفْلِتاً مِنْهُنَّهْ
بَكَتِ المنابِرُ يَوْمَ ماتَ وإنَّما بَكَتِ المنابِرُ فَقْدَ فارِسِهُنَّهْ
لَمّا عَلاهُنَّ الوَلِيدُ خَلِيفَةً قُلْنَ ابنُهُ وَنَظِيرُهُ فَسَكَنَّهْ
لَوْ غَيْرُهُ قَرَعَ المَنابِرَ بَعْدَهُ لَنَكِرْنَهُ فطَرَحْنَهُ عَنْهُنَّهْ

(١) أنفض القوم: هلكت أموالهم وفني زادهم، والوجناء: الناقة الشديدة. والغرائر: جمع غرارة، وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه.
(٢) الجنة: الدرع والحافظ. ومنه: الصيام جُنّة.

أخبرني أبو الحسن الأسَديّ قال: حدّثنا العَنزيّ قال: خطب يحيى بن أبي حفصة إلى مُقاتل بن طُلْبة بن قَيْس بن عاصم المِنْقَريّ ابنته وأخْتَيْه، فأنعَمَ له[1] بذلك. فبعث يحيى إلى بنيه سليمان وعمر وجميل، فأتَوْه بالجَفْر[2] فزوّجهن بَنِيه ثلاثتَهم، ودخلوا بهنّ ثم حملوهن إلى حَجْر. فقال الفُلاَحُ ابن حَزْن المِنْقَريّ في ذلك: [الطويل]

سلامٌ على أوْصالِ قَيْسِ بْنِ عاصِمٍ ... وَإنْ كُنّ رَمْساً في التُّرابِ بَوَالِيَا
أضَيَّعتُمُوا خَيْلاً عِراباً فأصْبَحَتْ ... كَواسِدَ لا يَنْكِحْنَ إلاّ المَوالِيا
فَلَمْ أرَ أبْراداً أجَرَّ لِخِزْيَةٍ ... وَألأمَ مَكْسُوّاً وألأمَ كاسِيا
مِنَ الخَزِّ واللائي بِحَجْرٍ عَلَيْكُمُ ... نُشِرْنَ فَكُنَّ المُخْزِياتِ البَواقِيا

فقال يحيى يردّ عليه: [الطويل]

ألاَ قَبَّحَ الله الفُلاَحَ وَنِسْوَةً ... على البئرِ يُغطِشْنَ الكِلابَ من النَّتْنِ
نَكَحْنا بناتِ القَرْمِ قَيْس بْنِ عاصِمٍ ... وَعَمْداً رَغِبنا عَنْ بناتِ بني حَزْنِ
أبَاً كان خَيْراً مِنْ أبِيكَ أرُومَةً ... وَأوْسَطَ في سَعْدٍ وأرْجَح في الوَزْنِ
لَبيتِ بَني حَزْنٍ من الذُّلِّ وَهْنَةٌ ... كَوَهْنَةِ بَيْتِ العَنْكَبُوتِ الّتي تَبْني
وَلم تَرَ حَزْنِيّاً، وَلَوْ ضَمَّ أرْبعاً ... وَأبْرَزَ، في فَرْجٍ يَعِفُّ ولا بَطْنِ[3]
وَضَيْفُ بني حَزْنٍ يَجُوعُ وجارُهُمْ ... إذا أمِنَ الجِيرانُ ناءٍ مِنَ الأمْنِ[4]

أخبرنا يحيى بن عليّ قال: أنشدني محمد بن إدريس ليحيى يذكر خروجَ يزيد ابن المُهَلَّب ويتأسّف على الحَجّاج: [البسيط]

لا يُصْلِحُ النّاسَ إلاّ السَّيْفُ إذْ فُتِنُوا ... لَهفِي عَلَيْكَ ولا حَجّاجَ لِلدِّينِ
لو كانَ حَيّاً غداةَ الأزْدِ إذْ نَكَثُوا ... لَمْ يُخْصِ قتلاهُمُ حُسّابُ ديرينِ
لم تأتِهِ الأزْدُ عندَ الباب تَرْبُصُهُ ... مِثْلَ الجَرادِ تَنَزَّى في التَّبابينِ[5]

---

(١) أنعم له: قال نعم.
(٢) اسم لمواضع عدة. (انظر معجم البلدان ٢/ ١٤٦).
(٣) أبرز: ملك الإبريز، وهو الذهب، أراد: كثر ماله.
(٤) ناءٍ: بعيد.
(٥) تربصه: تنتظره. والتبابين: جمع تُبّان وهو سراويل صغير (فارسي معرب).

مِنْ كُلِّ أَفْحَجَ ذي حَنْفٍ مُخالِفَةٍ ... أرفَتْ به السُّفنُ عِلْجاً غير مَجْنونِ(١)

قال أبو أحمد: وأنشدني ليحيى في سفيان بن عمرو والي اليمامة: [البسيط]

لقد عَصاني ابنُ عَمْرٍو إذ نَصَحْتُ لَهُ ... وَلَوْ أُطِعْتُ لما زَلَّتْ بهِ القَدَمُ

لو كُنْتُ أنفُخُ في فَحْمٍ لَقَدْ وَقَدَتْ ... نارِي وَلٰكِنْ رمادٍ ما لَهُ حَمَمُ

[بخل مروان بن أبي حفصة]

وليحيى أشعارٌ كثيرة؛ وإنما ذكرنا ها هنا منها ما ذكرنا لنعرِف أعْراقَ مروان في الشعر. وكان مروان أبخَل الناس على يَساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء، لا سيّما من بني العبّاس، فإنه كان رَسْمُهم أن يُعطوه بكل بيت يمدحهم به ألفَ درهم.

أخبرنا أحمد بن عَمّار قال: حدّثنا عليّ بن محمد النَّوْفَليّ قال: سمعت أبي يقول: كان المهديّ يُعطي مروان وسَلْماً الخاسر عطيّة واحدة، وكان سَلْمٌ يأتي بابَ المهديّ على البِرْذَون قيمتُه عشرةُ آلاف درهم، والسَّرجِ واللجامِ المَقْذُوذين(٢)؛ ولباسُه الخَزُّ والوَشْي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحة المسك والغالية والطِّيب تفوح منه، ويجيء مروان وعليه فَرْوُ كبشٍ، وقميصُ كَرَابِيس(٣) وعمامةُ كرابيس، وخُفَّا كَبْلٍ(٤) وكساءٌ غليظٌ مُنْتِنُ الرائحة، وكان لا يأكل اللَّحم بخلاً حتى يَقْرَم إليه(٥) فإذا قَرِم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله. فقيل له: نَراك لا تأكل إلاَّ الرؤوس في الصَّيف والشتاء، فلم تختار ذلك؟ قال: نعم! الرأس أعرف سعره، ولا يستطيع الغلام أن يغبِنَني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدِر أن يأكل منه، إن مسَّ عيناً أو أذناً أو خَدّاً وقفتُ عليه، فآكل منه ألواناً، آكل عينيه لوناً، وأُذُنيه لوناً، وغَلْصَمته(٦) لوناً، وأُكفَى مؤنَة طَبْخه، فقد اجتمعتْ لي فيه مرافق.

(١) الأفحج: المصاب بالفحج، والفحج إعوجاج في الرجلين انظر لسان العرب مادة (فحج). والحنف إعوجاج الرجل إلى الداخل. وأرفت السفينة: أقربت من المرفأ. والمجنون: المغطّى، من جنه الليل إذا ستره وغطّاه.

(٢) المقذوذ: المُزَيَّن.

(٣) الكرابيس: جمع كرباس وهو هنا اللباس الخشن.

(٤) الكبل: الكثير الصوف من الفراء.

(٥) يقرم إلى اللحم: يشتهيه، وتشتد شهوته إليه.

(٦) الغلصمة: اللحم بين الرأس والعنق.

أخبرنا يحيى بن عليّ قال: أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر عن أبي العَلاَءَ المِنْقَرِيّ قال: حدّثني موسى بن يحيى قال: أوْصَلْنا إلى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع إليها مالاً حتى تمَّت مائةَ ألف وخمسين ألف درهم، وأودَعها يزيد بن مَزْيَد. قال: فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيَد، وكانت فيه دُعابة، فقال: يا أبا عليّ أودَعَني مروان خمسين ومائة ألف درهم وهو يشتري الخبز من البقَّال. قال فغضب يحيى ثم قال: عليَّ بمروان، فأُتِيَ به. فقال له: أخبرَني أبو خالد بما أوْدَعتَه من المال وما تبتاعه من البقّال، والله لما يُرَى من أَثَر البخل عليك أضرُّ من الفقر لو كان بك.

وأخبرنا يحيى قال: وحدّثني عمر بن شبَّة عن أبي العَلاَء المِنْقَريّ عن موسى بهذا الخبر، إلاّ أنه قال: فقال له يحيى: يا مروان، والله لا البُخْلُ أَسْوَأ عليك أثراً من الفقر لو صرتَ إليه. فلا تَبْخَل.

أخبرنا يحيى قال: حدّثني عمر بن شبّة قال: بلغني أن مروان بن أبي حفصة قال: ما فَرِحتُ بشيء قطّ فَرَحي بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ، فوزنتُها فزادتْ درهماً فاشتريتُ به لحماً.

أخبرنا يحيى قال: حكى أبو غَسَّان عن أبي عُبَيْدة عن جَهْم بن خَلَف قال: أتينا اليمامةَ فنزلنا على مروان بن أبي حفصة، فأطعمنا تمراً، وأرسل غلامَه بفَلْس وسُكُرُّجَة[1] ليشتري له زيتاً. فلما جاء بالزيت قال لغلامه: خُنْتَني! قال: من فَلْس كيف أخونك! قال: أخذتَ الفَلْس لنفسك واستوهبت الزيتَ.

أخبرنا يحيى قال: أخبرنا أصحاب التَّوَّزِيّ عنه قال: مرَّ مروان بن أبي حفصة في بعض سَفَراته وهو يريد مِنيً بامرأة من العرب فأضافته، فقال: لله عليّ إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهماً، فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاها أربعة دَوَانق[2].

أخبرنا يحيى قال أخبرني أبي عن أبي دِعامة قال: اشترى مروان لحماً بنصف درهم، فلما وضعه في القِدْر وكاد أن ينضَج، دعاه صديق له، فردَّه على القَصَّاب بنُقصان دانقٍ. فشكاه القصّابُ وجعل ينادي: هذا لَحْمُ مروان، وظنّ أنه يأنَف

(١) السكرّجة: الصحفة.

(٢) الدانق: سدس الدينار والدرهم. وجمعه دوانق ودوانيق.

لذلك. فبلغ الرشيدَ ذلك فقال: ويلك! ما هذا! قال: أكره الإسراف.

أخبرنا يحيى قال: أخبرني أبي عن أبي دِعامة قال: أُنْشِدتُ لرجل من بني بكر بن وائل في مروان: [الطويل]

وَلَيْسَ لِمَرْوانٍ على العِرْسِ غَيْرَةٌ وَلٰكِنَّ مَرْواناً يَغَارُ على القِدْرِ

أخبرنا يحيى قال: أخبرني أبو هِفَّان قال: حدّثني يحيى بن الجَوْن العَبْديّ قال: فرَّق المهديُّ على الشعراء جوائزَ، فأعطى مروانَ ثلاثين ألفاً. فجاءه أبو الشَّمَقْمَق فقال له: أجِزْني من الجائزة. فقال له: أنا وأنتَ نأخذ ولا نُعْطِي. قال: فاسمع منّي بيتين. قال: هاتِ. فقال أبو الشَّمَقْمق: [السريع]

لِحْيَةُ مَرْوانَ تَقِي عَنْبرا خَالَطَ مِسْكاً خالِصاً أَذْفَرا[١]

فَما يُقيمانِ بها ساعَةً إلاّ يَعُودان جَمِيعاً خَرَا

فأمر له بدرهمين. وأخبرني بهذا الخبر أحمد بن جعفر جَحْظة عن أبي هِفَّان فذكر مثل الخبر الماضي وزاد فيه. فأعطاه عشرة دراهم، فقال له خذ هذه ولا تكن راوية الصِّبيان.

أخبرني محمد بن مَزْيَد بن أبي الأزهر قال: حدّثنا الزبير بن بَكّار قال: حدّثني عمِّي مُصْعَب عن جدِّي عبدِ الله بن مصعب قال: دخل مروان بن أبي حفصة على موسى الهادي، فأنشده قولَه فيه: [الطويل]

تَشَابَهَ يومَا بأسِهِ ونوالِهِ فما أحَدٌ يَدْرِي لأيِّهما الفَضْلُ

فقال له الهاديّ: أيّما أحبّ إليك: أثلاثونَ ألفاً مُعَجَّلةً أم مائةُ ألف تدوَّن في الدَّواوين؟ فقال له: يا أمير المؤمنين أنت تحسن ما هو خير من هذا ولكنَّك نَسِيتَه، أفتأذَن لي أن أُذَكِّرك؟ قال نعم. قال: تُعَجِّل لي الثلاثين ألفاً وتدوِّن المائة الألف في الدَّواوين. فضحِك وقال: يعجَّلان جميعاً؛ فحُمِل المالُ إليه أجمع.

أخبرني أحمد بن عُبَيْد الله بن عمّار قال: حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني سليمان بن جعفر قال: حدّثني أحمد بن عبد الأعلى قال: اجتمع مروان بن أبي حَفْصة وأبو محمد اليزيديّ عند المهديّ؛ فابتدأ مروان يُنْشد:

---

(١) المسك الأذفر: جيد المسك وأفضله.

طَـرَقَـتْـكَ زائـرةً فَـحَـيِّ خَـيـالَـهـا

فقال اليزيديّ: لَحن والله وأنا أبو محمد. فقال له مروان: يا ضعيف الرأي أهذا لي يقال! ثم قال:

بـيَـضْـاءُ تـخـلِـطُ بـالـجـمـالِ دلالَـهـا

فقال له بعض من حضر: يا أمير المؤمنين أيَتكَنَّى في مجلسك! (يعني اليزيديّ) فقال: أعذِروا شيخَنا، فإن له حُرْمة.

أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قال: حدّثنا عمر بن شبّة قال: حدَّثني إسحاق الموصليّ قال: أخبرني مروان بن أبي حفْصة قال: قال لي الرشيد: هل دخلتَ على الوليد بن يزيد؟ فقلت: نعم دخلت مع عمومتي إليه. قال: فأخبِرني عنه. قال: فذهبتُ أتَزحزح. فقال لي: إنَّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول، فقل ما شئت. فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من أجمل الناس وأشدّهم وأشعرهم وأجودهم. دخلتُ عليه مع عُمومتي ولي لِمَّةٌ[1] فَيْنانة[2]، فجعل يغمِز القضيبَ فيها ويقول: ولَدَتْك سُكَّر؟ ـ وهي أمُّ وَلدٍ لمروان بن الحكم فوهبها لجَدّي أبي حفصة فولَدتْ منه ـ فقلت له: نعم. قال لي الرشيد: فهل تحفَظ من شعره شيئاً؟ قلت: نعم، سمعته يُنشد في خلافته وذكر هشاماً وتَحامُلَه عليه وما كان يريد من نَقْص أمره وولايته: [الكامل]

لـيـتَ هِـشـامـاً عـاشَ حـتـى يَـرَى مِـكْـتَـلَـهُ الأوفَـرَ قَـدْ أُتـرِعـا[3]
كِـلْـنـا لَـهُ الـصَّـاعَ الـتـي كـالَـهـا ومـا ظَـلَـمْـنـاهُ بـهـا أَصْـوُعَـا
وَمـا أَتَـيْـنـا ذاكَ عـن بِـدْعَـةٍ أَحَـلَّـهُ الـفُـرْقـانُ لِـي أَجْـمَـعـا[4]

فقال الرشيد: يا غلامُ، الدواةَ والقرطاسَ، فأُتِيَ بهما، فأمر بالأبيات فكُتبت.

(١) اللمّة: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة، ويجاوز شحمة الأذنين.
(٢) اللمة الفينانة: الطويلة الشعر، الحسنة.
(٣) المكتل: زبيل من خوص يحمل فيه التمر. وأُترع: ملىء.
(٤) الفرقان: القرآن.

[شعره ورأي النقاد وعلماء اللغة فيه]

أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المهلَّبيّ قالاَ: حدّثنا عمر بن شبَّة قال: حدّثني خَلاَّدٌ الأَرْقَط قال: جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حَلْقة يونس[1]، فأخذ بيد خَلَف الأحمر فأقامه، وأخذ خَلَفٌ بيدي فقمنا إلى دار أبي عُمَيْر فجلسنا في الدهليز. فقال مروان لخَلَفٍ: نَشَدْتُك الله يا أبا مُحْرِز إلاّ نصحتني في شعري فإن الناس يُخْدَعون في أشعارهم، وأنشده قولَه: [الكامل]

طَرَقَتْكَ زائِرةٌ فَحَيِّ خَيالَها   بَيْضاءُ تَخْلِطُ بالجمالِ دَلالَها

فقال له: أنت أشعر من الأعشى في قوله:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوةً أجْمالَها

فقال له مروان: أتَبْلُغ بيَ الأعشى هكذا! ولا كُلّ ذا! قال: ويحك! إنّ الأعشى قال في قصيدته هذه:

فأصابَ حَبَّةَ قَلْبِها وَطِحَالَها

والطِّحال ما دخل قطُّ في شيء إلا أفسده، وأنت قصيدتُك سليمة كلّها. فقال له مروان: إني إذا أردتُ أن أقول القصيدة رفعتُها في حول، أقولها في أربعة أشهر، وأنتخلها في أربعة أشهر، وأَعْرِضُها في أربعة أشهر.

وأخبرني بهذا الخبر هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال: حدّثنا عيسى بن إسماعيل عن محمد بن سَلاّم قال أبو دُلَف هاشم بن محمد وحدّثني به الرِّياشيّ عن الأصمعي قال: جاء مروان بن أبي حفصة إلى حَلْقة يونس، فسلَّم ثم قال لنا: أيُّكم يونس؟ فأَوْمأنا إليه. فقال له: أصلحك الله! إني أرى قوماً يقولون الشعر، لأن يَكْشِف أحدهم سوءته ثم يمشيَ كذلك في الطريق أحسنُ له من أن يُظهر مثلَ ذلك الشعر. وقد قلتُ شعراً أَعْرِضه عليك، فإن كان جيِّداً أظهرتُه، وإن كان رديئاً سترتُه. فأنشده قولَه:

طرقتْكَ زائرةٌ فَحَيِّ خَيالَها

---

(١) يونس النحوي: إمام نحاة البصرة، علامة بالأدب توفي سنة ١٨٢ هـ.

فقال له يونس: يا هذا إِذْهَبْ فأظْهِر هذاالشعر فأنت والله فيه أشعر من الأعشى في قوله:

رحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أجْمالَها

فقال له مروان: سررتني وسُؤتني. فأمّا الذي سررتني به فٱرتضاؤك الشعر. وأمّا الذي ساءني فتقديمُك إيّاي على الأعشى وأنت تعرف محلَّه. فقال: إنما قدَّمتُك عليه في تلك القصيدة لا في شعره كلّه لأنه قال فيها:

فأصابَ حبَّة قلبها وطِحالَها

والطِّحال لا يدخل في شيء إلاّ أفسده، وقصيدتُك سليمة من هذا وشِبْهه.

أخبرني هاشم بن محمد قال: حدّثني العبّاس بن ميمون طائع قال: سمِعتُ الأصمعيّ ذكَر مروان بن أبي حفصة فقال: كان مولَّداً، لم يكن له علم باللغة.

أخبرني هاشم بن محمد قال: حدّثني أحمد بن عُبَيد الله عن العُتْبيّ قال: حدّثني بعض أصحابنا قال: أنشدنا مروانُ بن أبي حفصة يوماً شعر زهير ثم قال: زُهَيْر والله أشعر الناس، ثم أَنْشد للأعشى فقال: الأعشى أشعر الناس، ثم أَنْشد شعراً لامرئ القيس فقال: ٱمرؤ القيس أشعر الناس، ثم قال: والناسُ والله أشعرُ الناس. أي إن أشعر الناس من أنشدتُ له فوجدته قد أجاد، حتى يُنْتَقل إلى شعر غيره.

[شراؤه شعر غيره]

أخبرني أحمد بن عُبَيد الله بن عَمّار قال: حدّثني عليّ بن محمد النَّوْفَليّ قال: حدّثني أبي قال: اجتاز مروانُ بن أبي حَفْصة برجل من باهِلَة من أهل اليمامة وهو يُنشد قوماً كان جالساً إليهم شعراً مدح به مروانَ بن محمد، وإنه قُتِل قبل أن يلقاه ويُنشدَه إيَّاه، أوّلُه: [الكامل]

مَرْوانُ يابْنَ مُحَمَّد أنتَ الَّذِي ... زِيدَتْ بِهِ شَرَفاً بَنُو مَرْوانِ

فأعجبتْه القصيدة، فأمهل الباهليَّ حتى قام من مجلسه، ثم أتاه في منزله فقال له: إني سمعتُ قصيدتَك وأعجبتْني، ومروان قد مضى ومضى أهلُه وفاتكَ ما قد رُمتَه عنده؛ أتبيعني القصيدةَ حتى أنتحلَها، فإنه خير لك من أن تَبقَى عليك وأنت فقير؟ قال نعم. قال: بكم؟ قال: بثلاثمائة درهم. قال: قد ٱبتعتُها؛ فأعطاه

الدراهمَ وحلَّفه بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المُحْرِجة ألاّ يَنْتحلها أبداً ولا ينسبها إلى نفسه ولا يُنْشدَها، وانصرف بها إلى منزله، فغيَّر منها أبياتاً وزاد فيها، وجعلها في مَعْن، وقال في ذلك البيتِ:

مَعْنُ بن زائدةَ الَّذي زِيدَتْ به شَرَفاً إلى شَرَفٍ بَنو شَيْبانِ

ووفَد بها إلى مَعْن بن زائدة فملأ يديه، وأقام عنده مدةً حتى أثْرى[١] واتَّسعت حالُه. فكان معنٌ أوّل من رفع ذكره ونوَّه به. قال: وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومَراثٍ حسنةٌ.

أخبرني حبيب بن نصر المُهَلَّبيُّ قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني محمد بن نُعَيم البَلْخيّ أبو يونس قال: حدّثني مروان بن أبي حفصة وكان لي صديقاً قال: كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً، وجعل فيه مالاً، فحدّثني معن بن زائدة باليمن أنه اضطُرّ لشدَّة الطلب إلى أن أقام في الشمس حتى لوَّحتْ وجهَه، وخفَّف عارضيه ولِحْيتَه، ولبِس جُبَّةَ صوف غليظة، وركب جملاً من الجمال النَّقَّالة ليمضيَ إلى البادية فيُقيمَ بها، وكان قد أبْلَى في حرب يزيد بن عمر بن هُبَيْرة بلاءً حسناً غاظ المنصور وجدَّ في طلبه. قال مَعْنٌ: فلما خرجتُ من باب حَرْب[٢] تَبِعني أسودُ متقلِّداً سيفاً، حتى إذا غِبتُ عن الحرس قبض على خِطام جملي فأناخه وقبَض عليّ؛ فقلت له: ما لَكَ؟ قال: أنت طَلِبةُ أمير المؤمنين. قلت: ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين! قال: مَعْنُ بن زائدة. فقلت: يا هذا اتّق الله! وأين أنا من معن! قال: دَعْ هذا عنك فأنا والله أعْرَفُ به منك. فقلت له: فإن كانت القصّة كما تقول فهذا جوهرٌ حمَلتُه معي يَفِي بأضعاف ما بذله المنصورُ لمن جاءه بي، فخُذْه ولا تَسفِكْ دمي. قال: هاتِه فأخرجتُه إليه؛ فنظر إليه ساعة وقال: صدَقتَ في قيمته، ولستُ قابِلَه حتى أسألك عن شيء، فإن صدَقْتني أطلقتُك. فقلت: قُلْ. قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه؟ قلت لا. قال: فنصفَه؟ قلت لا. قال: فثُلُثَه؟ قلت لا. حتى بلغ العُشْر فاستحيَيْتُ فقلت: أظنّ أنّي قد فعلتُ هذا، فقال: ما أراك فعلتَه! أنا والله راجل، ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا

(١) أثْرى: غني.

(٢) باب حرب: موضع ببغداد. (انظر معجم البلدان ٢/ ٢٣٧).

الجوهر قيمتُه آلافُ الدنانير، وقد وهبتُه لك، ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلمَ أن في الدنيا أجود منك، فلا تُعْجِبَك نفسُك ولتَحْقِرَ بعد هذا كلَّ شيء تفعله، ولا تتوقَّفَ عن مكرمة. ثم رمى بالعقد في حِجْرِي وخلَّى خِطامَ البعير وأنصرف. فقلت: يا هذا قد والله فضحتَني، ولَسَفْكُ دمي أهونُ عليَّ ممّا فعلتَ، فخذ ما دفعتُه إليك فإنّي غنيٌّ عنه. فضَحِك ثم قال: أردتَ أن تكذّبني في مَقامي هذا، والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً أبداً، ومضى. فوالله لقد طلبتُه بعد أن أَمِنتُ وبذلتُ لمن جاءني به ما شاء فما عرَفتُ له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته.

قال: وكان سبب رضا المنصور عن مَعْن أنه لم يزل مستتِراً حتى كان يومُ الهاشِمية(١)، فلما وثَب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثَب مَعْن وهو متلثّم فانتضى سيفَه وقاتل فأبلى بلاءً حسناً، وذبَّ القومَ عنه حتى نجا وهم يُحاربونه بعدُ، ثم جاء والمنصورُ راكب على بغلة ولجامُها بيد الرَّبيع؛ فقال له: تنحَّ فإنّي أحقُّ باللِّجام منك في هذا الوقت وأعظمُ فيه غَناء. فقال له المنصور: صدَق فادفعه إليه؛ فأخذه ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحالُ. فقال له المنصور: من أنتَ لله أبوك؟ قال: أنا طَلِبتُك يا أمير المؤمنين مَعْنُ بن زائدة. قال: قد أمَّنك الله على نفسك ومالك، ومثلك يُصْطَنع. ثم أخذه معه وخلَع عليه وحَباه وزيَّنه. ثم دعا به يوماً وقال له: إنِّي قد أمَّلتك لأمر، فكيف تكون فيه؟ قال: كما يحبّ أمير المؤمنين ـ قال: قد ولَّيتك اليمنَ، فأبسُط السيف فيهم حتى يُنْقَض حِلفُ ربيعةَ واليمن ـ قال: أبْلُغ من ذلك ما يحبّ أمير المؤمنين. فولاّه اليمنَ وتوجَّه إليها فبسط السيفَ فيهم حتى أسرف.

قال مروان: وقدِم مَعْن بعَقِب ذلك فدخل على المنصور فقال له بعد كلام طويل: قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شيءٌ لولا مكانُك عنده ورأيُه فيك لغضِب عليك. قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما تعرّضتُ لك منك، قال: إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألفَ دينار لقوله فيك: [الكامل]

مَـعْـنُ بـن زائـدةَ الـذي زِيـدَتْ بـهِ ... شَـرَفـاً إلـى شَـرَفٍ بـنـو شَـيْـبـانِ
إن عُـدَّ أيّـامُ الـفِـعـالِ فـإنَّـمـا ... يَـومـاهُ يَـوْمُ نَـدًى ويـومُ طِـعـانِ

---

(١) الهاشمية: مدينة بناها أبو العباس السفاح بالكوفة. (معجم البلدان ٥/ ٣٨٩).

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بلغك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله: [الكامل]

مـا زِلْـتَ يَـوْمَ الـهـاشِـمِـيَّـة مُـعْـلِـمـاً بـالـسَّـيْـفِ دُونَ خَـلِـيـفَـةِ الـرَّحْـمْـنِ
فَـمَـنَـعْـتَ حَـوْزَتَـهُ وَكُـنْـتَ وِقـاءَهُ مِـنْ وَقْـعِ كُـلِّ مُـهَـنَّـدٍ وَسِـنـانِ

فاستحيا المنصور وقال: إنما أعطيته ما أعطيته لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! والله لولا مخافة النَّقمة عندك لأمْكَنْته من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته إيّاها، فقال له المنصور: لله درك من أعرابيّ! ما أهْوَنَ عليك ما يَعَزُّ على الرجال وأهل الحزم! أخبرني حبيب بن نصر قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني عبد الله ابن محمد بن موسى قال: أخبرني محمد بن موسى بن حمزة قال: أخبرني الفضل بن الرَّبيع قال:

رأيت مروانَ بن أبي حفصة وقد دخل على المَهديّ بعد وفاة معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سَلْمُ الخاسر وغيره، فأنشده مديحاً فيه، فقال له: ومن أنت؟ قال: شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروان بن أبي حفصة. فقال له المهديّ: ألست القائل: [الوافر]

أقَـمْـنـا بِـالـيَـمـامَـةِ بَـعْـدَ مَـعْـنٍ مُـقـامـاً لا نُـرِيـدُ بِـهِ زَوالا
وعَـقُـلْـنـا أيْـنَ نَـرْحَـلُ بَـعْـد مَـعْـنٍ وَقَـدْ ذَهَـبَ الـنَّـوالُ فـلا نَـوالا

قد ذهب النَّوالُ فيما زعمتَ، فلم جئتَ تطلب نوالَنا؟ لا شيء لك عندنا، جُرُّوا برجله، فَجَرُّوا برجله حتى أُخْرِج. قال: فلما كان من العام المقبل تلطَّف حتى دخل مع الشعراء ـ وإنما كانت الشعراءُ تدخل على الخلفاء في كلّ عام مرّة ـ فَمَثَل بين يديه وأنشده بعد رابع أو بعد خامس من الشعراء: [الكامل]

طَـرَقَـتْـكَ زائِـرَةً فَـحَـيِّ خَـيـالَـهـا بَـيْـضـاءَ تَـخْـلِـط بـالـجَـمـال دلالَـهـا
قـادَتْ فـؤادَكَ فـاسـتـقـادَ وَمِـثْـلُـهـا قـادَ الـقُـلُـوبَ إلـى الـصِّـبـا فـأمـالَـهـا

قال: فأنصتَ الناسُ لها حتى بلغ إلى قوله:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّماءِ نُجُومَها بِـأكُـفِّـكُـمْ أوْ تَـسْـتُـرُونَ هِـلالَـهـا
أوْ تَـجْـحَـدُونَ مَـقـالَـةَ عَـنْ رَبِّـكُـمْ جِـبْـرِيـلُ بَـلَّـغَـهـا الـنَّـبِـيَّ فَـقَـالَـهـا

شَهِدَتْ مِنَ الأنفالِ آخِرُ آيةٍ   بتُراثِهم فأَرَدْتُمُ إِبْطالَها[1]

قال: فرأيت المهديَّ قد زحَف من صدر مُصَلاَّه حتى صار على البِساط إعجاباً بما سمع، ثم قال: كم هي؟ قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم. فكانت أوّل مائةِ ألف درهم أُعطيها شاعرٌ في أيام بني العبّاس.

قال: ومضت الأيام ووليَ هارون الرشيدُ الخلافة، فدخل إليه مروان؛ فرأيته واقفاً مع الشعراء ثم أنشده قصيدة آمتدحه بها. فقال له: من أنت؟ قال: شاعرُك وعبدُك يا أمير المؤمنين مروانُ بن أبي حفصة. قال له: ألستَ القائلَ في مَعْن بن زائدة! وأنشده البيتين اللَّذَيْن أنشده إيّاهما المهديُّ، ثم قال: خذوا بيده فأَخْرِجوه، لا شيء لك عندنا، فأُخْرِجَ. فلما كان بعد ذلك بأيام تلطَّف حتى دخل؛ فأنشده قصيدتَه التي يقول فيها: [الطويل]

لَعَمْرُكَ ما أَنْسَى غَداةَ المُحَصَّبِ   إشارَةَ سَلْمَى بِالبَنانِ المُخَضَّبِ
وَقَدْ صَدَرَ الحُجَّاجُ إلاّ أَقَلَّهُمْ   مَصادِرَ شَتَّى مَوْكِباً بعدَ مَوْكِبِ

قال: فأعجبتْه، فقال: كم قصيدتُك من بيتٍ! فقال: ستون أو سبعون. فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً. فكان ذلك رَسْمَ مروانَ عندهم حتى مات.

أخبرني عمّي قال: حدّثني الفضل بن محمد اليَزيديّ عن إسحاق قال: دخل مروانُ بن أبي حفصة على المهديّ في أوّل سنة قَدِم عليه. قال: فدخلتُ عليه في قصره بالرّصافة فأنشدته قولي فيه: [الطويل]

أَمَرُّ وأَحْلَى ما بَلا النّاسُ طَعْمَهُ   عَذابُ أَمِيرِ المُؤمِنينَ ونائِلُهْ
فَإِنَّ طَلِيقَ اللهِ مَنْ أَنْتَ مُطْلِقٌ   وَإِنَّ قَتِيلَ اللهِ مَنْ أَنْتَ قاتِلُهْ
كَأَنَّ أَمِيرَ المؤمنينَ محمَّداً   أبو جَعْفَرٍ في كُلِّ أَمْرٍ يحاوِلُهْ

قال: فأُعجب بها، وأمر لي بمال عظيم؛ فكانت تلك الصلةُ أوّلَ صلة سنيَّة وصلتْ إليّ في أيام بني هاشم.

أخبرني الحسن بن عليّ الخَفَّاف قال: حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني محمد بن عبدالله العَبْديّ الراوية قال: حدّثني حسين بن الضحَّاك

(١) هي الآية ٧٥ من سورة الأنفال ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم﴾.

قال: حدّثني مروان بن أبي حفصة قال: دخلتُ على المهديّ في قصر[١] السلام، فلما سلَّمتُ عليه، وذلك بعَقِب سخطه على يعقوب بن داود، قلت: يا أمير المؤمنين إنّ يعقوب رجل رافِضيّ وإنه سمعني أقول في الوراثة: [الكامل]

أنّى يكونُ ولَيسَ ذاكَ بِكائِنٍ ... لِبَنِي البَناتِ وِراثةُ الأعْمامِ

فذلك الذي حمله على عداوتي. ثم أنشدته: [الطويل]

كأنَّ أميرَ المؤمنينَ مُحَمَّداً ... لِرَأفَتِهِ بالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ
عَلى أنَّهُ مَنْ خالَفَ الحَقَّ مِنهمُ ... سَقَتْهُ يَدَ الموتِ الحتُوفُ الرَّواصِدُ

ثم أنشدته: [الكامل]

أحْيا أمِيرُ المؤمنينَ مُحَمَّدٌ ... سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامَها وَحَلالَها

قال فقال لي المهديّ: والله ما أعطيك إلا من صُلْب مالي فاْعْذِرني، وأمر لي بثلاثين ألف درهم، وكساني جُبَّةً ومُطْرِفاً[٢]، وفرَض لي على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفاً أُخرى.

أخبرني عيسى بن الحسين الوَرّاق قال: حدّثنا أحمد بن الحارث الخَرَّاز قال: حدّثنا ابن الأعرابيّ أن مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وَفد على مَعْن بن زائدة فأنشده قولَه: [الطويل]

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقاءِ كأنَّهُمْ ... أُسُودٌ لها في بَطْنِ خَفَّانَ أَشْبُلُ[٣]
هُمُ يَمْنَعُونَ الجارَ حتَّى كأنَّما ... لِجارِهِمُ بينَ السِّماكَيْنِ مَنْزِلُ
لَهاميمُ، في الإسْلام سادُوا ولم يَكُنْ ... كأوَّلِهِمْ في الجاهِلِيَّةِ أوَّلُ[٤]
هُمُ القَوْمُ إن قالوا أصابُوا وإنْ دُعُوا ... أجَابُوا وإنْ أعْطَوْا أطابُوا وأجْزَلُوا
ولا يَسْتَطِيعُ الفاعلُونَ فِعالَهُمْ ... وإنْ أحْسَنُوا في النائباتِ وأجْمَلُوا

قال: فأمر لي بصلة سنيَّة وخَلَع عليَّ وحمَلني وزوّدني. قال: ثم قال لنا ابن

---

(١) جاء في معجم البلدان أن قصر السلام بناه هارون الرشيد. أما القصر الذي بناه المهدي فهو قصر السلامة. (انظر معجم البلدان ٤/ ١٧٣).
(٢) المطرف: رداء من خزّ ذو أعلام، وجمعه مطارف.
(٣) خفان: موضع قرب الكوفة مشهورة بأسودها (معجم البلدان ٢/ ٣٧٩). والأشبل: جمع شبل، وهو ابن الأسد.
(٤) لهاميم: جمع لهميم وهو السابق، والجواد.

الأعرابيّ: لو أعطاه كلَّ ما يملك لَمَا وفّاه حقَّه. قال: وكان ابن الأعرابيّ يختم به الشعراءَ، وما دَوَّن لأحدٍ بعدَه شعراً.

أخبرني حبيب بن نصر قال: حدّثني عبد الله بن أبي سعد قال: أخبرني أحمد ابن موسى بن حمزة قال: رأيت مروان بن أبي حفصة في أيام محمد بن زُبَيْدة(١) في دار الخلافة وهو شيخ كبير، فسألته عن جرير والفرزدق أيّهما أشعر، فقال لي: قد سُئلتُ عنهما في أيام المهديّ وعن الأخطل قبل ذلك، فقلتُ فيهم قولاً عقدتُه في شعر ليَثْبُتَ. فسألته عنه فأنشدني: [الكامل]

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بالهِجاءِ وإنَّما ... حُلْوُ القَرِيضِ ومُرُّهُ لِجَرِيرِ
وَلَقَدْ هَجا فأَمَضَّ أَخْطَلُ تَغْلِبٍ ... وَحَوَى النُّهَى بِبَيانِهِ المَشْهُورِ(٢)
كُلُّ الثلاثَةِ قد أجادَ فَمَدْحُهُ ... وَهِجاؤهُ قَدْ سارَ كُلَّ مَسِيرِ
وَلَقَدْ جَرَيْتُ فَفُتُّ غَيْرَ مُهَلِّلٍ ... بِجِراءِ لا قَرِفٍ ولا مَبْهُورِ(٣)
إنّي لآنَفُ أن أُحَبِّرَ مِدْحَةً ... أبَداً لِغَيْرِ خَلِيفَةٍ ووَزِيرِ
ما ضَرّني حَسَدُ اللئام ولم يَزَلْ ... ذو الفضل يحسُده ذوو التقصير

قال: فلم يَر أن يقدِّم على نفسه غيرَها. وكتبتُ الأبيات عن فيه.

أخبرني محمد بن الحسن بن دُرَيد قال: حدّثني أبو حاتم السِّجِسْتانيّ قال: حدّثني العَنْسيّ قال: لمّا قدِم مَعْن بن زائدة من اليمن، دخل عليه مروان بن أبي حفصة والمجلس غاصٌّ بأهله، فأخذ بِعِضادتَي(٤) الباب وأنشأ يقول: [الطويل]

وَما أَحْجَمَ الأعداءُ عَنْكَ بَقِيَّةً ... عَلَيْكَ وَلٰكِنْ لم يَرَوا فيكَ مَطْمَعا
لَهُ راحتانِ الجُودُ والحَتْفُ فيهما ... أَبَى الله إلا أن تَضُرّاً وتَنْفَعا

قال فقال له مَعْن: احتكم، قال: عشرة آلاف درهم. فقال مَعْن: رَبِحنا عليك تسعين ألفاً. قال: أقِلني. قال: لا أقال الله من يُقيلك.

أخبرني عمّي قال: حدّثني عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني أبي قال: لما

(١) زبيدة: زوجة هارون الرشيد وابنة عمه وأم الأمين.
(٢) أمضّ: أوجع. والنهى: العقل.
(٣) غير مهلّل: غير جبان ولا فارّ. والقَرِف: الشديد الحمرة، ولعله أراد الهجين، والمبهور: المتعب المنهك.
(٤) عضادتا الباب: خشبتاه من جانبيه.

قَدِم مَعْن بن زائدة من اليمن استقبله الناس، وتلقَّاه مروان بن أبي حفصة، فأنشده قصيدةً يهنِّئه فيها بقدومه وبرأي المنصور[١] فيه، وتلقّاه فيمن تلقّاه أبو القاسم مُحْرِز[٢] فجعل يقول له: سَفَكْتَ الدماء، وظلمتَ الناس، وتعدَّيت طَوْرَك بذلك. فلما أكثر على مَعْن التفت إليه ثم قال له: يا مُحْرِز أخبِرْني بأي خُفَّيْكَ تضرب اليوم: أبالسُّباعيّ أم بالثُّمانيّ؟ قال: فانقطع وسكت خَجَلاً.

ودخل مَعْن على المنصور، فلما سلَّم عليه وسأله قال له: يا مَعْنُ، أعطيتَ ابن أبي حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك: [الكامل]

مَـعْـنُ بْـنُ زائِـدةَ الَّـذِي زِيـدَتْ بِـهِ شَـرَفـاً إلـى شَـرَفٍ بَـنُـو شَـيْـبـانِ

فقال له: كلاّ يا أمير المؤمنين بل أعطيته لقوله: [الكامل]

مـا زِلْـتَ يَـوْمَ الـهـاشِـمِـيَّـةِ مُـعْـلِـمـاً بِـالـسَّـيْـفِ دونَ خَـلِـيـفَـةِ الـرَّحْـمٰـنِ

فاستحيا المنصور من تهجينه إياه فتبسّم وقال: أحسنت يا مَعْن في فعلك.

أخبرني الحَسَن بن على المصرّي قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني عليّ بن ثَوْر قال: حدّثني أبو العباس العَدَويّ قال: لمّا وَلِي مَعْن بن زائدة اليمنَ كان يحيى بن منصور الذُهليّ قد تنسَّك وترك الشعر. فلما بلغته أفعال مَعْن وفَد إليه ومدحه، فقال مروان بن أبي حفصة: [البسيط]

لا تَـعْـدَمُـوا راحَـتَـيْ مَـعْـنٍ فـإنَّـهُـمـا بِـالـجُـودِ أفْـتَـنـتـا يَـحْـيـى بْـنَ مَـنْـصُـورِ
لـمـا رَأى راحَـتَـيْ مَـعْـنٍ تَـدَفَّـقَـتـا بِـنـائِـلٍ مـن عَـطـاءٍ غـيـرِ مَـنْـزُورِ[٣]
ألقى الـمُـسُـوحَ الـتي قد كـان يَـلْـبَـسـهـا وظَـلَّ لِـلـشـعـر ذا وَصْـفٍ وتَـحْـبِـيـر

أخبرني محمد بن مَزْيَد وعيسى بن الحسين قالا: حدثنا الزُّبير بن بكّار قال: حدّثني عبد الملك بن عبد العزيز قال: ورد على مروان بن أبي حفصة كتاب وهو بالمدينة أن امرأة من أهله تزوَّجت في قوم لم يَرْضَ صِهْرَهم يقال لهم بنو مطر؛ فقال في ذلك لأخيها: [البسيط]

لَـوْ كُـنْـتَ أشْـبَـهْـتَ يَـحْـيَـى فـي مَـنـاكِـحِـهِ لَـمَـا تـنَـقَّـيْـتَ فَـحْـلاً جَـدُّهُ مَـطَـر

---

(١) المنصور هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس أبو جعفر ثاني خلفاء بني العباس. توفي ١٥٨ هـ.

(٢) أبو القاسم محرز بن إبراهيم أحد قواد المنصور.

(٣) أعطاه عطاء غير منزور: أعطاه عفواً من دون إلحاح.

لله دَرُّ جِيادٍ كُنْتَ سائِسَها ضَيَّعْتَها وَبِها التَّحْجِيلُ وَالغُرَرُ
نُبِّئْتُ خَوْلَةَ قالَتْ يَوْمَ أَنْكَحَها قَدْ طَالَمَا كُنْتُ منكَ العارَ أَنْتَظِرُ

أخبرني الحسن بن عليّ الخَفَّاف قال: حدّثنا الحسن بن علي المعروف بحدّان عن محمد بن حفص بن عمرو بن الأَيْهَم الحنفيّ قال: مرَّ مروان بن أبي حفصة برجل من تَيْم اللاَّت بن ثَعْلبة يُعْرَف بالجِنِّي؛ فقال له مروان: زعموا أنك تقول الشعر. فقال له: إن شئتَ عرَّفتُك ذلك. فقال له مروان: ما أنت والشعر، ما أرى ذلك من طريقتك ولا مذهبك ولا تقوله! فقال الجِنِّيّ: اجلس واسمع فجلس؛ فقال الجنّي يهجوه: [الطويل]

ثَوَى اللُّؤمُ في العَجْلانِ يَوماً وَلَيْلَةً وفيَّ دارِ مَرْوانٍ ثَوَى آخِرَ الدَّهْرِ
غدا اللُّؤمُ يَبْغي مَطْرَحاً لِرحالِهِ فَنَقَّبَ في بَرِّ البِلادِ وفي البَحْرِ
فَلَمَّا أَتَى مَرْوانَ خَيَّمَ عِنْدَهُ وقالَ رَضِينا بالمُقامِ إلى الحَشْرِ
وَلَيْستْ لِمَرْوانٍ على العِرْس غَيْرَة وَلٰكِنَّ مَرْواناً يَغارُ على القِدْرِ

فقال له مروان: ناشدتُك الله إلاّ كففتَ، فأنت أشعر الناس. فحلفَ الجنيّ بالطلاق ثلاثاً إنه لا يكُفّ حتى يصير إليه بنفر من رؤساء أهل اليمامة ثم يقول بحضرتهم: قاق في استي بيضة. فجلَبهم إليه مروان وفعل ذلك بحضرتهم، وكان فيهم جدّي يحيى بن الأيْهم، فانصرفوا وهم يضحكون من فعله.

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمّار قال: حدّثني أبو عبد الله بن سليمان بن زيد الدَّوْسِيّ قال: حدّثني الفضل بن العبّاس بن سعيد بن سَلْم بن قُتَيْبة الباهِلِيّ قال: حدثنا محمد بن حرب بن قَطَن بن قَبِيصة بن مُخارِق الهِلاليّ قال: لما مات المهديّ وفدت العرب على موسى[1] يهنِّئونه بالخلافة ويعزُّونه عن المهديّ؛ فدخل مروانُ بن أبي حفصة فأخذ بعَضادَتَي الباب ثم قال: [الطويل]

لَقَدْ أَصْبَحَتْ تَخْتالُ في كُلِّ بَلْدَةٍ بِقَبْرِ أميرِ المؤمنينَ المَقابِرُ
وَلَوْ لَمْ تُسَكَّنْ بِابْنِهِ في مكانِهِ لما بَرِحَتْ تَبْكي عَلَيْهِ المنابِرُ

قال فخرج الناس بالبيتين.

(١) موسى الهادي بن محمد المهدي رابع خلفاء بني العباس. تولى الخلافة بعد أبيه المهدي.

أخبرني الحسن بن علي قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني إبراهيم بن المُدَبِّر قال: مَرض عمرو بن[(١)] مَسْعَدَة، فدخل عليه مروان بن أبي حفصة وقد أبلَّ من مرضه[(٢)] فأنشأ يقول: [الهزج]

صَحَّ الـجِـسْـمُ يـا عَـمْـرُو ... لَـكَ الـتَّـمْـحِـيـصُ والأَجْـرُ
وَلله عَـلَـيْـنـا الـحَـمْـ ... ـدُ وَالـمِـنَّـةُ وَالـشُّـكْـرُ
فَـقَـدْ كـانَ شَـكـا شَـوْقـاً ... إلَـيْـكَ الـنَّـهْـيُ والأَمْـرُ

قال فنحا نحوَه[(٣)] مُسْلم بن الوليد فقال: [البسيط]

قالوا أبو الفَضْلِ مَحْمُومٌ فقلتُ لَهُمْ ... نَفْسِي الفِدَاءُ لـه مـن كُـلِّ مَحْـذورِ
يـا لَـيْـت عِـلَّـتَـهُ بِـي غَـيْـرَ أنَّ لَـهُ ... أَجْـرَ الـعَـلِـيـلِ وَأنّـي غَـيْـرُ مَـأجُـورِ

أخبرني حبيب بن نصر المهلَّبيّ قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثنا أبو حُذيفة قال: حدّثني رجل من بني سُلَيْم في مسجد الرُّصافة قال: أخبرني مروان ابن أبي حفصة قال: وفدتُ في ركب إلى الرشيد فصِرنا في أرض مُوحشةٍ قَفْرٍ، وجَنَّ علينا الليل فسِرنا لنقطعها، فلم نشعر إلاّ بامرأة تسوق بنا إبِلَنا وتحدو في آثارنا، فإذا هي الغُول. فلما لاح الفجر عدلتْ عنّا وأخذتْ عُرْضاً[(٤)] وجعلت تقول: [الرجز]

يـا كَـوْكَـبَ الـصُّـبْـحِ إلَـيْـكَ عَـنّـي ... فَـلَـسْـتُ مِـنْ صُـبْـحٍ وَلَـيْـسَ مِـنّـي

قال: فما أذكر أني فزِعت من شيء قطُّ فزعي ليلتئذ.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني عليّ بن الحسن الكُوفِيّ قال: حدّثني محمد بن يحيى بن أبي مُرَّة التَّغْلَبِيّ قال: مررت بجعفر بن عَفّان الطائيّ يوماً وهو على باب منزله، فسلَّمت عليه، فقال لي: مرحباً يا أخا تَغْلِب، اجلس فجلست. فقال لي: أمَا تَعْجَب من ابن أبي حفصة لعنه الله حيث يقول: [الكامل]

أنّـى يَـكُـونُ وَلَـيْـسَ ذاكَ بِـكـائِـنِ ... لِـبَـنِـي الـبَـنـاتِ وِراثَـةُ الأعْـمـامِ

---

(١) عمرو بن مسعدة: وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء في عصره. توفي سنة ٢١٧ هـ.
(٢) أبلّ من مرضه: شفي.
(٣) نحا نحوه: سار على نهجه.
(٤) عُرْضاً: ناحيةً.

فقلت بلى والله إني لأتعجَّب منه وأُكثِر اللَّعنَ له، فهل قلتَ في ذلك شيئاً؟ فقال: نعم قلت:

لِمْ لا يَكُونُ وإنَّ ذاكَ لَكائِنُ ... لِبَني البَناتِ وِراثَةُ الأعْمامِ
لِلْبِنْتِ نِصْفٌ كامِلٌ مِنْ مالِهِ ... وَالعَمُّ مَتْرُوكٌ بِغَيْرِ سِهامِ
ما لِلطَّلِيقِ وَلِلتُّراثِ وإنَّما ... صَلَّى الطَّلِيقُ مَخافَةَ الصَّمْصَامِ[1]

[سبب مقتله]

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عَمّار قال: حدّثني عليّ بن محمد بن سليمان النَّوفليّ قال: حدّثني صالح بن عطية الأضْجَم قال: لما قال مروان:

أنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذاكَ بِكائِنِ ... لِبَني البَناتِ وِراثَةُ الأعْمامِ

لزمتُه وعاهدت الله أن أغتاله فأقتلَه أيَّ وقتٍ أمْكَنَنِي ذلك، وما زلت أُلاطفُه وأَبرُّه وأكتب أشعاره، حتى خُصِصْتُ به، فأنس بي جداً، وعرفتْ ذلك بنو حَفْصة جميعاً فأنِسوا بي، ولم أزل أطلب له غِرَّةً حتى مرِض من حمًّى أصابته، فلم أزل أُظهر له الجَزَع عليه وأُلازمه وأُلاطِفه، حتى خلا لي البيت يوماً فوثبتُ عليه فأخذتُ بحَلْقه فما فارقته حتى مات، فخرجت وتركته، فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتاً، وٱرتفعت الصَّيْحةُ فحضرتُ وتباكيت وأظهرت الجزعَ عليه حتى دُفن، وما فطن بما فعلت أحد ولا ٱتهمني به.

[عَوْدٌ إلى ذكر إبراهيم بن المهدي وأمه شِكلة]

ثم نعود إلى ذكر إبراهيم بن المهديّ وأمِّه شَكْلة. ويكنى أبا إسحاق، وشَكْلةُ أمُّه مولَّدة، كان أبوها من أصحاب المَازيار، يقال له شاه أفْرند، فقتل مع المازيار وسُبِيَتْ بنتُه شِكْلة، فحُمِلَتْ إلى المنصور، فوهبها لمُحَيّاةَ أمّ ولده فربَّتها وبعثتْ بها إلى الطائف فنشأت هناك وتفصَّحتْ؛ فلما كبِرتْ رُدَّت إليها. فرآها المهديّ عندها فأعجبته، فطلَبها من مُحَيَّاةَ فأعطته إيّاها، فولدت منه إبراهيم. وكان رجلاً عاقلاً فَهِماً دَيِّناً أديباً شاعراً راوية للشعر وأيّامِ العرب خطيباً فصيحاً حسنَ العارضة. وكان إسحاق الموصليّ يقول: ما ولد العبّاس بن عبد المطّلب بعد عبد الله بن العباس

(١) الصمصام: السيف. والصمصامة كذلك.

رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهدي. فقيل له: مع ما تبذّل له من الغِناء؟ فقال: وهل تمَّ فضلُه إلا بذاك!. حدّثني بذلك محمد بن يزيد عن حمّاد عن أبيه. وكان أشدّ خلق الله إعظاماً لِلغناء، وأحرصَهم عليه، وأشدَّهم منافسةً فيه. وكانت صنعته ليِّنةً، فكان إذا صنعَ شيئاً نَسبه إلى شاريةَ وريِّق، لئلا يقع عليه فيه طعن أو تقريع، فقلَّتْ صنعتُه في أيدي الناس مع كثرتها لذلك. وكان إذا قيل له فيها شيء قال: إنما أصنع تَطَرُّباً لا تَكَسُّباً، وأُغنّي لنفسي لا للناس فأعمل ما أشتهي. وكان حُسْنُ صوته يستر عَوار ذلك كلِّه. وكان الناس يقولون لم يُرَ في جاهليَّة ولا إسلام أخٌ وأختٌ أحسنُ غِناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عُلَيَّة. وكان يُماظُّ[1] إسحاقَ ويُجادله، فلا يقوم له ولا يَفِي به، ولا يزال إسحاق يغلبه ويُغِصُّه بريقه ويَغُضُّ منه بما يظهر عليه من السَّقَطات ويبيِّنه من خطئه في وقته وعجزِه عن معرفة الخطأ الغامض إذا مرَّ به، وقصوره عن أداء الغناء القديم فيَفضحه بذلك. وقد ذكرتُ قطعةً من هذه الأخبار في أخبار إسحاق وأنا أذكر هاهنا منها ما لم أذكُر هناك.

وممّا خالف إبراهيم بن المهدي ومَنْ قال بقوله على إسحاق فيه: الثَّقِيلان وخفيفُهما؛ فإنّه سمّى الثقيل الأوّل وخفيفَه الثقيل الثاني وخفيفه، وسمّى الثقيل الثاني وخفيفه الثقيلَ الأوّلَ وخفيفَه؛ وجرَتْ بينهما في ذلك مناظراتٌ ومجادلاتٌ ومراسلة ومكاتبة ومشافهة، وحضرهما النَّاس، فلم يكن فيهم مَنْ يَفِي بفصل ما بينهما والحكم لأحدهما على صاحبه. ووضَع لذلك مكاييلَ لتُعْرَف بها أقدارُ الطرائق، وأَمْسكَ كل واحد منهما إلى آخر أقداره، فلم يصحّ شيء يُعمل عليه، إلاّ أن قول ابراهيم بن المهديّ اُضمحلّ وبطَل وتُرِك، وعمِل الناس على مذهب إسحاق؛ لأنّه كان أعلَم الرجلين وأشهَرهما. وأوضح إسحاق أيضاً لذلك وجوهاً فقال: إنَّ الثقيل الأوّل يَجيء منه قَدْران: الثَّقيلُ الأوّل التّامّ، والقَدْرُ الأوسط من الثقيل الأوّل، وجميعاً طريقته واحدة لاتّساعه والتمكُّنِ منه، والثقيلُ الثاني لا يجيء هذا فيه ولا يُقاربه. والثقيل الأول يمكن الإدراج في ضَرْبه لِثقله، والثَّقِيلُ الثاني لا يَندرج لنقصه عن ذلك. ولهما في هذا كلام كثير ومخاطبات قد ذكرتُها في أخبارهما، وشَرَحتُ العِلَلَ مبسوطةً في كتاب أَلَّفْتُه في النَّغَم شرحاً ليس هذا موضعَه ولا يصلُح فيه. وأمّا التَّجزئةُ والقسمةُ فإنّهما أفْنَيَا أعمارَهما في تنازعهما فيهما،

(١) يُماظّ: ينازع.

حتى كان يَمضي لهما الزمان الطويلُ لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما في قسمةِ وتجزئةِ صوتٍ واحدٍ فيه، وحتى كانا يخرجان إلى كلّ قبيح، وحتى إنهما ماتا جميعاً وبينهما منازعة في هذا الصوت وقِسْمته: **[مجزوء الخفيف]**

حَـيِّـيَـا أمَّ يَـعْـمَـرا قَـبْـلَ شَـحْـطِ مِـنَ الـنَّـوَى

لم يُفْصَل بينهما فيها إلى أن ٱفترقا. ولو ذهبتُ إلى ذكر ذلك وشَرْح سائر أخبار إبراهيم بن المهديّ وقِصَصه لمّا وَلِيَ الخلافةَ وغيرِ ذلك من وصفه بفَصاحة اللسان، وحسن البيان، وجَوْدةِ الشعر، ورواية العلم، والمعرفة بالجَدَل، وجزالة الرأي، والتصرُّف في الفقه واللّغة، وسائر الآداب الشريفة، والعلوم النفيسة، والأدوات الرفيعة، لأَطَلْتُ. وإنّما الغرض في هذا الكتاب الأغاني أو ما جرى مجراها، لا سيما لمن كثُرت الروايات والحكايات عنه؛ فلذلك ٱقتصرتُ على ما ذكرتُه من أخباره دون ما يستحقه من التفضيل والتّبجيل والثناء الجميل.

[غناؤه ودرجة إتقانه، وبعض أخباره]

أخبرني عمّي رحمه الله قال: حدّثني عليّ بن محمد بن بكر عن جدّه حَمْدُون ابن إسماعيل قال: قال لي إبراهيم بن المهديّ: لولا أنّي أرْفَع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يعلم الناس معه أنهم لم يَرَوْا قبلي مِثْلي.

أخبرني عمّي قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سَعْد قال: حدّثني أحمد بن القاسم ابن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال: حدّثني أحمد بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه قال: دخلتُ يوماً إلى الرشيد وفي رأسي فَضْلةُ خُمَار، وبين يديه ابن جامع وإبراهيم الموصلي. فقال: بحياتي يا إبراهيم غَنِّني. فأخذتُ العود ولم ألتفت إليهما لما في رأسي من الفَضْلة فَغَنّيْتُ: **[الكامل]**

أَسْـرَى بـخـالِـدَةَ الـخَـيـالُ ولا أرَى شـيـئـاً أَلَـذَّ مـن الـخَـيـالِ الـطَّـارِقِ

فسمعتُ إبراهيم يقول لابن جامع: لو طلَب هذا بهذا الغناء ما نَطْلُب لمَا أكلنا خبزاً أبداً. فقال ابن جامع: صدقتَ. فلما فَرَغتُ من غنائي وضعتُ العودَ ثم قلت: خُذَا في حقِّكما ودَعَا باطلَنا.

نسبة هذا الصوت

صوت

أسرَى بخالِدَةَ الخيالُ ولا أرَى شَيئاً ألذَّ مِنَ الخَيالِ الطارِقِ
إنَّ البَلِيَّةَ مَنْ تَمَلُّ حَدِيثَهُ فأنْقَعْ فُؤادَكَ مِنْ حَدِيثِ الوامِقِ
أهْوَاكِ فَوْقَ هَوَى النُّفُوسِ ولم يَزَلْ مُذْ بِنْتِ قَلْبِي كالجَناحِ الخافِقِ
طَرَباً إليكِ ولم تُبالِي حاجَتي ليس المُكَاذِبُ كالخَليلِ الصّادِقِ

الشعر لجرير. والغناء لابن عائشة رَمَلٌ بالوُسْطى عن عمرو.

أخبرني جَحْظة قال: أخبرني هِبَةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ قال: حدّثني أبي، وحدّثني الصوليّ قال: حدّثني عَوْن بن محمد قال: حَدّثني هبة الله ـ ولم يذكر عن أبيه ـ قال: كان الرشيد يحبّ أن يسمع أبي. وقال جحْظة عن هبة الله عن إبراهيم قال: كان الرشيد يحب أن يسمعني، فخلا بي مَرَّاتٍ إلى أن سَمِعني. ثم حَضَرْتُهُ مَرَّةً وعنده سليمان بن أبي جعفر؛ فقال لي: عَمُّك وسَيِّدُ ولدِ المنصور بعد أبيك وقد أحبّ أن يَسْمعك؛ فلم يتركني حتى غَنَّيتُ بين يديه: [البسيط]

إذْ أنتِ فينا لِمَنْ يَنهاك عاصِيَةٌ وإذْ أَجُرُّ إلَيكُمْ سادِراً رَسَنِي

فأمر لي بألف ألف درهم، ثم قال لي ليلةً ولم يَبْق في المجلس إلاّ جعفر بن يحيى: أنا أُحِبّ أن تشرِّفَ جعفراً بأن تغنِّيه صوتاً. فغنَّيتُه لحناً صنعتُه في شعر الدّارميّ: [البسيط]

كأنَّ صُورَتَها في الوَصْفِ إذ وُصِفَت دِينارُ عَيْنٍ من المِصْريَّةِ العُتُقِ

نسبة هذين الصوتين، منهما:

صوت

سَقْياً لِرَبْعِكِ مِنْ رَبْعٍ بِذِي سَلَمٍ وَلِلزَّمانِ بِهِ إذ ذاكَ مِن زَمَنِ[١]
إذ أنتِ فينا لِمَنْ ينهاك عاصِيَةٌ وإذ أَجُرُّ إلَيكُمْ سادِراً رَسَنِي

الشعرُ للأحوص. والغناءُ لابن سُرَيج ثقيلٌ أوّلُ بالوسطى عن عمرو.

---

(١) ذو سلم: واد بالحجاز. (وانظر معجم البلدان: ٣/ ٢٤٠).

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني أحمد بن زُهَيْر عن مُصْعب قال: أنشد مُنْشِدٌ وابن أبي عُبَيْدَةَ عندنا قولَ الأحوص: [البسيط]

إذ أنْتِ فِينا لِمَنْ يَنْهاكِ عاصِيَةٌ وإذ أَجُرُّ إلَيْكُمْ سادِراً رَسَنِي

فوثَب قائماً وألقى طَرف ردائه وجعل يخطو إلى طَرف المجلس ويَجُرُّه. ثم فعل ذلك حتى عاد إلينا. فقلنا له: ما حملَكَ على ما صنعت؟ فقال: إنّي سمِعتُ هذا الشِّعرَ مَرَّةً فأطْرَبني، فجعلت على نفسي ألاّ أسمعه أبداً إلاّ جررتُ رَسني.

والآخر من الصوتين:

صوت

[البسيط]

كأنَّ صُورتَها في الوَصْفِ إذا وُصِفَتْ دينارُ عَيْنٍ من المِصْرِيَّةِ العُتُقِ
أوْ دُرَّةٌ أعَيَتِ الغَوَّاصَ في صَدَفٍ أو ذَهَبٌ صاغَهُ الصَّوَّاغُ في وَرِقِ

الشعرُ للدَّارميّ. والغِناءُ لمرزوق الصَّوَّاف رَمَلٌ بالبنصر عن ابن المكيّ. وذكر عمرو أن هذا اللحنَ للدَّارِميِّ أيضاً. وذكر الهشاميّ أنه لابن سُرَيْج. وفي هذا الخبر أنه لإبراهيم بن المهديّ. وفيه خفيفُ رَمَلٍ يقال إنه لَحْنُ مرزوق الصَّواف، ويقال إنه لمتيَّم ثاني ثقيل عن الهشاميّ وابن المعتز.

أخبرني يحيى بن المنجِّم قال: ذكر لي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن إسحاق بن عمر بن بزَيع قال: كنتُ أضرب على إبراهيم بن المهديّ صوتاً ذكره فغنّاه على أربع طَبقات، على الطبقة التي كان العود عليها، وعلى ضِعفها، وعلى إسْجاحها، وعلى إسجاح الإسجاح. قال أبو أحمد قال عبيد الله: وهذا شيءٌ ما حُكِيَ لنا عن أحد غير إبراهيم، وقد تَعاطاه بعضُ الحُذاق بهذا الشأن، فوجده صعباً متعذِّراً لا يُبْلَغ إلاّ بالصوت القويّ وأشَدُّ ما في إسْجاح الإسْجاح؛ لأن الضِّعف لا يبْلَغ إلاّ بصوت قويّ مائل إلى الدقة، ولا يكاد ما اتّسع مَخْرَجُه يبلُغ ذلك. فإذا دَقَّ حتى يبلُغ الإضعاف لم يَقْدِر على الإسجاح فضلاً عن إسجاح الإسجاح. فإذا غَلُظ حتى يتمكّن من هذين لم يقدر على الضِّعف.

أخبرني عمّي قال: حدّثني ابن أبي سعد قال: حدّثني أحمد بن القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال: حدّثني محمد بن سليمان بن موسى الهادي قال:

دعاني إبراهيم بن المهديّ يوماً فصرت إليه، وغَنَّى صوتاً لمَعْبَد: [الطويل]

أفِي الحَقّ هٰذا أنَّنِي بِكِ مُولَعُ وأنَّ فؤادِي نَحْوَكِ الدَّهْرَ نازِعُ

فقال لي: لمن هذا الغناء؟ فقلت: يا سيّدي يقولون إنه لمعبد، ولا غنَّى والله معبد كذا قطّ، ولا سمعتُ أحداً يقول كذا، لا والله ما في الدنيا كذا. قال: فضحِك ثم قال: والله يا بُنَيّ ما قمتُ بنصف ما كان يقوم به معبد.

نسبة هذا الصوت

أمَّا اللَّحن فمن الثقيل الثاني، وقد ذكر في هذا الخبر أنه لمعبد، وما وجدته في شيء من الكتب له. وذكر الهشاميّ أنه لابن المكيّ.

أخبرني أحمد بن عُبَيد الله بن محمد بن عَمّار قال: حدثني يعقوب بن نُعَيْم قال: حدّثني إسحاق بن محمد قال: حدّثني عيسى بن محمد القَحْطَبيّ قال: حدّثني محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال: لما قدِم المأمون من خُراسان لم يظهر لمغنٍّ بالمدينة مدينةِ السلام غيري، فكنتُ أُنادمه سراً، ولم يظهر للنُّدماء أربعَ سنين، حتى ظَفِر بابراهيم بن المهدي.

فلمّا ظفِر به وعفا عنه ظهر للندماء ثم جمعنَا ووجَّه إلى إبراهيم فحضر في ثياب مُبْتذَلة. فلمّا رآه المأمون قال: ألْقى عمّي رِداء الكِبر عن مَنْكِبَيْه، ثم أمر له بِخلع فاخرة وقال: يا فَتْح[1] غدِّ عمِّي؛ فتغدّى إبراهيم بحيث يراه المأمون ثم تحوّل إلينا، وكان مُخارق حاضراً، فغنَّى مخارق: [الكامل]

هٰذا وَرُبَّ مُسَوِّفِينَ صَبَحْتُهُمْ مِنْ خَمْرِ بابِلَ لَذَّةً لِلشَّارِبِ[2]

فقال له إبراهيم: أسأت فأعِدْ؛ فأعاده، فقال: قارَبْتَ ولم تصِبْ. فقال له المأمون: إن كان أساء فأَحْسِنْ أنت. فغنّاه إبراهيم ثم قال لمخارق: أعِدْه فأعاده، فقال: أحسنت. فقال للمأمون: كم بين الأمرين؟ فقال. كثير. فقال لمخارق: إنما مَثَلُك كَمَثل الثّوب الفاخر إذا غفَل عنه أهْلُهُ وقع عليه الغبار فأحال لونَه[3]، فإذا

(١) فتح: خادم المأمون. (الطبري: ٣/ ١٠٤١).
(٢) المسوفون: جمع المسوّف وهو الصبور.
(٣) أحال لونه: غيّره.

نُفِض عاد إلى جوهره. ثم غنّى إبراهيمُ: [الكامل]

يـا صـاحِ يـا ذا الـضَّـامِـرِ الـعَـنْـسِ وَالـرَّحْـلِ ذي الأقْـتَـادِ والـحِـلْـس[1]
أمّـا الـنَّـهـارُ فـمـا تُـقَـصِّـرُهُ رَتْـكـاً يَـزِيـدُكَ كـلَّـمـا تُـمْـسـي[2]

قال: وكانت لي جائزة قد خرجتْ، فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر سيِّدي بإلقاء هذا الصَّوت عليَّ مكان جائزتي فهو أحبُّ إليَّ منها. فقال: يا عمّ ألْقِ هذا الصَّوتَ على مُخارق، فألقاه عليّ، حتى إذا كدت أن آخذه قال: اذهبْ فأنت أحذق الناس به. فقلت: إنه لم يصلُح لي بعد. قال: فاغْدُ عليَّ. فغدوت عليه فغناه متلوِّياً؛ فقلت: أيها الأمير، لك في الخلافة ما ليس لأحد، أنت ابن الخليفة وأخو الخليفة وعمُّ الخليفة، تجود بالرَّغائب وتبخَل عليّ بصوت! فقال: ما أحمقكَ! إن المأمون لم يَسْتَبْقني محبَّةً فيَّ ولا صلَةً لرَحمِي ولا رِباءً[3] للمعروف عندي، ولكنه سمع من هذا الجِرْم[4] ما لم يَسْمع من غيره. قال: فأعلمتُ المأمونَ مقالتَه؛ فقال: إنّا لا نكدِّر على أبي إسحاق عَفْونا عنه، فَدعْه. فلما كانت أيّام المعتصم نَشِط للصَّبوح يوماً فقال: أحضِروا عمّي: فجاء في دُرَّاعة[5] من غير طَيْلَسان. فأعلمتُ المعتصمَ خبرَ الصَّوت سرّاً. فقال: يا عم غَنِّني:

يـا صـاحِ يـا ذا الـضَّـامـرِ الـعَـنْـسِ

فغنّاه؛ فقال: ألْقِه على مُخارق. فقال: قد فعلت، وقد سبق منِّي قولٌ ألاَّ أُعيده عليه. ثم كان يتجنّب أن يغنيه حيث أَحضُره.

نسبة ما في هذا الخبر من الغناء

صوت

[الكامل]

هٰـذا ورُبَّ مُـسَـوِّفِـيـنَ صَـبَـحْـتُـهُـمْ مِـنْ خَـمْـرِ بـابِـلَ لَـذَّةً لـلـشـارِبِ

---

(١) العنس: الناقة الصلبة القوية. والأقتاد: جمع قتد، وهو خشب الرحل. والحلس: كساء رقيق يلي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج.
(٢) الرتك: سير سريع للناقة.
(٣) رباءٌ: زيادة.
(٤) الجرم: الصوت، وقيل جهارته.
(٥) الدّرّاعة: ثوب من الصوف، وقيل جبة مشقوقة المقدم.

بـكَرُوا عـلـيّ بـسُـخـرةٍ فَـصَـبَـحْـتُـهـم ... بـإنـاءِ ذي كَـرَمٍ كَـقَـعْـبِ الـحـالِـبِ
بِـزُجـاجـةٍ مِـلءِ الـيَـدَيْـنِ كـأنّـهـا ... قِـنـديـلُ فِـصْـحٍ فـي كَـنِـيـسَـةِ راهِـبِ[1]

الشعر لعَدِيّ بن زيد. والغِناء لحُنَيْنٍ خفيفُ ثقيلٍ أوّل بالسّبابة في مجرى البِنْصر عن إسحاق.

صوت

[الكامل]

يـا صـاحِ يـا ذا الـضّـامِـرِ الـعَـنْـسِ ... وَالـرَّحْـلِ ذي الأقـتـادِ والـحِـلْـسِ
أمّـا الـنّـهـارُ فـمَـا تُـقَـصّـرُهُ ... رَتْـكـاً يَـزِيـدُكَ كـلّـمـا تُـمْـسِـي

الشعرُ لخالد بن المُهاجِر بن خالد بن الوليد.

وذكر أحمد بن أبي طاهر عن أَثِيرَ مولاةِ منصور بن المهديّ عن ذُؤابة مولاته أيضاً قالت: قالت لي أسماء بنت المهديّ: قلت لأخي إبراهيم: يا أخي أشتهي والله أن أسمع من غنائك شيئاً. فقال: إذاً والله يا أُختي لا تَسْمعين مِثلَه، عليَّ وعليَّ، وغلَّظ في اليمين، إن لم يكن إبليسُ ظهرَ لي وعلّمني النَّقْرَ والنَّغَم وصافحني وقال لي: اذهَبْ فأنت منّي وأنا منك.

أخبرني عمّي قال: حدّثني عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني هِبَةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه قال: غَضِب عليَّ محمد الأمين في بعض هَنَاته، فسلَّمني إلى كَوْثَرٍ[2]، فحبسني في سِرْداب وأغلقه عليَّ فمكثت فيه ليلتي. فلما أصبحتُ إذا أنا بشيخ قد خرج عليَّ من زاوية السِّرداب، ودفع إليَّ وسطاً[3] وقال: كُلْ فأكلتُ، ثم أخرج قِنّينة شراب فقال: اشرَبْ فشربت، ثم قال لي: غَنِّ:

[الكامل]

لـي مُـدّةٌ لا بُـدَّ أبْـلُـغُـهـا ... مَـعْـلُـومَـة فـإذا انْـقَـضَـتْ مُـتُّ
لـو سـاوَرَتْـنِـي الأُسْـدُ ضـارِيَـةً ... لَـغَـلَـبْـتُـهـا مـا لَـمْ يَـجِ الـوَقْـتُ[4]

(١) الفصح: عيد عند النصارى.
(٢) كوثر: خادم الأمين.
(٣) وسطاً: يظهر من السياق أنه نوع من الطعام.
(٤) ما لم يج الوقت: ما لم يأت الوقت. حذف الهمزة من يجيء للتخفيف.

فغنَّيته. وسمعني كوثر فصار إلى محمد وقال: قد جُنَّ عمُّك وهو جالس يغنِّي بكيت وكيت. فأمر بإحضاري فأُحْضِرْتُ وأخبرته بالقصّة، فأمر لي بسبعمائة ألف درهم ورضيَ عنّي.

أخبرني عمّي قال: حدّثني ابن أبي سعد قال: سمعت يَنْشُو يحدِّث عن أبي أحمد بن الرشيد قال: كنتُ يوماً بحضرة المأمون وهو يشرب، فدعا بياسرٍ وأدخله فسارَّه بشيء ومضى وعاد. فقام المأمونُ وقال لي: قم، فدخل دار الحُرَم ودخلتُ معه، فسمِعت غناءً أذهل عقلي ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر. وفطِنَ المأمون لِما بي فضحك ثم قال هذه عمّتك عُلَيَّة تُطارح عمَّك إبراهيم:

مـا لـي أرى الأبـصـار بـي جـافـيـة

نسبة هذا الصوت

مـا لـي أرَى الأبـصـارَ بـي جـافـيَـهْ ... لَـمْ تَـلْـتَـفِـتْ مِـنِّـي إلـى نـاحِـيَـهْ
لا يَـنْـظُـرُ الـنّـاسُ إلـى الـمُـبْـتَـلَـى ... وإنَّـمـا الـنَّـاسُ مَـعَ الـعـافِـيَـهْ
وقـد جَـفـانـي ظـالـمـاً سـيِّـدي ... فـأَدْمُـعِـي مُـنْـهَـلَّـةً هـامِـيَـهْ
صَـحْـبِـي سَـلُـوا ربَّـكُـمُ الـعـافِـيَـه ... فَـقَـدْ دَهَـتْـنِـي بَـعْـدَكُـمْ داهِـيَـهْ

الشعر والغناء لعُلَيَّة بنت المهديّ خفيفُ رمَلٍ. وأخبرني ذُكاء وجه الرُّزّة أن لعَرِيبَ فيه خفيفَ رمل آخر مَزْموراً، وأنّ لحن عُلَيّة مُطْلَق.

أخبرني يحيى بن عليّ بن يحيى قال: حدّثني أبي عن إبراهيم عن عليّ بن هشَام أن إسحاق كتب إلى إبراهيم بن المهديّ بجنس صوت صنعه وإصبعه ومَجْراه وإجراءَ لحنه؛ فغنّاه ابراهيم من غير أن يسمعه فأدّى ما صنعه. والصوت:

[مجزوء الخفيف]

حَـيِّـيـا أمّ يَـعْـمَـرَا ... قَـبْـلَ شَـحْـطِ مِـنَ الـنَّـوى
قُـلْـتُ لا تُـعْـجِـلـوا الـرَّوا ... حَ فَـقـالُـوا أَلاَ بَـلَـى
أَجْـمَـعَ الـحَـيُّ رِحْـلَـةً ... فَـفُـؤادِي كَـذِي الأَسَـى

نسبة هذا الصوت

الشعر لعمر بن أبي ربيعة. والغناء لابن سُرَيج، ولحنه من القَدْر الأوسط من

الثقيل الأوّل مطلقٌ في مَجْرى الوُسطى. وذكر عمرو بن بانة أنه لمالك. وفيه للهُذَليّ خفيف ثقيلٍ أوّل بالبنصر عن ابن المكيّ، وزعم الهشاميّ أنه لحن مالك. وفيه لَحْنانِ من الثقيل الثاني أحدهما لإسحاق وهو الذي كتب به إسحاق إلى إبراهيم بن المهدي. والآخر زعم الهشامي أنه لإبراهيم، وزعم عبد الله بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام أنّه لابن مُحْرِز.

أخبرني عمّي قال: حدّثني الحسين بن يحيى أبو الجُمَان أنّ إسحاق بن إبراهيم لمّا صنع صوتَه:

قُـلْ لِـمَـنْ صَـدّ عـاتِـبـا

اتّصل خبرُه بإبراهيم بن المهدي فكتب يسأله عنه؛ فكتب إليه بشعره وإيقاعه وبسيطه ومجراه وإصبعه وتجزئته وأقسامِه ومخارج نَغَمه ومواضعِ مقاطعه ومقادير أدواره وأوزانه، فغنّاه. قال: ثم لَقِيني فغنّانيه، ففضَلني فيه بحسن صوته.

نسبة هذا الصوت [مجزوء الخفيف]

قَـلْ لِـمَـنْ صَـدَّ عـاتِـبـا ... وَنَـأَى عَـنْـكَ جـانِـبـا
قَـدْ بَـلَـغْـتَ الَّـذي أرد ... تَ وإنْ كُـنْـتَ لاعِـبـا

الشعر والغناء في هذا اللحن لإسحاق، ثاني ثقيل بالبنصر في مَجْراها. وفيه لغيره ألحان.

أخبرني ابن عَمَّار قال: حدّثني يعقوب بن نُعَيْم قال: حدّثني إسحاق بن محمد عن أبيه قال: سمعت أحمد بن أبي دُواد يقول: كنتُ أَعِيبُ الغِناء وأطعن على أهله، فخرج المعتصم يوماً إلى الشَّمّاسِية[1] في حَرّاقةٍ[2] يشرب، ووجّه في طلبي فصرت إليه؛ فلما قَرُبْتُ منه سمعت غناءً حيّرني وشغَلني عن كلّ شيء، فسقط سَوْطي من يدي؛ فالتفتُّ إلى زنقطة غلامي أطلب منه سوطَه، فقال لي: قد والله سقط سوطي. فقلت له: فأيّ شيءٍ كان سبب سقوطه؟ قال: صوت سمعتُه شغَلَني عن كلّ شيء فسقَط سوطي من يدي؛ فإذا قِصته قِصّتي. قال: وكنت أنكر أمرَ الطّرب على الغناء وما يستَفِزّ الناسَ منه ويغلب على عقولهم، وأُناظر المعتصمَ فيه. فلما

(١) الشماسية: موضع في بغداد. (معجم البلدان ٣/ ٣٦١).

(٢) الحراقة: سفينة حربية فيها مرامي نيران.

دخلتُ عليه يومئذ أخبرته بالخبر؛ فضَحِك وقال: هذا عمّي كان يغنّيني: [الخفيف]

إنّ هٰذا الطويلَ من آل حَفْصٍ نَشَرَ المَجْدَ بعدَ ما كانَ ماتا

فإن تُبْتَ ممّا كنتَ تناظرنا عليه في ذمّ الغناء سألته أن يُعيده. ففعلتُ وفعل، وبلغ بي الطّربُ أكثَر ممّا يَبْلُغني عن غيري فأُنكره؛ ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليوم. وقد أخبرني بهذا الخبر أبو الحسن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى المنجّم عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فذكر هذه القصّة أو قريباً منها لزيادة اللفظ ونُقْصانه، وذكر أن الصوت الذي غناه إبراهيم: [الكامل]

طَرَقَتْكَ زائرةً فَحَيِّ خَيالَها بَيْضاءُ تَخْلِطُ بالحَياء دلالَها
هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّماءِ نُجُومَها بأَكُفِّكُمْ أو تَسْتُرُونَ هِلالَها

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني الحسن بن عُلَيْلٍ قال: سمعتُ هِبَةَ الله ابن ابراهيم بن المهدي يقول: اتّخذ أبي حَرّاقةً فأمر بشدّها في الجانب الغربيّ بحذاء داره، فمضيت إليها ليلة وكان أبي يُخاطبنا من داره بأمره ونَهْيه، فنسمعه وبيننا عَرْض دِجْلة وما أجهدَ نفسَه.

أخبرني عمي قال: سمعت عبد الله بن مُسْلم بن قُتَيبة يقول: حدّثني ابن أبي ظَبْية قال: كنت أسمع إبراهيم بن المهديّ يتنحنح فأطْرَبُ.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني القَطِراني المُغَنّي عن محمد بن جبر عن عبد الله بن العباس الرَّبيعي قال: كنّا عند إبراهيم بن المهديّ ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ مُطْرِبٍ مُحْسِن من المغنّين يومئذ وهو جالس يلاعب أحدهم بالشَّطْرنج. فترنّم بصوت فريدة: [الخفيف]

قالَ لي أحْمَدُ ولم يَدْرِ ما بي أَتُحِبُّ الغَداةَ عُتْبَةَ حَقّا

وهو مُتّكىء. فلما فرَغ منه ترنّم به مُخارق فأحسن فيه وأطربنا وزاد على إبراهيم، فأعاده إبراهيم وزاد في صوته فعَفّى على غناء مُخارق. فلما فرَغ ردّه مخارق وغنّى فيه بصوته كلّه وتحفَّظ فيه، فكِدنا نَطير سروراً. واستوى إبراهيمُ جالساً وكان متّكئاً فغنّاه بصوته كلّه ووفّاه نَغَمَه وشُذُورَه، ونظرت إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمع يتحرك حتى فرغ منه، ومُخَارِقٌ شاخِصٌ نحوَه يُرْعَد وقد ٱنْتُقِع لونُه

وأصابعه تختلج، فخُيِّل لي والله أن الإيوان يسير بنا. فلمّا فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده وقال: جعلني الله فِداك أين أنا منك! ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقية يومه في غنائه، والله لكأنما كان يتحدث.

نسبة هذا الصوت [الخفيف]

قـال لـي أحـمـدُ ولـم يَـدْرِ مـا بـي ... أتُـحِـبُّ الـغَـداةَ عُـتْـبَـةَ حـقـا
فَـتَـنَـفَّـسْـتُ ثـمَّ قُـلـتُ نَـعَـمْ حـبـ ... ـاً جَـرَى فـي الـعُـروقِ عِـرْقـاً فـعِـرْقـا
مـا لِـدَمْـعِـي عَـدِمـتُـهُ لـيـس يَـرْقـا ... إنَّـمـا يَـسْـتَـهِـلُّ غَـسْـقـاً فَـغَـسْـقـا[١]
طَـرَبـاً نَـحْـو ظَـبْـيَـةٍ تَـرَكَـتْ قَـلْـ ... ـبي مِـنَ الـوَجْـدِ قَـرْحَـةً مـا تَـفَـقّـا[٢]

الشعر لأبي العتاهية. والغناء لفريدة خفيفُ رمل بالوسطى. وفيه لإبراهيم بن المهدي خفيفُ رَمَلٍ آخر. ولفريدة أيضاً لحنٌ من الثقيل الثاني في أبيات من هذه القصيدة وهي:

قـد لَـعَـمْـرِي مَـلَّ الـطَّـبِـيـبُ ومَـلَّ الـ ... ـأهْـلُ مِـنِّـي مـمّـا أُداوَى وأُرْقَـى
لَـيْـتَـنـي مُـتُّ فـاَسْـتَـرَحْـتُ فـإنِّـي ... أبـداً مـا حَـيِـيـتُ مِـنْـهـا مُـلَـقَّـى[٣]

أخبرني عمّي قال: حدثني عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني هِبَةُ الله بن إبراهيم بن المهدي قال: حدّثني عمّي منصور بن المهدي: أنه كان عند أبي في يوم كانت عليه فيه نَوْبةٌ لمحمد الأمين، فتشاغَل أبي بالشُّرْب في بيته ولم يَمْضِ، وأرسل إليه عِدَّةَ رُسُلٍ فتأخّر. قال منصور: فلما كان من غَدٍ قال: ينبغي أن تعمل على الرَّواح إليّ لِنمضي إلى أمير المؤمنين فنترضّاه؛ فما أشُكّ في غضبه عليّ. ففعلتُ ومَضَيْنا. فسألنا عن خبره فأُعْلمنا أنه مشرف على حَيْر الوحش[٤] وهو مخمور، وكان من عادته ألاّ يشرب إذا لحِقه الخُمار[٥]. فدخلنا؛ وكان طريقُنا على حجرة تُصنع فيها الملاهي. فقال لي أخي: اذهب فاختَرْ منها عوداً تَرْضاه،

---

(١) يرقأ الدمع: يجفّ. وخففت الهمزة. وغسقاً فغسقاً: أنصباباً إثر انصباب.
(٢) تفقّا: أصلها تتفقأ. حذف حرف المضارع، وخففت الهمزة وتتفقأ: تنفجر، تنشق.
(٣) مُلقى: مُمتحَن يلقى مكروهاً إثر مكروه.
(٤) حير الوحش: حظيرة الوحوش، أو بستان الوحوش.
(٥) الخمار: صُداع الخمر.

وأصْلِحْه غاية الإصلاح حتى لا تحتاج إلى تغييره البتّة عند الضّرب ففعلت وجعلته في كمّي. ودخلنا على الأمين وظهره إلينا. فلما بَصُرنا به من بعيد قال: أَخْرِجْ عودك فأخرجتُه، وأندفع يغنّي: [المتقارب]

وكـأسٍ شَـرِبْـتُ عـلـى لَـذَّةٍ وَأُخْـرَى تـداويـتُ مـنـهـا بـهـا
لِـكَـيْ يَـعْـلَـمَ الـنَّـاسُ أنّـي ٱمْـرُؤٌ أَتَـيْـتُ الـفُـتُـوَّة مـنْ بـابِـهـا
وشـاهِـدُنـا الـجُـلُّ وَالـيـاسَـمِـ ـيـنُ والـمُـسْـمِـعـاتُ بِـقُـصَّـابِـهـا[1]
وَبَـرْبَـطُـنـا دائِـمٌ مُـعْـمَـلٌ فـأيُّ الـثَّـلاثَـةِ أزْرَى بـهـا[2]

فأستوى الأمين جالساً وطرِب طرباً شديداً وقال: أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لي طرباً، ودعا برطل فشربه على الرِّيق وأمتدّ في شربه. قال منصور: وغنّى إبراهيم يومئذ على أشدّ طبقة يُتَنَاهَى إليها في العود، وما سمِعتُ مثل غنائه يومئذ قطّ. ولقد رأيتُ منه شيئاً عجيباً لو حُدِّثت به ما صَدَّقت، كان إذا ابتدأ يغنّي أصغتِ الوحشُ إليه ومدّت أعناقَها، ولم تزل تدنو منّا حتى تكاد أن تضع رؤوسها على الدُّكان الذي كنّا عليه، فإذا سكتَ نَفَرتْ وبعدت منّا حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التّباعد فيها عنّا، وجعل الأمين يَعْجَبُ من ذلك، وأنصرفنا من الجوائز بما لم ننصرف بمثله قطُّ.

أخبرني عمّي والصُّوليّ قالا: حدّثنا الحسين بن يحيى الكاتب أبو الجُمان أنّ إسحاق كتب إلى إبراهيم بن المهدي بصوت صنعه في شعر له وهو:

[مجزوء الخفيف]

قُـلْ لِـمَـنْ صَـدَّ عَـاتِـبَـا ونـأى عَـنْـكَ جـانِـبَـا
قـد بَـلَـغْـتَ الـذي أرَدْ تَ وإنْ كُـنْـتَ لاعِـبَـا

وبيّن له شعرَه وإيقاعَه وبساطه ومَجْراه وإصبعه وتجزئتَه وقسمته ومخارج نَغَمه ومواضعَ مقاطعه ومقادير أوزانه، فغَنّاه إبراهيم، ثم لقيه بعد ذلك فغناه إياه فما خَرم منه شَذْرةً ولا نَغْمةً. قال: وفاقني فيه بحسن صوته.

(١) الجلّ: الورد أبيضه وأحمره وأصفره.
(٢) البربط: العود. (فارسي معرب).

نسبة هذا الصوت

قُـلْ لِـمَـنْ صـعـدٌ عـاتِـبـا ونـأى عَـنْـكَ جـانِـبـا
قَـدْ بَـلَـغْـتَ الـذي أردْ تَ وإنْ كُـنْـتَ لاعِـبـا
واعْـتَـرَفْـنـا بـمـا ادَّعَـيْـ تَ وإنْ كُـنْـتَ كـاذِبـا
فـافْـعَـلِ الآنَ مـا أردْ تَ فـقـد جـئـتُ تـائِـبـا

يقال: إنّ الشعر لإسحاق، ولم أجِدْه في مجموع شعره. ووجدتُ فيه لحناً لحَكَم الواديّ في ديوان أغانيه ولحنه من الماخوريّ، وهو خفيفٌ من خفيف الثقيل الثاني بالبنصر. وكذلك ذكرتْ دَنَانيرُ أنّه لحَكَم الواديّ، ويُشبه أن يكون الشعر لغيره. ولحن إسحاق الذي كتب به إلى إبراهيم بن المهدي ثاني ثقيل بالبنصر في مجراها. وفيه ثقيلٌ أوّل مطلق في مَجْرى البنصر لم يقع اليّ نسبتُه إلى صانعه وأظنّه لحن حَكَمٍ.

أخبرني عمّي قال: حدّثنا أبو عبد الله المَرْزُبان قال: حدّثني إبراهيم بن أبي دُلَف العَجْليّ قال: كُنَا مع المعتصم بالقَاطُول، وكان إبراهيم بن المهدي في حَرّاقته بالجانب الغربيّ وأبي وإسحاق الموصليّ في حَرّاقتيهما في الجانب الشرقيّ، فدعاهما يوم جمعة فعبرا إليه في زلال[1] وأنا معهما وأنا صغير وعليّ أَقْبِيةٌ ومِنْطَقةٌ. فلما دنونا من حَرّاقة إبراهيم نهض ونهضنا ونهضتْ بنهوضه صَبِيّة له يقال لها غَضّةُ، وإذا في يديه كأسان وفي يديها كأس. فلما صعدنا إليه اندفع فغنّى: [السريع]

حَـيّـاكـمـا الله خَـلِـيـلـيّـا إنْ مَـيِّـتـاً كُـنْـتُ وإنْ حَـيَّـا
إن قُـلْـتُـمـا خَـيْـراً فـأهْـلٌ لـهُ أو قـلـتـمـا غَـيّـاً فـلا غَـيَّـا

ثم ناول كلاًّ منهما كأساً وأخذ هو الكأسَ التي كانت في يد الجارية وقال: اشربا على ريقكما، ثم دعا بالطعام فأكلوا وشَرِبوا، ثم أخذوا العيدانَ فغنّاهما ساعةً وغنَّياه؛ وضرب وضربا معه، وغنّت الجارية بعدهم. فقال لها أبي: أحسنتِ مراراً. فقال له: إن كانت أحسنت فخذها إليك، فما أخرجتُها إلاّ إليك.

أخبرني عمّي قال: حدّثنا عليّ بن محمد بن نصر قال: حدّثني أبو

---

(١) الزلال: ضرب من السفن السريعة.

العُبَيْس بن حمدون قال: لمّا صنع مخارق لحنه في شعر العَتابي. [الطويل]

أَخِضْني المُقَامَ الغَمْرَ إن كانَ غَرَّني ... سَنا خُلَّبٍ أوْ زَلَّتِ القَدَمانِ

غنّاه إبراهيم بن المهديّ؛ فقال له: أحسنت وحياتي ما شئت! فسجد مُخارق سروراً بقول إبراهيم ذلك له.

أخبرني عمّي قال: حدّثني عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثني القطرانيّ عن عمرو بن بانة قال: غنّى إبراهيم بن المهدي يوماً: [الطويل]

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً ... فَمَاءُ الهَوَى يَرْفَضُّ أوْ يَتَرقْرَقُ(١)

فاستحسنتُه وسألتُه إعادَته عليّ حتى آخُذَه عنه ففعل. ثم قال لي: إنّ حديث هذا الصوت أحسن منه. قلت: وما حديثُه أعزّك الله؟ قال: غنّانِيه ابنُ جامع والصنعة فيه له، فلما أخذتُه عنه غنّيته إيّاه ليسمعه منّي، فاستحسنه جدّاً وقال: كأنّي والله ما سمِعتُه قطُّ إلاّ منك ثم كان صوتُه بعد ذلك على نسبة هذا الصوت.

أخبرني عليّ بن إبراهيم الكاتب قال: حدّثنا عُبَيد الله بن عبد الله بن خُرْدَاذْبَه قال: حدّثني محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال: وجّه إليّ إبراهيم بن المهديّ يوماً يدعوني، وذلك في أوّل خلافة المعتصم، فصرتُ إليه وهو جالس وحدَه وشاريةُ جاريتُه خلفَ السِّتارة، فقال: إني قلتُ شعراً وغنّيت فيه وطرحتُه على شارية فأخذتْه وزعمت أنّها أحذق به منّي، وأنا أقول إني أحذق به منها، وقد تَراضَيْنا بك حَكَماً بيننا لموضعك من هذه الصناعة، فاسمعه منّي ومنها واحكم ولا تَعْجَل حتى تَسْمَعَه ثلاثَ مرات. فقلت نعم. فاندفع يغنّي بهذا الصوت: [الطويل]

أَضَنُّ بلَيْلَى وَهِيَ غَيْرُ سَخِيَّةٍ ... وتَبْخَلُ ليلى بالهَوَى وأَجُودُ(٢)

فأحسن وأجاد. ثم قال لها: تَغَنَّيْ فغنّته فَبَرَّزتْ فيه حتى كأنه كان معها في أَبِيجاد، ونظر إليّ فعرف أنّي قد عرفت فضلَها عليه، فقال: على رِسْلِك! وتحدّثنا ساعةً وشَرِبنا. ثم اندفع فغنّاه ثانية فأضْعف في الإحسان، ثم قال لها: تَغَنَّيْ، فغنّت فبزَعت وزادت أضعافَ زيادته، وكدْتُ أَشُقّ ثيابي طرباً. فقال لي: تَثَبّتْ ولا

---

(١) حزوى: موضع بنجد، جبل في الدهناء، وموضع باليمامة. (انظر معجم البلدان: ٢/ ٢٥٥).
ويرفض: يسيل غزيراً كأنه يتفجر.

(٢) ضنَّ: بخلَ.

تَعْجَلْ. ثم غنّاه ثالثة فلم يُبْق غايةً في الإحكام، ثم أمرها فغنّت، فكأنه إنما كان يلعب. ثم قال لي: قل، فقضيتُ لها؛ فقال: أصبتَ، فكم تُساوي عندك؟ فحملَني الحسدُ له عليها والنَّفاسةُ بمثلها أنْ قلتُ: تُساوي مائةَ ألف درهم. فقال: أوَ ما تُساوي على هذا الإحسان وهذا التَّفضيل إلاّ مائة ألف! قَبح الله رأيك! والله ما أجِد شيئاً أبلغَ في عقوبتك من أن أصْرِفك، قم فأنصرِفْ إلى منزلك مذموماً. فقلت له: ما لقولك آخْرُج من منزلي جواب، وقمت وأنصرفت، وقد أحْفَظني كلامُه وأرْمَضَني[1]. فلمّا خطوت خُطُواتٍ التفتُّ اليه فقلت له: يا إبراهيم! أتَطْرُدني من منزلك! فوالله ما تُحسن أنت ولا جاريتُك شيئاً. وضرَب الدَّهر ضرَبانَه، ثم دعانا المعتصمُ بعد ذلك وهو بالوزيريّة في قصر التّل، فدخلت أنا ومخارق وعلّويه، وإذا أميرُ المؤمنين مُضطَبح وبين يديه ثلاثُ جاماتٍ: جامُ فضَّة مملوءةٌ دنانيرَ جُدُداً، وجامُ ذهب مملوءة دراهم جُدُداً، وجامُ قواريرَ مملوءةٌ عنبراً، فظننّا أنها لنا بل لم نَشُكّ في ذلك، فغنَّيناه وأجهدنا أنفُسنا، فلم يطرب ولم يتحرك لشيء من غنائنا. ودخل الحاجبُ فقال: إبراهيم بن المهديّ. فأذِن له فدخل، فغنّاه أصواتاً أحسنَ فيها، ثم غنّاه بصوت من صنعته وهو: [البسيط]

ما بالُ شَمْسِ أبي الخَطّابِ قَدْ غَرَبَتْ يـا صَاحِبَيَّ أظُنُّ السّـاعَـةَ آقْـتَـرَبَـتْ

فأستحسنه المعتصمُ وطرِب له، وقال: أحسنتَ والله! فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين فإن كنتُ أحسنتُ فهَبْ لي إحدى هذه الجامات، فقال: خذ أيّتها شئتَ، فأخذ التي فيها الدنانير؛ فنظر بعضُنا إلى بعض. ثم غنّاه إبراهيم بشعر له وهو:

[المتقارب]

فـمـا مُـزَّةٌ قَـهْـوَةٌ قَـرْقَـفٌ شَـمُـولٌ تَـرُوقُ بِـرَاوُوقِـهـا[2]

فقال: أحسنتَ والله يا عمّ وسرَرتَ. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنتُ أحسنتُ فهَب لي جاماً أُخرى؛ فقال: خذ أيّتهما شئتَ، فأخذ الجامَ التي فيها الدراهم؛ فعند ذلك آنقطع رجاؤنا منها. وغنّاه بعد ساعة: [الطويل]

ألاَ لَيتَ ذاتَ الخالِ تَلْقَى مِنَ الهَوَى عَشِيرَ الّذِي ألْقى فَيَلْتَئِمَ الحُبُّ[3]

---

(١) أرمضني: أوجعني وآلمني، وكأنه ألقاني على الرمضاء.

(٢) المزة والقهوة والقرقف والشمول: من أسماء الخمر. والراووق: المصفاة.

(٣) العَشِير والعشر: الجزء من عشرة من الشيء.

فأرتجّ بنا المجلسُ الذي كنا فيه، وطرِب المعتصمُ واستخفّه الطربُ فقام على رجليه، ثم جلس فقال: أحسنتَ والله يا عمّ ما شئتَ! قال: فإن كنتُ قد أحسنتُ يا أمير المؤمنين فهَبْ لي الجام الثالثة؛ فقال: خُذْها فأخذها. وقام أمير المؤمنين، ودعا إبراهيمُ بمنديل فثَناه طاقَتَيْن ووضع الجاماتِ فيه وشَدَّه، ودعا بطين فختَمه ودفَعه إلى غلامه، ونهضنا إلى الانصراف، وقُدِّمتْ دوابُّنا. فلما ركِب إبراهيم التفتَ إليّ فقال: يا محمد بن الحارث، زعمتَ أنّي لا أُحسن أنا وجاريتي شيئاً، وقد رأيت ثمرة الإحسان. فقلتُ في نفسي: قد رأيتُ، فخُذها لا بارك الله لك فيها! ولم أُجِبْه بشيء.

نسبة هذه الأصوات

صوت

[البسيط]

ما بالُ شَمْس أبي الخطّابِ قَدْ غَرَبَتْ ... يـا صَـاحِـبـيَّ أظُـنُّ الـسَّـاعَـةَ اْقـتَـرَبَـتْ
أم لا فَـمـا بـالُ رِيـحٍ كُـنْـتُ آمُـلُـهـا ... غَدَتْ عَلَيَّ بِصِرٌ بَعْدَ ما خُبِئَتْ[1]
أشْـكُـو إلَـيْـكَ أبـا الـخـطّـابِ جـارِيَـةً ... غَـرِيـرَةً بـفـؤادي الـيَـوْمَ قَـدْ لَـعِـبَـتْ
رَأيْـتُ قَـيِّـمَـهـا يَـوْمـاً يُـحَـدِّثُـهـا ... يـا لـيـتَـهـا قَـرُبَـتْ مِـنّـي ومـا بَـعُـدَتْ

الشعر والغناء لإبراهيم بن المهديّ رَمَلٌ بالبنصر. وفيه هَزَج بالبنصر، ذكر عمرو بن بانة أنه لإبراهيم الموصليّ، وذكر غيره أنه لإبراهيم بن المهديّ.

صوت

[الطويل]

ألا لَـيْـتَ ذاتَ الـخـال تَـلْـقَـى مِـنَ الـهَـوَى ... عَـشِـيـرَ الـذي أَلْـقَـى فَـيَـلْـتَـئِـمَ الـحُـبُّ
وصـالُـكُـمُ صَـدٌّ وَقُـرْبُـكُـمُ قِـلـىً ... وَعَطْفُكُمْ سُخْطٌ وَسِلْمُكُمْ حَرْبُ[2]

الشعر للعبّاس بن الأحنف. والغناء لإبراهيم.

وقال ابن أبي طاهر: حدّثني المؤمّل بن جعفر قال: سمعتُ أبي يقول: كانت في يد المعتصم باقةُ نرجس فقال لإبراهيم بن المهديّ: يا عَم قل فيها أبياتاً وغنِّ

(١) ريحٌ صَرٌ: شديدة الصوت والبرد.
(٢) القلى: البغض، والكراهية.

فيها. فنكَت في الأرض بقضيبٍ في يده هنيهةً ثم قال:

صوت [المتقارب]

ثـلاثُ عُـيُـونٍ مِـنَ الـنَّـرْجِـس عَـلـى قـائِـمٍ أخْـضَـرٍ أمْـلَـسِ
يُـذَكِّـرْنَـنـي طِـيـبَ ريّـا الـحَـبِـيـبِ فـيَـمْـنَـعْـنَـنِـي لَـذَّةَ الـمَـجْـلِـسِ

وصنع فيه لحناً وغنّاه به، فأعجبه وأمَر له بجائزة. لحنُ إبراهيم في هذين البيتين خفيفُ رمَل بالبنصر، ذكر لي ذُكَاءُ وغيرُه ذلك.

[بينه وبين المأمون]

أخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال: حدّثني محمد بن يزيد النَّحْوي عن الجاحظ، وأخبرني به محمد بن يحيى الصّولي قال: حدّثنا يَموتُ بن المُزَرِّع عن الجاحظ قال: أرسل إلى ثُمَامَةُ[١] يوم جلس المأمونُ لإبراهيم بن المهديّ وأمَر بإحضار الناس على مراتبهم فحضروا فجيء بإبراهيم، وأخبرني عمّي قال: حدّثنا الحسن بن عُلَيْل قال: حدّثني محمد بن عمرو الأنباريّ من أبناء خُراسان قال:

لمّا ظفِر المأمون بإبراهيم بن المهديّ أحبَّ أن يوبِّخه على رؤوس الناس. قال: فجِيءَ بإبراهيم يَحْجُلُ في قيوده، فوقف على طَرَف الإيوان وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه، فقال له المأمون: لا سلّم الله عليك ولا حَفِظَك ولا رعاك ولا كَلأَك يا إبراهيم. فقال له إبراهيم: على رِسْلك يا أمير المؤمنين؟ فلقد أصبحتَ وليَّ ثأري، والقدرة تُذْهِبُ الحفيظةَ[٢]، ومن مَدَّ له الاغترارُ في الأمل هجمَتْ به الأناةُ على التَّلف. وقد أصبح ذنبي فوق كلّ ذنب، كما أنّ عفوك فوق كلّ عفو ـ وقال الحسن بن عُلَيْل في خبره: وقد أصبحت فوق كلّ ذي ذنب، كما أصبح كلُّ ذي عفو دونك ـ فإن تُعاقِبْ فبحقّك، وإن تَعْفُ فبفضلك. قال: فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه فقال: إنّ هذين أشارا عليّ بقتلك. فالتفتَ فإذا المُعتصم والعبّاس بن المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا حقيقة

(١) ثمامة: هو ثمامة بن أشرس النميري أحد كبار المعتزلة وأستاذ الجاحظ، وأحد الفصحاء البلغاء توفي سنة ٢١٣ هـ.

(٢) الحفيظة: الغضب، والغيظ.

الرأي في مُعْظَم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وما غَشّاك إذ كان ما كان منّي، ولكنّ الله عوّدك من العفو عادةً جريتَ عليها دافعاً ما تَخافُ بما ترجو، فكفاك الله. فتبسّم المأمون وأقبل على ثُمامة ثم قال: إنَّ من الكلام ما يفوق الدرّ ويغلب السِّحْر، وإن كلام عمّي منه، أَطْلِقوا عن عمّي حديدَه ورُدّوه إلي مُكَرَّماً. فلما رُدَّ إليه قال: يا عَمّ صِرْ إلى المنادمة وأرْجعْ إلى الأنس، فلن ترى منّي أبداً إلاّ ما تحبّ. فلمّا كان من الغد بعث إليه بدَرْجٍ فيه[1]: [الكامل]

يـا خَـيْـرَ مَـن ذَمَـلـتْ يَـمـانِـيَـةٌ بـهِ ... بَـعْـدَ الـرَّسُـولِ لآيِـسٍ أو طـامِـعِ[2]
وَأبَـرَّ مَـنْ عَـبَـدَ الإلٰـهَ عـلـى الـهُـدَى ... نَـفْـسـاً وَأحْـكَـمَـه بِـحَـقٍّ صـادِعٍ[3]
غَـسَـلُ الـفَـوارِعِ مـا أُطِـعْـتَ فـإنْ تُـهَـجْ ... فـالـمَـوْتُ فـي جَـرَعِ الـسِّـمـام الـنَّـاقِـعِ
مُـتَـيـقِّـظـاً حَـذِراً ومـا يَـخْـشَـى الـعِـدا ... نَـبْـهـانَ مِـنْ وَسَـنـاتِ لَـيْـلِ الـهـاجِـعِ
والله يَـعْـلَـمُ مـا أقُـولُ فـإنَّـهـا ... جَـهْـدُ الألِـيَّـةِ مِـنْ حَـنِـيـفٍ راكِـعِ[4]
قَـسَـمـاً ومـا أُدلِـي إلَـيْـكَ بِـحُـجَّـة ... إلا الـتَّـضَـرُّعَ مِـن مُـحِـبٍّ خـاشِـعِ
مـا إن عَـصَـيْـتُـكَ والـغُـواةُ تَـمُـدُّنـي ... أسْـبَـابُـهـا إلاّ بِـنِـيَّـة طـائِـعِ
حَـتَّـى إذا عَـلِـقَـتْ حَـبـائِـلُ شِـقْـوَتِـي ... بِـرَدَى عـلـى حُـفَـرِ الـمَـهـالِـكِ هـائِـعِ[5]
لَـمْ أدرِ أنَّ لِـمِـثْـلِ ذَنْـبِـي غـافِـراً ... فـأقَـمْـتُ أرْقُـبُ أيَّ حَـتْـفٍ صـارِعِـي
رَدَّ الـحَـيـاةَ إلـيَّ بَـعْـدَ ذَهـابِـهـا ... وَرَعُ الإمـامِ الـقـاهِـرِ الـمُـتَـواضِـعِ
أحْـيـاكَ مَـنْ وَلاّكَ أطْـوَلَ مُـدَّةٍ ... وَرَمَـى عَـدُوَّكَ فـي الـوَتِـيـنِ بـقـاطِـعِ[6]
إنَّ الَّـذِي قَـسَـمَ الـفَـضـائِـلَ حـازَهـا ... فـي صُـلْـبِ آدمَ لـلإمـامِ الـسَّـابِـعِ
كَـمْ مِـنْ يَـدٍ لَـكَ لا تُـحَـدِّثُـنـي بـهـا ... نَـفْـسِـي إذا آلَـتْ إلـيَّ مَـطـامِـعِـي
أسْـدَيْـتَـهـا عَـفْـواً إلـيَّ هَـنِـيـئَـةً ... فَـشَـكَـرْتُ مُـصْـطَـنَـعـاً لأكْـرَمِ صـانِـعِ
ورَحِـمْـتَ أطـفـالاً كـأفْـراخِ الـقَـطـا ... وَعَـويـلَ عـانِـسَـةٍ كَـقَـوْسِ الـنَّـازِعِ[7]
وَعَـفَـوْتَ عـمَّـنْ لـم يَـكُـنْ عَـن مـثـلـهِ ... عَـفْـوٌ ولَـمْ يَـشْـفَـعْ إلـيـكَ بـشـافِـعِ

(١) الدرج: ما يكتب فيه.
(٢) الذَّمَل: ضرب من سير الإبل.
(٣) الحق الصادع: الواضح، المشرق.
(٤) الألية: القسم.
(٥) الهائع: المنتشر.
(٦) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٧) النازع: الرامي.

إلاّ العُلُوَّ عَنِ العُقُوبَةِ بعدَما ظَفِرَتْ يداكَ بِمُسْتَكِينٍ خاضِعِ

قال: فبكى المأمون ثم قال: عليَّ به، فأُتي به فخلع عليه وحمَله وأمر له بخمسة آلاف دينار ودعا بالفرّاش فقال له: إذا رأيتَ عمّي مُقْبلاً فاطرَحْ له تُكَأَةً[1]، فكان يُنادمه ولا يُنكر عليه شيئاً. ورُوي بعضُ هذا الخبر عن محمد بن الفضل الهاشميّ فقال فيه: لمّا فرَغ المأمونُ من خطابه دفعه إلى ابن أبي خالد الأحوَل وقال: هو صديقك فخُذه إليك. فقال: وما تُغْني صداقتي عنه وأميرُ المؤمنين ساخطٌ عليه! أمَا إنّي وإن كنتُ له صديقاً لا أمتنع من قول الحقّ فيه. فقال له: قُلْ فإنّك غير متَّهم. قال وهو يُريد التّسلُّقَ على العفو عنه: إن قتلتَه فقد قتلت الملوكُ قبلَك أقلّ جُرْماً منه، وإن عفوتَ عنه عفوتَ عمّن لم يُعْفَ قبلَك عن مثله. فسكت المأمون ساعةً ثم تمثّل: [الكامل]

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأعْفُوَنْ جَلَلاً وَلَئِنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي[2]
قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أخِي فإذا رَمَيْتُ أصابَنِي سَهْمِي

خُذْه يا أحمد إليك مُكَرّماً، فانصرفَ به. ثم كتب إلى المأمون قصيدتَه العينية. فلما قرأها رقّ له وأمر برده إلى منزله وردّ ما قُبِض منه من أمواله وأملاكه. وفي خبر عمّي عن الحسن بن عُلَيْل قال: حدّثني محمد بن إسحاق الأشعريّ عن أبي داود: أن المأمون تقدّم إلى محمد بن مزداد لمّا أطلق ابراهيمَ أن يمنعه دارَي الخاصّة والعامّة، ويُوكِّل به رجلاً من قبله يَثِق به ليعرِّفه أخبارَه وما يتكلّم به. فكتب إليه الموكّل به أنّ إبراهيم لما بلغه منعه من داري الخاصّة والعامّة تمثل: [البسيط]

يا سَرْحَةَ الماءِ قَدْ سُدَّتْ مَوارِدُهُ أمَا إلَيْكِ طَرِيقٌ غَيْرُ مَسْدُودِ
لِحَائِمٍ حامَ حَتَّى لا حِيامَ لَهُ مُحَلأً عن طَرِيقِ الماءِ مَطْرودِ[3]

فلما قرأها المأمون بكى وأمر بإحضاره من وقته مكرَّماً وإنزاله في مرتبته؛ فصار إليه محمد فبشَّره بذلك وأمره بالركوب فركِب. فلما دخل على المأمون قبَّل

(١) التكأة: ما يتكأ عليه حين الجلوس كالمخدة.
(٢) جللاً: عضواً عظيماً. وأوهن العظم: أضعفه.
(٣) المحلأ: الممنوع عن الورود، والمطرود.

البساط ثم قال: [البسيط]

البِرُّ بي منك وَطَّا العُذْرَ عِنْدَكَ لي دُونَ اعْتِذارِي فلم تَعْذِلْ ولم تَلُم[1]
وقامَ عِلْمُكَ بي فاحْتَجَّ عندكَ لي مَقامَ شاهِدِ عَدلٍ غَيْرِ مُتَّهَمِ
رَدَدْتَ مالِي ولم تَمْنُنْ عَلَيَّ بهِ وقبلَ رَدِّكَ مالي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
تَعْفُو بعَدْلٍ وَتَسْطُو إنْ سَطَوْتَ بهِ فلا عَدِمناكَ من عافٍ ومُنْتَقِمِ
فَبُؤْتُ منكَ وَقَدْ كافأْتَها بِيَدٍ هِيَ الحياتانِ منْ مَوْتٍ ومَنْ عَدَمِ[2]

فقال له: اجلس يا عمّ آمِناً مطمئناً، فلن ترى أبداً منّي ما تكره، إلا أن تُحْدِثَ حَدَثاً أو تتغيّر عن طاعة؛ وأرجو ألاّ يكون ذلك منك إن شاء الله.

أخبرني أحمد بن جعفر جحظة قال: حدّثني ابن حمدون عن أبيه قال: كنت أُحِبّ أن أجمع بين إبراهيم بن المهديّ وأحمد بن يوسف الكاتب بما كنت أراه من تقدُّم أحمد وغَلَبته الناسَ جميعاً بحفْظه وبلاغته وأدَبه في كل مَحْضَر ومجلِس. فدخلتُ يوماً على إبراهيم بن المهدي وعنده أحمد بن يوسف وأبو العالية الخَزَريّ، فجعل إبراهيم يحدّثنا فيُضيف شيئاً إلى شيء، مرّةً يُضحكنا ومرَّة يَعِظُنا ومرَّة يُنْشدنا ومرَّة يُذَكِّرنا، وأحمد بن يوسف ساكت. فلما طال بنا المجلسُ أردتُ أن أُخاطب أحمد، فَسَبَقني إليه أبو العالية فقال: [الرجز]

قد كُنْتَ نبَّاحاً فما لَكَ اليَوْمْ ما لكَ لا تَنْبَحُ يا كَلْبَ الدَّوْمْ

فتبسّم إبراهيم ثم قال: لو رأيتني في يد جعفر بن يحيى لَرَحِمتَني كما رحِمتَ أحمدَ منّي.

[من أخباره وآراء الناس بغنائه وفنه]

أخبرني يحيى بن عليّ قال: حدّثني أبي قال: قال لي إسحاق: ليس فيمن يدَّعي العلمَ بالغناء مثلُ إبراهيم بن المهدي وأبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجْليّ. فقيل له: فأين محمد بن الحسن بن مُصعَب منهما؟ فقال: لو قيل لك إن محمد بن الحسن يُبصر الغناء لكان ينبغي لك أن تقول: وكيف يُبصر الغناء من نَشأ بخُراسان لا يَسمع من الغناء العربي إلاّ ما لا يفهمه!.

---

(١) وطّا: وطأ، سهلت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٢) بؤتُ: رجعت.

أخبرني يحيى قال: حدّثني أبو العُبَيس بن حَمْدون عن عمرو بن بانة قال: رأيت إسحاق الموصليّ يُناظر إبراهيم بن المهدي في الغِناء، فتكلّما فيه بما فَهِماه ولم نفهم منه شيئاً. فقلت لهما: لئن كان ما أنتما فيه من الغناء ما نحن منه في قليل ولا كثير. أخبرني عمّي عن علي بن محمد بن نصر عن جدّه حمدون: أن المأمون قال لإسحاق: غَنِّني لحنَك في شعر الأخطل: [البسيط]

يا قَلَّ خَيْرُ الغَوانِي كيف رُغْنَ بِهِ فَشِرْبُهُ وَشَلٌ منهنَّ تَصْرِيدُ[1]

فغناه إيّاه فاستحسنه، ثم قال لإبراهيم بن المهديّ: هل صنعتَ في هذا الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فهاته؛ فغنّاه فاستحسنه المأمون وقدّمه على صنعة إسحاق، ولم يدفع إسحاقُ ذلك.

أخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى الموصليّ قال: ذكر أبي عن جدّي عن عبد الله بن عيسى الماهاني قال: دخلتُ يوماً على إسحاق بن إبراهيم الموصلي في حاجة، فرأيت عليه مطْرَف خَزّ أسود ما رأيت قطُّ أحسن منه، فتحدّثنا إلى أن أخذنا في أمر فقال: لقد كانت لكم أيّامٌ حسنة ودولةٌ عجيبةٌ، فكيف ترى هذا؟ فقلت له: ما رأيتُ مثلَه. فقال: إن قيمته مائة ألف درهم، وله حديث عجيب. فقلت له: ما أُقوِّمه إلاّ نحواً من مائة دينار. فقال إسحاق: اسمع حديثَه: شربنا يوماً من الأيّام، فبتُّ وأنا مُثْخن، فانتبهت لرسول محمد الأمين، فدخل عليّ فقال لي: يقول لك أمير المؤمنين عجِّل إليّ - وكان بخيلاً على الطعام فكنتُ آكُل قبل أن أذهب إليه - فقمتُ فَتَسَوَّكتُ[2] وأصلحتُ أمري، وأعْجَلني الرسول عن الغداء. فدخلت عليه وإبراهيم بن المهديّ جالس عن يمينه وعليه هذا المطرف وجُبّة خزّ دَكْناء. فقال لي محمدٌ: يا إسحاق تَغدَّيتَ؟ فقلت: نعم يا سيدي. فقال: إنَك لَنَهِمٌ، أهذا وقت غَدَاء! فقلت: أصبحتُ يا أمير المؤمنين وبي خُمَار، فكان ذلك ممّا حَداني على الأكل. فقال لهم: كم شَرِبنا؟ فقالوا: ثلاثة أرطال. فقال: اسقوه مثلَها. فقلت: إن رأيت أن تفرِّقها عليّ! فقال: تُسْقَى رِطلين ورِطلاً. فدُفع إليّ رِطلان فجعلتُ أشربهما وأنا أتوهّم أن نفسي تَسيل معهما، ثم دُفع إليّ رطلٌ

---

(١) الشِّرْب: الحظ من الماء. والوَشَل: الماء القليل. والتصريد: السقي دون الريّ.

(٢) تسوّكت: دلكت أسناني بالسواك.

آخر فشربتُه فكأنّ شيئاً ٱنجلى عنّي. فقال غنِّني: [الطويل]

كُلَيْبُ لَعَمْرِي كانَ أكْثَرَ ناصِراً وَأيْسَرَ جُرماً منكَ ضُرِّجَ بالدَّمِ

فغنَّيْتُه؛ فقال: أحسنتَ وطرِب. ثم قام فدخل. وكان يفعل ذلك كثيراً، يدخل إلى النساء ويدَعُنا. فقمتُ في أثر قيامه فدعوتُ غلاماً لي فقلت: ٱذهب إلى منزلي وجئني ببِزْمَاوَرْدَتَيْن[1] ولُفَّهُما في منديل وٱذهب رَكْضاً وعجِّل. فمضى الغلامُ فجاءني بهما. فلما وافى البابَ ونزل عن الدَّابة ٱنقطع البِرْذونُ فنَفَق[2] من شدّة ما رَكَضه، فأدخَل إليّ البِزْمَاوَرْدَتَيْن فأكلتُهما ورجعَتْ إليّ نفسي وعُدْتُ إلى مجلسي. فقال لي إبراهيم: إن لي إليك حاجة أُحبّ أن تقضيها لي. فقلت: إنما أنا عبدُك وٱبن عبدك، قل ما شئتَ. قال: تَرُدّ عليّ:

كُلَيْبُ لَعَمْرِي كانَ أكْثَرَ ناصِراً

وهذا المِطْرفُ لك. فقلت: أنا لا آخذ منك مِطْرفاً على هذا، ولكنّي أصير إليك إلى منزلك فأُلْقيه على الجواري وأردّه عليك مراراً، فقال: أُحِبّ أن تردّه عليّ الساعةَ وأن تأخذَ هذا المطرفَ فإنه من لُبْسك ومن حاله كذا وكذا. فرددتُ عليه الصوتَ مراراً حتى أخذه. ثم سمِعنا حركة محمد فقمنا حتى جاء فجلس ثم قعدنا، فشرِب وتحدّثنا. فغناه إبراهيم:

كُلَيْبُ لَعَمْرِي كانَ أكْثَرَ ناصِراً

فكأني والله لم أَسمعه قبل ذلك حسناً، وطرِب محمد طرباً عجيباً وقال: أحسنتَ والله يا عمّ! أَعْطِ يا غلام عَشْرَ بِدَر[3] لعمّي الساعةَ فجاءوا بها. فقال: يا أمير المؤمنين إنّ لي فيها شريكاً. قال: ومن هو؟ قال: إسحاق. قال: وكيف؟ قال: إنما أخذتُه الساعةَ منه لمّا قمتَ. فقلت له: ولم! أضاقت الأموال على أمير المؤمنين حتى يُشرِكك فيما تُعْطَاه! قال: أمّا أنا فأُشْرِكك وأميرُ المؤمنين أعلم. فلما ٱنصرفنا من المجلس أعطاني ثلاثين ألفاً وأعطاني هذا المطرف. فهذا أُخذ به مائة ألف درهم وهي قيمتُه.

---

(١) البزماورد: طعام مصنوع من اللحم المقلي بالزبد والبيض.
(٢) نفق: مات.
(٣) البِدَر: جمع بَدْرة، وهي عشرة آلاف درهم.

أخبرني محمد بن خَلَف بن المَرْزُبان قال: حدّثنا حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: قال لي إبراهيم بن المهديّ: حَجَجْتُ مع الرشيد؛ فلما صرنا بالمدينة خرجتُ أدور في عَرَصاتها، فانتهيت إلى بئر وقد عَطِشْتُ وجاريةٌ تستقي منها، فقلت: يا جارية، امْتَحِي[1] لي دَلْواً. فقالت: أنا والله عنك في شُغْل بضريبة مَوَاليَّ عليّ. فتقَرتُ بسوطي على سَرْجي وغنّيتُ:

صوت

[الخفيف]

رامَ قَلْبِي السُّلُوَّ عن أسماءِ ... وتَعَزَّى وما به من عَزاءِ
سُخْنَةٌ في الشتاءِ باردةُ الصَّيْـ ... ـفِ سراجٌ في الليلةِ الظَّلْماءِ
كَفِّناني إن مُتُّ في دِرْعِ أَرْوَى ... وامْتَحا لي من بئرِ عُرْوةَ مائِي[2]

ـ الشعر للأحوص. والغناء لمعبد رَمَلٌ مُطْلَق في مَجْرى الوسطى عن إسحاق ـ وتمام هذه الأبيات:

[الخفيف]

إنَّني والَّذي تَحُجُّ قُرَيْشٌ ... بَيْتَهُ سالِكِينَ نَقْبَ كَدَاءِ[3]
لَمُلِمٌّ بها وإنْ أُبْتُ مِنْها ... صادراً كالَّذي وَرَدْتُ بِداءِ
ولَها مَرْبَعٌ بِبُرْقَةِ خاخ ... ومَصِيفٌ بالقَصْرِ قَصْرِ قُبَاءِ[4]
قَلَبَتْ لي ظَهْرَ المِجَنِّ فأَمْسَتْ ... قد أطاعَتْ مقالةَ الأعداءِ

ولمعبد أيضاً في البيت الأخير من هذه الأبيات ثم الأوّل والثاني خفيفُ ثقيلٍ عن الهِشَاميّ: ولابن سُرَيْج في:

وَلَها مَرْبَعٌ بِبُرْقَةِ خَاخِ
وكَفِّناني إنْ مُتُّ في درعِ أَرْوَى

رَمَلٌ عن الهِشَامِيّ أيضاً. ولإبراهيم: في «رام قلبي» وما بعده ثاني ثقيلٍ عن حَبَش ـ قال إبراهيم بن المهدي في الخبر: فرفعتِ الجاريةُ رأسَها إليّ فقالت:

---

(١) امتحي لي دلواً: املأيه. والماتح: المستقي.
(٢) بئر عروة: بئر بعقيق المدينة تنسب لعروة بن الزبير بن العوام. (معجم البلدان ١/ ٣٠٠).
(٣) كداء: بأعلى مكة عند المحصب (معجم البلدان ٤/ ٤٣٩).
(٤) برقة خاخ: موضع قرب المدينة. وقباء موضع بين مكة والبصرة.

أتعرفُ بئر عُرْوَةَ؟ قلت لا. قالت: هذه والله بئر عُرْوة، ثم سقَتْني حتى رَوِيتُ وقالت: إنْ رأيتَ أن تُعيده ففعلتُ، فطرِبتُ وقالت: والله لأحمِلنّ قِرْبةً إلى رحْلك!. فقلت: افعلي، ففعَلتْ وجاءت معي تحملها. فلما رأت الجيشَ والخدمَ فزِعتْ. فقلت: لها: لا بأس عليكِ! وكسوتُها ووهبتُ لها دنانير وحبستُها عندي، ثم صِرت إلى الرشيد فحدّثته حديثَها؛ فأمر بآبتياعها وعِتْقها؛ فما بَرِحتْ حتى اشتُريتْ وأُعتقت، وأخذتُ لها منه صلةً وآفترقنا.

حدّثني عليّ بن سليمان الأخفش ومحمد بن خَلَف بن المَرْزُبان قالا: حدّثنا محمد بن يزيد النّحويّ قال: حدّثنا الفضل بن مروان قال: لما أُدخِل إبراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظَفِر به، كلّمه إبراهيم بكلام كان سعيد بن العاص كلّم به معاوية بن أبي سفيان في سَخْطةٍ سخِطها عليه وآستعطفه به. وكان المأمون يحفظ الكلام، فقال له المأمون: هيهاتَ يا إبراهيم! هذا كلامٌ سَبَقك به فَحْلُ بني العاص بن أُميّة وقارِحُهم سعيد بن العاص وخاطَب به معاوية. فقال له إبراهيم: مَهْ يا أمير المؤمنين؟! وأنت أيضاً إن عفوتَ فقد سبقك فَحْلُ بني حَرْبٍ وقارِحُهم إلى العفو؛ فلا تكن حالي عندك في ذلك أبعدَ من حال سعيد عند معاوية، فإنّك أشرفُ منه، وأنا أشرف من سعيد، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية، وإن أعظم الهُجْنة أن تسبق أميّة هاشماً إلى مَكْرُمة. فقال: صدقتَ يا عمّ، وقد عفوتُ عنك.

أخبرني محمد بن خَلَف بن المَرْزُبان قال: حدّثنا حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: جرى بين محمد الأمين وبين إبراهيم بن المهدي كلامٌ على النَّبيذ، فوجد عليه محمد. فلمّا كان بعد أيام بعث إليه إبراهيم بألْطافٍ[1] فلم يقبلها، فوجّه إليه وصيفةً مليحة مغنِّية معها عود معمول من عود هنديّ، وقال هذه الأبيات وغنّى فيها وألقاها عليها حتى أخذت الصنعةَ وأحكَمَتْها، ثم وجّه بها إليه. فوقفت الجارية بين يديه وقالت له: عمُّك وعبدُك يا أمير المؤمنين يقول لك ـ وآندفعتْ تغنِّي بالشعر وهو ـ:

[المتقارب]

هَتَكْتَ الضَّمِيرَ بِرَدِّ اللَّطَفْ ... وَكَشَّفْتَ هَجْرَكَ لي فانْكَشَفْ
وإن كنتَ تُنْكِرُ شيئاً جَرَى ... فَهَبْ للخلافةِ ما قد سَلَفْ
وجُدْ لي بِصَفْحِكَ عَنْ زَلَّتي ... فَبالفضلِ يأخُذُ أهْلُ الشَّرَفْ

(١) ألطاف: هدايا. وجمعه لَطَف.

قال: فسُرَّ محمدٌ بها، وبعث إلى إبراهيم فأحضره ورضي عنه وأمر له بخمسة آلاف دينار وتمَّم يومَه معه.

أخبرني محمد بن خَلَف بن المَرْزُبان قال: أخبرني سعيد بن صالح الأَسَديّ قال: حدّثني جعفر بن محمد الهاشمي قال: حدّثني بعض خدم إبراهيم بن المهدي قال: كانت لإبراهيم بن المهديّ جارية يقال لها صَدُوف، وكان لها من نفسه موضع، فحسدها جواريه على محلّها منه، فلم يَزَلْنَ يُبلغنه عنها ما يَكْره حتى غَضِب عليها وجفاها أياماً، ثم شقَّ ذلك عليه واْغتمَّ به، ولم يطب نفساً بمراجعتها وصُلْحِها. فدخل عليه الأعرابيّ أخو مُعَلِّلة صاحبة الفضل بن الربيع، وكان حسنَ الشِّعْر حُلْوَ اللفظ فصيحاً، وكان إبراهيم يأنَس به، فقال له: ما لي أرى الأمير منكسراً منذ أيام؟ فأمسك. فقال: قد عرفتُ حالَ الأمير وقلتُ في أمره أبياتاً إن أذِن لي أنشدتُه إيّاها. فتبسّم وقال: هاتِ؛ فأنشده: [الكامل]

أَعَتَبْتَ أمْ عَتَبَتْ عليكَ صَدُوفُ ... وَعِتابُ مثلكَ مِثْلَها تَشْرِيفُ
لا تَقْعُدَنَّ تلومُ نَفْسَك دائباً ... فيها وأنتَ بِحُبِّها مَشْغُوفُ
إن الصَّرِيمَة لا يَنُوءُ بِحَمْلِها ... إلاّ القَوِيُّ بها وأنتَ ضَعِيفُ

فاستحسن إبراهيم الأبيات وأمر له بمائتي دينار. وبعث إلى صَدُوفَ فخرجتْ إليه ورضي عنها، وبعثتْ إليه صَدُوفُ بمائة دينار.

أخبرني الحسين بن القاسم الكَوْكبيّ قال: حدّثني أحمد بن عليّ بن حُمَيْدة قال: حدثتني رَيِّقُ قالت: مرض إبراهيم بن المهديّ مَرْضَةً أشرفَ منها على الموت، فجعل يتذكّر شغفه بالغِناء وما سلف له فيه ويتندَّم عليه. فقال له بعض مَنْ حضر: تُبْ وأحرِق دفاترَ الغِناء. فحرّك رأسه ساعة. ثم قال: يا مجانين! فهَبْني أحرقتُ دفاتر الغِناء كلَّها، رَيِّقُ أَيْشٍ أعملُ بها؟ أأقتُلها وهي تحفَظ كلَّ شيء في دفاتر الغناء!!.

أخبرني جعفر بن قُدامة والحسين بن القاسم الكَوْكَبيّ قال: حدّثني المُبرّد عن أحمد بن الربيع عن إبراهيم بن المهديّ قال: رأيتُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم، فقلت له: إن الناس قد أكثروا فيك وفي أبي بكر وعمر، فما عندك في ذلك؟ فقال لي: اخسَأ! ولم يَزِدْني على ذلك. وأخبرني الكَوْكَبيّ بهذا الخبر عن الفضل بن الربيع عن أبيه قال:

كان إبراهيم شديدَ الانحراف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فحَدَّث المأمونَ يوماً أنه رأى عليًّا في النوم، فقال له: من أنت؟ فأخبره أنه عليّ بن أبي طالب. قال: فمشَيْنا حتى جئنا قنطرةً فذهب يتقدّمني لعبورها؛ فأمسكتُه وقلت له: إنما أنت رجلٌ تَدّعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحقّ به منك! فما رأيتُ له في الجواب بلاغةً كما يُوصف عنه. فقال: وأيّ شيء قال لك؟ فقال: ما زادني على أن قال سلاماً سلاماً. فقال له المأمون: قد والله أجابك أبلغَ جواب. قال: وكيف؟ قال: عرَّفك أنك جاهلٌ لا يُجاوَب مثلُك؛ قال الله عز وجل: ﴿**وإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً**﴾[1]. فخجِل إبراهيم وقال: ليتني لم أُحدّثك بهذا الحديث.

أخبرني الكَوْكَبيّ قال: حدّثني المفضَّل بن سَلَمة عن هبة الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه قال: قلت للأمين يوماً: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك! فقال: بل جعلني الله فداءك؛ فأعظمتُ ذلك. فقال: يا عمّ لا تُعْظِمه فإنّ لي عمراً لا يزيد ولا يَنْقُص؛ فحياتي مع الأحبَّة أطيبُ من تجرُّعي فقدَهم، وليس يضرّني عيش من عاش بعدي منهم.

حدّثني جَحْظة قال: حدّثني هبة الله بن إبراهيم بن المهدي قال: حدّثني أبي قال: كنت يوماً بين يَدَي الأمين أُغنّيه؛ فغنّيته:

صوت

[مجزوء الكامل]

أَقْـوَتْ مَـنـازِلُ بـالـهِـضـابِ ... مِـنْ آل هِـنْـدٍ والـرَّبـابِ[2]
خَـطَّـارة بِـزِمـامِـهـا ... وإذا وَنَـتْ ذُلُـلُ الـرِّكـابِ[3]
تَـرْمِـي الـحَـصـا بـمَـنـاسِـمٍ ... صُـمٍّ صَـلادِمَـةٍ صِـلاب

قال: فاستحسن اللَّحن وسألني عن صانعه؛ فعرَّفته أن ابن جامع حدّثني عن سِيَاط أنه لابن عائشة؛ فلم يزل يشرب عليه لا يتجاوزه، ثم انصرفنا ليلتنا تلك. ووافاني رسوله حين انتبهت من النوم وأنا أستاك، فقال لي: يقول لك: بحياتي يا

(١) الهضاب: موضع. (معجم البلدان ٥/٤٠٦).
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٣) الذلول: السهل المقاد من الناس والدواب. الذكر والأنثى فيه سواء.

عمّ لا تَشتغِلْ بعد الصلاة بشيء غير الركوب إليّ. فصلَّيتُ وتناولتُ طعاماً خفيفاً وأنا ألبس ثيابي خوفاً من رجوع رسوله، ورَكِبتُ إليه. فلما رآني من بعيد صاح بي: يا عمّ بحياتي:

* خـــطَّـــارة بِـــزِمَـــامِـــهـــا *

فلمّا دخلت المجلس ٱبتدأته وغنَّيته؛ فأمر بإحضار صَبِيَّةٍ كان يتحظّاها، فأُخرجَتْ إليّ صبيةٌ كأنها لؤلؤة في يدها العود. فقال: بحياتي يا عمّ ألْقِه عليها! فأعدتُه مراراً وهو يشرب؛ حتى إذا ظننتُ أنها قد أخذته أمرتُها أن تغنّيه فغنّته، فإذا هو قد ٱستوى لها إلاّ في موضع كان فيه وكان صعباً جداً فجهَدتُ جَهدي أن يقع لها طلباً لِمَسَرّته، وكان حقيقاً منّي بذلك، فلم يقع لها البتّة. ورأى جهدي في أمرها وتعذّره عليها فأقبل عليها وقد سَكِر ثم قال: نُفِيتُ من الرشيد وكلُّ أَمَةٍ لي حُرَّةٌ وعليَّ عهدُ الله لئن لم تأخُذِيه في المرّة الثالثة لآمُرنّ بإلقائك في دِجْلة! قال: ودِجلةُ تطفَح وبيننا وبينها نحو ذراعين وذلك في الربيع، فتأمّلتُ القصّة، فإذا هو قد سَكِر، وإذا الجارية لا تقوله كما أقوله أبداً. فقلت: هذه والله داهية، ويتنغص عليه يومُه وأُشْرَكُ في دمها، فعدَلْتُ عمّا كنتُ أُغنّيه عليه وتركتُ ما كنت أقوله، وغنَّيته كما كانت هي تقوله، وجعلتُ أُرَدّده حتى ٱنقضت ثلاثُ مرَّات أُعيده فيها على ما كانت هي تقوله، وأريتُه أنّي أجتهد. فلما ٱنقضت الثلاث المرّات قلت لها: هاتيه الآن، فغنّته على ما كان وقع لها. فقلت: أحسَنَتْ يا أمير المؤمنين، وردّدتُه معها ثلاث مرّات، فطابت نفسُه وسكَن، وأمر لي بثلاثين ألف درهم.

قال جَحْظةُ: وقد لَحِقني مثلُ هذا؛ فإنّ طَرْخانَ بن محمد بن إسحاق بن كنداجيق ٱستحسن صوتاً غنَّيته وهو: [مخلع البسيط]

أغـــيَـــانِـــيَ الـــشَّـــادِنُ الـــرَّبِـــيـــبُ أَكْـــتُـــبُ أَشْـــكُـــو فـــلا يُـــجِـــيـــبُ[1]
مِـــنْ أيـــن أَبْـــغِـــي شِـــفَـــاءَ دائِـــي وإنَّـــمـــا دائِـــيَ الـــطَّـــبِـــيـــبُ

ـ ولحنُه رَمَلٌ ـ فقال: أُحِبّ أن تطرحه على زُهْرة جاريتي، فمكثتُ أتردّد إليها شهراً وأكثر وأُرَدِّده عليها وهو يصِلُني ويخلَع عليّ وَيُعطيني كلَّ شيء حسن يكون في مجلسه، فلا تأخذه منّي ولا يقع لها. فلمّا كان بعد شهر قلت له: أيُّها الأمير قد

(١) الشادن: ولد الظبية.

والله اسْتَحْيِيتُ من كثرة ما تُعطيني بسبب هذا الصوت، وقد أعياني أن تأخذه زُهرةُ؛ ثم حدثته حديثَ إبراهيم بن المهدي وقلت له: لولا أني آمَنُك عليها لقلتُه أنا كما تقوله هي حتى نتخلّص جميعاً. وليس وحياتِك تأخذه أبداً كما أقوله ولا فيه حيلة. فقال لي: فدَعْهُ إذاً.

حدّثني جَحْظةُ قال: حدّثني هبة الله بن إبراهيم قال: حدّثني محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال: غنّى إبراهيم بن المهديّ يوماً بحضرة المأمون:

صوت

[الكامل]

يـا صـاحِ يـا ذا الـضّـامِـرِ الـعَـنْـسِ ... وَالـرَّحْـلِ ذي الأَنْـسـاعِ وَالـحِـلْـسِ

أَمّـا الـنَّـهـارُ فـأنْـتَ تَـقْـطَـعُـهُ ... رَتْـكـاً وتُـصْـبِـحُ مِـثْـلَ مـا تُـمْـسِـي

ـ في هذين البيتين لحن لمالكٍ خفيفُ ثقيلٍ عن يونسَ والهشاميّ. قال: ولمعبد فيه ثقيل أوّل، وقد نسب قومٌ لحنَ كلٍّ واحد منهما إلى الآخر. قال محمد ابن الحارث بن بُسْخُنَّر في الخبر: واللحن لمالك بن أبي السَّمْح وهو من قِصاره. هكذا في الخبر ـ قال: فاستحسنه المأمون، وذهبتُ آخذه، ففطِنَ لي إبراهيم فجعل يزيد فيه مرّةً وينقُص منه أُخرى بزوائده التي كان يعمَلها في الغناء، وعلِمتُ ما هو يصنع فتركتُه. فلمّا قام قلت للمأمون: يا سيّدي إن رأيتَ أن تأمر إبراهيم أن يُلْقِي عليَّ:

يـا صـاحِ يـا ذا الـضّـامِـرِ الـعَـنْـسِ

قال: أفْعَلُ. فلما عاد قال له: يا إبراهيم ألْقِ على محمد:

يـا صـاحِ يـاذا الـضّـامِـرِ الـعَـنْـسِ

فألقاه عليّ كما كان يغنّيه مُغَيَّراً، ثم انقضى المجلس وسكِر المأمون. فقال لي إبراهيم: قم الآن فأنت أحذقُ الناس به، فخرجتُ وخرج. ثم جئتُه إلى منزله فقلت له: ما في الأرض أعجبُ منك! أنت ابن الخليفة وأخو الخليفة وعمُّ الخليفة تبخل على وليٍّ لك مثلي لا يُفاخرك بالغِناء ولا يكاثرك بصوت!! فقال لي: يا محمد ما في الدنيا أضعف عقلاً منك! والله ما استبقاني المأمون محبَّةً لي ولا صِلَةً لرَحِمِي، ولكنه سمع من هذا الجِرْم شيئاً فقَده مِنْ سواه فاستبقاني لذلك. فغاظني

فعلُه. فلما دخلت على المأمون حدّثته بما قال لي. فقال المأمون: يا محمد هذا أكفر الناس لنعمةٍ! وأطرق مليًّا ثم قال لي: لا نكدّرُ على أبي إسحاق عَفْوَنا عنه ولا نقطع رَحمه، فدعْ هذا الصوتَ الذي ضَنَّ به عليك إلى لعنة الله.

حدّثني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني محمد بن يزيد قال: قلت لدِعْبِل: بالله أسألك أنت القائل: [الطويل]

كذلك أَهْلُ الكَهْفِ في الكَهْفِ سَبْعَةٌ إذا حُسِبُوا يوماً وثامنُهُم كَلْبُ

فقال: لا والله! فقلت: مَنْ قاله؟ قال: مَنْ حشا اللهُ قبره ناراً إبراهيمُ بن المهديّ، كافأني بذلك عن هجائي إيّاه ليُشِيط بدمي[1].

أخبرني محمد بن مَزْيَد قال: حدّثنا حَمَّاد بن إسحاق قال: حدّثني محمد بن الحارث بن بسْخُنَّر قال: لمّا رَضِي المأمون عن إبراهيم بن المهديّ ونادمه، دخل عليه متبذِّلاً في ثياب المغنِّين وزيِّهم. فلما رآه ضحك وقال: نزع عمّي ثيابَ الكِبْر عن مَنْكِبيه. فدخل وجلس، وأمر المأمونُ بأن يُخْلَع عليه فأُلْبِس الخِلَعَ. ثم ٱبتدأ مُخارق فغنّى:

صوت

[الطويل]

خَلِيلَيَّ مِنْ كَعْبٍ أَلِمَّا هُدِيتُما بِزَيْنَبَ لا يَفْقِدْكُما أَبَداً كَعْبُ
مِنَ اليَوْم زُورَاها فإنَّ مَطِيَّنا غَداةَ غدٍ عنها وعن أهْلِها نُكْبُ[2]

فقال له إبراهيم: أسأتَ وأخطأتَ. فقال له المأمون: يا عمّ إن كان أساء وأخطأ فأحْسِنْ أنتَ. فغنّى إبراهيم الصوت. فلمّا فرغ منه قال لمخارق: أَعِدْه الآن، فأعاده فأحْسَنَ. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين كم بين الصوت الآن وبينه في أوّل الأمر.

قال: ما أبْعَدَ ما بينهما! فالتفت إلى مخارقٍ ثم قال: إنما مَثَلُك يا مُخارق مَثَل الثوب الوَشْي الفاخر، إذا تغافل عنه أهلُه سقط عليه الغبار فحال لونُه، فإذا نُفِضَ عاد إلى جوهره.

---

(١) أشاط دمه وبدمه: أذهبه.

(٢) نكب: مائلات، واحدها أنكب ونكباء.

أخبرني جعفر بن قُدامة قال: حدّثتني شاريةُ الكبرى مولاة إبراهيم بن المهديّ قالت: سمعت مولاي إبراهيم بن المهديّ يحدّث قال:

كنتُ بين يَدَيِ الرشيد جالساً على طَرَف حَرَّاقةٍ من حَرَّاقاته وهو يريد المَوْصِلَ وقد بلغنا إلى السودقانية، والمَدَّادون يَمُدُّون السفن، والشَّطْرَنْجُ بيني وبينه، والدَّسْتُ متوجِّهٌ له، إذ أطرق هُنَيْهةً ثم قال لي: يأبنَ أُمّ، ما أحسنُ الأسماء عندك؟ قلت: محمدٌ اسم رسول اللهﷺ. قال: ثم أيّ شيء بعده؟ قلت: هارون اسم أمير المؤمنين. قال: فما أسْمَجُ الأسماء؟ قلت: إبراهيم. فزَجَرني ثم قال: ويحك! أتقول هذا! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن! فقلتُ له: بشُؤْم هذا الاسم لَقِيَ من نَمْرُودَ ما لَقِيَ وطُرِح في النار. قال: فإبراهيمُ أبن النبيﷺ؟ قلت: لا جَرَم أنه لم يُعَمَّرْ من أجله. قال: فإبراهيمُ الإمام؟ قلتُ بحرفة أسمه قتله مروان في حَرّانَ. وأزيدك يا أمير المؤمنين: إبراهيمُ بن الوليد خُلِع، وإبراهيمُ بن عبد الله بن حسن قُتل، وعمُّه إبراهيم بن حسن سقط عليه السجن فمات، وما رأيتُ والله أحداً يُسمَّى بهذا الاسم إلا قُتِل أو نُكِب أو رأيتُه مضروباً أو مقذوفاً أو مظلوماً. ثم ما انقضى الكلام حتى سمعت مَلاَّحاً يَصيح بآخر: مُدّ يا إبراهيم يا عاضَّ بَظر أُمِّه مُدّ. فقلت له: أبَقِيَ لك شيءٌ بعد هذا! ليس والله في الدنيا أسم أشأم من إبراهيم والسلام. فضحِك والله حتى أشفقتُ عليه.

حدّثني جَحْظة قال: حدّثني أبو عبد الله الهشاميّ عن أبيه قال: دخل الحسن بن سَهْل على المأمون وهو يشرَب؛ فقال له: بحياتي وبحقِّي عليك يا أبا محمد إلاّ شربتَ معي قَدَحاً، وصبَّ له من نبيذه قَدَحاً. فأخذه بيده وقال له مَنْ تُحِبّ أن يغنِّيك؟ فأوْمأ إلى إبراهيم بن المهديّ فقال له: المأمون: غنِّه يا عم، فغنّاه:

* تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواساً إذا ٱنْصَرَفَتْ *

يعرِّض به لِما كان لَحِقه من السوداء والاختلاط. فغضِب المأمون حتى ظنّ إبراهيم أنّه سيُوقِع به، ثم قال له: أبَيْتَ إلاّ كفراً يا أكفرَ خلقِ الله لِنعَمِه! وٱلله ما حَقَن دمَك غيرُه! ولقد أردتُ قَتْلَك فقال لي: إن عفوتَ عنه فعلتَ فعلاً لم يَسْبِقك إليه أحد، فعفوتُ وٱلله عنك لقوله. أفحقُّه أن تعرِّض به ولا تَدَع كيدَك ولا

دَغَلك![١] أو أَنِفْتَ من إيمائه إليك بالغِناء!. فوثب إبراهيم قائماً وقال: يا أمير المؤمنين، لم أذْهَبْ حيث ظننتَ، ولستُ بعائد؛ فأعرض عنه.

أخبرني الحسين بن القاسم الكَوْكَبِيّ قال: حدّثني جرير بن أحمد بن أبي دُواد قال: حدّثني أخي عن أبي قال: كنت أتجنَّب الغِناء وأطعَن على أهله وأذمُّ لَهَجهم به؛ فوجَّه المعتصم إليّ عند خروجه من مدينة السلام: إِلْحَقْ بي؛ فلحِقتُ به بباب الشمّاسيّة ومعي غلامي زنقطة، فوجدته قد ركِب الزورق، وسمعت عنده صوتاً أذهلني حتى سقط سوطي من يدي ولم أشعر به، ثم احتجتُ وقد أعْنَق بي بِرْذَوْني أن أكُفَّه بسوطي. فقلت لغلامي. هاتِ سوطَك؛ فقال: سقَط والله من يدي لمّا سمِعتُ هذا الغِناء. فغلَبني الضَّحِكُ حتى بان في وجهي. ودخلتُ إلى المعتصم بتلك الحال. فلمّا رآني قال لي: ما يُضحكك يا أبا عبد الله؟ فحدّثته، فقال: أتتوب الآن من الطعن علينا في السماع؟ فقلت له: قَبْلَ ذلك مَنْ كان يُغَنّيك؟ قال: عمّي إبراهيم، كان يُغَنِّيني: [الخفيف]

إنَّ هٰذا الطَّويلَ مِنْ آلِ حَفْصٍ أَنْشَرَ المَجْدَ بعدَما كانَ ماتا

ثم قال: أعِدْه يا عمّ ليسمعه أبو عبد الله فإني أعلم أنه لا يَدَعُ مَذهبَه. فقلت: بلى والله لأدَعَنَّه في هذا ولا لُمتك عليه. فقال: أمّا إذ كانت توبتُه على يديك يا عمّ فلقد فزتَ بفخرها وعَدَلْتَ برجل ضخم عن رأيه إلى شأننا.

حدّثني أحمد بن عُبيد الله بن عَمّار قال: حدّثني طَلْحة بن عبد الله الطَّلْحيّ قال: حدّثني الحسين بن إبراهيم قال:

كنت أسأل مُخارقاً: أيُّ النَّاس أحسنُ غِناءً؟ فيُجيبني جواباً مجملاً حتى حفَفْتُ عليه يوماً قال: كان إبراهيم الموصليّ أحسنَ غِناءً من ابن جامع بعَشر طبقات، وأنا أحسن غناءً من إبراهيم الموصليّ بعشر طبقات، وإبراهيمُ بن المهديّ أحسنُ غناءً منّي بعشر طبقات. قال ثم قال لي: أحسنُ الناس غناءً أحسنُهم صوتاً، وإبراهيم بن المهديّ أحسنُ الجنّ والإنس والوحش والطير صوتاً، وحَسبُك هذا.

حدّثني عليّ بن هارون المُنَجِّم قال: حدّثني محمد بن أحمد بن عليّ بن يحيى قال: سمعت جدّي عليّ بن يحيى يقول: حدّثني محمد بن الفضل

---

(١) الدَّغَل: الدَّخَل، الفساد.

الجَرْجَرَائي قال: انتبهتُ يوماً مُغَلِّساً، فدخل إليّ الغلامُ فقال لي: إسحاق الموصليّ بالباب قبل أن أُصلّي الغداةَ. فقلت: يدخل، في الدنيا إنسان يسْتأذن لإسحاق! فدخل فقال: حملني الشوقُ إليك على أن بَكَرتُ هذا البُكور، وقد حملتُ معي نبيذي وعمِلتُ على المُقام عندك. فقلت: مرحباً بك وأهلاً. ودعوت طبّاخي فسألته عمّا في المطبخ، فذكر أشياء يَسيرةً، منها قطعةُ جَدْيٍ وطَبَاهِجُ[1] ودُرَّاج[2] معلَّق. فقال: ما أُريد غيرَ ذلك، هاتِه الساعةَ، فقلت للطّبّاخ: عَجِّلْ بإحضاره، وعمِلتُ على الأكل معه وعلى أن نأخذ في شأننا. فدخل حاجبي فقال: رسول الأمير إسحاق بن إبراهيم[3] بالباب، وإذا فُرانِقٌ يذكر أنه وجَّه به إلى محمد بن الفضل ليُحْضِرَه. قال فقال لي إسحاق: قم في حفظ الله واْجتهد في أن تتعجَّل. قال: فتقدّمت إلى الخادم بإخراج الجواري إليه وَوَضْعِ النَّبيذ بين يديه، ولبِستُ ثيابي وخرجت وركِبت. فلمّا سِرتُ قليلاً قلت في نفسي: أنا أخْسَرُ النَّاسِ صفقةً إن تركتُ إسحاقَ بن إبراهيم الموصليّ في منزلي ومضَيْتُ إلى إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبي، ولا أدري ما يُريد منّي. فقلت لفُرانِق: هل لك في خير؟ قال: وما هو؟ قلت: تأخذ ثلاثين درهماً وتمضي فتقول: إنك وجدتني شاربَ دواءٍ. قال نعم. فدفعتُ إليه ثلاثين درهماً، وختمتُ له خَتْماً ورجعت. فقال لي إسحاق: أسرعتَ الكرَّةَ، فأخبرته بما صنعتُ؛ فقال وُفِّقتَ. فجلست وكان يأكل فأكلت معه، فأخذنا في شأننا. وخرج الجواري إليه يغنين حتى مرّ صوت إبراهيم بن المهديّ في شعره وهو: **[مجزوء الرمل]**

جَــدَّدَ الــحُــبُّ بَــلاَيَــا أمْــرُهــا لَــيْــسَ يَــسِــيــرا

ـ ولحنُه من الثّقيل الثاني ـ قال: فطرِب إسحاق طرباً ما رأيتُه طَرِب مِثْلَه قطّ، وعجب من إحسانه في صَنْعته وجودة قسمته، ولم يزل صوتَنا يومَنا أجمع لا نغنّي غيرَه حتى شرِب إسحاق قَطْرَميزَه[4]، وفيه من المشمّس الذي كان يشربه ثلاثة عشر رطلاً، وكلّما حضرتْ صلاةٌ قام إسحاق يصلّي بنا، فصلّى بنا العَتَمةَ وقد فنِي

(١) الطباهج: الكباب. (فارسي معرب).
(٢) الدراج: نوع من الطيور.
(٣) إسحاق بن إبراهيم المصعبي حاكم بغداد زمن المأمون والمعتصم والواثق. ذو مكانة عالية في الأدب ونقد الغناء. توفي سنة ٢٣٥ هـ.
(٤) القطرميز: قلة كبيرة من الزجاج (فارسي معرب).

قَطْرَميزُه فشرِب من نبيذي رِطْلين على الصوت. قال: وكان محمد بن الفضل ينزل بسُوقِ الثلاثاء وإسحاق ينزل على نهر المهديّ. وقد وُزِّرَ محمد بن الفضل للمتوكّل قبل عبيد الله بن يحيى.

نسبة هذا الصوت

جَـــدَّدَ الـــحُـــبُّ بـــلايـــا أمْـــرُهـــا لـــيْـــسَ يَـــسِـــيـــرا
كَـــبِـــرَ الـــحُـــبُّ وَقِـــدْمـــاً كـــانَ إذ حَـــلَّ صَـــغِـــيـــرا
ذلَّـــلَ الـــحُـــبُّ رِقـــابـــاً كـــانَ أدنـــاهـــا عَـــسِـــيـــرا
لـــيْـــسَ لـــي مِـــنْ حُـــبِّ إلْـــفِـــي غَـــيْـــرُ حِـــرْمـــانـــي الـــسُّـــرُورا

الشّعرُ والغِناءُ لإبراهيم بن المهديّ ثاني ثقيل.

أخبرني محمد بن يحيى الصُّولِيّ قال: حدّثني محمد بن موسى بن حَمّاد قال: حدّثني عبد الوهّاب بن محمد بن عيسى قال:

استَتر إبراهيم بن المهديّ عند بعض أهله من النّساء، فوكَّلتْ بخدمته جاريةً جميلةً وقالت همْساً: إن أرادكِ لشيءٍ فطَاوِعيه وأعلميه ذلك حتى يتّسعَ له، فكانت تُوفّيه حقَّه في الخدمة والإعظام ولا تُعْلمه بما قالت لها؛ فجلّ مقدارُها في نفسه إلى أن قبَّل يوماً يدَها، فقبَّلَتِ الأرضَ بين يديه. فقال: [مجزوء الكامل]

يـــا غَـــزالاً إلَـــيْـــهِ شـــافِـــعُ مِـــنْ مُـــقْـــلَـــتَـــيْـــهِ
وَالـــذِي أجْـــلَـــلْـــتُ خَـــدَّ يْـــهِ فَـــقَـــبَّـــلْـــتُ يَـــدَيْـــهِ
بِـــأبِـــي وَجْـــهُـــكَ مـــا أكْـــثَـــرَ حُـــسّـــادي عَـــلَـــيْـــهِ
أنـــا ضَـــيْـــفٌ وَجَـــزاءُ الـــضَّـــيْـــفِ إحـــســـانٌ إلَـــيْـــهِ

قال: وعمل فيه بعد ذلك لحناً في طريقة الهَزَج.

وقال أحمد بن أبي طاهر: غَنّى إبراهيم بن المهديّ يوماً والمأمون مُصْطَبِحٌ، وقد كان خافه ويلغه عنه تنكُّره:

ذَهَـبْـتُ من الـدُّنيـا وقَـدْ ذَهَـبَـتْ مِـنّـي هَوَى الدَّهْرُ بي عَنْـها وَوَلّى بـها عَنّي

فرَقّ له المأمون لمّا سمِعه، وقال له: والله لا تذهب نفسُك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين، فَطِبْ نفساً؛ فإن الله قد أمَّنك إلاّ أن تُحْدِث حَدَثاً يشهد عليك فيه عَدْلٌ، وأرجو ألاّ يكون منك حَدَثٌ إن شاء الله.

نسبة هذا الصوت

صوت

[الطويل]

ذَهَبْتُ من الدُّنيا وقد ذَهَبَتْ منّي هَوَى الدَّهرُ بي عنها وَوَلّى بها عَنّي
فإنْ أَبْكِ نَفسِي أَبْكِ نَفساً نَفِيسَةً وَإنْ أحْتَسِبْها أحْتَسِبْها على ضَنّ

الشّعر والغناء لإبراهيم بن المهديّ ثاني ثقيل بالوسطى. وهذا الشعر قاله إبراهيم بن المهديّ لمّا أخرج الجُنْدُ عيسى بن محمد ابن أخي خالد من الحبس، وله في ذلك خبر طويل، وقد شَرَطْنا ألاّ نذكر من أخباره إلا ما كان من جنس الغناء. وفي هذه القصيدة يقول: [الطويل]

وَأَفْلَتَنِي عِيسَى وكانَتْ خَدِيعَةً حَلَلْتُ بها مُلْكِي وَفُلَّتْ بها سِنّي

قال ابن أبي طاهر وحدّثني أبو بكر بن الخصيب قال: حدّثني محمد بن إبراهيم قال: غنّى إبراهيم بن المهديّ يوما عند المأمون فأحسن، وبحضرة المأمون كاتبٌ لطاهر يُكْنَى أبا زيد، فَطَرِب حتى وَثَبَ فأخذ طرَف ثوب إبراهيم فقبَّله. فنظر إليه المأمون مُنْكِراً لِفعلِه. فقال: ما تنظر! أُقَبِّلُهُ والله ولو قُتِلتُ عليه! فتبسّم المأمون وقال: أبَيْتَ إلاّ ظَرْفاً.

قال ابن أبي طاهر، وحدّثني عليّ بن محمد قال: سمعتُ بعض أصحابنا يقول: اِجتمع إبراهيم بن المهديّ والحسن بن سَهْل عند المأمون؛ فأراد الحسنُ أن يَضَع من إبراهيم فقال له: يا أبا إسحاق أيّ صوت تغنّيه العرب أحسنُ؟ يريد بذلك أن يُشَهِّر إبراهيمَ بالغناء والعِلم به. فقال إبراهيم: بيت الأعشى:

* تَسْمَعُ للحَلْيِ وَسْواساً إذا انْصَرَفَتْ *

أي إنك مُوَسْوِس، وكان بالحَسَنِ شيءٌ من هذا.

أخبرني عمّي عن جَدّي عن عليّ بن يحيى المنجّم قال: غَنّت مُغَنِّية وإبراهيم ابن المهديّ حاضر:

* مَــنْ رأى نُــوقــاً غــدَتْ سَــحَــرا *

فقال إبراهيم: أنا رأيتُ هذا. قيل له: وأين رأيتَه أيها الأمير؟ قال: رأيتُ ولد عليّ بن رَيْطة يَمْضون في السَّحَر إلى الصيد.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني الحسن بن عُلَيْل العَنزِيّ قال: حدّثني بعضُ الكتّاب عن رَيِّقَ قالت: خرجتُ يوماً إلى سيّدي (تعني إبراهيم بن المهديّ) وقد صنع لحنه في: [الكامل]

وإذا تُـبـاعُ كَـريـمَـةٌ أو تُـشْـتَـرَى ... فَسِـواكَ بـائِـعُـهـا وأنْـتَ الـمُـشْـتَـرِي
وإذا صَـنَـعْـتَ صَـنِـيـعَـةً أتْـمَـمْـتَـهـا ... بِـيَـدَيْـنِ لـيـسَ نَـدَاهُـمـا بِـمُـكَـدَّرِ

وجاريةٌ لنا روميّة أعجميّة لا تُفْصِح في أقصى الدار تكنُس، وهو يطرح الصوت على شارية، والأعجميّة تبكي أحرَّ بكاء سمعتُه قطّ، فجعلتُ أعجَبُ من بكائها وأنظر إليها حتى سكَتَ، فلما سكت قَطَعتِ البكاء، فعلِمتُ أنّ هذا من غَلَبته بحسن صوته لكلّ طبع فصيحٍ وأَعْجمِيٍّ.

أخبرني الحسين بن يحيى وابن المكّيّ وابن أبي الأزهر عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: غنّى إبراهيم بن المهديّ ليلةً محمداً الأمين صوتاً لم أَرْضَه في شعر لأبي نُوَاس وهو: [المديد]

يـا كَـثِـيـرَ الـنَّـوْحِ فـي الـدِّمَـن ... لا عَـلَـيْـهـا بَـلْ عَـلـى الـسَّـكَـنِ
سُـنَّـةُ الـعُـشَّـاق واحِـدَةٌ ... فـإذا أحْـبَـبْـتَ فـاسْـتَـكِـنِ
ظَـنّ بـي مَـنْ قـد كَـلِـفْـتُ بـهِ ... فَـهْـوَ يَـجْـفُـونـي عـلـى الـظِّـنَـن
رَشَـأٌ لَـوْلا مَـلاحَـتُـهُ ... خَـلَـتِ الـدُّنـيـا مـن الـفِـتَـنِ[١]

فأمر له بثلاثمائة ألف درهم. قال إسحاق: فقال إبراهيم له: يا أمير المؤمنين قد أَجَزْتَني إلى هذه الغاية بعشرين ألف درهم، فقال: هل هي إلا خراج بعض الكُوَر[٢]!. هكذا ذكر إسحاق. وقد روى محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر هذه الحكاية عن إبراهيم فقال: لمّا أردتُ الانصراف قال: أَوْقِروا زورق عمّي دنانيرَ، فانصرفتُ بمال جليل.

أخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون قال: ذكر لي أبو عبد الله الهِشاميّ عن أهله قال: قال إبراهيم بن المهديّ ـ وقد خرج إلى ذكر الطَّبْل والإيقاع به ـ فقال إبراهيم: هو من الآلات التي لا يَجُوز أن تُبْلَغ نهايتُها. فقيل له: وكيف خُصَّ الطَّبل بذلك؟ فقال: لأن عمل اليدين فيه عملٌ واحد، ولا بُدّ من أن يَلْحَقَ اليسارَ

(١) الرشأ: الظبي.
(٢) الكُوَر: جمع كورة، وهي المدينة والصقع.

فيه نَقْصٌ عن اليمين، ودعا بالطّبل ليُرِيَنا كيف ذلك فأوْقَع إيقاعاً لم نكن نظنّ أن مثلَه يكون، وهو مع ذلك يرينا موضعَ زيادة اليمين على اليسار. قال وقال له الأمين في بعض خَلَواته: يا عمّ أشتهي أن أراك تَزْمرُ. فقال: يا أمير المؤمنين، ما وضعتُ على فمي ناياً قطّ ولا أضَعُه، ولكن يدعو أمير المؤمنين بفلانة ـ من موالي المهديّ ـ حتى تَنْفُخ في النّاي وأُمِرّ يدي عليه، فأُحْضِرتْ ووضَعَت النّاي على فيها وأمسكه إبراهيم، فكلما مَرّ الهواء أَمَرّ أصابعَه، فأجمع سائرُ من حضَر على أنه لم يَسمع مثلَه قطّ.

وأخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون أيضاً قال: حدّثني أبي قال: حدّثني عبيد الله بن عبد الله وأبو عبد الله الهِشاميّ قالا: كان إبراهيم بن المهديّ إذا غنّى لحنه: [الكامل]

هَلْ تَطْمِسُونَ من السَّماءِ نُجُومَها ... بأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرُونَ هِلالَها

فبلغ إلى قوله:

* جِبْرِيلُ بَلَّغَها النَّبِيَّ فَقالَها *

هَزّ حَلْقه فيه ورجَّعه ترجيعاً تَتَزلزل منه الأرضُ.

أخبرني محمد بن إبراهيم قُرَيْض قال: حدّثني عبد الله بن المعتزّ قال: حدّثني الهِشاميّ قال: كانت متيّم الهشاميّة ذات يوم جالسة بين يدي المعتصم ببغداد وإبراهيم بن المهديّ حاضرٌ، فتغنّت متيّم في الثقيل الأوّل.

* لِزَيْنَبَ طَيْفٌ تَعْتَرِيني طَوارِقُهْ *

فأشار إليها إبراهيم أن تُعِيده. فقالت متيّم للمعتصم: يا سيّدي إن إبراهيم يَسْتعيدني الصوتَ وأظنّه يريد أن يأخذه. فقال لها: لا تُعِيديه. فلما كان بعد أيام كان إبراهيم حاضراً بمجلس المعتصم وكانت متيّمُ غائبةً عنه، فانصرف إبراهيم بالليل إلى منزله ومتيّم في منزلها بالميدان وطريقُه عليها وهي في مَنْظَرةٍ لها مُشْرِفةٍ على الطريق وهي تَطْرَح هذا الصوتَ على بعض جَواري بني هاشم، فتقدّم إلى المَنْظرة على دابّته وتَطاوَل حتى أخذ الصوتَ، ثم ضرب بابَ المنظرة بِمقْرَعته وقال: قد أخذناه بلا حَمْدك.

نسبة هذا الصوت [الطويل]

لِـزَيْـنَـبَ طَـيْـفٌ تَـعْـتَـرِيـنـي طَـوَارِقُـهْ هُـدُوًّا إذا الـنَّـجْـمُ ارْجَـحَـنَّـتْ لَـواحِـقُـهْ[١]
سَـيُـبْـكِـيـكَ مِـرْنـانُ الـعَـشِـيِّ يُـجِـيـبُـهُ لَـطِـيـفُ بَـنـانِ الـكَـفِّ دُرْمٌ مَـرَافِـقُـهْ[٢]
إذا مـا بِـسـاطُ الـلَّـهْـوِ مُـدَّ وقُـرِّبَـتْ لِـلَـذّاتِـهِ أنْـمـاطُـهُ ونَـمـارِقُـهْ[٣]

الشعر للنُّمَيْريّ. والغناء لمعبد، ولحنُه من القَدْر الأوسط من الثّقيل الأول بالبنصر في مجراها عن إسحاق. وفيه لمالك خفيفُ ثقيل أوّل بالبنصر عن يونس والهِشاميّ.

أخبرني عليّ بن هارون قال: حدّثني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال: كان محمد بن موسى المُنَجِّم يقول: حكَمتُ أنّ إبراهيم بن المهديّ أحسنُ الناس كلّهم غناءً ببرهان، وذلك أنّي كنتُ أَراه بمجالس الخلفاء مثلِ المأمون والمعتصم يغني المغنون ويغنّي، فإذا ابتدأ الصوت لم يَبْقَ من الغِلمان والمُتَصرِّفين في الخِدْمة وأصحاب الصناعات والمِهَن الصِّغار والكِبار أحدٌ إلاّ تَرَك ما في يده وقَرُب من أقرب موضع يمكنه أن يَسْمَعَه، فلا يزال مُصْغِياً إليه لاهياً عمّا كان فيه ما دام يُغَنِّي، حتى إذا أمسك وتَغَنَّى غيرُه رجَعوا إلى التّشاغُل بما كانوا فيه ولم يلتفتوا إلى ما يسمعون ولا برهانَ أقوى من هذا في مثل هذا من شهادة الفِطَن له واتّفاق الطّبائع - مع اختلافها وتَشَعُّب طُرُقِها - على الميل إليه والانقياد له.

حدّثني أحمد بن جعفر جَحْظة قال: حدّثني هِبةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ قال: قلتُ للمعتصم: كانت لأبي أشياء لم يكن لأحدٍ مثلها. فقال: وما هي؟ قلت: شارية وزامِرَتُها مَعْمَعَةُ. فقال: أمّا شارية فعندنا، فما فعلت الزّامرة؟ قلت: ماتت. قال: وماذا؟ قلت: وساقِيَتُه مَكْنونة، ولم يُرَ أحسنُ وجهاً ولا أَلْيَنُ ولا أظرفُ منها. قال: فما فَعَلَتْ؟ قلت: ماتت. قال: وماذا؟ قلت: نخلةٌ كانت تحمِل رُطَباً طولُ الرُّطَبةِ منها شبر. قال: فما فعلت؟ قلت: جَمَّرتُها[٤] بعد وفاته. قال: وماذا؟ قلت: قَدَحُه الضَّحْضَاح. قال: وما فعل؟ قلت: الساعةَ وٱلله حَجَمني فيه

(١) ارجحنَّ النجم: مال نحو المغرب.
(٢) المرنان: الكثير الرنين، وأراد آلة الطرب. والدُّرْم: جمع أدرم، وهو من لا حجم لعظامه.
(٣) الأنماط: البسط. والنمارق: وسائد صغيرة يتكأ عليها. واحدتها. نمرقة.
(٤) جَمّر النخلة: قطع جمّارها. والجمّار: شحم النخلة.

أبو حَرْمَلة فسألته أن يَهبَه لي ففعل، ووجَّهتُ به إلى منزلي فغُسِلَ ونُظِّفَ وأُعِيد إلى خِزانتي، فرأيتُ أبي فيما يَرى النائمُ في ليلتي تلك وهو يقول لي: [الطويل]

أيُتْرَعُ ضَحْضَاحِي دماً بعد ما غَدَتْ عَلَيَّ بِهِ مَكْنُونَةٌ مُتْرَعاً خَمْرا
فإنْ كُنْتَ مِنّي أو تُحِبُّ مَسَرَّتي فلا تُغْفِلَنْ قَبْلَ الصَّباحِ لَهُ كَسْرا

فانتَبهْتُ فَزِعاً وما فَرَق الصبحُ[1] حتى كسرتُه.

[بينه وبين إسحاق الموصلي]

فأمّا المُمَاظَّة[2] التي كانت بينه وبين إسحاق فقد مضى في خبر إسحاق منها طَرَفٌ. ونذكر ها هنا منها ما جرى مجرى محاسِن إبراهيم والقيامِ بحجّته إن كانت له، وعذره فيما عيب عليه لأنه بذلك حقيق. فمن ذلك نسختُ من كتابٍ أعطانيه أبو الفضل العبّاس بن أحمد بن ثَوَابة رحمه الله بخطّ إسحاق في قِرْطاس ـ وأنا أعرف خطَّه ـ وجواب لإبراهيم بن المهديّ في ظهره بخطٍّ ضعيف وأظنُّه خطَّه؛ لأنه لو كان خطّ كاتبٍ لكان أجود من ذلك الخطّ، وقد ذهب أوّلُ الكتاب فذهب منه أوّلُ الابتداء والجواب، ونسختُ بقيّتَه؛ فكان ما وجدتُه من ابتداء إسحاق:

وكنتَ ـ جُعِلتُ فِداءك ـ كتبتَ في كتابك إلى محمد بن واضح تذكر أنك مولاي وسيدي. فمتى دفعتُ ذلك! وهل لي فخرٌ غيره! أو لأحدٍ عليّ وعلى أبي رحمه الله من قبلي نعمةٌ سواكم! وأُحِبُّ ذلك أن يكون، وأرجو أن أموت قبل أن يَبْتَليني الله بذلك إن شاء الله. فأمّا ذِكْرُك. جُعِلْتُ فِداءك ـ الصناعةَ فقد أجلَّ الله قدرَك عن الحاجة إلى دفعها والاعتذار عنها. وأمّا أنا المسكينَ فأنت تَعلم أني لم أتَّخذ ما نحن فيه صناعةً قطّ، وأني لم أُرِدْها إلاّ لكم شكراً لنعمتكم وحبًّا للقرب منكم وإليكم. فليس ينبغي أن يَعِيبني ذلك عندكم، ولا يجوز لأحدٍ أن يعيبني به إذ كان لكم. وقد علمتُ أنك لم تضعني من عَلّويه ومُخارِق بحيث وضَعْتَني إلاّ لغَضَبٍ أحْوَجَك إلى ذلك، وإلاّ فأنت تعلم أنهما لو كانا مملوكَيْن لي لآثرتُ تعجيلَ الرَّاحةِ منهما بعتقهما أو تَخْلِيةِ سبيلهما على ثمن أُصيبه ببيعهما أو حَمْدٍ أكتسِبهُ بثمنهما، فكيف أظنّ أني عندك مثلهما، أو أنك تَقْرِنُني إليهما وتذكرني معهما!. أوَ تلومني

(١) فرق الصبح: ظهر وبان.
(٢) المماظة: المنازعة، الخصام.

الآن على أن أَخْرَس فلا أنطِق بحرف، وأن أفِرَّ من الغناء فِرارَك من الخطأ فيه، وأمتعضَ منه آمتعاضَك ممن يُخفي عليك شيئاً من علومه!. كيف تَرى ـ جُعِلْتُ فِداءك ـ الآن سِبَابي وأنت ترى أنّ أحداً لا يُحسن السَّبَّ غيرُك!. قد أحدثتَ لي ـ جعلتُ فداءك ـ أدباً وزِدْتَني بصيرةً فيما أُحِبُّ من تَرْكِه وتركِ الكلام فيه. فإن ظننتَ أنّ هذا فِرارٌ من الحجَّة وتَعْريدٌ[1] عن المناظرة، كما قلتَ، فقد ظفرت وصرت إلى ما أحببت؛ وإلاّ فإنه لا ينبغي للحرّ أن يتلهَّى بما لا تقوم لذَّتُه بمَعَرَّته، ولا لعاقلٍ أن يبذل ما عنده لمن لا يَحْمَده، ولعلّه لا يقلِّب العينَ فيه حتى يلحقَه ما يكره منه. وأمّا ما قاله أبي ـ رحمه الله ـ من أنه لم يزل يتمنَّى أن يَرى من سادته مَنْ يعرِف قَدْرَه حقَّ معرفته ويبلُغ علمُه بهذه الصناعةِ الغايةَ العظمى حتى رآك، فقد صدَق، ما زال يتمنّى ذلك وما زلتُ أتمنّاه. فهل رأيت ـ جُعِلْتُ فِداءك ـ حظِّي منه إلاّ بأن ساويتَ به من لم يكن يساوي شِسْعَه[2]، ولعلك لا ترضى في بعض القوم حتى تفضِّله عليه، لا تنفعه عندك معرفةٌ به، ولا رعايةٌ لطول الصُّحْبة والخِدْمة، ولا حفظٌ لآثارٍ محمودةٍ باقيةٍ نذكرها ونحتجُّ بها. ثم ها أنا من بعده تَضَعُني بالموضع الذي تضعني به، وتَنْسُبني إلى ما تنسبني إليه؛ لأني توخَّيْتُ الصوابَ وآجتهدتُ في البَذْل والمناصحة، لا يدفعك عنّي حِفْظٌ لسَلَفٍ، ولا صيانةٌ لخَلَفٍ، ولا آستدامة لقديم ما نعلم، ولا مصانعةٌ لما تطلب، ولا ولاء مما أكره أن أقوله. فما أرى ـ جُعِلْتُ فِداءَك ـ من معرفتك بما في أيدينا إلاّ تجرُّعَ الحَسَرات، وتَطَلُّبَكَ لنا العَثَرات، وآللهُ المستعان. كيف أصنع جُعِلْتُ فداءك! إن سكَتُّ لم تقبل ذلك مني، وإن صَدَقْتُ كذَّبتني، وإن كَذَبتُ ظفِرتَ بي، وإن مَزَحتُ لأُطرِبك وأُضحكك وأَقْرُبَ من أُنْسِك وآخُذَ بنصيبي من كرمك غضِبتَ وسَبَبتَ، ولو كنتُ قريباً منك لضَرَبْتَ! وليتَك فعلتَ، فكانَ ذلك أيْسَر من غَضَبك. ثم من أعظم المصائب عندي أمرُك إيَّاي أن أسأل محمد بن واضح عن قولٍ قُلْتَه فيَّ عند عمرو بن بَانَة. فوالله ـ جُعِلْتُ فداءك ـ إني لأبْشَعُ بذكره[3] فكيف أُحِبُّ أن أذكره وأُذْكَر له!. وإني لأرثي لك من النَّظر إليه، وأعْجَب من صبرك عليه، مع أني ـ أعوذ بالله من ذلك ـ لو رغبتُ في هذا منه ومن مثله لكفيتُك ونفسي ذلك بأن أكْسُوَه ثوبين، أو أهَبَ له دينارين، أو أقول له

---

(١) التعريد: الانهزام، الفرار.

(٢) الشسع: سير النعل.

(٣) أبشع بذكره: أضيق ذرعاً بذكره.

أحسنت في صوتين، حتى نبلغ أكثرَ مما أردت لي أو أريده لنفسي. فالحمدُ لله الذي جعل حظِّي منك هذا! ومثلَه غيرَ مستَصْغِر لشأنك ولا مستقلٌ لقليل حسن رأيك. واللهَ أسأل أن يطيل بقاءك، ويحسن جزاءك، ويجعَلَني فداءك. قد طال الكتاب، وكثر العِتاب. وجملة ما عندي من الإعظام والإجلال اللَّذَيْن لا أخاف أن أجعلهما عندك، والمحبة التي لا أمتنع منها ولا أعرف سواها، والسمع والطاعة في تسليم ما تحب تسليمه والإقرار بما أحببتَ أن أُقرّ به، وسأشهد على ذلك محمد بن واضح وأُشهِد لك به من أحببت وأؤدّي الخَراج. ولكن لا بدّ من فائدة وإلاّ ٱنكسر، فهات ـ جُعِلْتُ فداءك ـ وأوفِ وٱستوفِ فإنك واجدٌ صحةً وٱستقامةً إن شاء الله. مدّ الله في عمرك، وصبَّرني عليك، وقدّمني قَبْلَك، وجعلني من كل سوء فِداءك.

نسخة جواب إبراهيم بعد ما ذهب منه

. . . وأَيَّةُ سلامةٍ أقدِر لك عليها إلاّ أسوقها إليك، أعطاني ٱلله ما أُحِبُّ من ذلك لك. فأمّا أن أتكلَّم من ورائك بشيء تستثقله متعمِّداً؛ فما أنا إذاً بحُرٍّ ولا كريم، معاذَ الله من ذلك!. ولئن جمعني وإيّاك وعليَّ بنَ هشام مجلسٌ لأستشهِدَنَّه على أشياء لم أذكرها لك، ولم أكتب بها إليك، إجلالاً لقَدْرِ حالِك عندي من اعتدادٍ بمثل ذلك مني، وأنت عنه غافل، وٱلله به عليم. وأما الرشوة فأرجو أن تجيئك على ما تشتهي آتاك الله ما تحب فيما تحب وتكره وجعلك له شاكراً. وأمّا الفوائدُ التي وعدتَ ورودَها علينا فإنّي لواثقٌ أنك لا تُفيدني شيئاً فأنظر فيه إلاّ وجدتَني فيه فَطِناً أجيد تفتيشه وأعرف كُنْهَه وأُفيدك فيه وفيما ٱستنبطتَ منه ما لا تجد عند نفسك أكثر منه، فأما غيرك فٱلهباءُ المنثور. ويا رأس المُشَنِّعين تقول إني عيَّرتُك بالصّناعة ثم تحتج بحِذْقك في تحريف الأقوال وٱكتساب الحجج، لتُفْحِم خَصْمَك، وتُعْلِي حُجَّتك، فكيف أَعِيبك بحاجتي إليك، وما أنا داخل فيه معك! لا! ولكني قلت لك: إني لستُ كفلان وفلان ممن لو كان عنده أمر ينازعك به ثَقُل عليك، إنما أنا رجل من مواليك متوسِّلٌ إليك بما يَسُرُّك، أو كصاحب لك تناظره بما تحب أن تجد من تناظره فيه، فليكن ذلك بالإنصاف وطلبِ الصواب أصبتَه أو أخطأتَه، لا بالحَمِيَّة والأنَفة والحيلة لتَرُدَّ الحقّ بالباطل. هذا معنى قولي؛ وقد ٱستشهدتُ عليك فيه أبا جعفر، وجاءني كتابُك وهو عندي يشهد لي. والكتابُ الذي هذا فيه بخطّي عنده لم يَرُدَّه عليّ، فتَتَبَّعْ ما فيه وخُذْني به. فلَعَمْري لئن كنتُ

قرَنْتُك بمن ذكرتَ لأَعِيبكَ بالتشبيه لك بهم ما عِبْتُ غيرَ رأيي، ولا جهَّلتُ غيرَ نفسي. ولستُ أعتذِر من هذا لأنك تشهد لي بالحقّ فيه، وإنما تريد أن تَخْصِمَني[(١)] بلا حُجَّة، فيكفيني عِلْمُك بما عندي، وإلاّ فأنت إذاً بي أجهلُ منّي بك. وقلتَ: «تذكرني معهما»[(٢)] فقد ذكرَ الله النارَ مع الجنة، وموسى مع فرعون، وإبليسَ مع آدم، فلم يَهُنْ بذلك موسى ولا آدمُ ولا أُكْرِم فرعونُ وإبليس، فأعفني من المغالطة لي والتحريف لقولي، واْستمتعْ بي وأَمْتِعْني بالمصادقة. فإن أنت لم تفعل بقيتَ واحداً مستوحِشاً، ولم تَجدْ غيري إن علم ما تعلم لم يَنْقُصْكَ، وإن علم أكثرَ منك لم يَشِنْكَ، وإن أفهمتَه كافاك، وإن اْستفهمتَه شفاك. لا والله ما أردتُ إلا ما ذكرتُه لك، ولا أحسَبك ظننتَ فيَّ غيرَ ذلك؛ لأنك لا تجهلني فأنا عندك غير جاهل، وواحدة هي لك دوني، ووالله ما كنت أُبالي ألاّ أسمع من مُخارق وعَلّويه شيئاً حتى أسمع بنعيمهما، ولا أراهما حتى أراهما مَيِّتَيْن، وما في هذا غيرُك والإعظامُ لك والإكرامُ. وذلك أنهما كانا لك غلامين فصيَّرتَهما نِدَّيْن تقول فيهما ويقولان فيك، وإنّما هما صَنِيعتاكَ وخِرِّيجا تأديبك وإن كانا غيرَ طائل. فلو أعرضتَ عن اْنتقاصهما ورفعتَ ما رفع الله من قَدْرك عن الإفراط في عيبهما، لكان ذلك أشبهَ بك وأجملَ بمحلِّك وخَطَرِك ومكانِك. وكذلك الذي تَرْثِي له منه وصاحبُه محمد بن الحارث، فوالله ما أُحِبُّ لك في أدبك وفضلِك ودينِك ومحلِّك أن تُشَهِّر نفسَك لهما بهذا ومِثْلِه، وأن ينتهيَ إليهما ذلك عنك. أقول يعلم الله في ذلك لا لهما. وإنّ ذلك، لو صرتَ إليه، لأجملُ بك وأجلُّ لقدرك وإن كنت لَتَتَخَوَّلُهما به. ولو أردتَ ذلك، وإن زَهِدتَ فيه، لم تَضَعْ نفسَك ومحلَّك مع غِلْمانٍ أحداثٍ يبسُطون ألسنتَهم فيك بما بسطتَه منهم على نفسك، ولو لم تفعل لكنتَ أعظمَ في عيونهم من بعض مواليهم الذين تولَّوْا مِنَّتَهم. هذا رأيي لك بما هو أكبرُ لأمرك وأشبهُ بمحلِّك. ووالله ما غَشَشْتُك ولا أوطأتُك عَشواءَ، فاْخترْ لنفسك ما رأيتَ. ولا والله لا سَمِعَا بهذا أبداً ولا بما قلتَه فيَّ إلا خَزيَا حتى يموتا، ولا أردتُ ـ يشهد الله ـ بهذا غيرَك. وأمَّا مَنْ ذكرتَ أنّي أُسوّيه بأبي إسحاق رحمه الله وهو لا يساوي شِسْعَه فإنك عَنَيْتَ اْبنَ جامع. وأنت لا تدخل بيني وبين أبي إسحاق رضي الله عنه، ولا أظنك والله أشدَّ حبًّا له مني، ولا كان لك أشدّ حبًّا منه لي، فقد تعلم كيف كان لي، ولكن لا

---

(١) تخصمني: تغلبني في الخصومة.

(٢) الضمير في معهما يعود إلى مخارق وعلويه.

أظلم ٱبنَ جامع كما تظلمه أنت يا أظلم البشر. ولئن ضَمِنْتَ أن تُنْصِفَني لأُكلمنَّك فيه بما لا تدفعه، ولكنّي لا أُكلِّمك في شيء حتى أَثِقَ بهذه منك، وإلاَّ وَسِعني من السكوت ما وسعك. ومن العَجَب الذي لم أَرَ مثله والمكابرةِ التي لا يشبهها شيء ٱعتداؤُك عليَّ في التجزئة حيث تقول: [مجزوء الخفيف]

حَـــيِّـــيَـــا أُمَّ يَـــعْـــمَـــرَا قَـــبْـــلَ شَـــحْـــطِ مِـــنَ الـــنَّـــوَى

يا أخي وحبيبَ نفسي فٱنْظر كم في هذا من العيوب!! قولُك: «ييا» ليكون مثل «شَحْطِ» في الوزن، أيكون مثل هذا في الكلام! وقولك في الجزء الثاني «حَيّ» حتى يكون مثل «قبل»، هل يكون مثل هذا! أو ليس في «ييا» المشدّدة أربع ياءات، وفي «حي» التي عطفتَ بها ثلاثٌ فتصير سبع ياءات، وإنّما هي ثلاث في الأصل: الياء المشدّدة وياء الاثنين حيث تقول «حييا»!. والناس في هذا بيني وبينك بهائم، فمَنْ أَسْتعدِي عليك! ولو أنصفتَ لعلمتَ أنّه لا يمكن في:

* حَـــيِّـــيَـــا أُمَّ يَـــعْـــمَـــرا *

غيرُ ما جزَّأتُ أنا إلا بهذا الغَلَط الذي لا يحول من تحريكِ ساكنٍ تجعله أوّلَ الكلام فقد زدتَ قبله حرفاً؛ أو تسكينِ متحرّك فتزيد بعده حرفاً، كقولك «أم يعمرا قابل شحطن» حيث جعلت قبل الباء ألفاً، وكقولك «أم يعمرن قَبْلاَ» فزدتَ الألف لتسكتَ عليها لأن السكوت على متحرّك لا يمكن. فأيَّةُ حُجَّةٍ هذه! أوْ مَنْ يصبر لك على هذا! وإنما أردتُ أنا ما يجوز فجئتني بتجزئةٍ واحدة، لا أريد غيرَ ذلك منك. ما لَك يا أخي تَنْفَس عليَّ الصوابَ فيما لا نَقِيصةَ عليك فيه ولا عيب، ثم ٱتخذتَ تَحَمُّدي إليك، بما قلتُ لك أن تسأل محمداً عن قولي فيك بظهر الغيب، ذنباً بطبعك على الظلم والتحريف؛ حتى كأني أعلمتُك أن أحداً تنقَّصك فحَمِيتَ لذلك، ولم يكنِ غيرُ الردّ عليه. والله ما مثلي يَمُنّ بهذا، ولكنّي كنتُ إذا تحدّثتُ مع محمد خالياً كلَّمتُه بمثل ما أكلِّمك به من الردِّ والجَدَل، فلما كان عندنا مَنْ يُحْتَشَم كان كلامي بما يجب أن أتكلَّم به من الإكرام والتقديم، فقال لي: أيُّ شيء هذا الذي أرى؟ فقلت له: هذا كلام الحشمة وذلك كلام الأنس. فأردتُ بإعلامك هذا أن تعلم أنّي لا أريد بما أنازعك فيه شيئاً يَزِيغ عما تعرف مني، وأني أذكُرك بما يُشبهك في موضعه. فلو ٱتقيتَ الله وأبقيتَ على الإخاء لَمَا كنتَ تحرِّف هذا بشيء، وهو جميل أرضاه من نفسي، فتصيِّره قبيحاً تريد أن أعتذر إليك منه.

وأما أداء الخَراج والإشهاد، فهذا شيء لم أطلبه منك، إنما أنت طلبتَه منّي ظالماً لي. وذلك لأني لم أنازعك إلاّ منازعةَ مناظرٍ يُحبُّ أن يعرف حسنَ فَحْصه وثاقبَ نظرِه.

وأمّا الرِّياسةُ فقد جعلها الله لك على أهل هذا العمل، ولا رياسة لي عليهم ولا لك عليّ؛ لأني في العلم مناظر وفي العمل متلذِّذ. فلا تظلمني ولا نفسَك لي.

ومن بعدُ فإني أُحِبُّ أن تخبرني كيف أنت اليوم بعدُ. والله غممتني، لا غمَّك الله ولا غمَّني بك. ولو شئتَ أرسلتَ إلى يحيى بن خالد طبيب أخي عُبيد الله فإنه رفيقٌ مبارَكٌ عَليم، وهو منك قريب في دار الرُّوم، فأخذتَ برأيه ومن علاجه. وهَب الله لك العافيةَ ووهَبها لي فيك برحمته.

وإنّما ذكرتُ هذا الابتداءَ وجوابَه على طولهما، وهما قليلٌ من كثير من مكاتباتهما، لتعرف بهما طَرَفاً من مقدارهما في المنازعة والمجادلة، وأن إسحاق كان يريد من إبراهيم التَّواضُعَ له والخُنوعَ برياسته ويتحامل عليه في بعض الأوقات، وينحو إبراهيم نحوَ ما فعله به؛ لأنّ نفسه تأبى ما يريده إسحاق منه، فيستعمل معه من المباينة مثلَ ما ٱستعمله، ويكونان في طَرَفَيْن من الظّلم يُبْعِدُ كلَّ واحدٍ منهما عن إنصاف صاحبه. وقد روَى يوسف بن إبراهيم أخباراً فيما جرى بينهما ـ فوجدتُ كلامَهما مرصوفاً رَصْفَ إبراهيم بن المهديّ ومنظوماً نَظْمَ مَنْطِقِه ـ فيها تحاملٌ على إسحاق شديدٌ، وحكاياتٌ يَنْسُبُ مَنْ نَقَلَها إلى جهلٍ بصناعته كان إسحاق بعيداً من مثله، فعلمتُ أن إبراهيم عمل ذلك وألَّفه وأمرَ يوسفَ بنشره في الناس ليدور في أيديهم ذِكرٌ له يفضُل به. وذلك بعيدٌ وقوعُه، ولم تُدْفَع الحقائق بالأكاذيب، ولا يُزِيل الخطأ الصوابَ، ولا الخطلُ السدادَ. وكفى مَنْ نضَح عن إسحاق بأن أغاني إبراهيم بن المهديّ لا يكاد يُعرَف منها صوتٌ ولا يُرْوَى منها إلاّ اليسير، وأنّ كلامَه في تجنيس الطرائق أُطْرِح، وعُمِل على مذهب إسحاق، وٱنقضى الصُّنْعُ لإبراهيم بذلك مع ٱنقضاء مدّته، كما يضمحلُّ الباطلُ مع أهله. فعدَلْتُ عن ذكر تلك الأخبار؛ لا لأنها لم تَقَعْ إليَّ، ولكنّها أخبار يتبين فيها التحامل والحَنَق، وتتضمّن من السبِّ لإسحاق والشتم والتجهيلِ ما يعلم أنه لم يكن يقضي على مثله لأحد ولو خاف القتل، فٱستبردتُ ذلك وٱطَّرَحْتهُ، وٱعتمدتُ من أخبار إبراهيم على الصحيح، وما جرى مَجْرَى هذا الكتاب من خبرٍ مستحسنٍ وحكايةٍ ظريفةٍ دون ما يجري مَجْرَى التحامل؛ فقد مضى في صدر الكتاب من أخبارهما وإغْصَاصِ

إسحاق إيّاه بريقه وتجريعه أَمَرَّ من الصبر ما ينبئ عن بطلان غيره.

وممن صنع من أولاد الخلفاء عُلَيَّةُ بنتُ المهديّ، ولا أعلم أحداً منهم بعد إبراهيم أخيها كان يتقدّمها. وكان يقال: ما أجتمع في الجاهلية ولا الإسلام أخٌ وأختٌ أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهديّ وعُلَيَّةَ أختِه. وأخبارُها تُذكر بعد هذا تاليةً لما أذكُره من غِنائها. فمن صنعتها:

صوت

[الرجز]

تَـضْـحَـكُ عَـمَّـا لَـوْ سَـقَـتْ منه شَـفَـا ... مِــنْ أقــحــوانٍ بَــلَّــهُ قَــطْــرُ الــنَّــدَى
أغَـرَّ يَـجْـلُـو عـن غِـشَـا الـعَـيْـنِ الـعَـشَـا ... حُـلْـوٍ بـعَـيْـنَـيْ كُـلِّ كَـهْـلٍ وَفَـتَـى
إنَّ فُــؤادي لا تُــسَــلِّــيــهِ الــرُّقَــى ... لـو كـانَ عـنـهـا صـاحِـيـاً لـقـد صَـحَـا

الشعرُ لأبي النَّجْم العِجْليّ. والغِناءُ لعُلَيَّةَ بنتِ المهديّ رَمَلٌ بالوُسْطَى.

أخبار أبي النَّجم ونسبُه

[توفي ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م]

[اسمه ونسبه وأخباره وشعره]

قال أبو عمرو الشَّيْباني: اسمه المُفَضَّل، وقال ٱبن الأعرابيّ: ٱسمه الفضل ابن قُدامة بن عبيد الله بن عبد الله بن الحارث بن عَبدة بن الحارث بن إلياس بن عَوْف بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عِجْلِ بن لُجَيْم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسِط بن هِنْب بن أفْصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلةَ بن أَسَد بن رَبيعة بن نِزار. وهو من رُجَّاز الإسلام الفُحُول المقدَّمين وفي الطبقة الأولى منهم.

[مكانته في الرجز والشعر وبعض أخباره]

أخبرني أبو خَليفة الفضل بن الحُبَاب الجُمَحِيّ إجازةً عن محمد بن سَلاَّم وذكر ذلك الأصمعيّ أيضاً قالا: قال أبو عمرو بن العَلاَء: كان أبو النَّجْم أبلغَ في النَّعْت من العَجّاج.

أخبرنا محمد بن خَلَف وَكيع قال: حدثني أبو أيّوب المَدِينيّ قال: حدّثني الفَضْل بن العباس الهاشميّ عن أبي عُبيدة قال: ما زالت الشعراء تَغْلِبُ حتى قال أبو النَّجْم: [الرجز]

* الـحَـمْـدُ لله الـوَهُـوبِ الـمُـجْـزِلِ *

وقال العَجَّاج:

* قـد جَـبَـرَ الـدِّيـنَ الإلٰـهُ فَـجَـبَـرْ *

وقال رُؤْبة:

* وقاتِمِ الأعْماقِ خاوِي المُخْتَرقْ[١] *

فأنتصفوا منهم.

ووجدت في أخبار أبي النّجم عن أبي عمرو الشَّيْبانيّ قال: قال له فتيانٌ من عِجْل: هذا رؤبةُ بالمِرْبَد يجلس فيُسمع شعرَه ويُنْشِد الناسَ ويجتمع إليه فتيان من بني تَميم، فما يمنعك من ذلك؟ قال: أوَتُحِبُّون هذا؟ قالوا نعم. قال: فأْتوني بعُسٍّ[٢] من نبيذ فأتَوْه به، فشَرِبه ثم نَهض وقال: [الرجز]

إذا اَصْطَبَحْتُ أرْبعاً عَرَفْتَنِي ثُمَّ تَجَشَّمْتُ الَّذِي جَشَّمْتَنِي

فلما رآه رؤبة أعْظمه وقام له عن مكانه وقال: هذا رَجّاز العرب. وسألوه أن يُنْشِدهم فأنشدهم:

* الحمدُ للهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ *

وكان إذا أَنْشَد أَزْبد ووَحَش بثيابه (أي رمى بها). وكان من أحسن الناس إنشاداً. فلما فرَغ منها قال رؤبة: هذه أمُّ الرَّجَز. ثم قال: يا أبا النَّجْم، قد قرّبت مرعاها إذ جعلتها بين رجل وٱبنِه. يُوهِم عليه رؤبة أنه حيث قال: [الرجز]

تَبَقَّلَتْ مِنْ أوَّلِ التَّبَقُّلِ بَيْنَ رِمَاحَيْ مالِكٍ ونَهْشَلِ[٣]

أنه يريد نَهْشَل بن مالك بن حَنْظَلة بن زيد مَنَاةَ بن تَميم. فقال له أبو النَّجْم: هيهاتَ! الكَمَرُ[٤] تَشَابَهُ. أي إني إنما أريد مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثَعْلَبة بن عُكَابة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل. ونهشل قبيلة من ربيعة وهؤلاء يرعَوْن الصَّمَّانَ[٥] وعَرْض[٦] الدَّهْناء[٧]. قال أبو عمرو: وكان سببُ ذِكْرِ هاتين القبيلتين:

---

(١) المخترق: الممرّ.

(٢) العسّ: القدح الكبير.

(٣) تبقل: خرج في طلب البقل.

(٤) الكمَر: جمع كمرة وهي رأس الذكر، وأراد أن الرجال اشتبهوا عليك.

(٥) الصمان: أرض غليظة مرتفعة تتاخم الدهناء. (معجم البلدان ٣/ ٤٢٣).

(٦) العرض: الوادي.

(٧) الدهناء: جبال من الرمل كانت في ديار بني تميم قليلة الغذاء والمياه. معجم البلدان (٢/ ٤٩٢).

(يعني بني مالك ونهشل) أنّ دماءً كانت بين بني دَارِم وبني نَهْشَل وحروباً في بلادهم، فتحامَى جميعُهم الرَّعْيَ فيما بين فَلْج[١] والصَّمَّان مخافةَ أن يُعَرُّوا[٢] بشرٍّ حتى عفا[٣] كَلَؤه وطال، فذكر أن بني عجل جاءت لعِزِّها إلى ذلك الموضع فَرَعَتْه ولم تَخَفْ من هذين الحَيَّيْنِ، ففخَر به أبو النَّجْم. قال: ويدُلّ على ذلك قول الفرزدق: [الطويل]

أَتَرْتَعُ بالأحياءِ سَعْدُ بنُ مالكٍ ... وقد قَتَلُوا مَثْنَى بِظِنَّة واحِدِ
فَلَمْ يَبْقَ بينَ الحَيِّ سعد بن مالكٍ ... ولا نَهْشَلٍ إلاّ دماءُ الأساوِدِ[٤]

وقال الأصمعيّ: قيل لبعض رُواة العرب: مَنْ أَرْجَزُ النّاس؟ قال: بنو عِجْل ثم بنو سعد ثم بنو عجل ثم بنو سعد. (يريد الأغلب ثم العجّاج ثم أبا النَّجْم ثم رؤبة).

أخبرني أبو خليفة عن محمد بن سَلاّم قال: قال عامر بن عبد الملك المِسْمَعيّ: كان رؤبةُ وأبو النَّجم يجتمعان عندي فأطلب لهما النبيذ، فكان أبو النَّجم يتسرّع إلى رؤبة حتى أكفّه عنه.

ونسخت من كتاب أبي عمرو الشَّيْباني قال: حدّثني بعض البَصْريّين منهم أبو بَرْزَة المَرْثَدِيّ ـ قال وكان عالماً راويةً ـ قال: خرج العَجّاج متحفِّلاً[٥] عليه جُبَّةُ خَزٍّ وعمامةُ خَزٍّ على ناقةٍ له قد أجاد رَحْلَها حتى وقف بالمِرْبَد والناسُ مجتمعون، فأنشدهم قولَه:

* قد جَبَرَ الدِّينَ الإلٰهُ فَجَبَرْ *

فذكر فيها رَبيعةَ وهجاهم. فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النَّجْم وهو في بيته فقال له: أنت جالسٌ وهذا العجَّاج يهجونا بالمِرْبد قد ٱجتمع عليه الناس!! قال: صِفْ لي حالَه وزِيَّه الذي هو فيه، فوصَف له. فقال: ٱبْغِني جَمَلاً طَحَّاناً قد

(١) فلج: علم عدة مواضع (انظر معجم البلدان ٤/ ٢٧٢).
(٢) يعرّوا: يصابوا.
(٣) عفا الكلأ: كثر.
(٤) الأساود: أفاضل القوم.
(٥) متحفلاً: متزيناً.

أُكْثِر عليه من الهِنَاء[١]، فجاء بالجمل إليه. فأخذ سراويلَ له فجعل إحدى رجليه فيها واتَّزَر بالأُخرى وركِب الجمل ودفع خِطَامَه إلى مَنْ يقوده، فٱنطلق حتى أتى المِرْبَدَ. فَلمّا دنا من العَجَّاج قال: ٱخلَعْ خِطَامَه فخلَعه، وأنشد: [الرجز]

* تَـذَكَّـر الـقَـلْـبُ وجَـهْـلاً مـا ذَكَـرْ *

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشمَّمها ويتباعد عنه العَجاج لئلا يُفسِد ثيابَه ورَحْلَه بالقَطِران، حتى إذا بلغ إلى قوله:

* شَـيْـطـانُـه أُنـثَـى وَشَـيْـطـانـي ذَكَـرْ *

تعلَّق الناس هذا البيت وهرب العجاج.

ونسختُ من كتاب أبي عمرو قال: حدّثني أبو الأزهر ٱبن بنت أبي النَّجْم عن أبي النجم أنه كان عند عبد الملك بن مروان ـ ويقال عند سليمان بن عبد الملك ـ يوماً وعنده جماعة من الشعراء، وكان أبو النّجم فيهم والفرزدقُ، وجاريةٌ واقفةٌ على رأس سليمانَ أو عبد الملك تَذُبّ عنه، فقال: من صبَّحني بقصيدة يفتخر فيها وصدَق في فخره فله هذه الجاريةُ. فقاموا على ذلك ثم قالوا: إن أبا النَّجْم يَغْلِبنا بمقطَّعاته (يعنون بالرَّجز)، قال: فإني لا أقول إلاّ قصيدةً. فقال من ليلته قصيدته التي فخَر فيها وهي:

* عَـلِـق الـهَـوَى بِـحَـبَـائِـلِ الـشَّـعْـثَـاءِ *

ثم أصبح ودخل عليه ومعه الشعراءُ فأنشده، حتى إذا بلغ إلى قوله: [الكامل]

مِـنّـا الَّـذي رَبَـعَ الـجُـيـوشَ لِـظَـهْـرِهِ عـشـرونَ وَهْـوَ يُـعَـدُّ فـي الأحـيـاء[٢]

فقال له عبد الملك: قفْ، إن كنتَ صدَقْتَ في هذا البيت فلا نُريد ما وراءه.

فقال الفرزدق: وأنا أعرف منه ستة عشر، ومن وَلَد وَلَدِه أربعة كلُّهم قد ربَع.

فقال عبد الملك أو سليمان: وَلَد وَلَدِه هم وَلَدُه، ادفع إليه الجارية يا غلام. قال: فغلَبهم يومئذ.

(١) الهناء: القطران، وكانوا يدهنون به الإبل إذا جربت.
(٢) ربع الجيوش: أخذ الرباع، وهو ربع مغانم المعارك.

قال: وبلغني من وجه آخر أنه قال له: فإذا أقررتَ له بستة عشر فقد وهبتُ له أربعة، ودفَع إليه الجارية، فقدِم بها الباديةَ؛ فكان بينه وبين أهله شرٌّ من أجلها.

وقال أبو عمرو: بعث الجُنَيْدُ بن عبد الرحمن المُرِّي إلى خالد بن عبد الله القَسْريّ بسَبْيٍ من الهند بِيضٍ، فجعل يَهَبُ لأهل البيت كما هو للرّجل من قريش ومن وجوه النّاس، حتى بَقِيَتْ جاريةٌ منهنَّ جميلةٌ كان يَدَّخِرها وعليها ثيابُ أَرْضِها فُوطتان. فقال لأبي النَّجم: هل عندك فيها شيءٌ حاضر وتأخذها الساعة؟ قال: نعم أصلحَك الله! فقال العُرْيان بن الهَيْثم النَّخَعِيّ: كذَب والله ما يقدِر على ذلك. فقال أبو النَّجْم: [الرجز]

عَـلِـقْـتُ خَـوْداً مِـنْ بـنـاتِ الـزُّطِّ ذَاتَ جَـهـازٍ مُـضْـغَـطٍ مُـلَـطِّ[1]
رَابِـي الـمَـجَسِّ جَـيِّـدِ الـمَـحَـطِّ كـأنَّـمـا قُـطَّ عَـلـى مِـقَـطِّ[2]
إذا بـدا مِـنْـهـا الـذي تُـغَـطِّـي كـأنَّ تَـحْـتَ ثَـوْبِـهـا الـمُـنْـعَـطِّ[3]
شَـطّـاً رَمَـيْـتَ فَـوْقَـهُ بِـشَـطِّ لَـمْ يَـنْـزُ فِـي الـبَـطْـنِ ولـم يَـنْـحَـطِّ
فـيـه شِـفَـاءٌ مِـنْ أذَى الـتَّـمَـطِّـي كـهَـامَـةِ الـشَّـيْـخِ الـيَـمـانـي الـثَّـطِّ[4]

وأَوْمأ بيده إلى هامة العُريان بن الهَيْثَم. فضحِك خالد وقال للعُرْيان: كيف تَرى! أَحْتاجَ إلى أن يُرَوِّيَ[5] فيها يا عُرْيان؟! قال: لا والله ولكنّه ملعون ٱبن ملعون.

وقال أبو عمرو في هذه الرواية وأخبرني به عليّ بن سليمان الأخفش قال: حدّثنا محمد بن يزيد المُبَرّد قال: حدّثني محمد بن المُغِيرة بن محمد عن الزبير بن بَكّار عن فُلَيْح بن إسماعيل بن جعفر بن أبي كَثِير قال: ورد أبو النَّجْم على هشام بن عبد الملك في الشعراء. فقال لهم هشام: صِفُوا لي إبلاً فقَطِّروها[6]

(١) الخود: الشابة الحسنة الخلق الناعمة. والزطّ: جيل أسود من السند. والجهاز: هنا الفرج. والملطّ: المستور.

(٢) قط: قطع. والمقطّ: المقطع.

(٣) انعطّ الثوب: انشق.

(٤) الثطّ: الخفيف اللحية.

(٥) يروي: يعمل الروية، يفكر، يتروى.

(٦) قطر الإبل: جعلها قرب بعضها على نسق.

وأوْرِدوها وأَصْدِروها حتى كأنّي أنظر إليها. فأنشدوه وأنشده أبو النَّجم: [الرجز]

* الـحَـمْـدُ للهِ الـوَهُـوبِ الـمُـجْـزِلِ *

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال: «وهي على الأُفق كعين. . .» وأراد أن يقول: «الأحولِ» ثم ذكر حَوْلَةَ هشام فلم يُتِمَّ البيتَ وأُرْتِج عليه(١). فقال هشام: أَجزِ البيت(٢). فقال: «كعين الأحول» وأتمّ القصيدَةَ. فأمر هشام فُوْجِيء(٣) عُنُقه وأُخْرِج من الرُّصَافة. وقال لصاحب شُرْطته: يا رَبِيع إيّاك وأن أرى هذا!. فكلّم وجوهُ الناس صاحب الشُّرْطة أن يُقِرَّه ففعل، فكان يُصيب من فُضول أطعمة الناس ويأْوِي إلى المساجد. وقال الزُّبير في خبره: قال أبو النّجم: ولم يكن أحدٌ بالرُّصَافة يُضيف إلاّ سُلَيْمَ بنَ كَيْسان الكلبيّ وعمرَو بن بِسْطام التَّغْلبي، فكنتُ آتِي سُلَيماً فأتغدَّى عنده، وآتي عمراً فأتعشّى عنده، وآتي المسجد فأَبِيتُ فيه. قال: فٱهتَمّ هشام ليلةً وأمسى لقسَ النَّفْس(٤) وأراد محدِّثاً يحدِّثه، فقال لخادمٍ له: ابْغِني مُحَدِّثاً أعرابياً أهوجَ شاعراً يَرْوِي الشعر. فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبي النَّجْم، فضرَبه برجله وقال له: قُمْ أَجِبْ أميرَ المؤمنين. قال: إنّي رجل أعرابيّ غريب. قال: إياكَ أَبْغِي، فهل تَرْوي الشعر؟ قال: نعم وأقوله. فأقبل به حتى أدخله القصر وأغلَق البابَ، قال: فأيْقن بالشرّ ثم مضى به فأدخله على هشام في بيت صغير، بينه وبين نسائه سِتْرٌ رقيقٌ والشَّمْعُ بين يديه تَزْهَر(٥). فلما دخل قال له هشام: أبو النَّجْم؟! قال: نعم يا أمير المؤمنين طَرِيدُك. قال: ٱجلس. فسأله وقال له: أين كنتَ تأوِي ومن كان يُنْزلك؟ فأخبَره الخبرَ. قال: وكيف ٱجتمعا لك؟ قال: كنتُ أتغدَّى عند هذا وأتعشّى عند هذا. قال: وأين كنتَ تبيت؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك. قال: وما لكَ من الولَد والمال؟ قال: أمّا المالُ فلا مالَ لي، وأمّا الوَلَدُ فلي ثلاثُ بناتٍ وبُنَيٌّ يقال له شَيْبان. فقال: هل زَوَّجتَ من بناتك أحداً؟ قال: نعم زوجتُ ٱثنتين، وبَقِيَتْ واحدة تَجْمِز(٦) في أبياتنا كأنّها نعامة.

(١) ارتج عليه: لم يتمكن من الإتمام.
(٢) أجز البيت: أكمله.
(٣) وجأه: ضربه.
(٤) لقست نفسه: اصيب بالغثيان.
(٥) تزهر: تتلألأ.
(٦) تجمز: تعدو. والجمز: عدو دون الحضر الشديد وفوق العنق.

قال: وما وصَّيْتَ به الأولى؟ - وكانت تسمّى «بَرّة» بالراء - فقال: [الرجز]

أَوْصَيْتُ من بَرّةَ قَلْباً حُرّا ... بالكلبِ خَيْراً والحَماةِ شَرّا
لا تَسْأَمِي ضَرْباً لها وَجَرّا ... حَتَّى تَرَى حُلْوَ الحَياةِ مُرّا
وإنْ كَسَتْكِ ذَهَباً وَدُرّا ... وَالحَيَّ عُمِّيهِمْ بِشَرٍّ طُرّا

فضحِك هشام وقال: فما قلتَ للأُخرى؟ قال قلت: [الرجز]

سُبِّي الحَماةَ وَابْهَتِي عَلَيْها ... وإنْ دَنَتْ فَازْدَلِفِي إلَيْها[1]
وَأَوْجِعِي بالفِهْرِ رُكْبَتَيْها ... وَمِرْفَقَيْها واضْرِبِي جَنْبَيْها[2]
وظاهِري النَّذْرَ لها عليها ... لا تُخْبِري الدَّهرَ به ابنتَيْها

قال: فضحِك هشام حتى بَدتْ نَواجِذُه وسقط على قَفاه. فقال: وَيْحَك! ما هذه وصيّة يعقوب ولدَه! فقال: وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين. قال: فما قلتَ للثالثة؟ قال قلت: [الرجز]

أُوصِيكِ يا بِنْتِي فإنِّي ذاهِبُ ... أُوْصِيكِ أنْ تَحْمَدَكِ القَرائبُ
وَالجارُ وَالضَّيْفُ الكَرِيمُ السّاغِبُ ... لا يُرْجَعُ المِسْكِينُ وهو خائِبُ[3]
ولا تَنِي أظفارُكِ السَّلاهِبُ ... مِنْهُنَّ في وَجْهِ الحَماة كاتِبُ[4]
* والزوجَ إنّ الزوج بئس الصاحبُ *

قال: فكيف قلتَ لها هذا ولم تَتزوّج؟ وأيّ شيء قلتَ في تأخير تزويجها؟ قال قلت فيها: [الرجز]

كأنّ ظَلاّمَةَ أختَ شَيْبانْ ... يَتِيمَةٌ وَوالداها حيّانْ
الرَّأسُ قَمْلٌ كلُّه وصِئْبانْ ... وليسَ في السّاقَيْن إلاّ خَيْطانْ
* تِلْكَ الّتي يَفْزَعُ منها الشَّيْطانْ *

قال: فضحِك هشام حتى ضحك النساءُ لضحِكه، وقال للخَصِيّ: كم بَقِيَ من نفقتك؟ قال: ثلاثمائة دينار. قال: أَعْطِه إيّاها ليجعلها في رِجْل ظَلاّمَةَ مكان الخيطين.

---

(١) بهته: قذفه بالباطل.
(٢) الفهر: الحجر يملأ الكف.
(٣) الساغب: الجائع.
(٤) أظفار سلاهب: طويلة.

وقال الأصمعي: أخبرني عمّي وأخبرني ببعض هذا الحديث ٱبنُ بنت أبي النَّجم أنّ أبا النَّجْم قال: [الرجز]

* الـحـمـدُ للهِ الـوَهُـوبِ الـمُـجْـزِل *

في قَدْر ما يَمشي الإنسان من مسجد الأَشْياخِ إلى حاتمِ الجزّار. ومقدار ما بينهما غَلْوةٌ[١] أو نحوُها. قال: وكان أسرعَ الناس بَدِيهةً.

أخبرني محمد بن خَلَف وكيع قال: حدّثنا أبو أيوب المدِيني قال: حدثنا أبو الأسود النوجشاني قال: مَرّ أبي بالأصمعي وأنا عنده فقال له: يا أبا سعيد أيّ الرَّجَز أحسن وأجود؟ قال: رَجَزُ أبي النَّجْم.

نسخت من كتاب أحمد بن الحارث الخَرّاز قال: حدّثنا المدائني قال: دخل أبو النَّجم على هشام بن عبد الملك وقد أتت له سبعون سنة. فقال له هشام: ما رأيك في النساء؟ قال: إنّي لأنظر إليهنّ شَزْراً[٢] وينظرن إليّ خَزْراً[٣] فوهب له جاريةً وقال له: ٱغْدُ عليّ فأعْلِمْني ما كان منك. فلما أصبح غدا عليه. فقال له: ما صنعتَ؟ فقال: ما صنعتُ شيئاً ولا قدَرْتُ عليه، وقد قلتُ في ذلك أبياتاً، ثم أنشده: [الكامل]

نَظَرَتْ فَأعْجَبَها الَّذي في دِرْعِها ... مِنْ حُسْنِهِ ونَظَرْتُ في سِرْبالِيا
فَرَأتْ لها كَفَلاً يَمِيلُ بخَصْرِها ... وَعْثاً رَوادِفُهُ وأَجْثَمَ جاثِيا[٤]
وَرَأَيتُ مُنْتَشِرَ العِجانِ مُقَلَّصاً ... رِخْواً مفاصِلُهُ وجِلْداً بالِيا[٥]
أُدْنِي لَهُ الرَّكَبَ الحَلِيقَ كأنَّما ... أُدْنِي إلَيْهِ عَقارِباً وأفاعِيا[٦]
إنَّ النَّدامَةَ والسَّدامَةَ فاعْلَمَنْ ... لَوْ قد صَبَرْتُكَ لِلْمَواسِي خالِيا
ما بالُ رأسِكَ مِن ورائيَ طالِعاً ... أظَنَنْتَ أنّ حِرَ الفَتاةِ ورائِيا[٧]

---

(١) الغلوة: قدر رمية بسهم.
(٢) الشَّزْر: النظر بجانب العين في إعراض.
(٣) الخَزْر: أن ينظر الإنسان وكأنه ينظر بمؤخرة عينه.
(٤) الكفل: العجيزة. والوعث: اللين. والأجثم: كناية عن الفرج.
(٥) العجان: القضيب الممتد من الخصية إلى الدبر.
(٦) الرّكب: الفرج.
(٧) الحِر: الفرج.

فاْذهب فإنك ميّتٌ لا تُرْتَجَى ... أبدَ الأبيدِ ولو عَمِرْتَ لياليا
أنتَ الغَرُورُ إذا خَبِرْتَ وَرُبَّما ... كانَ الغَرورُ لمن رجاهُ شافِيا
لٰكِنَّ أَيْرِي لا يُرَجَّى نَفْعُهُ ... حَتَّى أعودَ أخا فَتَاءٍ ناشِيا

فضحِك هشام وأمر له بجائزة أُخرى.

قال أبو عمرو الشَّيْبَانيّ: قال ابن كُنَاسة: قال هشام بن عبد الملك لأبي النَّجْم: يا أبا النَّجْم حدِّثني. قال: عنّي أو عن غيري؟ قال: لا بل عنك. قال: إنّي لمّا كَبرتُ عرَض لي البَوْلُ، فوضعتُ عند رجلي شيئاً أبول فيه. فقمتُ من الليل أبول، فخرج منّي صوتٌ فتشدّدت، ثم عُدْتُ فخرج منّي صوتٌ آخر، فأَوَيْتُ إلى فراشي، فقلت: يا أُمّ الخِيار هل سَمِعْتِ شيئاً؟ فقالت: لا والله ولا واحدةً منهما! فضَحِك. قال: وأُمّ الخيار التي يَعْني بقوله: [الرجز]

قد أصْبَحَتْ أُمُّ الخِيارِ تَدَّعِي ... عَلَيَّ ذَنْباً كُلّهُ لم أصْنَعِ

وهي أرْجوزة طويلة.

وقال أبو عمرو الشَّيْباني: أتت مولاة لبني قَيْس بن ثَعْلَبَةَ أبا النَّجم فذكرتْ له أنّ بنتاً لها أدركتْ منذ سنتين، وهي من أجمل النساء وأمدِّهنّ قامةً ولم يخطُبها أحدٌ، فلو ذكرتَها في الشعر! فقال: أفعل، فما اسمها؟ قالت: نَفِيسة. فقال:[الرجز]

نَفِيسَ يا قَتَّالَةَ الأقْوام ... أقْصَدْتِ قلبي منكِ بالسِّهام
وما يُصِيبُ القَلْبَ إلاّ رَامِ ... لو يعلَمُ العِلْمَ أبو هِشامِ
ساقَ إليها حاصِلَ الشَّآمِ ... وَجِزْيَةَ الأهْوازِ كُلَّ عامِ
وما سَقَى النِّيلُ مِن الطَّعامِ ... إذ ضاقَ منها مَوْضِعُ الإدْغامِ
أَجْثَمُ جاثٍ مُسْتَدِيرٌ حامِ ... يَعَضُّ في كَيْنٍ له تُؤَامِ[1]
* عَضَّ النَّجارِيِّ على اللِّجامِ *

فقالت: حَسْبُك حَسْبُك! ووفد إلى الشأم، فلما رجَع سمِع الزَّمْر والجَلَبة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نفيسة تزوَّجت.

قال أبو عمرو وذكر عليّ بن المِسْوَر بن عمرو عن الأصمعيّ قال: أخبرني بعضُ الرّواة، وحدّثني اْبن أخت أبي النَّجْم: أنّ عبد الملك بن بِشْر بن مروان قال

(١) الكين: لحمة داخل فرج المرأة.

لأبي النَّجْم صِفْ لي فُهُودي هذه فقال: [الرجز]

إنّـا نَـزَلْـنـا خَـيْـرَ مَـنْـزِلاتِ بَـيْـنَ الـحُـمَـيْـراتِ الـمُـبَـارَكـاتِ
فـي لَـحْـم وَحْـشٍ وحُـبَـارَيَـاتِ وإنْ أرَدْنـا الـصَّـيْـدَ ذا الـلَّـذّاتِ[1]
جـاءَ مُـطِـيـعـاً لِـمُـطـاوعـاتِ عُـلِّـمْـنَ أو قـد كُـنَّ عـالـمـاتِ
فـسَـكَّـن الـطَّـرْفَ بِـمُـطْـرِفـاتِ تُـريـكَ آمـاقـاً مُـخَـطَّـطـاتِ

ونسختُ من كتاب الخَرّاز عن المدائنيّ عن عثمان بن حَفْص أنّ أبا النَّجم مدَح الحجّاج برَجَزٍ يقول فيه: [الرجز]

ويـلُ امِّ دُور عِـزّةٍ ومَـجْـدِ دُورِ ثَـقِـيـفٍ بِـسَـواءِ نَـجْـدِ
* أهْـلِ الـحُـصـونِ وَالـخُـيـولِ الـجُـرْدِ *

فأعجبَ الحجّاجَ رَجَزهُ وقال: ما حاجتك؟ قال: تُقْطعني ذا الجبنين. فوجَم لها وسكت، ثم دعا كاتبَه فقال: انظر ذا الجبنين ما هو! فإن ذا الأعرابيّ سألنيه لعلّه نهر من أنهار العراق. فسألوا عنه فقيل: وادٍ في بلاد بني عِجْل أعلاه حَشَفةٌ[2] وأسفلُه سَبَخَةٌ[3] يخاصمه فيه بنو عمّ له. فقال: اكتبوا له به. قال: فأهلُه به إلى اليوم.

أخبرنا يحيى بن عليّ قال: حدّثني أبو أيّوب المَدِينيّ قال: قال الأصمعيّ: أخطأ أبو النَّجم في أشياء أُخِذَتْ عليه، منها قوله: [الرجز]

وهـي عـلـى عَـذْبٍ رَوِيّ الـمَـنْـهَـلِ دَخْـلِ أبـي الـمِـرْقـالِ خـيـرِ الأَدْحُـلِ
* مـن نَـحْـت عـادٍ فـي الـزمـان الأوّل *

قال الأصمعيّ: الدَّحْل لا تُورَده الإبلُ إنما تُورَد الرَّكايا. وقد عِيب بهذا وعِيب بقوله في البيت الذي يَلِيه: إنّ هذا الدَّحْلَ من نحت عاد. قال: والدُّحْلان لا تُحْفَر ولا تُنْحَت، إنما هي خروق وشعاب في الأرض والجبال لا تُصِيبها الشمسُ، فتَبْقَى فيها المياه؛ وهي هُوّة في الأرض يَضِيق فَمُها ثم يتّسع فيدخلها ماء السماء.

---

(١) الحباريات: جمع حبارى، وهو طائر يضرب به المثل بالبلاهة والحمق.
(٢) حشفة: صخرة.
(٣) سبخة: أرض ملحة نازّة.

قال الأصمعيّ: وقال يصف فرسه وقد أجراه في حَلْبة: [الرجز]

* تَسْبَحُ أُخْراهُ ويَطْفُو أوّلُهْ *

قال الأصمعيّ: أخطأ في هذا؛ لأنه إذا سبَح أُخراه كان حِمارُ الكُسَاح أسرعَ منه. قال الأصمعيّ: وحدّثني أبي أنه رأى فرسه هذا فقوَّمه بسبعين درهماً. وإنّما يُوصف الجواد بأنه تَسْبَح أُولاه وتَلْحَق رجلاه. قال: وخير عَدْو الذكور أن تُشْرِف، وخيرُ عَدْو الإناث أن تَنْبَسِط وتَصْغى[1] كعَدْوِ الذئب.

(١) تصغى: تميل.

أخبارُ عُلَيَّةَ بنتِ المهديّ ونَسَبُها ونُتَفٌ من أحاديثها

[١٦٠ ـ ٢١٠ هـ/ ٧٧٧ ـ ٨٢٥ م]

عُلَيَّة بنت المهديّ أُمّها أمّ ولد مُغَنِّيةٌ يقال لها مَكْنونة، كانت من جواري المَرْوانيّة المغنية.

نسختُ من كتاب محمد بن هارون بن محمد بن عبد الملك الزيّات أن ٱبن القَدَّاح حدثه قال: كانت مكنونة جاريةُ المروانيّة ـ وليست من آل مروان بن الحكم، هي زوجة الحسين بن عبد الله بن عُبَيْد الله بن عبّاس ـ مغنِّيةً، وكانت أحسنَ جاريةٍ بالمدينة وجهاً، وكانت رَسْحاء[1]، وكان بعض من يمازحها يعبَث بها فيصيح: طَسْت طَسْت[2]. وكانت حَسَنة الصدر والبطن، فكانت تُوضِح بهما وتقول: ولكن هذا!. فٱشْتُرِيَتْ للمهديّ في حياة أبيه بمائة ألف درهم، فغلَبَتْ عليه، حتى كانت الخَيْزُران تقول: ما ملَك ٱمرأةً أغْلَظَ عليَّ منها. وٱستتر أمرُها عن المنصور حتى مات، فولدتْ له عُلَيَّةَ بنتَ المهديّ.

[سماتها وحسن دينها ومكاتبتها بالشعر وغناؤها]

أخبرني عمّي قال: حدّثني علي بن محمد النَّوفَلي عن عمّه قال: كانت عُلَيَّةُ بنتُ المهديّ من أحسن الناس وأظرفِهم تقول الشِّعرَ الجيِّد وتصوغ فيه الألحانَ الحسنةَ، وكان بها عيب، كان في جبينها فَضْلُ سَعةٍ حتى تسمج، فٱتّخذت العصائب المكلَّلة بالجوهر لتستُر بها جبينَها، فأحدثتْ والله شيئاً ما رأيتُ فيما ٱبتَدَعَتْه النساء وأحدثَتْه أحسنَ منه.

(١) الرسحاء: القليلة لحم العجز والفخذين.

(٢) الطست: وعاء من نحاس.

أخبرني الحسين بن يحيى ووَكِيع قالا: حدّثنا حَمَّاد بن إسحاق قال: سمعتُ إبراهيم بن إسماعيل الكاتب يقول:

كانت عُليَّة حَسَنَةَ الدِّين، وكانت لا تغنِّي ولا تشرَب النَّبيذ إلاّ إذا كانت معتزلَة الصلاةِ، فإذا طَهُرَتْ أقبلتْ على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تَلَذُّ بشيءٍ غير قول الشعر في الأحيان، إلاّ أن يدعُوها الخليفةُ إلى شيءٍ فلا تَقْدِر على خلافه. وكانت تقول: ما حرَّم الله شيئاً إلاّ وقد جعل فيما حَلَّل منه عِوَضاً، فبأيِّ شيءٍ يحتجُّ عاصيه والمُنْتَهِكُ لحُرُماته!. وكانت تقول: لا غفَر الله لي فاحشةً ٱرتكبتُها قطُّ، ولا أقول في شعري إلا عَبَثاً.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني عَوْن بن محمد الكنْدي قال: سمعت عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يقول: ما اجتمع في الإسلام قطّ أخ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهديّ وأختِه عُلَيَّة، وكانت تُقَدَّم عليه.

أخبرني محمد قال: حدّثنا عَوْن بن محمد الكِنْدي قال: حدّثنا سعيد بن إبراهيم قال: كانت عليَّة تحب أن تُراسِل بالأشعار مَنْ تختصُّه، فٱختصَّتْ خادماً يقال له «طَلّ» من خَدَم الرشيد، فكانت تراسله بالشعر، فلم تره أيّاماً، فمشَتْ على ميزَابٍ وحدَّثته وقالت في ذلك. [الكامل]

قــد كــانَ مــا كُــلِّــفْــتُــه زَمَــنــاً ... يــا طَــلُّ مــن وَجْــدٍ بِــكُــمْ يَــكْــفِــي
حَــتَّــى أتَــيْــتُــكَ زائِــراً عَــجِــلاً ... أمْــشِــي عــلــى حَــتْــفٍ إلــى حَــتْــفِ

فحلف عليها الرشيد ألا تكلِّم طَلاً ولا تسميه بٱسمه، فضمِنَتْ له ذلك. وٱستمع عليها يوماً وهي تَدْرُس آخرَ سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجلّ: ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ وأرادتْ أن تقول: «فَطَلٌّ» فقالت: فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين. فدخل فقبَّل رأسَها وقال: قد وهبتُ لكِ طَلاً، ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه. ولها في طَلٍّ هذا عِدَّةُ أشعارٍ فيها لها صنعة. منها:

صوت

[الكامل]

يــا ربِّ إنِّــي قــد غَــرِضْــتُ بِــهَــجْــرِهــا ... فــإلَــيْــكَ أشْــكُــو ذاكَ يــا رَبّــاهُ[1]

(١) غَرِض: ضجر.

مَولاةُ سَوْءٍ تَستَهِينُ بِعَبْدِها نِعْمَ الغلامُ وبِئستِ المَولاهْ
«طَلٌّ» وَلٰكِنّي حُرِمتُ نَعِيمَهُ ووصالَهُ إنْ لم يُغِثْنِيَ اللهْ
يا رَبِّ إن كانَتْ حياتِي هٰكَذا ضرًّا عَلَيَّ فما أُرِيدُ حَياهْ

الشعر والغِناء لها خفيفُ ثقيلٍ مطلق في مجرى الوسطى. وقد ذكر ٱبن خُرْدَاذْبَه أن الشعر والغناء لنُبَيْهٍ الكوفيّ، وأنه هوِي جارية تُغَنّي، فتعلَّم الغِناء من أجلها وقال الشعر، ولم يزل يتوصّل إليها بذلك حتى صار مُقَدَّماً في المغنِّين، وأنّ هذا الشعر له فيها والصنعة أيضاً.

أخبرني أحمد بن محمد أبو الحسن الأَسَديّ قال: حدّثني محمد بن صالح بن شيخ بن عُمَيْر عن أبيه قال: حُجِب طَلٌّ عن عُلَيَّةَ فقالت وصحَّفتِ ٱسمَه في أوّل بيت:

أيا سَرْوَةَ البُستانِ طالَ تَشَوُّقي فهل لي إلى ظِلٍّ لَدَيكِ سبيلُ[1]
مَتَى يلتقي مَنْ ليس يُقضَى خُروجُهُ وليسَ لِمَنْ يَهْدَى إليهِ دُخولُ
عَسى اللهُ أن نَرْتاحَ من كُرْبةٍ لنا فَيَلْقَى ٱغتباطاً خُلَّةٌ وخليلُ[2]

عروضه من الطويل. الشعر والغناء لعليّة خفيفُ رَمَلٍ. كذا ذكر ميمون بن هارون، وذكر عمرو بن بانة أنه لسَلْسل خفيف رملٍ بالوسطى. وأوّل الصوت:

* مَتى يَلْتَقِي مَنْ لَيْسَ يُقْضَى خُرُوجُهُ *

وذكر حَبَشٌ أنه للهُذَليّ خفيفُ رَمَلٍ بالبِنصر

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق الطَّالقانيّ قال: حدّثني أبو عبد الله أحمد بن الحسين الهشاميّ قال:

قالت عُلَيَّةُ في طَلٍّ وصحَّفت ٱسمَه في هذا الشعر وغنَّتْ فيه:

صوت

[مجزوء الكامل]

سَلِّمْ على ذاكَ الغَزالِ الأغْيَدِ الحَسَنِ الدَّلالِ

(١) السرو: جنس شجر حرجي للتزيين من فصيلة الصنوبريات، الواحدة سروة. وقد صحفت اسم «طل» في هذا البيت إلى «ظل».
(٢) الاغتباط: السرور.

سَـلِّـمْ عـلـيـهِ وقُـلْ لَـهُ يـا غُـلَّ الـبـابِ الـرِّجـالِ[١]
خَـلَّـيْـتَ جِـسْـمِـي ضـاحـيـاً وَسَـكَـنْـتَ فـي ظِـلِّ الـحِـجَـالِ[٢]
وَبَـلَـغْـتَ مِـنِّـي غـايَـةً لـم أدرِ فـيـهـا مـا ٱحْـتـيـالـي

الشعرُ والغِناء لعُلَيَّةَ خفيفُ رَمَلٍ. وذُكر غير هذا أن الغِناء لأحمد بن المكيّ في هذه الطريقة.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني ميمون بن هارون عن محمد بن عليّ بن عثمان الشِّطْرَنجِيّ: أن عُليَّة كانت تقول الشعر في خادم لها يقال له «رشأ» وتَكْنِي عنه. فمن شعرها فيه وكَنَتْ عنه بزينب: [مجزوء الكامل]

صوت

وَجَـدَ الـفـؤادُ بِـزَيْـنَـبـا وَجْـداً شَـدِيـداً مُـتْـعِـبَـا
أصْـبَـحْـتُ مـن كَـلَـفِـي بـهـا أُدْعَـى سَـقِـيـمـاً مُـنْـصَـبـا[٣]
وَلَـقَـدْ كَـنَـيْـتُ عـنِ ٱسـمِـهـا عَـمْـداً لـكـي لا تَـغْـضَـبـا
وَجَـعَـلْـتُ زَيْـنَـبَ سُـتْـرَةً وَكَـتَـمْـتُ أمْـراً مُـعْـجِـبَـا
قـالَـتْ وقـد عَـزَّ الـوصـا لُ ولـم أجِـدْ لـي مَـذْهَـبـا:
وَاللهِ لا نِـلْـتَ الـمـو دَّةَ أوْ تـنـالَ الـكَـوْكَـبـا

هكذا ذكر ميمون بن هارون، وروايتُه فيه عن المعروف بالشِّطْرنْجي ولم يحصّل ما رواه. وهذا الصوت شعرُه لابن رُهَيْمَة المدَنيّ. والغِناء ليونس الكاتب، ولحنه من الثقيل الأوّل بإطلاق الوتر في مجرى البنصر، وهو من زَيَانِبِ يونس المشهورات وقد ذكرته معها. والصحيح أن عُلَيَّة غنَّت فيه لحناً من الثقيل الأوّل بالوسطى، حكى ذلك ٱبن المكيّ عن أبيه، وأخبرني به ذُكاء عن القاسم بن زُرْزُور.

---

(١) في البيت تصحيف اسم «طلّ» إلى «غلّ».

(٢) الحجال: جمع حجلة وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور. وستر يضرب للعروس في جوف البيت.

(٣) مُنصباً: متعباً من شدة المرض.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني الحسين بن يحيى الكاتب أبو الجماز قال: حدّثني لمّا عُلِم من عُلَيَّة أنها تَكْنِي عن رشأ بزينب قالت: عُبَيْد الله بن العبّاس الرَّبيعي قال:

صوت

[السريع]

القَلْبُ مُشتاقٌ إلى رَيْبِ ... يا رَبِّ ما هٰذا مِنَ العَيْبِ

قَدْ تَيَّمَتْ قَلْبِي فلم أسْتَطِعْ ... إلاّ البُكا يا عالِمَ الغَيْبِ

خبأتُ في شِعْرِي اسْمَ الَّذِي ... أرَدْتُهُ كالخَبْءِ في الجَيْبِ

قال: وغَنَّت فيه لحناً من طريقة خفيفِ الرَّمَلِ الأوّل فصحَّفَتِ اسمَها في ريب.

قال: وكانت لأم جعفر جارية يقال لها طُغْيانُ، فوشَتْ بعُلَيَّةَ إلى رشأ وحكَتْ عنها ما لم تقل، فقالت عُلَيَّةُ:

[الطويل]

لطُغيانَ خُفٌّ مُذْ ثلاثينَ حِجَّةً ... جَديدٌ فلا يَبْلَى ولا يَتَخَرَّقُ

وَكَيْفَ بِلَى خُفٍّ هُوَ الدَّهْرَ كُلَّهُ ... على قَدَمَيْها في الهَواءِ مُعَلَّقُ

فما خَرَقَتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرباً ... وأمّا سَراويلاتُها فتُمَزَّقُ

قال: وحلَف رَشَأٌ ألاّ يشرب النَّبيذ سنةً، فقالت:

صوت

قَدْ ثَبَتَ الخاتمُ في خِنْصَرِي ... إذ جاءَنِي مِنْكِ تَجَنِّيكِ

حَرَّمْتُ شُرْبَ الرَّاحِ إذ عِفْتِها ... فَلَسْتُ في شَيْءٍ أُعاصِيكِ

فلو تَطَوَّعتِ لَعَوَّضْتِني ... منهُ رُضابَ الرِّيقِ من فيكِ

فيا لَها عنديَ من نِعمةٍ ... لستُ بها ما عشتُ أجْزِيكِ

يا زَيْنَباً قد أرَّقتْ مُقْلَتِي ... أمْتَعَنِي اللهُ بِحُبِّيكِ

غنَّتْ فيه عليّةُ هَزَجاً.

أخبرني جَحْظة ومحمد بن يحيى قالا: حدّثنا ميمون بن هارون قال: حدّثني الحسن بن إبراهيم بن رَبَاح قال: قال لي محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي:

كنت عند المعتصم وعنده مُخَارِق وعَلّويه ومحمد بن الحارث وعَقِيد، فتغنَّى عَقِيد وكنت أضرب عليه:

صوت

[المديد]

نـــامَ عُـــذّالِـــي وَلَـــمْ أَنَـــم وٱشْـتَـفَـى الـواشُـونَ مـن سَـقَـمِـي
وإذا مـــا قُـــلْـــتُ بِـــي أَلَـــمٌ شَـــكَّ مَـــنْ أهـــواهُ فـــي أَلَـــمِـــي

فطرِب المعتصم وقال: لمن هذا الشعر والغناء؟ فأمسكوا. فقلت: لِعُلَيّة، فأعرض عنّي، فعرفت غَلطي وأنّ القوم أمسكوا عمداً، فقُطِع بي(١). وتبيَّن حالي، فقال: لا تُرَعْ(٢) يا محمد؛ فإنّ نصيبك فيها مِثْلُ نصيبي. الغِناء لعُلَيَّة خفيفُ رَمَل. وقد قال قوم: إنّ هذا اللحن للعبّاس بن أشْرس الطُّنبورِيّ مولى خُزاعةَ، وإن الشعر لخالد الكاتب.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني أحمد بن يزيد قال: حدّثني أبي قال: كنّا عند المنتصر، فغنّاه بنَانٌ لحناً من الرمل الثاني وهو خفيف الرمل:

صوت

يـــا رَبَّـــةَ الـــمَـــنْـــزِلِ بـــالـــبِـــرْكِ ورَبَّـــةَ الـــسُّـــلْـــطـــانِ والـــمُـــلْـــكِ(٣)
تَـــحَـــرَّجِـــي بـــاللهِ مِـــنْ قَـــتْـــلِـــنـــا لَـــسْـــنـــا مِـــنَ الـــدَّيْـــلَـــمِ والـــتُّـــرْكِ(٤)

فضحِكتُ. فقال لي: مِمَّ ضحِكتَ؟ قلت: من شَرَفِ قائِل هذا الشعر، وشرف من عَمِلَ اللَّحنَ فيه، وشرفِ مُسْتَمِعِه. قال: وما ذاك؟ قلت: الشعرُ فيه للرشيد، والغناء لعُلَيَّة بنتِ المهديّ. وأمير المؤمنين مستمعُه. فأعجبه ذلك وما زال يستعيده.

حدّثني إبراهيم بن محمد بن بركشة قال: سمعت شيخاً يحدّث أبي وأنا غلام فحفِظتُ عنه ما حدّثه به ولم أعرِف ٱسمَه، قال: حدّثني إسحاق بن إبراهيم الموصليّ قال:

عَمِلتُ في أيام الرَّشيد لحناً وهو:

---

(١) قُطِع بي: سدّت عليّ مسالك القول.
(٢) لا ترع: لا تخف.
(٣) البرك: علم على عدة مواضع (انظر معجم البلدان ١/ ٤٠٠).
(٤) الديلم: جيل من العجم كانوا يسكنون نواحي أذربيجان. والترك جيل من المغول.

صوت

[البسيط]

سَقْياً لأرضٍ إذا ما نِمْتُ نَبَّهَنِي بَعْدَ الهُدُوءِ بها قَرْعُ النَّواقِيسِ
كأنَّ سَوْسَنَها في كُلِّ شارِقَةٍ على المَيادِينِ أذنابُ الطَّواوِيسِ

قال: فأعجبني وعَمِلتُ على أن أُباكِر به الرشيدَ. فلقِيَني في طريقي خادمٌ لعُلَيَّة بنتِ المهديّ، فقال: مولاتي تأمرك بدخول الدِّهليز لتسمع من بعض جواريها غِناءً أخذتْه عن أبيك وشكَّتْ فيه الآن. فدخلتُ معه إلى حجرة قد أُفردت لي كأنها كانت مُعَدّة، فجلستُ، وقُدّم لي طعامٌ وشرابٌ فنِلت حاجتي منهما، ثم خرج إليّ خادم فقال لي: تقول لك مولاتي: أنا أعلم أنك قد غدوتَ إلى أمير المؤمنين بصوت قد أعددتَه له مُحْدَثٍ، فأسمعنيه ولك جائزةٌ سنيّة تتعجّلها، ثم ما يأمر به لك بين يديك، ولعله لا يأمر لك بشيء أوْ لاَ يقع الصوت منه بحيث توخَّيْتَ، فيذهب سعيُك باطلاً. فاندفعتُ فغنَّيْتُها إيّاه، ولم تزل تستعيده مراراً، ثم أخرجتْ إليّ عشرين ألف درهم وعشرين ثوباً، وقالت: هذه جائزتك، ولم تزل تستعيده مراراً. ثم قالت: اسمعه منّي الآن؛ فغنّته غِناءً ما خرَق سمعي مِثْلُه. ثم قالت: كيف تراه؟ قلت: أرى والله ما لم أرَ مِثْلَه. قالت: يا فلانة أعيدي له مِثْلَ ما أخذ؛ فأحضرتْ لي عشرين ألفاً أُخرى وعشرين ثوباً. فقالت: هذا ثَمَنُه، وأنا الآن داخلةٌ إلى أمير المؤمنين، أبدأ أتغنّى به، وأُخْبِرُ أنّه من صنعتي. وأُعْطِي الله عهداً لئن نطقتَ أنّ لك فيه صنعةً لأقتلنّك! هذا إن نجوتَ منه إن علم بمَصيرك إليّ. فخرجتُ من عندها ووالله إنّي لكالموقن بما أكره من جائزتها أسفاً على الصوت، فما جَسَرْتُ والله بعد ذلك أن أتنغَّم به في نفسي فضلاً عن أن أُظْهِره حتى ماتت. فدخلتُ على المأمون في أوّل مجلسٍ جلسه للّهو بعدَها، فبدأتُ به أوّل ما غَنَّيْت. فتغيّر لونُ المأمون وقال: من أينَ لك ويلك هذا؟! قلت: ولِيَ الأمانُ على الصدق؟ قال: ذلك لك. فحدّثته الحديثَ. فقال: يا بغيض! فما كان في هذا من النفاسة حتى شَهَرْتَه وذكرتَ هذا منه مع ما قد أخذتَه من العَوض! وهجَّنني(١) فيه هُجْنَةً وَددتُ معها أنّي لم أذكره. فآليتُ ألاّ أغنّيه بعدها أبداً. الشعرُ في هذا الصوت لإسماعيلَ بن يَسار النِّسائي، وقيل إنه لإسحاق. ولحنُه من الثقيل الأوّل مُطْلَق في مجرى الوسطى. وذكر حبش أنه للهُذَليّ، ولم يحصِّل ما قاله.

---

(١) هجّنه: عابه.

أخبرني عمّي قال: حدّثني الحسن بن عُلَيْل العَنزيّ قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد قال: قال لي يَنْشُو المغنّي: حدّثني أبو أحمد بن الرشيد قال:

كنت يوماً عند المأمون وإلى جانبي منصور وإبراهيم عَمَّاي، فجاء ياسر دخلة فسارَّ المأمونَ. فقال المأمون لإبراهيم: إن شئت يا إبراهيم فأنهض، فنهض. فنظرتُ إلى ستر قد رُفِع مما يلي دار الحُرَم، فما كان بأسرع من أن سمعت شيئاً أقلقني. فنظر إليّ المأمون وأنا أميل فقال لي: يا أبا أحمد ما لك تميل؟ فقلت: إني سمعت شيئاً ما سمعتُ بمثله. فقال: هذه عمَّتك عُلَيَّة تطارح عَمَّك إبراهيم:

* مـا لِـي أَرَى الأبْـصـارَ بـي جـافـيَـهْ *

نسبة هذا الصوت:

صوت

مـا لِـي أرَى الأبْـصـارَ بـي جـافـيَـهْ ... لـم تَـلْـتَـفِـتْ مـنّـي إلـى نـاحِـيَـهْ
لا يَـنْـظُـرُ الـنَّـاسُ إلـى الـمُـبْـتَـلَـى ... وإنَّـمـا الـنَّـاسُ مـعَ الـعـافِـيَـهْ
صَـحْـبِـي سَـلُـوا ربَّـكُـمُ الـعـافِـيَـهْ ... فـقـد دَهَـتْـنِـي بَـعْـدَكُـمْ داهِـيَـهْ
صـارَ مَـنِّـي بَـعْـدَكُـمْ سَـيِّـدِي ... فـالـعَـيْـنُ مـن هِـجـرانِـهِ بـاكِـيَـهْ

الشعر لأبي العتاهية، وذكر ابن المعتز أنه لعليَّة وأنّ اللحن لها خفيف رملٍ. وذُكر أنه لغيرها خفيفُ رمل مطلق، ولحن عُلَيَّة مزمومٌ.

أخبرني عمّي قال: حدّثني أبو العبّاس أن بِشراً المَرْثَدِيّ قال: قالت لي رَيِّقُ:

كنتُ يوماً بين يدي الرشيد وعنده أخوه منصور وهما يشربان، فدخلت إليه خَلُوبُ (جارية لعُلَيَّة) ومعها كأسان مملوءتان وتحيَّتان، ومع خادم يتبعها عودٌ، فغنّتهما قائمة والكأسان في أيديهما والتحيتان بين أيديهما:

صوت

[السريع]

حـيّـاكُـمـا الله خَـلِـيـلَـيَّـا ... إنْ مَـيِّـتـاً كُـنْـتُ وإنْ حَـيّـا
إن قُـلْـتُـمـا خَـيـراً فَـخَـيْـرٌ لَـكُـمْ ... أوْ قُـلْـتُـمـا غَـيَّـا فـلا غَـيّـا

فشرِبا. ثم دفعتْ إليهما رقعةً فإذا فيها: «صنعتُ يا سيديّ أختُكما هذا اللَّحنَ اليوم، وألقتْه على الجواري، واصطبحتُ فبعثتُ لكما به، وبعثتُ من شرابي إليكما ومن تحياتي وأحْذَق جواريّ لتغنّيكما. هنأكما الله وسرّكما وأطاب عيشَكما وعيشي بكما».

أخبرني عمّي قال: حدّثني بنحوٍ من هذا أبو عبد الله بن المَرْزُبان قال: حدّثني إبراهيم بن أبي دُلَف العِجْليّ قال: كنّا مع المعتصم بالقاطول وكان إبراهيم بن المهديّ في حَرَّاقته بالجانب الغربيّ، وأبي وإسحاق بن إبراهيم الموصليّ في حَرّاقَتَيْهما بالجانب الشرقي. فدعاهما في يوم جمعة، فعبرا إليه في زلال وأنا معهما وأنا صغير، عليّ أقْبِيةٌ ومِنْطَقةٌ. فلما دنونا من حَرَّاقة إبراهيم فرآنا نَهَض ونهضتْ بنهوضه صبيَّة له يقال لها «غضَّةُ» وإذا في يديها كأسان وفي يده كأس. فلما صعدا إليه اندفع فغنّى: [السريع]

حَيَّاكُما الله خَلِيلَيّا ... إن مَيِّتاً كُنتُ وإن حَيّا

إن قُلْتُما خَيْراً فأَهْلاً بهِ ... أوْ قُلْتُما غَيّاً فلا غَيّا

ثم ناول كلَّ واحدٍ منهما كأساً وأخذ هو الكأس الثالثَ الذي في يد الجارية وقال: هَلُمَّ نشرب على رِيقنا قَدَحاً. ثم دعا بالطعام فأكلنا ووُضِع النبيذُ فشرِبنا وغنيّاه وغنّاهما وضربا معه وضرب معهما، وغنَّت الصبيَّةُ فطرِب أبي وقال لها أحسنتِ أحسنت!. فقال له إبراهيم: إن كانت أحسنَتْ فخُذْها فما أخرجتُها إلاّ لك. أخبرني عليّ بن صالح بن الهيثم وإسماعيل بن يونس قالا: حدّثنا أبو هِفّان قال: أُهْدِيتْ إلى الرشيد جاريةٌ في غاية الجمال والكمال، فخلا معها يوماً وأخرج كلَّ قينة في داره واصطبح، فكان جميع من حضره من جواريه المغنِّيات والخدَمة في الشراب زُهاء ألفيْ جاريةٍ في أحسن زِيٍّ من كلِّ نوع من أنواع الثياب والجوهر. واتّصل الخبر بأمّ جعفر فغلُظ عليها ذلك، فأرسلت إلى عُلَيَّة تشكو إليها. فأرسلت إليها علَيَّةُ: لا يَهُولَنَّك هذا، فواللهِ لأردنّه إليك، قد عزمتُ أن أصنع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريّ، فلا تبقى عندك جاريةٌ إلاّ بعثتِ بها إليّ وألْبِسِيهنَّ ألوانَ الثياب ليأخذنَ الصوتَ مع جواريّ، ففعلتْ أمُّ جعفر ما أمرتْها به عُلَيَّة. فلما جاء وقت صلاة العصر لم يَشْعر الرشيد إلا وَعُلَيَّة قد خرجت عليه من حُجْرتها، وأم جعفر من حجرتها معها زُهاء ألفي جاريةٍ من جواريها وسائر جواري القصر، عليهنّ

غرائب اللباس، وكلهنّ في لحنٍ واحد هَزَجٍ صَنَعته عُلَيَّة:

صوت [مجزوء الرجز]

مُـنْـفَـصِـلٌ عَـنِّـي ومـا قَـلْـبِـيَ عَـنْـهُ مُـنْـفَـصِـلْ
يـا قَـاطِـعِـي الـيَـوْمَ لِـمَـنْ نَـوَيْـتَ بَـعْـدِي أن تَـصِـلْ

فطرِب الرّشيد وقام على رِجليه حتى استقبل أمَّ جعفر وعُلَيَّة وهو على غاية السرور، وقال: لم أر كاليوم قطّ. يا مسرور لا تُبْقِينَّ في بيت المال دِرهماً إلا نثرتَه. فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستةَ آلاف درهم، وما سُمِع بمثل ذلك اليومِ قطّ.

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدّثني محمد بن يزيد المبرّد قال: كانت عُلَيَّة تقول: من لم يُطْرِبْه الرمل لم يُطربه شيء. وكانت تقول: من أصبح وعنده طَبَاهِجةٌ[1] باردةٌ ولم يصطبح فعليه لعنةُ الله.

حدّثني عمّي قال: حدّثني هبةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ قال: حدّثني يوسف بن إبراهيم قال: قالت لي عَرِيبُ: أحسنُ يومٍ رأيته وأطيبُه يومٌ اجتمعتُ فيه مع إبراهيم بن المهديّ عند أخته عُلَيَّة وعندهم أخوهم يعقوب، وكان أحذقَ الناس بالزَّمْر. فبدأت عُلَيَّة فغنّتهم من صنعتها وأخوها يعقوب يزمِرُ عليها:

صوت [الطويل]

تَـحَـبَّـبْ فـإنَّ الـحُـبَّ داعِـيَـةُ الـحُـبِّ وَكَـمْ مِنْ بَعِيدِ الدّارِ مُسْتَوْجِبُ القُرْبِ

وغنّى إبراهيم في صنعته وزمرَ عليه يعقوب:

صوت [البسيط]

يا واجِدَ الحُبِّ ما لِي مِنكَ إذ كَلِفَتْ نَـفْـسِـي بِـحُـبِّـكَ إلاّ الـهَـمُّ والـحَـزَنُ
لَـمْ يُـنْـسِـنِـيـكَ سُـرُورٌ لا ولا حَـزَنٌ وَكَيْفَ لا! كَيْفَ يُنْسَى وَجْهُكَ الحَسَنُ

(١) الطباهجة: نوع من اللحم المقلي.

وَلا خلا مِنكَ قلبي لا ولا جَسَدِي   كُلِّي بِكُلِّكَ مَشْغُولٌ ومُرْتَهَنُ
نُورٌ تَوَلَّدَ من شَمْسٍ ومِنْ قَمَرٍ   حتى تكامَلَ منهُ الرُّوحُ والبَدَنُ

فما سمعتُ مِثْلَ ما سمعتُه منهما قطّ، وأعلم أني لا أسمع مِثْلَه أبداً.

قال ميمون بن هارون قلت لعَرِيبَ: رأيتُ في النَّوْم كأنّي سألت عُلَيَّةَ بنتَ المهديّ عن أغانيها فقالت لي: هي نَيِّفٌ وخمسون صوتاً. فقالت لي عَرِيب: هي كذلك. وقد أخبرني بنحو هذا الخبر عبد الله بن الرَّبيع الرَّبيعيّ قال: حدّثني وسواسة وهو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثتني خِشْف الواضِحِيّة أنها تمارت هي وعَرِيب في غناء عُلَيَّة بحضرة المتوكّل أو غيره من الخلفاء، فقالت هي: هي ثلاثةٌ وسبعون صوتاً. فقالت عَرِيب: هي اثنان وسبعون صوتاً. فقال المتوكّل: غنّيا غِناءها، فلم تزالا تغنّيان غناءها حتى مضى اثنان وسبعون صوتاً. ولم تذكر خِشْف الثالثَ والسبعينَ فقُطِع بها واستولت عَرِيب عليها وانكسرتْ. قالت: فلمّا كان الليل رأيت عُلَيَّة فيما يرى النائم فقالت: يا خِشْفُ خالفتْكِ عَرِيبُ في غنائي! قلت: نعم يا سيّدتي. قالت: الصواب معكِ، أفتدرين ما الصوتُ الذي أُنْسِيتِه؟ قلت: لا والله! ولَوَدِدتُ أني فَدَيت ما جرى بكلّ ما أملك. قالت هو:

صوت

[الرمل]

بُنِيَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلَوْ   أَنْصَفَ المَعْشُوقُ فِيهِ لَسَمُجْ
لَيسَ يُسْتَحْسَنُ في حُكْمِ الهَوَى   عاشِقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ
لا تَعِيبَنْ مِنْ مُحِبٍّ ذِلَّةً   ذِلَّةُ العاشِقِ مِفتاحُ الفَرَجْ
وَقَلِيلُ الحُبِّ صِرْفاً خالِصاً   لَكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ قَدْ مُزِجْ

وكأنها قد اندفعت تغنّيني به، فما سمعتُ أحسنَ مما غنَّته، ولقد زادت لي فيه أشياء في نومي لم أكن أعرفها. فانتبهتُ وأنا لا أعقِل فرحاً به. فباكرتُ الخليفة وذكرتُ له القصّةَ. فقالت عَرِيب: هذا شيء صنعتِه أنتِ لما جرى بالأمس، وأمّا الصوت فصحيح. فحلفتُ للخليفة بما رضِي به أنّ القصة كما حَكَيْتُ. فقال: رؤياكِ والله أعجب، ورحِم الله عُلَيَّةَ! فما تركتْ ظَرْفَهَا حيَّةً وميّتةً، وأجازني جائزة سنيّة. ولعُلَيَّة في هذا الصوت أعني:

* بُنِي الحُبُّ على الجَوْرِ فَلَوْ *

لحنان: خفيفُ ثقيلٍ وهَزَج. وقيل إن الهَزَج لغيرها.

ونسخت من كتاب محمد بن الحسن الكاتب حدّثني أحمد بن محمد الفيرزان قال: حدّثني بعضُ خَدَم السلطان عن مسرور الكبير، ونسختُ هذا الخبر بعينه من كتاب محمد بن طاهر يرويه عن ابن الفيرزان، وفيهما خلاف يذكر في موضعه، قال: اشتاق الرشيد إلى إبراهيم الموصليّ يوماً، فركِب حماراً يقرب من الأرض، ثم أمر بعض خدم الخاصة بالسعي بين يديه، وخرج من داره، فلم يزل حتى دخل على إبراهيم. فلما أحسَّ به استقبله وقبَّلَ رجليه. وجلس الرشيد فنظر إلى مواضع قد كان فيها قومٌ ثم مَضَوْا، ورأى عيداناً كثيرةً، فقال: يا إبراهيم ما هذا؟ فجعل يدافع. فقال: وَيْلَك! اُصْدُقْني. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، جاريتان أطرح عليهما[1]. قال: هاتهما. فأحضر جاريتين ظريفتين، وكانت الجاريتان لعُلَيَّة بِنت المهديّ بعثت بهما يطرَح عليهما. فقال الرشيد لإحداهما: غنّي، فغنّتْ ـ وهذا كله من رواية محمد بن طاهر ـ: [الرمل]

بُنِي الحُبُّ على الجَوْرِ فَلَوْ أَنْصَفَ المَعْشُوقُ فيهِ لسَمُجْ
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ في حُكْمِ الهَوَى عاشِقٌ يُحسِنُ تأليفَ الحُجَجْ
لا تَعِيبَنْ مِنْ مُحِبٌ ذِلَّةً ذِلَّةُ العاشِقِ مِفتاحُ الفَرَجْ
وَقَلِيلُ الحُبِّ صِرْفاً خالِصاً لَكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ قَدْ مُزِجْ

فأحسنت جدًّا. فقال الرشيد: يا إبراهيم لمن الشعر؟ ما أملحه! ولمن اللحن؟ ما أظرفه! فقال: لا عِلم لي. فقال للجارية، فقالت: لستّي. قال: ومَنْ ستُّكِ؟ قالت: عُلَيَّةُ أختُ أميرِ المؤمنين. قال: الشعرُ واللحن؟! قالت نعم! فأطرق ساعة ثم رفع رأسَه إلى الأخرى فقال: غنّي؛ فغنَّتْ:

صوت

[الطويل]

تَحَبَّبْ فإنَّ الحُبَّ داعِيَةُ الحُبِّ وَكَمْ من بَعِيدِ الدَّارِ مُسْتَوْجِبُ القُرْبِ

(١) أطرح عليهما: أي أعلمهما ألحاناً من الغناء.

تَـبَـصَّـرْ فـإنْ حُـدِّثْـتَ أنَّ أخَـا هَـوًى نَجا سالِماً فارْجُ النَّجاةَ من الحُبِّ
إذا لَمْ يَكُنْ في الحُبِّ سُخْطٌ ولا رِضاً فَـأَيْـنَ حَـلاواتُ الـرَّسـائِـلِ والـكُـتْـبِ

ـ الغِناء لعليَّة خفيفُ ثقيلٍ. وفي كتاب عَلّويه: الغِناء له ـ فسأل إبراهيم عن الغِناء والشعر؛ فقال: لا عِلم لي يا أمير المؤمنين. فقال للجارية: لمن الشعر واللحن؟ فقالت لِستّي. قال: ومَنْ سِتُّكِ؟ فقالت: عُلَيَّةُ أختُ أمير المؤمنين. فوثب الرشيد وقال: يا إبراهيم احتفظ بالجاريتين. ومَضَى فركِب حِماره وٱنصرف إلى عُلَيَّةَ. هذا كله في رواية محمد بن طاهر، ولم يذكره محمد بن الحسن، ولكنه قال في خبره: إن الرشيد زار الموصليّ هذه الزيارة ليلاً، وكان سببها أنه ٱنتبه في نصف الليل فقال: هاتوا حِماري فأُتِي بحمارٍ كان له أَسْوَدَ يركبه في القصر قريبٍ من الأرض، فركبه وخرج في دُرَّاعةٍ وشيٍ متلثِّماً بعمامةِ وشيٍ مُلْتَحِفاً برداءِ وشيٍ، وخرج بين يديه مائة خادم أبيض سوى الفرّاشين. وكان مسرور الفَرْغاني جريئاً عليه لمكانته عنده، فلما خرج على باب القصر قال: أين يريد أمير المؤمنين في هذه الساعة؟ قال: أردتُ منزِلَ الموصليّ. قال مسرور: فمضى ونحن بين يديه حتى ٱنتهى إلى منزل إبراهيم، فتلقَّاه وقبَّل حافرَ حِماره وقال: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداءك، أفي مثل هذه الساعة تظهر!! قال: نعم! شوقٌ طَرَقَ بي. ثم نزل فجلس في طَرَف الإيوان وأجلس إبراهيم. فقال له إبراهيم: يا سيّدي أتنشط لشيءٍ تأكله؟ قال: نعم، وما هو؟ قال: خامِيزُ[1] ظبيٍ. فأُتِي به كأنّما كان مُعَدًّا له فأصاب منه شيئاً يسيراً، ثم دعا بشرابٍ كان حُمل معه. فقال له إبراهيم الموصليّ: أُغنِّيك يا سيِّدي أم يغنِّيك إماؤك؟ فقال: بل الجواري. فخرج جواري إبراهيم فأخذْن صَدْرَ الإيوان وجانبيه. فقال: أيَضْرِبْنَ كلُّهن أم واحدةٌ واحدةٌ؟ فقال: بل تَضْرِب ٱثنتان وتغنِّي واحدةٌ فواحدةٌ. ففعلن ذلك حتى مَرَّ صدرُ الإيوان وأحدُ جانبيه والرَّشيد يسمَع ولا يَنْشَط لشيءٍ من غِنائهنَّ، إلى أن غَنَّتْ صبيَّةٌ من حاشية الصَّفّ:

صوت

[البسيط]

يـا مُـوريَ الـزَّنْـدِ قَـدْ أعْـيَـتْ قَـوادِحُـهُ اقْـبِسْ إذا شِـئْـتَ مِـنْ قَـلْـبِـي بِـمِـقْـبـاسِ
مـا أقْـبَـحَ الـنَّـاسَ فـي عَـيْـنِـي وأسْـمَـجَـهُـمْ إذا نَـظَـرْتُ فَـلَـمْ أُبْـصِـرْكَ فـي الـنَّـاسِ

(١) الخاميز: مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن (أعجمي معرب).

فطرِب لغنائها وٱستعاد الصوتَ مِراراً وشَرِب أرطالاً، ثم سأل الجاريةَ عن صانعه فأمسكتْ، فٱستدناها فتقاعستْ. فأمر بها فأُقيمتْ إليه، فأخبرتْه بشيءٍ أسرَّتْه إليه. فدعا بحماره فٱنصرف وٱلتفتَ إلى إبراهيم فقال: ما عليكَ ألاّ تكون خليفةً! فكادت نفسُه تَخرُج، حتى دعا به بعدُ وأدناه. هذا نظمُ رواية محمد بن الحسن في خبره. وقال محمد بن طاهر في خبره: فقال للموصليّ: ٱحتفظْ بالجاريتين، وركِب من ساعته إلى عُلَيَّة فقال: قد أحببتُ أن أشربَ عندكِ اليومَ. فتقدَّمتْ فيما تُصْلِحُه، وأخذا في شأنهما. فلمّا أن كان في آخر الوقت حملَ عليها بالنبيذ، ثم أخذ العودَ من حِجر جارية فدفعه إليها، فأكبرتْ ذلك. فقال: وتُرْبةِ المهديّ لَتُغَنِّنَّ!. قالت: وما أُغَنِّي؟ قال: غَنِّي:

* بُـنِـيَ الـحُـبُّ عـلـى الـجَـوْرِ فَـلَـوْ *

فعلمتْ أنه قد وقَفَ على القصة فغنَّتْه. فلمّا أتت عليه قال لها غَنِّي:

* تَـحَـبَّـبْ فـإنَّ الـحُـبَّ داعِـيَـةُ الـحُـبِّ *

فلَجْلَجَتْ ثم غنّته. فقام وقبَّل رأسَها وقال: يا سيِّدتي هذا عندكِ ولا أعلم! وتمَّمَ يومَه معها.

حدّثني جَحْظةُ قال: حدّثني أبو العُبَيْس بن حَمْدُون قال: قال إبراهيم بن المهديّ:

ما خَجِلتُ قَطُّ خَجْلَتي من عُلَيَّةَ أُختي. دخلتُ عليها يوماً عائداً فقلت: كيف أنت يا أُختي جُعِلْتُ فِداءك وكيف حالُك وجسمُك؟ فقالت: بخير والحمد لله. ووقعتْ عيني على جارية كانت تَذُبُّ عنها فتشاغلتُ بالنظر إليها فأعجبتْني وطال جلوسي، ثم ٱستحْيَيْتُ من عُلَيَّة فأقبلتُ عليها فقلت: وكيف أنتِ يا أُختي جُعِلْتُ فِداءك وكيف حالُك وجسمُك؟ فرفعتْ رأسَها إلى حاضنةٍ لها وقالت: أليس هذا قد مضى مرّة وأجبنا عنه! فخجِلتُ خَجَلاً ما خَجِلتُ مِثْلَه قَطُّ، وقمتُ وٱنصرفتُ.

[علاقتها بهارون الرشيد وغناؤها له]

أخبرني عبد الله بن الرَّبيع الرَّبيعي قال: حدّثني أحمد بن إسماعيل عن محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد قال:

شَهِدتُ أبي جعفراً وأنا صغيرٌ وهو يحدّث يحيى بن خالد جدّي في بعض ما كان يخبره به من خَلَواته مع الرّشيد، قال: يا أبت، أخذ بيدي أمير المؤمنين ثم أقبل على حُجرة يخترقها حتى انتهى إلى حُجْرة مُغلقة ففُتِحتْ له، ثم رجَع مَنْ كان معنا من الخَدم، ثم صرنا إلى حُجْرة مغلقة ففتحها بيده ودخلنا جميعاً وأغلقها من داخلٍ بيده، ثم صرنا إلى رِواقٍ ففتحه وفي صدره مجلس مغلق فقعَد على باب المجلس، فنقَر هارون الباب بيده نَقَراتٍ فسمِعنا حسًّا، ثم أعاد النَّقْرَ فسمِعنا صوتَ عود، ثم أعاد النَّقْر ثالثةً فغنَّتْ جاريةٌ ما ظننت والله أن الله خلَق مِثْلَها في حُسْن الغِناء وجودة الضَّرب. فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنَّت أصواتاً: غَنِّي صوتي، فغنَّتْ صوتَه، وهو:

صوت [الكامل]

وَمُخَنَّثٍ شَهِدَ الزِّفافَ وَقَبْلَهُ غَنَّى الجَوارِيَ حاسِراً ومُنَقَّبا
لَبِسَ الدَّلالَ وقامَ يَنْقُرُ دُفَّهُ نَقْراً أَقَرَّ بِهِ العُيُونَ وأَطْرَبا
إنَّ النِّساءَ رَأَيْنَهُ فَعَشِقْنَهُ فَشَكَوْنَ شِدَّةَ ما بِهِنَّ فَأَكْذَبا

- في هذا اللحن خفيفُ رَمَل نسَبه يحيى المكيّ إلى ابن سُرَيج ولم يَصِحّ له، وفيه خفيفُ ثقيل في كتاب عُلَيَّة أنه لها، وذكر عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزيَّات أنه لرَيِّق. واللَّحن مأخوذٌ من:

* إنَّ الرِّجالَ لَهُمْ إلَيْكِ وَسِيلَةٌ *

وهو خفيفُ ثقيلٍ للهُذَلي، ويقال إنه لابن سُرَيج، وهو يأتي في موضع آخر - قال: فطرِبتُ والله طرباً هممتُ معه أن أنطح برأسي الحائطَ. ثم قال غَنِّي:

* طالَ تَكْذِيبي وَتَصْدِيقي *

فغنَّت:

صوت

[المديد]

طَـالَ تَـكْـذِيـبِـي وَتَـصْـدِيـقِـي لَـمْ أَجِـدْ عَـهْـداً لِـمَـخْـلُـوقِ
إنَّ نَـاسـاً فـي الـهَـوَى غَـدَروا أَحْـدَثُـوا نَـقْـضَ الـمَـواثِـيـقِ
لا تَـرانِـي بَـعْـدَهُـمْ أبـداً أَشْـتَـكِـي عِـشْـقـاً لِـمَـعْـشُـوقِ

ـ لحنُ عُلَيَّة في هذا الصوت هَزَجٌ. والشعر لأبي جعفر محمد بن حُمَيْد الطُّوسيّ وله فيه لحنُ خفيفُ ثقيلٍ. ولعَرِيبَ فيه ثقيلٌ أوّل وخفيفُ ثقيلٍ آخر. قال: فرقَص الرشيد ورقصتُ معه، ثم قال: امْضِ بنا فإني أخاف أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمضَيْنا. فلما صرنا إلى الدِّهليز قال وهو قابض على يدي: أعرفتَ هذه المرأة؟ قال قلت: لا يا أمير المؤمنين. قال: فإني أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتُم ذلك، وأنا أُخبرك أنها عُلَيَّةُ بنتُ المهديّ. ووالله لئن لَفَظْتَ به بين يَدَيْ أحدٍ وبلغني لأقتلنّك. قال: فسمِعتُ جدّي يقول له: فقد والله لفظتَ به، ووالله ليقتلنَّك! فآصنعْ ما أنت صانع.

نسبة الصوت الذي أُخذ منه:

* ومُـخَـنَّـثٍ شَـهِـدَ الـزِّفـافَ وقَـبْـلَـه *

صوت

[الكامل]

إنَّ الـرِّجـالَ لَـهُـمْ إلَـيْـكِ وسيـلـةٌ إنْ يَـأْخُـذُوكِ تَـكَـحَّـلِـي وتَـخَـضَّـبِـي
وَأنـا آمْـرُؤٌ إنْ يـأخُـذُونـي عَـنْـوَةً أُقْـرَنْ إلـى سَـيْـرِ الـرِّكـابِ وأُجْـنَـبِ
وَيَـكـونُ مَـرْكَـبُـكِ الـقَـعُـودَ وحِـدْجَـهُ وآبْـنُ الـنَّـعـامَـةِ يَـوْمَ ذلـكَ مَـرْكَـبِـي[1]

الناس يَرْوُون هذه الأبيات لعنترة بن شَدّاد العَبْسيّ، وذكر الجاحظ أنها لخُزَزَ بن لَوْذَان، وهو الصحيح. وخُزَزٌ شاعرٌ قديم يقال إنه قبل آمرىء القيس. وقد آختُلِف في معنى قوله: «آبن النعامة» فقال أبو عُبَيْدة والأصمعيّ: النعامةُ فرسُه وآبنُها ظِلُّها. يقول: أُقاد في الهاجرة إلى جَنْبها فيكون ظِلِّي كالراكب لِظلِّها. وقال

(١) القعود من الإبل: ما اتخذ للركوب والحمل. والحِدْج: مركب من مراكب النساء نحو الهودج.

أبو عمرو الشَّيْبانيّ: ابن النَّعامة مُقَدَّم رِجْله مما يَلي الأصابع. يقول: فلا يكون لي مركبٌ إلاّ رِجلي. وقال خالد بن كُلْثوم: ابن النعامة الخشبة التي يُصْلَب عليها. يقول: أُقْتَلُ وأُصْلَبُ فتكون الخشبة مركبي. وآحتجَّ مَنْ ذكر أنه يَعني ظِلَّ فرسه وأنه يكون كالراكب له بقول الشاعر:

إذْ ظَلَّ يَحْسَبُ كَلَّ شَيْءٍ فارِساً   وَيَرَى نَعامَةَ ظِلِّهِ فَيَحُولُ

قال: وآبن النعامة: ظِلُّ كلِّ شيء. وقد مضَى هذا الصوت مفرداً مع خبره في موضع آخر.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثنا أحمد بن يزيد المُهَلَّبيّ قال: حدّثنا حمّاد بن إسحاق قال: زار الرَّشيدُ عُلَيَّةَ فقال لها: بالله يا أُختي غَنِّيني. فقالت: وحياتِك لأعملنَّ فيك شعراً ولأعملنَّ فيه لحناً، فقالت من وقتها:

صوت

[الكامل]

تَفديكَ أُختُكَ قَدْ حبَوْتَ بِنِعْمَةٍ   لَسْنا نَعُدُّ لَها الزَّمانَ عَدِيلا
إلاَّ الخُلودَ، وَذاكَ قُرْبُكَ سَيِّدِي   لا زالَ قُرْبُكَ وَالبَقاءُ طَوِيلا
وَحَمِدْتُ رَبّي في إجابَةِ دَعْوَتِي   فَرَأَيْتُ حَمْدِي عِنْدَ ذاكَ قَلِيلا

وعَمِلتْ فيه لحناً من وقتها في طريقة خفيف الرَّمَلِ، فأطربَ الرَّشيدَ وشرب عليه بقيَّةَ يومه. قال: وقالت للرشيد أيضاً وقد طلب أختَها ولم يطلبها.

صوت

ما لِي نُسِيتُ وَقَدْ نُودِي بأَصْحابي   وَكُنْتُ وَالذِّكْرُ عِنْدِي رائِحٌ غادِي
أَنا الَّتي لا أُطِيقُ الدَّهْرَ فُرْقَتَكُمْ   فَرِقَّ لي يا أخِي مِن طولِ إبعادِ

قال: وغَنَّتْ فيه لحناً من الثقيل الثاني، وبعثت مَنْ غنَّاه للرشيد، فبعث فأحضرها.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني عَوْن بن محمد قال: حدّثني زُرْزُور الكبير غلام جعفر بن موسى الهادي: أنّ عُلَيَّة حجّتْ في أيّام الرّشيد، فلمّا ٱنصرفتْ أقامت بِطيزَنَاباذَ[1] أيّاماً، فانتهى ذلك إلى الرشيد فغضِب. فقالت عُلَيَّةُ:

صوت

[الخفيف]

أيَّ ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ أيَّ ذَنْبِ ... أيُّ ذَنْبٍ لَوْلا رجائِي لِرَبِّي

بِمُقامِي بِطِيزَنَابَاذَ يَوْماً ... بَعْدَهُ لَيْلَةٌ على غَيْرِ شُرْبِ

ثُمّ باكَرْتُها عُقَاراً شَمُولاً ... تَفْتِنُ النَّاسِكَ الحَلِيمَ وتُصْبي[2]

قَرْقَفاً قَهْوَةً تَرَاها جَهُولاً ... ذاتَ حِلْمٍ فَرَّاجَةً كلَّ كَرْبِ

قال: وصنعتْ في البيتين الأوّلين لحناً من خفيف الثقيل، وفي البيتين الأخيرين لحناً من الرَّمَل. فلمّا جاءت وسمِع الشعر واللحنين رِضي عنها.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني عبد الله بن المعتزّ قال: حدّثني عبد الله بن إبراهيم بن المهديّ قال: اشتاق الرّشيد إلى عمّتي عُلَيَّة بالرَّقة، فكتب إلى خالها يزيدَ بن منصور في إخراجها إليه فأخرجها. فقالت في طريقها:

صوت

[البسيط]

اِشْرَبْ وغَنِّ على صَوْتِ النَّواعِيرِ ... ما كُنْتُ أعْرِفُها لَوْلا ٱبنُ مَنْصُورِ

لَوْلا الرَّجاءُ لِمَنْ أمَّلْتُ رُؤيَتَهُ ... ما جُزْتُ بَغْدادَ في خَوْفٍ وَتَغْرِيرِ

وعَمِلتْ فيه لحناً في طريقة الثقيل الأوّل.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني أحمد بن محمد بن إسحاق قال: حدّثنا الهِشاميّ أبو عبد الله قال: لمّا خرج الرّشيد إلى الرَّيّ أخذ أُختَه عُلَيَّةَ معه. فلمّا صار بالمَرْج[3] عمِلتْ شعراً وصاغت فيه لحناً في طريقة الرمل وغنّتْ به، وهو:

---

(١) طيزناباذ: موضع بين الكوفة والقادسية، كان من أنزه المواضع (معجم البلدان ٤/ ٥٥).
(٢) العُقار: الخمر.
(٣) أراد مرج القلعة بينه وبين حلوان منزل إلى جهة همذان (معجم البلدان ٥/ ١٠١).

صوت [الطويل]

وَمُغْتَرِبٍ بالمَرْجِ يَبْكِي لِشَجْوِهِ ... وَقد غابَ عنهُ المُسعِدونَ على الحُبّ
إذا ما أتاه الرَّكْبُ مِنْ نَحْوِ أرْضِهِ ... تَنَشَّقَ يَسْتَشْفِي برائِحَةِ الرَّكْبِ

فلمّا سمِع الصَّوتَ علِم أنها قد ٱشتاقت إلى العراق وأهلِها به فردّها.

ونسختُ من كتاب هارون بن محمد الزَّيّات: حدّثني بعضُ موالي أبي عيسى بن الرّشيد عن أبي عيسى أن عُلَيَّة غَنَّتِ الرَّشيدَ في يوم فِطر:

صوت [البسيط]

طالَتْ عَلَيَّ ليالي الصَّوْمُ واتَّصَلَتْ ... حَتَّى لقد خِلْتُها زادَتْ على الأَبَدِ
شَوْقاً إلى مَجْلِسٍ يُزْهَى بِصاحِبِهِ ... أُعِيذُهُ بجلالِ الواحِدِ الصَّمَدِ

الغِناء لعُلَيَّة ثاني ثقيل لا يُشَكّ فيه، وذكر بعض الناس أنه للواثِق، وذكر آخرون أنه لعبد الله بن العبّاس الرَّبيعي. والصحيحُ أنه لعُلَيَّة. وفيه لعريب ثقيلٌ أوّل غنَّته المُعْتَمِدَ يومَ فطر فأمر لها بثلاثين ألف درهم.

وقال ميمون بن هارون: حدّثني أحمد بن يوسف أبو الجَهْم قال: كان لعُلَيَّة وكيل يقال له سِباعٌ، فوقفتْ على خيانته فضربته وحبسته، فٱجتمع جيرانه إليها فعرّفوها جميلَ مذهبه وكثرةَ صِدْقه، وكتبوا بذلك رقعة، فوقّعتْ فيها:

صوت [الطويل]

ألاَ أَيُّهذَا الرَّاكِبُ العِيسَ بَلِّغَنْ ... سِباعاً إنْ ضَمَّ دارَكُمُ السَّفْرُ[1]
أَتَسْلُبُني مالِي وإنْ جاءَ سائِلٌ ... رَقَقْتَ لَهُ إنْ حَطَّهُ نَحْوَكَ الفَقْرُ
كَشافِيَةِ المَرْضَى بعائِدَة الزنى ... تُؤَمِّلُ أجْراً حَيْثُ لَيْسَ لها أَجْرُ

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني ميمون بن هارون قال: حدّثتني عَلَمُ

(١) العيس: النوق. والسَّفْر: الجماعة المسافرون.

السَّمْراءُ جارية عبد الله بن موسى الهادي أنّها شَهِدتْ عُلَيَّة غَنَّت الأمينَ في شعر لها، وهو آخر شعر قالته فيه، وطريقته من الثقيل الثاني. وكانت لمّا مات الرشيد جَزِعتْ جَزَعاً شديداً وتركت النَّبيذَ والغِناء. فلم يزل بها الأمينُ حتى عادت فيهما على كرهٍ. والشعر:

صوت

[البسيط]

أطَلْتِ عاذِلَتِي لَوْمِي وَتَفْنِيدي وَأَنْتِ جاهلَةٌ شَوْقِي وتَسْهِيدي
لا تَشْرَبِ الرّاحَ بين المُسْمِعَاتِ وَزُرْ ظَبْياً غَرِيراً نَقِيَّ الخَدّ والجِيدِ
قَدْ رَنَّحَتْهُ شَمُولٌ فَهْوَ مُنْجَدِلٌ يَحْكِي بِوَجْنَتِهِ ماءَ العناقيدِ
قام الأمِينُ فأغنى النّاسَ كُلَّهُمُ فما فَقِيرٌ على حالٍ بِمَوْجُودِ

لحنُ عُلَيَّة في هذا الشعر ثاني ثقيل. ولعَرِيبَ فيه هَزَجٌ، وقيل إنَّ الهَزَجَ لإبراهيم بن المهدي.

وقال ميمون بن هارون: حدّثني محمد بن أبي عَوْن قال: حدّثتني عَرِيبُ أنّ عُلَيَّة قالت في لُبانَةَ بنتِ أخيها عليّ بن المهدي شعراً وغَنَّتْ فيه من الثَّقيل الأول:

صوت

[الطويل]

وَحَدَّثَنِي عَنْ مَجْلِسٍ كُنْتِ زَيْنَهُ رسولٌ أمِينٌ والنِّساءُ شُهُودُ
فقلتُ له كُرَّ الحَدِيثَ الذي مَضى وذِكْرُكِ من ذاكَ الحَديثِ أُرِيدُ

وقد ذكر الهِشاميّ أنّ هذا اللحن لإسحاق غنّاه بالرَّقة. وليس ذلك بصحيح.

أخبرني محمد بن يحيى عن عَوْن بن محمد عن أبي أحمد بن الرّشيد. ونسخت هذا الخبر من كتاب محمد بن الحسن عن عَوْن بن محمد عن أبي أحمد بن الرّشيد واللفظُ له قال: دخل يوماً إسماعيل بن الهادي إلى المأمون، فسَمِع غِناءً أذهله. فقال له المأمون: ما لَكَ؟ قال: قد سَمِعتُ ما أذهلني، وكنتُ أُكذِّب بأن الأرْغُن الرُّوميّ يقتُل طرباً، وقد صدّقتُ الآن بذلك. قال: أوَلاَ تَدْرِي ما هذا؟ قال: لا والله! قال: هذه عَمَّتُك عُلَيَّةُ تُلْقِي على عَمِّك إبراهيم صوتاً من

غِنائها. إلى ها هنا رواية محمد بن يحيى. وفي رواية محمد بن الحسن قال: هذه عَمَّتُك تُلقي على عَمِّك إبراهيم صوتاً استحسنه من غنائها. فأَصغيتُ إليه فإذا هي تُلقي عليه:

صوت [الخفيف]

لَيسَ خَطْبُ الهَوَى بِخَطْبٍ يَسِيرِ ... لَيسَ يُنبِيكَ عَنهُ مِثلُ خَبِيرِ
لَيسَ أَمرُ الهَوَى يُدَبَّرُ بالرأ ... يِ ولا بالقِياسِ وَالتَّفْكِيرِ

اللَّحنُ في هذا لعُلَيَّة ثقيلٌ أوّل. وفيه لإبراهيم بن المهديّ ثاني ثقيلٍ عن الهِشاميّ.

[ولادتها ووفاتها]

أخبرني جَحْظَةُ قال: حدّثني هِبةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه أن عُلَيَّة بنتَ المهديّ وُلِدت سنة ستين ومائة، وتُوفِّيتْ سنةَ عشر ومائتين ولها خمسون سنة. وكانت عند موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس. وأخبرني محمد بن يحيى عن عَوْن بن محمد قال: حدّثني محمد بن علي بن عثمان قال: ماتت عُلَيَّة سنةَ تسع ومائتين، وصَلَّى عليها المأمون. وكان سبب وفاتها أن المأمون ضمَّها إليه وجعل يقبِّل رأسَها، وكان وجهُها مُغطىً، فشَرِقت من ذلك وسعَلتْ ثم حُمَّتْ بعَقب هذا أياماً يسيرةً وماتت.

وممن صنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن الرّشيد.

فمن صنعته:

صوت [مجزوء الرجز]

قامَ بِقَلْبِي وَقَعَدْ ... ظَبْيٌ نَفَى عَنِّي الجَلَدْ
خَلَّفَنِي مُدَلَّهاً ... أَهِيمُ في كُلِّ بَلَدْ
أَسْهَرَنِي ثم رَقَدْ ... وما رَثَى لِي مِنْ كَمَدْ
ظَبْيٌ إذا آزْدَدْتُ لَهُ ... تَذَلُّلاً تاهَ وَصَدّ
وَاعَطَشَا إلى فَمٍ ... يَمُجُّ خَمْراً من بَرَدْ

عروضه من مجزوء الرَّجَز والشعرُ والغِناء لأبي عيسى بن الرشيد، ولحنُه فيه ثقيل أوّل مطلق في مجرى الوسطى من روايتي عبد الله بن المعتزّ والهشَامِيّ. وذكر الهشامِيّ أنّ له أيضاً فيه لحناً من ثقيل الرَّمَل، وذكر حَبَشٌ أنّ الرَّمَلَ لحسين بن مُحْرز. وفيه لأبي العُبَيْس بن حَمْدون خفيفُ ثقيلٍ.

أخبار أبي عيسى بن الرّشيد ونسبه

[توفي ٢٠٩ هـ/ توفي ٨٢٤ م]

[اسمه ونسبه وجماله وبعض صفاته وغناؤه]

اسمه أحمد، وقيل بل اسمُه صالح بن الرشيد. وهذا النَّسبُ أشهرُ من أن يشْرَح. وأُمّه أُمُّ ولدٍ بَرْبَريَّة. وكان من أحسنِ النّاس وجهاً ومُجالسةً وعِشْرةً، وأمجنهم وأحدّهم نادرة وأشدّهم عَبَثاً. وكان يقول شعراً ليّناً طيّباً من مِثْله.

أخبرني الحسن بن عليّ الخَفاف قال: حدّثنا عبدُ الله بن أبي سعد الورّاق قال: حدّثني محمد بن عبد الله بن طاهر أنه سمع أباه يقول: سمعتُ أبي (يعني طاهر بن الحسين) يحدّث أنه سمع الرشيدَ يقول للمأمون: أنت تعلم أنك أحبّ الناس إليّ، ولو أستطيع أن أجعل لك وجه أبي عيسى لفعلت.

أخبرني محمد بن يحيى الصُّولي قال: حدّثني مُسَيِّح بن حاتم العُكْليّ قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد قال كان يقال: انتهى جَمالُ وَلَد الخلافة إلى أولاد الرشيد، ومن أولاد الرشيد إلى محمد وأبي عيسى. وكان أبو عيسى إذا عزَم على الركوب جلس الناس له حتى يَرَوْه أكثر مما يجلِسون للخلفاء.

حدّثني محمد قال: حدّثني يعقوب بن بَنَان قال: حدّثني عليّ بن الحسين الإسكافي قال كنتُ عند أبي الصَّقْر إسماعيلَ بنِ بُلْبُل وعنده عَرِيبٌ، فسمِعتُها تقول: انتهى جمالُ الرشيد إلى محمد الأمين وأبي عيسى، ما رأى الناس مِثْلهما، وكان المعتزّ في طِرازهما. قال: وسمعتُها تقول لأبي العباس بن حمدون: ما غناؤك من غِناء أبي عيسى بن الرّشيد! وما سمِعتُ قَطُّ غِناءً أحسنَ من غِنائه، ولا رأيت وجهاً أحسن من وجهه.

أخبرني محمد قال: حدّثني الغَلاَبِيّ قال: حدّثنا يعقوب بن جعفر قال: قال

الرّشِيد لأبي عيسى ٱبنه وهو صبيّ: ليت جمالك لعبد الله (يعني المأمون). فقال له: على أنّ حظّه منك لي. فعجِب من جوابه على صِباه وضمَّه إليه وقبَّله.

أخبرني الحسن بن عليّ وأحمد بن عُبيد الله بن عَمَّار قالا: حدّثنا عبدُ الله بن أبي سعد عن محمد بن عبد الله بن طاهر عن أبيه قال: حدّثني مَنْ شهِد المأمونَ ليلةً وهم يتراءَوْنَ هلالَ شهرِ رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مُسْتَلْقٍ على قفاه، فرأوْه وجعلوا يَدْعُون. فقال أبو عيسى قولاً أُنكِر عليه في ذلك المعنى. كأنه كان متسخِّطاً لورود الشهر، فما صام بعده.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثنا الحسين بن فَهْم قال: قال أبو عيسى بن الرشيد: [الطويل]

دهانيَ شَهْرُ الصَّوْمِ لا كانَ مِنْ شَهْرِ ... وما صُمْتُ شَهْراً بَعْدَهُ آخِرَ الدَّهْرِ
فَلَوْ كانَ يُعْدِينِي الإمامُ بِقُدْرَةٍ ... على الشَّهْرِ لاسْتَعْدَيْتُ جهدِي على الشَّهْرِ

فناله بعقب قوله هذا الشعر صَرْعٌ، فكان يُصْرَع في اليوم مرَّاتٍ إلى أن مات، ولم يبلغ شهراً آخر.

وذكر عليّ بن الهشاميّ عن جدّه ٱبن حَمدون قال: قلت لإبراهيم بن المهديّ: مَنْ أحسن الناس غناءً؟ قال: أنا. قلت: ثم مَنْ؟ قال: أبو عيسى بن الرّشيد. قلت: ثم مَنْ؟ قال: مُخارق.

أخبرني الحسن بن علي قال: حدّثني ٱبن أبي سعد قال: حدّثنا محمد بن عبد الله بن طاهر قال: حدّثنا محمد بن سعيد أخو غالب الصَّغْدي قال: كان أبو عيسى بن الرشيد وطاهر بن الحسين يتغدّيان مع المأمون، فأخذ أبو عيسى هِندَباءةً[١] فغمَسها في الخلّ وضرَب بها عينَ طاهر الصحيحة. فغضِب طاهرٌ وشَقَّ ذلك عليه وقال: يا أمير المؤمنين إحدى عَيْنَيَّ ذاهبةٌ، والأخرى على يَدَيْ عَدْل، يُفعل هذا بي بين يَدَيْك!! فقال له المأمون: يا أبا الطَّيِّب إنه والله لَيَعْبَث بي أكثر من هذا العَبَث.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا ٱبن أبي سعد قال: حدّثني محمد بن عبد الله بن طاهر قال: حدّثني أبو عيسى عليّ بن عيسى بن ماهان قال:

(١) الهندباء: بقلة زراعية من الفصيلة المركبة يطبخ ورقها، أو يعمل سلطة.

بينا المأمون يخطُب يومَ الجمعة على المنبر بالرّصافة وأخوه أبو عيسى تِلْقاءَ وجهِهِ في المقصورة، إذ أقبل يعقوب بن المهديّ وكان أفْسَى الناس، معروفاً بذلك. فلما أقبل وضع أبو عيسى كمَّه على أنفه، وفَهِم المأمونُ ما أراد فكاد أن يضحَك. فلمّا انصرف بعث إلى أبي عيسى فأحضره وقال له: والله لَهَمَمْتُ أن أبطحَك فأضربك مائةَ دِرّة! ويْلَكَ! أردتَ أن تفضَحني بين أيدي الناس يوم جمعة وأنا على المنبر! إيّاك أن تعود لمثل هذه! قال: وكان يعقوب بن المهديّ لا يقدِر أن يُمْسك الفُساء إذا جاءه. فاتخذت له داية مُثَلَّثةً وطيَّبتْها وتنوَّقتْ فيها. فلمّا وضعتْها تحتَه فسَا، فقال: هذه ليست بطيِّبة. فقالت له الداية: فديتُك! هذه قد كانت طيِّبة وهي مثلثة، فلما ربَّعتها فسدتْ. قال: وكان يعقوب هذا مُحمَّقاً، كان يخطر بباله الشيءُ فيشتهيه فيُثْبِتُه في إحصاء خزائنه، فضَجَّ خازنهُ من ذلك، فكان يُثْبِتُ الشيءَ ثم يُثْبِتُ تحتَه أنه ليس عنده، وإنما أثبته ليكون ذكرُه عنده إلى أن يملِكه. فوُجِد في دفتر له فيه ثَبَتُ ثيابٍ: «ثَبَتُ ما في الخزانة من الثِّياب المثقَّلة الإسكندرانيّة والهِشاميّة، لا شيء ـ أستغفر الله ـ بل عندنا منها زرحية[1] كانت للمهدي. الفصوص الياقوت الأحمر التي من حالها كذا وكذا لا شيء ـ أستغفر الله ـ بل عندنا منها دُرْجٌ كان فيه للمهديّ خاتمٌ هذه صفتُه». فحُمِل ذلك الدفتر إلى المأمون، فضحِك لمّا قرأه حتى فحصَ برجله وقال: ما سمعتُ بمثل هذا قَطّ!

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثنا سليمان بن داود المهلَّبي قال: حدّثني الهيثم بن محمد بن عَبَّاد عن أبيه قال: كان المأمون أشدّ الناس حبًّا لأبي عيسى أخيه، كان يُعِدُّه للأمر بعدَه، وتذاكرنا ذلك كثيراً. وسمِعتُه يقول يوماً: إنه لَيَسْهُل عليّ أمرُ الموت وفَقْدُ المُلك، وما يسهل شيء منهما على أحد، وذلك لمحبّتي أن يَلِي أبو عيسى الأمرَ من بعدي لشدّة حُبِّي إيّاه.

أخبرني محمد بن عليّ قال: حدّثني عبد الله بن المُعْتَزّ قال: كان سبب موت أبي عيسى بن الرّشيد أنه كان يحب صَيْدَ الخنازير، فوقع عن دابّته فلم يَسْلَم دماغُه، فكان يتخبّط في اليوم مرّاتٍ إلى أن مات.

حدّثني محمد قال: حدّثنا أبو العَيْناءَ قال: حدّثنا محمد بن عَبَّاد المهلَّبيّ قال: لمّا مات أبو عيسى بن الرّشيد دخلتُ إلى المأمون وعِمامتي عليّ، فخلعت

---

(١) الزرحية: ضرب من الثياب على ما يظهر من السياق، ولم أجدها في المعاجم التي بين يديّ.

عِمامتي ونبذتُها وراءَ ظهري ـ والخلفاءُ لا تُعَزَّى في العمائم ـ ودنوتُ. فقال لي: يا محمد، حال القَدَرُ دون الوَطَر. فقلت: يا أمير المؤمنين، كلُّ مصيبةٍ أخطأتْك تهون، فجعل الله الحزنَ لك لا عليك.

[موته وحزن المأمون وبكاؤه عليه]

أخبرنا محمد قال: حدّثنا عَوْن بن محمد قال: سَمِعت هِبَة الله بن إبراهيم يقول: مات أبو عيسى بن الرّشيد سنةَ تسع ومائتين، وصلَّى عليه المأمون ونزَل في قبره، وامتنع من الطعام أياماً حتى خاف أنّ يَضُرَّ ذلك به.

أخبرني أحمد بن عُبَيد الله بن عَمَّار قال: حدّثني أبو العيناء قال: سمِعت محمد بن عبَّاد يقول: لمّا تُوفّي أبو عيسى بن الرّشيد وجدَ المأمونُ عليه وَجْداً شديداً، وكان له مُحِبًّا وإليه مائلاً. فركِب إلى داره حتى حضر أمرَه وصلَّى عليه، وحضره الناس، وكنتُ فيمن حضَر، فما رأيتُ مُصاباً حزيناً قطّ أجمل أمراً في مُصِيبةٍ ولا أَحْرَقَ وجداً منه من رجل صامت تجري دموعه على خدّيه من غير كلح[١] ولا ٱستِنْثَارٍ.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا ابن أبي سعد الورّاق قال: حدّثني محمد بن عبد الله بن طاهر قال: حدّثني أبي قال: قال أحمد بن أبي دُوَاد: دخلتُ على المأمون في أوّل صحبتي إيّاه وقد تُوفِّي أخوه أبو عيسى وكان له محبًّا وهو يَبكي ويَمْسَحُ عينيه بمِنديل، فقَعَدتُ إلى جنب عمرو بن مَسْعَدَةَ وتمثَّلتُ قولَ الشاعر: [السريع]

نَقْصٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأسْبابِها ... نَقْصُ المنايا من بَني هاشِمِ

ولم يزل على تلك الحال ساعة يبكي، ثم مسح عينيه وتمثّل: [الطويل]

سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعي فإن تَغِضْ ... فَحَسبُكَ منّي ما تُجِنُّ الجَوانحُ
كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولم تَنُحْ ... على أحَدٍ إلاّ عَلَيْكَ النَّوائحُ

ثم التفت إليّ فقال: هِيهِ يا أحمد! فتمثَّلتُ قولَ عَبْدةَ بن الطَّبيب: [الطويل]

عليكَ سَلامُ الله قَيسُ بنَ عاصمٍ ... وَرَحْمَتُهُ ما شاءَ أن يَتَرَحَّما

---

(١) الكلح: العبوس.

تَـحِـيَّـةَ مَـنْ أَوْلَـيْـتَـهُ مـنـكَ نـعـمـةً إذا زارَ عـن شَـخْـطٍ بـلادَك سَـلَّـمـا
ومـا كـانَ قَـيْـسٌ هُـلْـكُـهُ هُـلْـك واحِـدٍ وَلٰـكِـنَّـهُ بـنـيـانُ قَـوْمٍ تَـهَـدَّمـا

فبكى ساعةً ثم التفتَ إلى عمرو بن مَسْعَدة فقال: هِيهِ يا عمرو! قال: نعم يا أمير المؤمنين. [الكامل]

بَـكُّـوا حُـذَيْـفَـةَ لَـمْ تُـبَـكُّـوا مِـثْـلَـهُ حَـتَّـى تـعـودَ قـبـائـلٌ لَـمْ تُـخْـلَـقِ

فإذا عَرِيبُ وجَوارٍ معها يَسْمَعْنَ ما يدور بيننا، فقلن: اجعلوا لنا معكم في القول نصيباً. فقال لها المأمون: قُولِي، فرُبَّ صوابٍ منكِ كثير. فقالت: [الطويل]

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمْرُ وَلَـيْـسَ لـعـيـنٍ لـم يَـفِـضْ ماؤُها عُـذْرُ
كـأنَّ بـنـي الـعـبَّـاسِ يَـوْمَ وَفـاتِـهِ نُجُومُ سماءٍ خَرَّ من بَيْنِها البَدْرُ[1]

فبكى وبكينا. ثم قال لها المأمون: نُوحي، فناحت وردّ عليها الجواري. فبكى المأمون حتى قلتُ: قد خرجتْ نفسُه، وبكَيْنا معه أحرَّ بكاء، ثم أمسكتْ. فقال لها المأمون: اصْنَعِي فيه لحناً وغَنِّي به. فصنعتْ فيه لحناً على مذهب النَّوْح وغنَّتْه إيّاه على العُود. فوالذي لا يُحْلَفُ بأجَلّ منه لقد بكَيْنا عليه غِناءً أكثرَ ممّا بَكَيْنا عليه نَوْحاً.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثنا الطَّبيب بن محمد الباهِليّ قال: حدّثني موسى بن سعيد عن أخيه عمرو قال: لمّا مات أبو عيسى بن الرشيد وجَد عليه المأمون وَجْداً شديداً حتى آمتنع من النَّوْم ولم يَطْعَم شيئاً. فدخل عليه أبو العَتَاهِيَة، فقال له المأمون: حدِّثني يا أبا إسحاق بحديث بعض الملوك ممن كان في مثل حالنا وفارقها. فقال: يا أمير المؤمنين، لبِس سليمان بن عبد الملك أفخرَ ثيابه ومَسَّ أَطْيَبَ طِيبه وركِب أَفَرَه خَيْلِه[2] وتقدّم إلى جميع مَنْ معه أن يَرْكب في مثْلِ زِيِّه وأكمل سلاحه، ونظر في مِرآته فأعجبتْه هيئتُه وحسنُه، فقال: أنا الملك الشاب، ثم

(١) البيتان من قصيدة رثى أبو تمام فيها محمد بن حميد الطوسي الذي قتل في حربه مع بابك الخرّمي سنة ٢١٤ هـ. وفي الأغاني أن أبا عيسى بن الرشيد مات سنة ٢٠٩ هـ فلا بد أن يكون خطأ وقع به مؤلف الأغاني أو النساخ، أو أن أبا تمام سرق البيتين وأضافهما إلى شعره كما هما. والثاني بعيد، وأغلب الظن أن يكون الخطأ من النساخ.

(٢) أفره الخيل: أنشطها وأقواها وأحدها.

قال لجارية له: كيف تَرَيْنَ؟ فقالت: [الخفيف]

أنْتَ نِعْمَ المَتاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أنْ لا بَقاءَ لِلإنسانِ
أنْتَ خِلْوٌ مِنَ العُيُوبِ وَمِمّا ... يَكْرَهُ النّاسُ غَيْرَ أنَّكَ فاني

فأعرض بوجهه، فلم تدُرْ عليه الجمعة إلاّ وهو في قبره. قال: فبكى المأمون والناس، فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم. قال: وهذان البيتان لموسى شهوات.

[بعض أصوات أبي عيسى]

ومن غناء أبي عيسى وجَيِّد صنعته، والشعرُ له، وطريقتُه من الثقيل الثاني مطلق في مجرى البنصر. وذكر حَبَشٌ أن فيه لحُسَين بن مُحْرز أيضاً صنعةً من خفيف الرَّمَلِ:

صوت

[مجزوء الخفيف]

رَقَدَتْ عنكَ سَلْوَتي ... والهَوَى ليسَ يَرْقُدُ
وأطارَ السُّهادُ نَوْ ... مِي فَنَوْمِي مُشَرَّدُ
أنتَ بالحُسْنِ منكَ يا ... حَسَنَ الوَجْهِ تَشْهَدُ
وَفُؤادي بِحُسْنِ وجـ ... ـهِكَ يَشْقَى ويَكْمَدُ

ومن غنائه أيضاً وهو من صدور صنعته في شعر الأخطل ـ ولحنه من الثقيل الأوّل:

صوت

[الطويل]

إذا ما زِيادٌ عَلَّنِي ثُمَّ عَلَّنِي ... ثَلاثَ زُجَاجاتٍ لهُنَّ هَديرُ
خَرَجْتُ أجُرُّ الذَّيلَ حتى كأنني ... عَلَيْكَ أمِيرَ المؤمنينَ أمِيرُ

ولإِسحاق في هذا الشعر رَمَلٌ بالبِنصر عن عمرو.

وممّن عُرِفت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد الله بن موسى الهادي:

فمن صنعته:

صوت

[مجزوء الخفيف]

تــقــاضــاكَ دَهْـــرُكَ مـــا أسْـلَــفــا　　وَكَـــدَّرَ عَـيْـشَـكَ بـعـدَ الـصَّــفــا
فــلا تَــجْــزَعَــنَّ فــإنّ الــزَّمــانَ　　رَهِـيــنٌ بِـتَـشْـتِـيـتِ مـا ألَّــفــا
ومــا زالَ قَــلْــبُــكَ مــأوَى الــسُّــرورِ　　كَـثِـيـرَ الـهَـوَى نـاعِـمـاً مُـتْـرَفـا
ألَـحَّ عَــلَــيْــكَ بــرَوْعــاتِـهِ　　وأَقْـبَـلَ يَـرْمِـيـكَ مُـسْـتَـهْـدِفـا

الشعر والغِناء لعبد الله بن موسى، ولحنه ماخُورِيّ وهو خفيفُ الثقيل الثاني بالوسطى.

[صنعته وبعض صفاته وأخباره]

أخبرني أحمد بن جعفر جَحْظة قال: حدّثني أبو حَشِيشةَ قال: كان عبد الله بن موسى الهادي أضْرَبَ الناسِ بالعود وأحسَنَهم غِناءً. وكان له غلام أسود يقال له قَلَمٌ، فعلّمه الصوت وحذَّقه. فٱشترته منه أُم جعفر بثلاثمائة ألف درهم. قال أبو حَشِيشة: فحدّثني دلشاد غلام عبد الله بن موسى قال: كنت أنا وثَقِيفٌ الخادمُ الأسودُ مولى الفضل بن الربيع نُضَارِب مولاي عبدَ الله بن موسى وقد أخذ النَّبيذُ من الجماعة. فضرَب عبدُ الله وثَقيفٌ صوتاً فاختلفا فيه وتشاجرا. فقال عبد الله: كذا أخذتُه من منصور زَلْزَل. وقال ثَقِيفٌ: كذا أخذتُه منه، وطال تشاجُرهما فيه. وكان ثقيف مُعَرْبِداً يَذْهَبُ عقلُه من أدنى شيءٍ يشربه. وكان عبد الله أيضاً معربِداً. فغضِب ثقيف ورفَع العودَ وهو لا يعقِل، فضرَب به رأسَ عبد الله بنِ موسى فطوّقه إيّاه. وٱبتدر خَدَمُ عبدِ الله؛ فقال لهم عبد الله بن موسى: لا تَمَسُّوه وأخرِجوا العودَ من عُنُقي فأخرجوه. وكان عبدُ الله بن موسى أشدَّ خَلْقِ الله عَرْبَدَةً أيضاً، فَرُزِقَ في ذلك اليوم حِلماً لم يُرَ مِثْلُه، وقال لخدَمه: إن قتلتُه قتلتُ كلباً وتحدّث الناس بذلك، ولكن ٱخلعوا عليه وهَبُوا له ولا يدخلْ منزلي أبداً.

قال جَحْظة: قال أبو حَشِيشة: أخبرني الحَفْصِيّ المِعْزَفِيُّ قال: دعاني عبد الله بن موسى يوماً ودعاني أخوه إسماعيل؛ فآثرت إسماعيل لما كان في عبد الله من العَرْبدة. فلم نشعُر إلاّ بعبد الله قد وافانا وقت العصر على بِرْذَوْنٍ أشهب متقلّداً سيفاً وهو سكران. فلما رأيناه تطايرنا في الحُجَر، فنزَل عن دابّته وجلس. وجثا إسماعيل بين يديه إجلالاً، وقال له: يا سيّدي قد سرَرْتَني بتفضُّلك ومَصِيرك إليّ قال: دَعْني من هذا، مَنْ عندك؟ قال: فلان وفلان، فعَدّ جماعةَ مَنْ كان عنده. قال

له: هاتِهم. فدعا بنا فخرجنا وقد مُتْنا فَزَعاً. فأقبل عليَّ من بينهم فقال لي: يا حَفْصِيّ! أبْعَثُ إليك ثلاثةَ أيامٍ تباعاً فَتَدَعُني وتجيء إلى إسماعيل! وضرَب بيده إلى سيفه، فقام إسماعيل بيني وبينه وقال: نَعَمْ! يَجيئني ويَدَعُك؛ لأنه لا يَنْصرفُ من عندك إلاّ بِشَجَّةٍ أو عَرْبَدَةٍ مع حِرمان، ولا ينصرف من عندي إلاّ ببِرٍّ مع خِلْعَةٍ ووعدٍ مُحَصَّل، أفتَلومُه على ذلك!. فكَفَّ عبدُ الله وكان شديدَ العَرْبَدَة وقام وانصرف.

أخبرني الصُّولي قال: حدّثني عَوْن بن محمد الكِنْديّ قال: حدّثني محمد بن إسماعيل عن أبيه سليمان بن داود ـ وكان يكتب لأبي جعفر ـ قال: كنتُ جالساً مع عبد الله بن موسى الهادي، فمرّ به خادمٌ لصالح بن الرّشيد. فقال له ما اسمك؟ فقال له اِسمي «لا تَسَلْ». فأعجبه حُسْنُه وحُسْنُ مَنْطِقه فقال لي قُمْ بنا حتى نُسَرّ اليوم بذكر هذا البدر، فقمت معه. فأنشدني في ذلك اليوم: [مجزوء الرجز]

وَشـادِنٍ مَـرَّ بـنـا ... يَـجْـرَحُ بـالـلَّـحْـظِ الـمُـقَـلْ
مَـظْـلـومُ خَـصْـرٍ ظـالـم ... مـنـهُ إذا يَـمْـشِـي الـكَـفَـلْ
اعـتـدلَـتْ قـامَـتُـهُ ... والـلَّـحْـظُ مـنـهُ مـا عَـدَلْ
بَـدْرٌ تـراهُ أبَـداً ... طـالِـعَ سَـعْـدٍ مـا أفَـلْ
سـألْـتُـهُ عـنِ اسْـمِـهِ ... فـقـالَ لـي اسْـمِـي «لا تَـسَـلْ»
وأُطْـلِـعَـتْ فـي وجـنـتـيـهِ ... وَرْدتـانِ مـن خَـجَـلْ
فَـقُـلْـتُ مـا أخْـطـأ مَـنْ ... سـمَّـاك بَـلْ قـال الـمَـثَـلْ
لا تـسـألَـنْ عـن شـادِنٍ ... فـاقَ جَـمـالاً وكَـمُـلْ

قال: وقال فيه ـ وقد قيل إنه من هذه الأبيات: [مجزوء الرجز]

عـزَّ الـذي نَـهْـوَى وذَلّ ... صَـبُّ الـفـؤادِ مُـخْـتَـبَـلْ(١)
لَـجَّ بـه الـهَـجْـرُ وذا الـ ... ـهَـجْـرُ إذا لَـجَّ قَـتَـلْ
مِـن شـادِنٍ مُـنْـتَـطِـقٍ ... فـاقَ جَـمـالاً وَكَـمُـلْ
تـنـاصَـفَ الـحُـسْـنُ بِـهِ ... فـلا تَـسَـلْ عـن «لا تَـسَـلْ»

وقال حدّثني محمد بن أحمد المكيّ عن أبيه قال: دعاني عبد الله بن موسى يوماً فقال لي: أتُقَوِّم غلاماً ضارباً مُغَنِّياً قيمَةَ عدلٍ لا حَيْفَ فيه على البائع ولا على المشتري؟ فقلت نعم. فأخرج إليّ ابنه القاسمَ وكنتُ قد عرَفتُه، وهو أحسن من

(١) المختبل: المصاب بالخبل، وهو الجنون.

القمر ليلةَ البدر، فأخذ عوداً فضرب، فأكَبَبْتُ على يديه أُقَبِّلهما. فقال لي عبد الله: أتُقَبِّلُ يدَ غلام مملوك!! قلت: بأبي وأُمّي هو من مملوك؟ وقَبَّلْتُ رجلَه أيضاً. فقال: أمّا إذ عرفتَه فأُحِبُّ أن تضارِبَه، ففعلت. فلمّا رأى الغلامُ زيادتي عليه في الضَّرْب اُغتمَّ وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر من ذنبه: أنا مُتَلَذِّذٌ وهذا مُتَكَسِّبٌ. فضحِكتُ وقلتِ: هو ذاك يا سيّدي. وعجِبت من حِدَّة جوابه معتذراً على صِغَر سِنِّه.

أخبرني الصُّوليّ قال: حدَّثني عبد الله بن المعتز قال: كان عبد الله بن موسى جواداً كريماً ممدَّحاً، وفيه يقول الشاعر ـ وفيه لعلويه لحن من خفيف الثّقيل الأول بالبِنْصر ـ:

صوت

[الوافر]

أعَبْدَ اللهِ أنْتَ لنا أمِيرُ وأنتَ من الزَّمانِ لنا مُجِيرُ
حكَيْتَ أباكَ مُوسَى في العَطَايا إمامُ النَّاسِ والملكُ الكبيرُ

قال محمد بن يحيى والعَتَّابيّ: ولعبد الله بن موسى غِناءٌ في قول عمر بن أبي ربيعة:

صوت

[مجزوء الخفيف]

إنَّ أسماءَ أرْسَلَتْ وأخو الشَّوْقِ مُرْسِلُ
أرْسَلَتْ تَسْتَزِيرُني وتُفَدِّي وتَعذُلُ

ولحنُه فيه رَمَلٌ. قال: وفيه لابن سُرَيْج والغَرِيض ومالكٍ ألحانٌ.

[وفاته مسموماً]

أخبرني عليّ بن سليمان الأَخْفَش في كتاب المُغْتالين قال: حدّثني أبو سعيد السُّكَّريّ عن محمد بن حَبِيبَ قال:

كان عبد الله بن موسى الهادي مُعَرْبداً، وكان قد أحْفَظَ المأمونَ[1] مما يُعَرْبِدُ

(١) أحفظه: أغضبه.

عليه إذا شرِب معه. فأمر بأن يُحْبَس في منزله فلا يخرجَ منه؛ وأُقْعد على بابه حَرَساً. ثم تذمَّم من ذلك فأظهر له الرِّضا وصرَف الحَرَس عن بابه، ثم نادمه فعَرْبَد عليه أيضاً وكلَّمه بكلام أحفظه، وكان عبد الله مُغْرَماً بالصَّيْد، فأمر المأمونُ خادماً من خواصّ خدمه يقال له: «حسين» فسَمَّه في دُرَّاج وهو بمرسى أباد[1]، فدعا عبدُ الله بالعَشاء، فأتاه حسين بذلك الدُّرَّاج فأكله. فلما أحَسَّ بالسمّ ركِب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تروني. قال: وأكل معه من الدُّرَّاج خادمان، فأمّا أحدهما فمات من وقته، وأمّا الآخر فبقي مدّة ثم مات، ومات عبد الله بعد أيام.

وممّن رويت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد الله بن محمد الأمين:

فمن مشهور صنعته: **[الوافر]**

ألاَ يـا دَيْـرَ حَـنْـظَـلـةَ الـمُـفَـدَّى ... لـقـد أورثـتَـنـي سَـقَـمـاً وكَـدَّا
أزُفُّ مِـنَ الـعُـقـارِ إلـيـكَ دَنّـاً ... وأجـعـلُ تَـحْـتَـهُ الـوَرَقَ الـمُـنَـدَّى

الشعر والغِناء لعبد الله بن محمد الأمين، أخبرني بذلك محمد بن يحيى الصُّوليّ عن عبد الله بن المعتز وله فيه لحنان خفيفُ رَمَلٍ وخفيفُ ثقيل. وفيه لعبد الله بن موسى الهادي رَمَلٌ. وفيه ثاني ثقيل، وذكر حَبَش ـ وهو ممن لا يُحَصَّل قولُه ـ أنه لحُنَين، ولم يَصِحّ عندنا مَنْ صانِعُه.

(١) يظهر من السياق أنه موضع لكني لم أعثر عليه.

أخبار عبد الله بن محمد ونسبه

[٩٥ ـ ١٥٨ هـ/ ٧١٤ ـ ٧٧٥ م]

[اسمه ونسبه وصنعته وبعض أخباره]

عبدُ الله بن محمد الأمين بن هارون الرَّشيد بن محمد المهديّ بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. وأُمُّ عبدِ الله بن محمد أُمُّ وَلَد. وكان ظريفاً غَزِلاً يقول شعراً لَيِّناً ويصنع صنعةً صالحةً. وأُمُّ محمد الأمين زُبَيْدةُ بنتُ جعفر بن المنصور. وزبيدة لَقَبٌ غلَب عليها، وٱسمُها أَمَةُ العزيز. وكان المنصور يُرَقِّصُها وهي صغيرة ـ وكانت سمينةً حسنةَ البدن ـ فيقول لها: يا زُبيدة يا زبيدة، فغلَب عليها ذلك.

أخبرني الصوليّ قال: حدّثني عَوْن بن محمد الكِنْديّ قال: كانت بين عبد الله بن محمد الأمين وبين أبي نَهْشَل بن حُمَيْد مودّة. فاعترض عبدُ الله جاريةً مغنِّيةً لبعض نساء بني هاشم وأَعْطَى بها مالاً عظيماً. فعرَفتْ منه رغبةً فيها فزادت عليه في السَّوْم، فتركها ليكسِرهم. فجاء أخ لأبي نَهْشَلٍ بن حُمَيْد فٱشتراها وزاد. فتبِعتْها نفسُ عبدِ الله، فسأل أبا نَهْشَلٍ أن يسأل أخاه النزول له عنها، فسأله ذلك فوعده ودافعه. فكتب عبد الله إلى أبي نهشل:

يـاٱبـنَ حُـمَـيْـدٍ يـا أبـا نَـهْـشَـلِ   مِـفْـتـاحَ بـابِ الـحَـدَثِ الـمُـقْـفَـلِ
يـا أكـرَمَ الـنَّـاس وِداداً وأر   عـاهُـمْ لِـحَـقٍّ ضـائـعٍ مُـهْـمَـلِ
أحْـسَـنْـتَ فـي وُدّي وأجْـمَـلْـتَ بـلْ   جُـزْتَ فِـعـالَ الـمُـحْـسِـنِ الـمُـجْـمِـلِ
بـيـتُـك فـي ذي يَـمَـنٍ شـامـخٌ   تَـقْـصُـر عـنـه قُـنَّـتـا يَـذْبُـلِ[1]

(١) يذبل: جبل بنجد (معجم البلدان ٥/ ٤٣٣).

خـلَـقْـتَ فـيـنـا حـاتـمـاً ذا الـنَّـدَى ... وجُـدْتَ جَـوْدَ الـعـارض الـمُـسْـبِـلِ
أَيُّ أخٍ أنـــتَ لـــذِي وَحْـــدَةٍ ... تـركـتَـه بـالـعِـزِّ فـي جَـحْـفَـلِ[1]
نـجـومُ حَـظِّـي مـنـك مَـسْـعـودةٌ ... فـيـمـا أُرَجِّـي لَـسْـنَ بـالأُفَّـلِ
فَـصَـدِّقِ الـظَّـنَّ بـمـا قـلـتَـهُ ... وَسَـهِّـلِ الأمـرَ بـه يَـسْـهُـلِ
لا تَـحْـرِمَـنِّـي وَلَـدَيْـكَ الـمُـنَـى ... بـالله صَـيْـدَ الـرَّشَـأ الأكْـحَـلِ
رُمِـيـتُ مـنـه بِـسِـهـامِ الـهَـوَى ... ومـا دَرَى بـالـرَّمْـي فـي مَـقْـتَـلـي
أدنَـيْـتَـنِـي بـالـوَعْـدِ فـي صَـيْـدِه ... إدنـاءَ عَـطْـشَـانٍ مـن الـمَـنْـهَـلِ
ثـمَّ تَـنـاسَـيْـتَ وأسْـلَـمْـتَـنـي ... إلـى مِـطَـالٍ مُـوحِـش الـمَـنْـزِلِ
تـركـتَـنـي فـي لُـجَّـةٍ عـائـمـاً ... لا أعـرف الـمُـدْبِـرَ مـن مُـقْـبِـلِ
صَـرِّحْ بـأمْـرٍ واضِـحٍ بَـيِّـنٍ ... لا خَـيْـرَ فـي ذي لَـبَـس مُـشْـكِـلِ[2]

قال: فلم يزل أبو نَهْشَلٍ بأخيه حتى نَزَل له عنها.

وأخبرني الصُّولي أيضاً بغير إسناد، ووجدتُ هذا الخبرَ في كتابِ لمحمد بن الحَسَن الكاتب يَرْويه عن أبي حَسَّان الفَزَاريّ قال: كان أبو نَهْشَل بن حُمَيْد صديقاً لعبد الله بن محمد الأمين ونديماً. وكانت لعبد الله ضَيْعة بالسَّوَاد تُعْرَفُ بالعَمْرِيّة، فخرج إليها وأقام بها أيَّاماً. فكتب إليه أبو نهشل: [الطويل]

سَقَـى اللهُ بـالـعَـمْـرِيَّـةِ الـغَـيْـثَ مَـنْـزِلاً ... حَـلَـلْـتَ بـه يـا مُـؤنِـسـي وأمِـيـري
فـأنْـتَ الـذي لا يـخْـلَـقُ الـدَّهْـرَ ذِكْـرُهُ ... وأنْـتَ أخِـي حـقًّـا وأنْـتَ سُـروري

فأجابه عبد الله: [الطويل]

لـئـن كـنـتُ بـالـعَـمْـرِيَّـةِ الـيـومَ لاهِـيـاً ... فـإنّ هَـواكُـمْ حـيـثُ كـنـتُ ضَـمِـيـري
فـلا تَـحْـسَـبَـنِّـي فـي هَـواكُـمْ مُـقَـصِّـراً ... وكـن شـافِـعـي مـن سُـخْـطِـكُـمْ ومُـجِـيـري

قال محمد بن الحسن في خبره: وصنع عبد الله في هذه الأبيات الأربعة لحناً، وصنع فيها سُلَيْم بن سَلاَّم لحناً آخر.

[عبد الله بن محمد نديم الخلفاء]

أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال: حدّثنا عبد الله بن المعتز قال:

---

(١) الجحفل: الجيش الكبير الجرّار.

(٢) اللَّبْس: عدم الوضوح، والإشكال، وهو ساكن الباء وحركت للضرورة.

كان عبد الله بن محمد الأمين ينادِم الواثقَ ثم نادمَ بعده سائر الخلفاء إلى المعتَمِد. قال: وأنشدني له في المعتمد: [المتقارب]

رَأيتُ الهلالَ علَى وَجْهِكا ... فما زِلتُ أدعو إلٰهي لَكا
فلا زِلْتَ تحيا وأحيا معاً ... وآمَنَنِي الله من فَقْدِكا

قال: ومن شعره ـ وله فيه لحنٌ من الرَّمَل الثاني وهو خفيف الرمل ـ.

صوت

[المجتث]

يا مَنْ بهِ كُلُّ خَلْقٍ ... تَراهُ صَبّاً مُتَيَّمْ
ومَنْ تَجالَلَ تِيهاً ... فما تَراهُ يُكَلِّمْ
لا شَيْءَ أعْجَبُ عِنْدِي ... مِمَّنْ يراكَ فَيَسْلَمْ

فأمّا دَيْرُ حَنْظَلةَ الذي ذكره في شعره وفيه الغناء المذكور من صنعته مُتَقَدِّماً، فإنه دَيْرٌ بالجزيرة. أخبرني بخبره هاشم بن محمد أبو دُلَفَ الخُزَاعِيّ قال: حدّثنا الرِّياشِيّ قال: أنشدني أبو المُحَلِّم لحنظلة بن أبي عَفْراء أحد بني حيَّة الطائيّين وهم رَهْطُ أبي زُبَيد ورهط إيَاس بن قَبِيصةَ: [الطويل]

ومهما يكنْ رَيْبُ الزَّمانِ فإنَّني ... أرَى قَمَرَ اللَّيْلِ المُغَرِّبَ كالفتى
يَهُلُّ صَغِيراً ثم يَعْظُمُ ضَوْؤُه ... وَصُورتُهُ حتى إذا ما هُوَ ٱسْتَوَى
تقارب يَخْبُو ضَوْؤُه وَشُعَاعُهُ ... وَيَمْصَحُ حتى يَسْتَسِرَّ فلا يُرَى[1]
كذلك زَيْدُ المَرْءِ ثم ٱنتقاصُهُ ... وتَكْرارُهُ في دَهْرِهِ بعدما مَضَى
تُصَبِّحُ أهلَ الدَّارِ والدَّارُ زِينةٌ ... وتأتي الجبالَ من شَمَاريخها العُلا[2]
فلا ذا غِنًى يُرْجِئْنَ عن فضل مالِهِ ... وإن قالَ أخِّرْني وخُذْ رِشوةً أبَى
ولا عن فَقِيرٍ يأتَخِرْنَ لِفَقْرِهِ ... فَتَنْفَعَهُ الشَّكْوَى إليهنَّ إن شَكَا

قال: وكان حَنْظَلةُ هذا قد تعبَّد في الجاهليّة وتفكَّر في أمر الآخرة وتنصَّر وبَنَى دَيْراً بالجزيرة؛ فهو الآن يُعْرَف به يقال له دَيْر حَنْظَلة. وفيه يقول الشاعر:

[الكامل]

يا دَيْرَ حَنْظَلةَ المُهَيِّجَ لِي الهَوَى ... قد تَسْتَطِيعُ دواءَ عِشقِ العاشِقِ

---

(١) يخبو: يخفت ويضمحل. ويمصح: يذهب وينقطع.
(٢) شماريخ الجبال: ذراها وأعاليها ورؤوسها.

وممن صنعَ من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن المتوكل.

كان عبدُ الله بن المتوكّل جمع له صنعةً مقدارُها أكثر من ثلاثمائة صوت، منها الجيِّد الصنعة ومنها المتوسط، قد سمِعنا كثيراً منها؛ إلاّ أني أذكر من ذلك ما عرَفتُ شاعرَه وكان له خبرٌ يتَّصِل به حَسَبَ ما شَرَطْناه في هذا الكتاب وضَمَّنّاه إيّاه من الأخبار، ثم أذكر أخبارَ أبي عيسى بعد ذلك.

قال ابن المعتز: حدّثني النُّمَيْري قال: سمِعت أبا عيسى بن المتوكِّل يقول: إذا أتممتُ صنعة ثلاثمائة صوت وستين صوتاً عَدَدَ أيام السنة تركتُ الصنعة، فلمّا صنعها ترك الصنعةَ. فمنها ـ وهو لَعَمْرِي من جَيّد الغِناء وفاخِر الصنعة، ولو لم يصنع غيرَه لكفاه ـ في شعر أبي العتاهية:

صوت

[المنسرح]

يَضْطَرِبُ الخَوْفُ والرَّجاءُ إذا حَرَّكَ مُوسَى القَضِيبَ أو فَكَّرْ

ولحنُه من الثَّقيل الأوّل. والشعرُ لأبي العتاهية، وقد مَضَتْ أخبارُه؛ وإنما قدّمتُ ذكرَه بجودة صَنْعته وأنه شُبِّه فيه بصنعة الفحول ومُحْكَمِ أغاني الأوائل.

ومنها:

صوت

هي النَّفسُ ما حَمَّلْتَها تَتَحَمَّلُ وَلِلدَّهْرِ أيّامٌ تَجُورُ وتَعْدِلُ

وعاقِبةُ الصَّبْرِ الجَميلِ جَمِيلةٌ وأفْضَلُ أخلاقِ الرِّجالِ التَّجَمُّلُ

الشعرُ لعليّ بن الجَهْم. والغناء لأبي عيسى بن المتوكِّل، ثاني ثقيلٍ بالوسطى.

أخبار عليّ بن الجَهْم ونسبُه

[توفي ٢٤٩ هـ/ توفي ٨٦٣ م]

[اسمه ونسبه]

هو عليّ بن الجَهْم بن بَدْر بن الجَهْم بن مسعود بن أسيد بن أُذَيْنة بن كَرَّاز بن كعب بن مالك بن عُيَيْنةَ بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سَامَةَ بن لُؤيّ بن غالب. هكذا يدّعون، وقريش تدفعهم عن النَّسَب وتسمِّيهم بني ناجِيةَ، يُنْسَبون إلى أمّهم ناجية، وهي آمرأة سامةَ بن لُؤيّ. وكان سامة، فيما يقال، خرج إلى ناحية البَحْرَيْن مغاضِباً لأخيه كعب بن لؤيّ في مُمَاظَة كانت بينهما، فطأطأتْ ناقته رأسَها إلى الأرض لتأخذ شيئاً من العُشْبِ، فعلِق بمِشْفَرها أفعى فعطفته على قَتَبها فحكَّتْه به، فدبَّ الأفعى على القَتَب حتى نهش سَامَةَ فقتله. فقال أخوه يَرْثيه: [الخفيف]

عَـيْـنُ جُـودِي لِـسَـامَـةَ بـنِ لُـؤيٍّ عَـلِـقَـتْ سـاقَ سَـامَـةَ الـعَـلاَقَـهْ
رُبَّ كـأسٍ هَـرَقْـتَـهـا آبـنَ لُـؤيٍّ حَـذَرَ الـمَـوْتِ لـم تَـكُـنْ مُـهْـرَاقَـهْ

وقال مَنْ يَدْفع بني سَامَةَ من نَسَّابي قريش: وكانت معه آمرأته ناجِية. فلمّا مات تزوجتْ رجلاً من أهل البحرَيْن فولَدَتْ منه الحارثَ، ومات أبوه وهو صغير. فلمّا تَرَعْرَع طمِعتْ أُمُّه في أن تُلْحِقه بقريش، فأخبرته أنه آبن سَامَةَ بن لُؤيّ. فرحل من البحرين إلى عمِّه كَعْب وأخبره أنه آبن أخيه سامةَ. فعرفَ كعب أُمَّه وظنَّه صادقاً في دعواه. ومكث عنده مدّةً، حتى قدِم مكةَ رَكْبٌ من أهل البَحْرَيْن، فرأَوُا الحارِثَ فسلَّموا عليه وحادثوه ساعةً. فسألهم عنه كعب بن لُؤيّ ومن أين يعرفونه، فقالوا له: هذا آبن رجلٍ من أهل بلدنا يقال له فلان، وشرحوا له خبرَه. فنفاه كعبٌ ونَفى أمَّه، فرجَعا إلى البحرَيْن فكانا هناك، وتزوّج الحارثُ وأَعْقَب هذا العَقِبَ. ورُوِيَ

عن النبيّ ﷺ أنه قال: «عَمِّي سَامَةُ لم يُعْقِبْ». وكان بنو ناجِيَةَ ٱرتدّوا عن الإسلام. ولما وَلِيَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافةَ دعاهم إلى الإسلام؛ فأَسْلَم بعضُهم وأقام الباقون على الرِّدّة فسَبَاهم وٱسترقَّهم؛ فٱشتراهم مَصْقَلَةُ بن هُبَيْرة منه وأدّى ثُلُثَ ثَمَنِهم وأشهد بالباقي على نفسه، ثم أعتقهم وهَرَب من تحت ليلِه إلى معاوية، فصاروا أحراراً، ولزِمَه الثمنُ، فشعَّث[1] عليُّ بن أبي طالب شيئاً من داره، وقيل بل هدَمها. فلم يدخل مَصْقَلَةُ الكوفةَ حتى قُتِل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وزعم ٱبن الكلبيّ أنّ سَامَةَ بن لؤيّ وَلَدَ غالبَ بن سَامَةَ وأُمُّه ناجِيةُ، ثم هلَك سَامةُ فخلَف عليها ٱبنه الحارث بن سَامَةَ، ثم هلك ٱبنا سامة ولم يُعْقِبَا، وأنّ قوماً من بني ناجيةَ بنت جَرْم بن رَبَّان عِلاَف ٱدَّعَوْا أنهم بنو سَامَةَ بن لؤيّ، وأنّ أمّهم ناجية هذه ونَسَبوها هذا النسبَ، وٱنْتَمَوْا إلى الحارث بن سَامةَ وهم الذين باعهم عليّ بن أبي طالب إلى مَصْقَلةَ. قال: ودليلُ ذلك وأنّ هؤلاء بنو ناجية بنت جَرْم قولُ علقمةَ الخَصِيّ التَّميميّ أحد بني رَبِيعة بن مالك: [الوافر]

زَعَمْتُمْ أنّ ناجِيَ بِنْتَ جَرْمٍ ... عَجُوزٌ بعدما بَلِيَ السَّنَامُ
فإنْ كانَتْ كذاكَ فألبِسُوها ... فإنّ الحَلْيَ للأُنثى تَمامُ

وهذا أيضاً قولُ الهَيْثَم بن عدِيّ. فأمّا الزُّبير بن بَكّار فإنّه أدخلهم في قريش وقال: هم قريشٌ العازِبةُ. وإنما سُمُّوا العازِبةَ لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسِبوا إلى أُمّهم ناجية بنت جَرْم بن رَبَّان وهو عِلاَف، وهو أوّل من ٱتخذ الرِّحالَ العِلافيَّةَ فنُسِبَتْ إليه. وٱسم ناجية ليلى؛ وإنما سُمِّيَتْ ناجيةَ لأنها سارتْ في مَفَازةٍ[2] معه فعَطِشَتْ فٱستسقته ماء، فقال لها: الماءُ بين يديكِ، وهو يريها السَّرَابَ، حتى جاءت الماءَ فشربت وسُمِّيَتْ ناجيةَ. وللزُّبَيْر في إدخالهم في قريش مذهبٌ وهو مُخَالَفةُ فِعْلِ أميرِ المؤمنين عليّ رضي الله عنه ومَيْلُه إليهم لإجماعهم على بُغْضِه رضِي الله عنه، حَسَبَ المشهور المأثور من مذهب الزُّبَيْر في ذلك.

(١) شعّث: نقض.
(٢) المفازة: الصحراء الواسعة لا ماء فيها ولا كلأ. وسميت مفازة تفاؤلاً بأن ينجو قاطعها.

[علاقته بالمتوكل وهجاؤه آل أبي طالب]

وكان عليّ بن الجَهْم شاعراً فصيحاً مطبوعاً؛ وخُصّ بالمتوكِّل حتى صار من جُلَسَائه، ثم أبغَضَه لأنه كان كثير السِّعاية إليه بنُدَمائه والذِّكْرِ لهم بالقبيح عنده، وإذا خلا به عَرَّفه أنهم يَعِيبونه ويَثْلِبونه ويتنقّصونه، فيكشِف عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه بعد أن حبَسَه مدّة. وأخبارُه تُذْكَر على شرحٍ بعد هذا، وكان ينحو نحوَ مروان ابنِ أبي حَفْصةَ في هجاء آل أبي طالب وذمّهم والإغراء بهم وهجاءِ الشِّيعة، وهو القائل: [الوافر]

وَرافِضَةٍ تَقولُ بشِعْبِ رَضْوَى ... إمامٌ، خابَ ذلكَ من إمامِ[1]
إمامٌ مَنْ لَهُ عِشْرُونَ ألْفاً ... من الأتراكِ مُشْرِعَةُ السِّهام

وفيه يقول البُحْتُري: [الوافر]

إذا ما حُصِّلَتْ عُلْيا قُرَيشٍ ... فلا في العِيرِ أنتَ ولا النَّفِيرِ
وما رُغَثَاؤكَ الجَهْمُ بنُ بَدْرٍ ... من الأقمارِ ثَمَّ ولا البُدُورِ[2]
ولو أعطاكَ ربُّكَ ما تَمَنَّى ... لَزادَ الخَلْقَ في عِظَمِ الأُيُورِ
عَلامَ هَجَوْتَ مُجْتَهِداً عَلِيًّا ... بِمَا لَفَّقْتَ من كَذِبٍ وزُورِ
أما لَكَ في اَسْتِكَ الوَجْعاءِ شُغْلٌ ... يَكُفُّكَ عن أذى أهْلِ القُبُورِ

وسمِعه أبو العَيْناء يوماً يطعن على عليّ بن أبي طالب رضِيَ الله عنه، فقال له: أنا أدري لِمَ تطعن على عليّ أمير المؤمنين. فقال له: أتعني قصّةَ بَيْعه أهلي من مَصْقَلَةَ بن هُبَيْرة؟ قال: لا! أنت أوضع من ذلك، ولكن لأنه قتلَ الفاعلَ فِعْلَ قوم لوطٍ والمفعولَ به، وأنت أسْفَلُهما.

أخبرني عَمّي قال: حدّثني محمد بن سعد الهشاميّ قال: كان عليّ بن الجهم قد هجا بَخْتِيَشُوع[3]، فسبَّه عند المتوكِّل فحبَسه المتوكِّل. فقال عليّ بن الجَهْم في حَبْسه عِدّةَ قصائد كتب بها إلى المتوكل فأطلقه بعد سنة، ثم نفاه بعد ذلك إلى

(١) شعب رضوى: جبل عال منيف به مياه كثيرة وأشجار (انظر معجم البلدان ٣/ ٥١).
(٢) الرغثاء: عصب أو عرق في الثدي يدر اللبن. واستعملها الشاعر هنا في الأب على سبيل الاستعارة.
(٣) بختيشوع: طبيب سرياني قربه الخلفاء العباسيون لا سيما المتوكل توفي سنة ٢٥٦ هـ ببغداد.

خُراسان. فقال أوّلَ ما حُبِس قصيدةً كتب بها إلى أخيه، أوّلها قوله: [الوافر]

تَوَكّلنا على رَبِّ السَّماءِ ... وسلّمنا لأسبابِ القَضاءِ
وَوَطَّنّا على غِيَرِ اللّيالِي ... نُفوساً سامحتْ بَعْدَ الإِباءِ
وَأَفْنِيةُ المُلوكِ مُحَجَّباتٌ ... وبابُ الله مَبْذُولُ الفِناءِ
هي الأيامُ تَكْلُمُنا وَتَأسُو ... وتأتِي بالسَّعادَةِ وَالشَّقاءِ
وما يُجْدِي الثَّراءُ على غَنِيٍّ ... إذا ما كانَ مَحْظُورَ العطَاءِ
حَلَبْنَا الدَّهرَ أَشْطُرَهُ وَمَرَّتْ ... بنا عُقَبُ الشَّدائدِ وَالرَّخاءِ(١)
وَجَرَّبْنا وَجَرَّبَ أَوَّلُونا ... فلا شَيْءٌ أعَزّ مِنَ الوفاءِ
وَلَمْ نَدَعِ الحياءَ لِمَسِّ ضُرٍّ ... وبَعْضُ الضُّرّ يذهبُ بالحياءِ
وَلَمْ نَحْزَنْ على دُنيا تَوَلَّتْ ... ولم نُسْبَقْ إلى حُسْنِ العَزاءِ
تَوَقَّ النّاسَ يابنَ أبي وأُمّي ... فَهُمْ تَبَعُ المخافةِ والرَّجاءِ
ولا يَغْرُرْكَ مِن وَغْدٍ إخاءٌ ... لأمرٍ مّا غدا حَسَنَ الإخاءِ
أَلَمْ تَرَ مُظْهِرينَ عَلَيَّ عَيْباً ... وهم بالأمسِ إخْوانُ الصَّفاءِ
فَلَمّا أنْ بُلِيتُ غَدَوْا وراحُوا ... عَلَيَّ أشَدَّ أسْبابِ البَلاءِ
أبَتْ أخطارُهم أن يَنْصُروني ... بمالٍ أو بجاهٍ أو ثَراءِ(٢)
وخافُوا أن يقالَ لهم خَذَلتم ... صَديقاً فادَّعَوْا قِدَمَ الجَفاءِ
تَضافَرَتِ الرَّوافِضُ والنَّصارَى ... وأهلُ الاعْتِزالِ على هِجائي(٣)

ـ يعني بأهل الاعتزال عليّ بن يحيى المنجّم وقد كان بلغه عنه ذكر له ـ

وعابوني وما ذنبي إلَيْهِمْ ... سِوَى عِلْمي بأولادِ الزِّناءِ
فَبخْتِيَشُوعُ يَشْهَد لابْنِ عَمْرٍو ... وعَزُّونٌ لِهارونَ المُرائِي
وما الجَذْماءُ بنتُ أبي سُمَيْرٍ ... بِجَذْماءِ اللِّسانِ عَنِ الخَناءِ(٤)
إذا ما عُدَّ مِثْلُكُمُ رجالاً ... فما فَضْلُ الرِّجالِ على النِّساءِ
عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ الله ابْتداءً ... وعَوْداً في الصَّباحِ وفي المَساءِ
إذا سُمِّيتُمُ للنّاسِ قالُوا ... أُولئِكَ شَرُّ مَنْ تَحْتَ السَّماءِ

(١) العقب: جمع عقبة، وهي النوبة. أي مرت بنا نوب الأيام نوبة رخاء ونوبة شدة.
(٢) الثراء: الغنى.
(٣) تضافروا: تعاونوا.
(٤) الخنى: الفحش في الكلام.

أنــا الــمُــتَــوَكِّــلِــيُّ هَــوًى وَرأيــاً   وَمــا بــالــواثِــقــيَّــةِ مِــن خَــفَــاءِ
ومـا حَـبْـسُ الـخَـلِـيـفَـةِ لـي بِـعـارٍ   وَلَـيْـسَ بـمُـؤْيِـسِـي مـنـه الـتَّـنـائـي

أخبرني عَمّي قال: حدّثنا محمد قال: قال لي أبو الشِّبْل البُرْجُمِيّ: ما شِعر عليّ بن الجهم في الحبس بدون شعر عَدِيّ بن زيد.

[نفيه وحبسه وأجود شعره في الحبس وخارجه]

أخبرني عَمّي قال حدّثنا محمد قال: كان سببُ حَبْس المتوكّل عليَّ بن الجَهْم أنّ جماعةً من الجُلَساء سَعَوْا به إليه وقالوا له: إنه يُجَمِّشُ الخَدَم ويَغْمِزهم، وإنّه كثيرُ الطعن عليك والعيبِ لك والإزراءِ على أخلاقك؛ ولم يزالوا به يُوغِرون صدرَه عليه حتى حبسه؛ ثم أبلغوه عنه أنه هجاه. فنفاه إلى خُرَاسان وكتب بأن يُصْلَب إذا وَرَدَها يوماً إلى الليل. فلما وصل إلى الشاذِياخ[1] حَبَسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها، ثم أُخرج فصُلِب يوماً إلى الليل مجرّداً ثم أُنزِل. فقال في ذلك:

لـم يَـنْـصِـبـوا بـالـشَّـاذِيـاخ عَـشِـيَّـةَ   الإثـنـيـن مَـسْـبـوقـاً ولا مَـجْـهـولا
نَـصَـبـوا بـحـمـدِ الله مِـلْءَ قُـلُـوبِـهِـمْ   شَـرَفـاً ومِـلْءَ صُـدُورِهِـمْ تَـبْـجِـيـلا
مـا آزدادَ إلا رِفْـعَـةً بِـنُـكُـولِـهِ   وآزدادتِ الأعـداءُ عـنـهُ نُـكُـولا[2]
هَـلْ كـانَ إلاّ الـلـيـثَ فـارَقَ غِـيـلَـهُ   فـرأيـتَـهُ فـي مَـحْـمَـلٍ مَـحْـمـولا
لا يـأمَـنُ الأعـداءُ مـن شَـدّاتِـهِ   شَـدًّا يُـفَـصِّـلُ هـامَـهُـمْ تَـفْـصِـيـلا
مـا عـابَـهُ أن بُـزَّ عَـنْـهُ لِـبـاسُـهُ   فـالـسَّـيْـفُ أهْـوَلُ مـا يُـرَى مَـسْـلُـولا
إن يُـبْـتَـذَلْ فـالـبَـدْرُ لا يُـزْرِي بِـهِ   أن كـانَ لَـيْـلَـةَ تِـمِّـهِ مَـبْـذولا
أو يَـسْـلُـبُـوهُ الـمـالَ يُـحْـزِنْ فَـقْـدُهُ   ضَـيْـفـاً أَلَـمَّ وطـارقـاً ونَـزِيـلا
أو يَـحْـبِـسُـوهُ فـلـيـسَ يُـحْـبَـسُ سـائِـرٌ   مِـن شِـعْـرِهِ يَـدَعُ الـعَـزِيـزَ ذَلـيـلا
إنّ الـمَـصـائِـبَ مـا تَـعَـدَّت دِيـنَـهُ   نِـعَـمٌ وإن صَـعُـبَـتْ عـلـيـه قـلـيـلا
والـلّـهُ لَـيْـسَ بِـغـافِـلٍ عـن أمْـرِهِ   وكَـفَـى بـربِّـكَ نـاصِـراً ووكـيـلا
ولَـتَـعْـلَـمَـنَّ إذا الـقُـلُـوبُ تَـكَـشَّـفَـتْ   عـنـهـا الأكِـنَّـةُ مَـنْ أَضَـلُّ سـبـيـلا[3]

أخبرني عَمّي قال: حدّثنا محمد بن سعد قال: كتب المتوكّل إلى طاهر بن

(١) الشاذياخ: من ضواحي نيسابور أم بلاد خراسان. (معجم البلدان: ٣/ ٣٠٥).
(٢) أراد بالنكول الأولى التنكيل به. وبالثانية: الإحجام والفرار.
(٣) الأكنة: جمع كن، وهو الواقي والستر.

عبد الله بإطلاق عليّ بن الجَهْم. فلمّا أطلقه قال: [الطويل]

أَطاهِرُ إنّي عن خُراسانَ راحِلُ ومُستَخبَرٌ عنها فما أنا قائِلُ
أأَصْدُق أم أكْنِي عَن الصِّدْقِ أيُّما تَخَيَّرْتَ أدَّتهُ إليكَ المَحافِلُ
وسارتْ به الرُّكبانُ واصْطَفقَتْ به أكُفُّ قِيانٍ واجْتَبَتْهُ القَبائِلُ
وإنّي بغالي الحَمْدِ والذَّمِّ عالِمٌ بما فيهما نامِي الرَّمِيَّةِ ناضِلُ[١]
وَحقًّا أقُولُ الصِّدْقَ إنّي لَمائِلٌ إلَيْكَ وإنْ لم يَحْظَ بالوُدِّ مائلُ
ألاَ حُرْمَةٌ تُرْعَى ألاَ عَقْدُ ذمّةٍ لِجارٍ ألاَ فِعْلٌ لِقَوْلٍ مُشاكِلُ[٢]
ألاَ مُنْصِفٌ إن لَمْ نَجِدْ مُتَفَضِّلاً علينا ألاَ قاضٍ من النَّاس عادلُ
فلا تَقْطَعَنْ غَيْظاً عليَّ أنامِلاً فَقَبْلَكَ ما عُضَّتْ عليّ الأنامِلُ
أطاهِرُ إن تُحْسِنْ فَإنِّيَ مُحْسِنٌ إليكَ وإن تَبْخَلْ فإنّيَ باخِلُ

فقال له طاهر: لا تقل إلاّ خيراً فإني لا أفعل بك إلاّ ما تحبّ، فوصَله وحمَله وكَساه.

أخبرني عمّي قال: حدثني محمد قال: كان عليّ بن الجَهْم في مجلس فيه قَيْنةٌ، فعابَثَها وجَمَّشها، فباعَدَتْه وأعرضتْ عنه، فقال فيها: [الطويل]

خَفِي اللّه فِيمَنْ قد تَبَلْتِ فؤادَهُ وغادَرْتِهِ نِضْواً كأنَّ بهِ وَقْرَا
دَعِي البُخْلَ لا أسْمَعْ بهِ منكِ إنّما سألْتُكِ أمراً ليس يُعْرِي لكم ظَهْرا[٣]

فقالت له: صَدَقْتَ يا أبا الحسن، ليس يُعْرِي لنا ظَهْراً، ولكنّه يملأ بطناً!!

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثنا إبراهيم بن المدبّر قال: حدّثنا عليّ بن الجَهْم قال: كان الحارِثيّ يجيء إلى حُلْوانَ[٤] وأنا أتولاّها - وكان عليّ بن الجَهْم على مظالِمها - فإذا ورَدها وقع

(١) نامي الرمية: الرمية النامية، وهي التي أصابها الرامي ثم غابت عنه وماتت. والناضل: الغالب في الرمي.
(٢) مشاكل: مشابه، مماثل.
(٣) كذا في الأصل: خفي الله، ودعي البخل. ويظهر أن هذا من زيادات النساخ والأصل خف اللّه، ودع البخل، وأن الخطاب في البيتين لمذكر وأراد به المؤنث. وإلا فإن علي بن الجهم وقع في خطأ لغوي شنيع لا يقع فيه مثله وهو: خفي إذ الأمر من خاف: خافي، ولا يجوز حذف الألف.
(٤) حلوان: مدينة بالعراق.

الإرْجَافُ(١)، فلم يَزَلْ متَّصلاً حتى يخرج، فإذا خرج سكن الإرجاف. فأتاني مرّةً وظهر كوكب الذَّنَب في تلك الليلة، فقلت: [الكامل]

لَـمَّـا بَـدَا أيـقَـنْـتُ بـالـعَـطَـبِ فَـسَـأَلْـتُ ربِّـي خَـيْـرَ مُـنْـقَـلَـبِ
لـمْ يَـطْـلُـعَـا إلاّ لآبِـدَةٍ الـحَـارِثـيُّ وَكَـوْكَـبُ الـذَّنَـبِ(٢)

قال ابن المدبّر: وكان الحارثيّ أعور مُقَبَّح الوجه، وفيه يقول أبو عليّ البصير: [الكامل]

يـا مَـعْـشَـرَ الـبُـصَـرَاءِ لا تَـتَـطـرَّفُـوا جَـيْـشـي ولا تَـتَـعَـرَّضُـوا لـنَـكِـيـري(٣)
رُدُّوا عـلـيَّ الـحـارِثـيَّ فَـإِنَّـهُ أَعْـمَـى يُـدَلِّـس نَـفْـسَـهُ فـي الـعُـورِ(٤)

أخبرني الحسن قال: حدّثنا ٱبن مَهْرويه قال: أنشدني إبراهيم بن المدبّر لعليّ بن الجَهْم وذكر أن عليًّا أنشده إيَّاه لنفسه: [الوافر]

أَمِـيـلُ مـعَ الـذِّمـام عـلـى ٱبْـنِ أُمّـي وآخُـذُ لِـلـصَّـدِيـقِ مـن الـشَّـقِـيـقِ
وإنْ أَلْـفَـيْـتَـنـي حُـرًّا مُـطَـاعـاً فَـإِنَّـكَ واجِـدِي عَـبْـدَ الـصَّـدِيـقِ
أُفَـرِّقُ بـيـنَ مـعـروفـي وَمَـنِّـي وأَجْـمَـعُ بـيـنَ مـالـي والـحُـقـوقِ

فقال إبراهيم: كَذب والله عليُّ بن الجَهْم وأثِم. والله لَهذا الشعرُ أشهرُ بإبراهيم بنِ العبّاس من إبراهيم بالعباس أبيه.

أخبرني الحَسَن قال: حدّثني ٱبن مَهْرويه قال: حدّثنا إبراهيم بن المدبّر قال: قال المتوكّل: عليّ بن الجَهْم أَكْذَبُ خَلْقِ الله. حَفِظْتُ عليه أنّه أخبرني أنه أقام بخُراسان ثلاثين سنة، ثم مضت مدّة أُخرى وأُنْسِيَ ما أخبرني به، فأخبرني أنه أقام بالثغور ثلاثين سنة، ثم مضت مدّة أُخرى وأُنْسِيَ الحكايتين جميعاً، فأخبرني أنه أقام بالجبل ثلاثين سنة، ثم مَضَتْ مدّةٌ أُخرى فأخبرني أنه أقام بمصر والشأم ثلاثين سنة، فيجب أن يكون عمره على هذا وعلى التقليل مائةً وخمسين سنة، وإنما يُزَاهِي سنُّه الخمسين سنةً. فليت شعري أيُّ فائدة له في هذا الكذب وما معناه فيه!!

أخبرني محمد بن إبراهيم قال: حدّثنا عبد الله بن المُعْتزّ، وحدّثني عَمّي

---

(١) الإرجاف: الزلزال.
(٢) الآبدة: الداهية العظيمة التي يبقى الناس يذكرونها لهولها.
(٣) تطرف الشيء: أخذ من أطرافه، وتحيّفه.
(٤) العور: جمع أعور، وهو فاقد بصر عين من عينيه.

قال: حدّثنا محمد بن سعد قال: اِجتمع عليّ بن الجهم مع قوم من ولد عليّ بن هشام في مجلس، فعَرْبَد عليه بعضهم، فغضِب وخرج من المجلس، واتّصل الشرُّ بينهم حتى تقاطعوا وهجروه وعابوه واغتابوه. فقال يهجوهم: [البسيط]

بَنِي مُتَيَّمَ هَلْ تَدْرونَ ما الخَبَرُ ... وكيفَ يُسْتَرُ أَمرٌ ليس يَسْتَتِرُ
حاجَبْتُكُمْ: مَنْ أبوكم يا بني عُصَبٍ ... شَتَّى ولكنَّما للعاهِرِ الحَجَرُ
قد كانَ شَيْخُكُمْ شَيْخاً له خَطَرٌ ... لكِنَّ أُمَّكُمُ في أمرِها نَظَرُ
ولم تكن أُمّكم - واللّهُ يكلَؤُها - ... محجوبةً دونَها الحُرّاسُ والسُّتُرُ
كانت مغَنِّيَةَ الفِتْيان إن شَرِبوا ... وغيرَ ممنوعةٍ منهم إذا سَكروا
وكان إخوانُه غُرًّا غَطارِفَةً ... لا يُمْكِن الشيخَ أن يَعْصِي إذا أَمَروا
قومٌ أَعِفَّاءُ إلاّ في بُيوتِكُمُ ... فإنّ في مِثْلها قد تُخلَعُ العُذُرُ
فأَصْبَحَتْ كمُرَاحِ الشَّوْلِ حافِلَةً ... من كلّ لاقِحةٍ في بطنها دِرَرُ[1]
فجئتُم عُصَباً من كلِّ ناحِيَةٍ ... نوعا مَخَانِيثَ في أعناقها الكَبَرُ[2]
فواحِدٌ كِسْرَوِيٌّ في قَرَاطِقِهِ ... وآخَرٌ قُرَشيٌّ حين يُخْتَبَرُ[3]
ما عِلمُ أُمِّكُمُ مَنْ حَلَّ مِئزرَها ... ومَنْ رماها بكم يا أيُّها القَذَرُ
قومٌ إذا نُسِبوا فالأُمُّ واحدةٌ ... والله أعلمُ بالآباءِ إذ كَثُروا
لم تَعْرِفوا الطَّعْنَ إلاّ في أسافِلِكُمْ ... وأنتُمُ في المَخازِي فِتْيَةٌ صُبُرُ
أَحببتُ إعلامَكم أنّي بأمرِكُم ... وأَمرِ غيرِكُمُ من أهلكم خَبِرُ
تَفَكَّهون بأعراض الكِرام وما ... أنتم وذِكْرُكُم السّاداتِ يا عُرَرُ[4]
هذا الهجاءُ الّذي تَبْقَى مياسِمُهُ ... على جِباهِكُمُ ما أَوْرق الشَّجَرُ[5]

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا ابن مَهْرويه قال: حدّثني إبراهيم بن المدبّر قال: كتب صاحب الخبر إلى المتوكّل أن الحسن بن عبد الملك بن صالح احترق فمات. فقال عليّ بن الجَهْم: قد بلغني أنّ العامل قتَله وصانع صاحبَ الخبر حتى كتب بهذا. وكان يسعى بالجلساء إلى المتوكّل فأبغضَه وأمره بأن يلزم

(١) مراح الإبل: مأواها. والشَّوْل: النوق التي خف لبنها واحدتها شائلة.
(٢) الكَبَر: الطبل. (معرب).
(٣) القراطق: جمع قرطق وهو القباء.
(٤) العُرَر: جمع عرة، وهو الذي يكون شيناً لقومه ومنقصة لهم.
(٥) المياسم: جمع ميسم، وهو أثر الوسم.

بيته، ثم بلغه أنه هجاه فحَبسه. وأحسنُ شعر قاله في الحبس قصيدتُه التي أوّلها:

[الكامل]

قالت حُبِسْتَ فَقُلْتُ ليسَ بضائري حَبْسِي وأيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغْمَدُ
أَوَما رأيتِ اللَّيْثَ يألَفُ غِيلَهُ كِبْراً وأوباشُ السِّباعِ تَرَدَّدُ
والشَّمْسُ لولا أنَّها مَحْجُوبَةٌ عن ناظِرَيْكِ لما أضاء الفَرْقَدُ
والبدرُ يُدْرِكه السِّرارُ فتنجلي أيامُه وكأنَّه مُتَجَدِّدُ[١]
والغَيْثُ يَحْصُره الغَمامُ فما يُرَى إلاَّ وَرَيِّقُه يَرُوع ويَرْعُدُ
والزَّاعِبِيَّةُ لا يُقِيم كُعُوبَها إلاَّ الثِّقافُ وجَذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ[٢]
والنارُ في أحجارها مَخْبُوءةٌ لا تُصْطَلَى إن لَمْ تُثِرْها الأزْنُدُ
والحَبْسُ ما لم تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ شَنْعاءَ نِعْمَ المَنزلُ المُتَوَرَّدُ[٣]
بَيْتٌ يُجَدِّدُ للكريم كَرامَةً ويُزَارُ فيهِ ولا يزورُ ويُحْمَدُ
لَوْ لم يكن في الحَبْسِ إلاَّ أنَّهُ لا يستذِلُّكَ بالحِجابِ الأَعْبُدُ
كم من عَليلٍ قد تَخَطَّاه الرَّدَى فَنَجا وماتَ طَبِيبُهُ والعُوَّدُ
يا أحْمَدُ بنَ أبي دُوَادٍ إنَّما تُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يا أحْمَدُ
أَبْلِغْ أميرَ المؤمنينَ فَدُونَهُ خَوْضُ الرَّدَى ومخاوِفٌ لا تَنْفَدُ[٤]
أنتم بنو عَمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أولى بما شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
ما كانَ من كَرَم فأنتم أهلُه كَرُمَتْ مَغَارِسُكُمْ وطابَ المَحْتِدُ[٥]
أمِنَ السَّوِيَّةِ يابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ خَصْمٌ تُقَرِّبُهُ وآخَرُ تُبْعِدُ
إنّ الَّذِينَ سَعَوْا إليكَ بِباطِلٍ حُسَّادُ نِعْمَتِكَ التي لا تُجْحَدُ
شَهِدوا وغِبْنا عَنْهُمُ فَتَحَكَّمُوا فينا وَلَيْس كغائبٍ مَنْ يَشْهَدُ
لو يَجْمَعُ الخُصَماءَ عندكَ مجلسٌ يوماً لَبانَ لكَ الطَّرِيقُ الأقْصَدُ
فَبِأيِّ جُرْمٍ أصْبَحَتْ أعْراضُنا نَهْباً تَقَسَّمُها اللَّئِيمُ الأَوْغَدُ

---

(١) السّرار (بفتح السين وكسرها): آخر الشهر.
(٢) الزاعبية: رماح منسوبة إلى رجل من الأنصار اسمه زاعب. والثقاف: آلة تسوّى بها الرماح.
(٣) المتورَّد: المورود.
(٤) لا تنفد: لا تنتهي.
(٥) المحتد: الأصل.

أخبرني جعفر بن قُدَامة قال: حدّثني حَمّاد بن إسحاق قال: قال لي أبو الفضل الرَّبَعيّ قال: قال لي عليّ بن الجَهْم: دخلت على المتوكّل وقد بَلَغني أنّه كلَّم قَبِيحةَ جاريتَه فأجابته بشيء أغضبه، فرماها بمِخَدَّةٍ فأصابتْ عينَها فأثَّرتْ فيها، فتأوَّهَتْ وبَكَتْ وبكى المعتزّ لبكائها؛ فخرج المتوكّل وقد حُمَّ من الغمّ والغضب. فلما بَصُر بي دعاني وإذا الفتحُ[1] يُرِي بَخْتَيَشوعَ القارورة ويشاوره فيها. فقال لي: قل يا عليّ في عِلّتي هذه شيئاً وصِفْ أنّ الطبيب ليس يَدْري ما بي؛ فقلت: [الوافر]

تَـنَـكَّـرَ حـالَ عِـلَّـتِـيَ الـطَّـبِـيـبُ وقـالَ أرَى بـجـسـمـكَ مـا يَـرِيـبُ
جَـسَـسْـتُ الـعِـرْقَ منك فَـدَلَّ جَـسِّـي عـلـى أَلَـم لـه خَـبَـرٌ عَـجِـيـبُ
فـمـا هٰـذا الـذي بـكَ هـاتِ قُـلْ لـي فـكـانَ جـوابُـهُ مِـنِّـي الـنَّـحِـيـبُ
وقـل أيـا طـبـيـبُ الـهَـجْـرُ دائِـي وَقَـلْـبِـي يـا طَـبِـيـبُ هُـوَ الـكَـئِـيـبُ
فَـحَـرَّكَ رأسَـهُ عَـجَـبـاً لِـقَـوْلِـي وقـالَ الـحُـبَّ لـيـس لـهُ طَـبِـيـبُ
فـأعْـجَـبَـنـي الـذي قَـدْ قـالَ جِـدًّا وقـلـتُ بَـلَـى إذا رَضِـيَ الـحَـبِـيـبُ
فـقـالَ هـو الـشِّـفـاءُ فـلا تُـقَـصِّـرْ فَـقُـلْـتُ أَجَـلْ وَلٰـكِـنْ لا يُـجِـيـبُ
ألاَ هَـلْ مُـسْـعِـدٌ يَـبْـكِـي لـشَـجْـوِي فـإنِّـي هـائِـمٌ فَـرْدٌ غَـرِيـبُ

فقال: أحسنتَ وحَياتي! يا غلام اسقِني قَدَحاً؛ فجاءه بقَدَح فشَرِب وسُقِيَت الجماعةُ مثلَه. وخرجتْ إليه فَضْلُ الشاعرةُ بأبياتٍ أمرتْها قَبِيحةُ أن تقولها عنها. فقرأها فإذا هي: [البسيط]

لأكـتُـمـنَّ الَّـذِي فـي الـقَـلْـبِ مـن حُـرَقٍ حـتـى أمـوتَ ولـم يَـعْـلَـمْ بـهِ الـنَّـاسُ
ولا يـقـال شَـكَـا مَـنْ كـانَ يَـعْـشَـقُـهُ إنَّ الـشَّـكـاةَ لِـمَـنْ تَـهْـوَى هـي الـيـاسُ
ولا أبـوحُ بـشـيءٍ كُـنْـتُ أكـتُـمُـهُ عـنـد الـجُـلـوسِ إذا مـا دارت الـكـاسُ

فقال المتوكّل: أحسنتِ يا فَضْلُ. وأمر لها ولي بعشرين ألف درهم، ودخل إلى قَبِيحةَ فتَرَضَّاها.

أخبرني عَمِّي قال: حدّثني محمد بن سعد قال: خرج عليُّ بن الجهم إلى الشام في قافلة، فخرجتْ عليهم الأعراب في خُسَاف[2] فهرَب من كان في القافلة

(١) الفتح: هو الفتح بن خاقان تسلم الوزارة من المتوكل. كانت لديه خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن. قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ.

(٢) خساف: بريّة بين بالس وحلب. (معجم البلدان ٢/ ٣٧٠).

من المُقَاتِلة، وثبت عليّ بن الجَهْم فقاتلهم قتالاً شديداً، وثاب الناسُ إليه فدفعهم ولم يحظَوْا بشيء. فقال في ذلك: [الطويل]

صَبَرْتُ ومثلي صَبْرُهُ ليس يُنْكَرُ ... وليسَ على تَرْكِ التَّقَحُّمِ يُعْذَرُ
غَرِيزَةُ حُرٍّ لا ٱخْتِلاقُ تَكَلُّفٍ ... إذا خَامَ في يَوْمِ الوَغَى المُتَصَبِّرُ(١)
ولمّا رأيتُ الموتَ تَهْفُو بُنودُهُ ... وبانَتْ علاماتٌ لهُ ليسَ تُنْكَرُ
وأقْبَلَتِ الأعرابُ من كلِّ جانِبٍ ... وثار عَجاجٌ أسْوَدُ اللَّون أكْدَرُ
بكُلِّ مُشِيحٍ مُسْتَمِيتٍ مُشَمِّرٍ ... يَجُول به طِرفٌ أقَبُّ مُشَمَّرُ(٢)
بأرضِ خُسَافٍ حين لم يكُ دافِعٌ ... ولا مانعٌ إلاّ الصَّفِيحُ المُذَكَّرُ(٣)
فقلَّلَ في عَيْنَيّ عُظْمَ جُمُوعِهِمْ ... عَزِيمةُ قَلْبٍ فيه ما جَلَّ يَصْغُرُ
بمُعْتَرَكٍ فيه المنايا جَواسِرٌ ... ونارُ الوَغَى بالمَشْرَفِيَّةِ تُسْعَرُ
فما صُنْتُ وَجْهِي عن ظُباتِ سُيوفِهِم ... ولا ٱنحزْتُ عنهم والقنا تَتَكَسَّرُ
ولم أكُ في حَرِّ الكَرِيهَةِ مُحْجِماً ... إذا لم يكن في الحَرْب للوِرْدِ مَصْدَرُ
إذا ساعَدَ الطِّرْفُ الفتى وجنانُهُ ... وأسْمَرُ خَطِّيٌّ وأبيضُ مِبْتَرُ
فذاك، وإن كان الكريمُ بنفسه ... إذا ٱصطكَّتِ الأبطال في النَّقْع عَسْكَرُ(٤)
مَنَعْتُهُمُ من أن ينالوا قُلامَةً ... وكنت شَجاهم والأسنَّةُ تَقْطُرُ
وتلك سجايانا قديماً وحادثاً ... بها عُرِفَ الماضي وعَزّ المؤخَّرُ
أبَتْ لي قُرُومٌ أنجبتنيَ أن أرَى ... وإنْ جَلَّ خَطْبٌ خاشعاً أتضجَّرُ
أولئك آلُ الله فِهْرُ بن مالكٍ ... بهم يُجْبَرُ العظمُ الكَسِيرُ ويُكْسَرُ(٥)
هم المَنْكِبُ العالي على كلِّ مَنْكِبٍ ... سيوفُهمُ تُفْنِي وتُغْنِي وتُفْقِرُ

أخبرني عيسى بن الحسين الورّاق والحسن بن عليّ قالا جميعاً: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني عيسى بن أبي حَرْب قال: حدّثني

(١) خام: نكص وجبن.
(٢) الطرف: الكريم من الخيل. والأقبّ: الدقيق الخصر الضامر البطن.
(٣) الصفيح: السيف العريض.
(٤) النّقع: الغبار الساطع والجمع نِقاعٌ ونُقوعٌ.
(٥) فهر بن مالك بن النضر: أبو غالب، من كنانة، جد جاهلي، ممن يتصل بهم النسب النبوي كان رئيس الناس بمكة.

عليّ بن الجَهْم قال: حبسني أبي في الكُتّاب[1]، فكتبت إلى أمي: [الكامل]

يــا أُمَّـتـا أفــدِيــكِ مــن أم أشـكـو إلـيـكِ فَـظـاظَـةَ الـجَـهْـم
قـد سُـرِّح الـصِّـبـيـانُ كـلُّـهـمُ وبَـقِـيـتُ مـحـصـوراً بـلا جُـرْمِ

قال: وهو أوّل شعر قلته وبعثت به إلى أُمّي؛ فأرسلتْ إلى أبي: والله لئن لم تُطلِقه لأخرجنّ حاسرةً حتى أُطْلِقَه. قال عيسى: فحدّثت بهذا الخبر إبراهيم بن المدبّر فقال: عليٌّ بن الجهم كذّاب، وما يمنعه من أن يكون وَلَّد هذا الحديثَ وقال هذا الشعر وله ستون سنة، ثم حدّثكم أنه قاله وهو صغير، ليرفع من شأن نفسه!

أخبرني عَمّي قال: حدّثنا محمد بن سعد قال: كان أحمد بن أبي دُوَاد منحرفاً عن عليّ بن الجَهْم لاعتقاده مذهب الحشويّة[2]. فلما حُبِس عليُّ بن الجَهْم مدح أحمدَ بن أبي دواد عدّةَ مدائح، وسأله أن يقوم بأمره ويَشْفَع فيه، فلم يفعل وقعد عنه. فمنها قوله: [الكامل]

يـا أحـمـدُ بـنَ أبـي دُوادٍ إنّـمـا تُـدْعَـى لـكـلِّ عـظـيـمـةٍ يـا أحـمـدُ
أَبْـلِـغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـن ودونَـه خَـوْضُ الـرَّدَى ومَـخـاوِفٌ لا تَـنْـفَـدُ
أنـتـم بـنـو عـمّ الـنـبـيّ مـحـمـد أوْلَـى بـمـا شَـرع الـنـبـيُّ مـحـمّـدُ

وهذه الأبيات من قصيدته التي أوّلها:

* قالت حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائري *

فلمّا نَفَى المتوكِّل أحمدَ بن أبي دُواد شَمِتَ به عليّ بن الجَهْم وهجاه فقال:

[الكامل]

يـا أحـمـدُ بـنَ أبـي دُوادٍ دعـوةً بـعـثـتْ إلـيـكَ جـنـادلاً وحـديـدا
مـا هـذه الـبِـدَعُ الـتـي سـمَّـيـتَـهـا بـالـجـهـل مـنـك الـعـدل والـتـوْحـيـدا
أفـسـدتَ أمـرَ الـدِّيـن حـيـن وَلِـيـتَـه ورَمَـيْـتَـهُ بـأبـي الـولـيـدِ وَلِـيـدا[3]

---

(١) الكتّاب: مكان صغير لتعليم القراءة والكتابة جمعه كتاتيب.
(٢) الحشويّة: فرقة من المرجئة. (انظر تفسير القرطبي ٤/ ١٦٢).
(٣) أبو الوليد: هو محمد بن أحمد بن أبي دواد، كان يتولى المظالم بسامراء.

لا مُحْكَماً جَزلاً، ولا مُسْتَطْرَفاً كَهْلاً، ولا مُسْتَحْدَثاً مَغْمودا[١]
شَرِهاً، إذا ذُكِر المكارمُ والعُلاَ ذَكَرَ القَلاَيَا مُبْدِئاً ومُعِيدا[٢]
ويَوَدُّ لو مُسِخَتْ ربيعةُ كلُّها وبنو إيادٍ صَحْفَةً وثَريدا
وإذا تربَّع في المجالس خِلْتَه ضَبُعاً وخِلتَ بني أبيه قرودا
وإذا تَبَسَّمَ ضاحكاً شبَّهتَه شَرِقاً تَعَجَّلَ شُرْبَه مَزْدودا
لا أصْبَحَتْ بالخير عينٌ أبصرتْ تلك المَناخِرَ والثَّنايا السُّودا

أخبرني عمِّي قال: حدّثنا محمد قال: كتب عليّ بن الجَهْم إلى طاهر من الحبس: [السريع]

إنْ كان لي ذنبٌ فلي حُرْمةٌ والحقُّ لا يدفعه الباطلُ
وحُرْمَتي أعظمُ من زَلَّتي لو نالني من عَذْلِكم نائلُ
ولي حقوقٌ غيرُ مجهولةٍ يعرفها العاقل والجاهلُ
وكلُّ إنسانٍ له مذهبٌ وأهلُ ما يفعله الفاعلُ
وسيرةُ الأملاك منقولةٌ لا جائرٌ يَخْفَى ولا عادلُ
وقد تعجَّلتَ الذي خِفتُه منك ولم يأت الذي آمُلُ

حدّثني عمّي قال: حدّثنا محمد قال: كان عليّ بن الجَهْم يعاشر جماعةً من فِتيان بغداد لمّا أُطلِق من حبسه ورُدَّ من النفي، وكانوا يتقاينون[٣] ببغداد، ويلزمون منزل مُقيِّنٍ[٤] بالكَرْخ[٥] يقال له المُفَضَّل. فقال فيه عليّ بن الجَهم: [الطويل]

نزلنا بباب الكَرْخ أطْيَبَ مَنْزِلِ على مُحْسِناتٍ من قِيان المُفَضَّلِ
فلابنِ سُرَيْجٍ والغَرِيضِ ومَعْبَدٍ بدائعُ في أسماعنا لم تُبَدَّلِ
أوَانِسُ ما للضَّيف منهنّ حِشْمةٌ ولا رَبُّهُنَّ بالجليل المُبَجَّلِ
يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قَلَّ حياؤُه ويَغْفُل عنه وهو غيرُ مُغَفَّلِ
ويُكْثِرُ من ذمِّ الوقار وأهلِه إذا الضَّيفُ لم يَأنَس ولم يَتَبَذَّلِ
ولا يدفع الأيدي المُرِيبةَ غَيْرةً إذا نال حَظًّا من لَبُوسٍ ومأكَلِ

---

(١) الجزل: القوي، الجيد الرأي.
(٢) القلايا: جمع قلية، وهو الشيء المقليّ.
(٣) يتقاينون: يجالسون القيان.
(٤) المُقيِّن: صاحب القيان.
(٥) الكَرْخ: اسم لعدة مواضع (انظر معجم البلدان ٤/ ٤٤٧).

ويُطرِق إطْراقَ الشُّجاع مَهابةً ... ليُطْلِق طَرْفَ الناظر المتأمِّلِ
أشِر بيدٍ وأغْمِزْ بطَرْفٍ ولا تَخَفْ ... رَقِيباً إذا كنتَ غيرَ مُبَخَّلِ
وأعْرِضْ عن المِصباح والهَجْ بمثْلِه ... فإنْ خَمَدَ المِصباحُ فاذنُ وقَبِّلِ
وسَلْ غيرَ ممنوع وقُلْ غيرَ مُسْكَتٍ ... ونَمْ غيرَ مَذْعُورٍ وقُمْ غيرَ مُعْجَلِ
لك البيتُ ما دامت هَدَاياك جَمَّةً ... وكنتَ مليًّا بالنَّبِيذ المُعَسَّلِ
فَبَادِرْ بأيام الشَّباب فإنّها ... تَقَضَّى وتَفْنَى والغَوايةُ تَنجلي
ودَعْ عنك قولَ الناس أتْلَفَ مالَه ... فلانٌ فأضحى مُدْبِراً غيرَ مُقْبِلِ
هلِ الدهرُ إلاّ ليلةٌ طَرَحَتْ بنا ... أواخرُها في يوم لَهْوٍ مُعَجَّلِ
سقى الله بابَ الكَرْخ من مُتَنَزَّهٍ ... إلى قَصْرِ وَضَّاحٍ فبِرْكَةِ زَلْزَلِ[1]
مَسَاحِبُ أذيال القِيان ومَسْرَح الـ ... ـحِسان ومَثْوَى كلِّ خِرْقٍ مُعَذَّلِ[2]
لَوَ انّ امرأ القيس بن حُجْرٍ يَحُلُّها ... لأقْصَرَ عن ذِكْر الدَّخُول وحَوْمَلِ[3]
إذاً لرأى أن يَمْنَحَ الوُدَّ شادِناً ... مقصَّرَ أذيالِ القَبَا غيرَ مُسْبِلِ
إذا الليلُ أدنى مَضْجَعي منه لم يَقُلْ ... عَقَرتَ بَعِيري يا امْرَأَ القيس فانْزِلِ

حدّثني الحسنُ بن عليّ قال: حدّثنا ابن مَهْرويه قال: حدّثني إبراهيم بن المدبّر قال: أنشدني علي بن الجَهْم لنفسه: [الكامل]

وإذا جَزَى الله امرأً بِفَعالِه ... فجزى أخاً لي ماجِداً سَمْحا
ناديتُه عن كُرْبةٍ فكأنّما ... أطلعتُ عن ليلٍ به صُبْحا

فقلت له: ويْلَكَ! هذا لإبراهيم بن العبّاس يقوله في محمد بن عبد الملك الزيَّات! فَجَحَدَني وكابر. فدخل يوماً عليّ بن الجَهْم إلى إبراهيم بن العبّاس وأنا عنده. فلمّا رآني قال: اجتمع الإبراهيمان. فتركتُه ساعةً ثم أنشدتُ البيتين، وقلت لإبراهيم بن العباس: إنّ هذا يزعُم أنّ هذين البيتين له. فقال: كَذَب، هذان لي في محمد بن عبد الملك الزيَّات. فقال له عليّ بن الجهم بِقحَةٍ: ألم أنْهَكَ أن تَنْتَحِل شعري! فغضِب إبراهيم وجعل يقول له بيده: سَوْءةً عليك سَوْءةً لك! ما أوقحك!

---

(١) قصر وَضّاح: قصر بُني للمهدي وقد تولى النفقة رجل من أهل الأنبار يقال له الوَضّاح، فنسب إليه (معجم البلدان ٤/ ٣٦٤). وبركة زلزل: تقع في بغداد بين الكَرْخ والصراة وباب المحوّل وسُويقة أبي الورد. ونسبت إلى زلزل الضارب بالعود. (معجم البلدان ١/ ٤٠٢).

(٢) الخرق: الكريم، الذي يتسع في كرمه. والمعذل: الملام على إسرافه في الكرم.

(٣) الدَّخُول وحَوْمَلِ: علمان على عدة مواضع. (معجم البلدان ٢/ ٤٤٦).

وهو لا يُنْكِر في ذلك ولا يَخْجَل. ثم التقينا بعد مدّة فقال: أرأيت كيف أخزيتُ إبراهيمَ بن العباس!! فجعلت أَعْجَبُ من صَلابَة وجهه.

حدّثني عَمِّي قال: أنشدنا محمد بن سَعْد لعليّ بن الجَهْم وفيه غِناء: [الخفيف]

إعْلَمِي يا أحبَّ شيءٍ إليّا ... أن شوقي إليكِ قاضٍ عليّا
إن قَضَى اللّهُ لي رجوعاً إليكم ... لا ذكرتُ الفِراقَ ما دمتُ حيّا
إنَّ حَرَّ الفِراق أنْحَلَ جسمي ... وكوى القلبَ منكِ بالشَّوق كيّا

[هجاؤه محمد بن عبد الملك الزيات]

حدّثني عَمّي قال: حدّثنا محمد بن سَعْد قال: كان محمد بن عبد الملك الزيَّات مُنْحَرِفاً عن عليّ بن الجَهْم وكان يَسْبِعُه[1] عند الخليفة ويَعِيبُه ويذكُره بكلّ قبيح. فقال فيه عليّ بن الجَهْم:

لَعَائِنُ الله مُتَتابعات ... مُصَبِّحاتٍ ومُهَجِّراتِ
على ابن عبد الملك الزيَّات ... عَرَّضَ شَمْلَ المُلك للشَّتاتِ
وأنْفَذَ الأحكامَ جائرات ... على كتاب الله ذارِياتِ[2]
وعن عقول الناس خارجات ... يرمي الدواوين بتوقيعاتِ
مُعَقَّدَاتٍ كَرُقَى الحيَّات ... سبحانَ مَنْ جَلَّ عن الصِّفاتِ
بعد ركوب الطَّوْف في الفُرَات ... وبعد بَيْعِ الزَّيْت بالحَبَّاتِ[3]
صرتَ وزيراً شامخَ الثَّبات ... هارون يابْنَ سَيِّدِ السَّاداتِ[4]
أمَا ترى الأمورَ مُهْمَلات ... تشكو إليك عَدَمَ الكُفَاةِ
فعاجِلِ العِلْجَ بمُزْهِفات ... من بعد ألْفِ صُخَّبِ الأصوات[5]
بمُثْمِراتٍ غير مُورِقات ... تُرَى بمَثْنَيْه مُرَصَّفات[6]

* تَرَصُّفَ الأسنان في اللِّثاتِ *

(١) سَبَعهُ: شتمهُ.
(٢) ذاريات: من ذرت الريح التراب تذروه وتذريه: فرقته وأطارته. يريد أنها تعفي كتاب الله.
(٣) الطَّوف: قِربٌ يُنفخ فيها حتى تمتلىء هواءً وتسدّ جيداً، وتشدّ إلى بعضها البعض ويجعل عليها خشب على شكل سطح ويركب عليه الناس ليعبروا نهراً ونحوه.
(٤) هارون: هو الخليفة العباسي الواثق.
(٥) ألفاً: يقصد هنا ألفاً من السياط.
(٦) مثمرات: لها ثمر، والثمرة من السوط عقدة في طرفه، تشبيهاً له بالشجرة المثمرة.

أخبرني عمي قال: حدّثني محمد بن سعد قال: كان عليّ بن الجَهْم سأل عمرَ بن الفَرَج الرُّخَّجِيّ[(١)] معاونتَه، وٱسْتَرْفَده في نكبته فلم يُعاوِنه ولم يُرْفِدْه، ثم قُبِض على عمر بن الفرج وأُسْلِم إلى نَجَاح[(٢)] ليصادره. فقال عليّ بن الجهم له:

[البسيط]

أَبْلِغْ نَجَاحاً فَتَى الفِتْيانِ مأْلُكَةً ... تَمْضِي بها الرِّيحُ إصْداراً وَإيرادا[(٣)]
لَنْ يَخْرُجَ المالُ عَفْواً مِنْ يَدَيْ عُمَرٍ ... أَوْ يُغْمَدَ السَّيْفُ في فَوْدَيْهِ إغْمادا
الرُّخَّجِيُّونَ لا يُوفون ما وَعَدُوا ... وَالرُّخَّجِيَّاتُ لا يُخْلِفْنَ مِيعادا[(٤)]

قال: وقال في عمر بن الفَرَج أيضاً: [البسيط]

جَمَعْتَ أمْرَيْنِ ضاعَ الحَزْمُ بَيْنَهُما ... تِيهَ ٱلمُلُوكِ وأَفْعالَ المَمالِيكِ
أَرَدْتَ شُكْراً بلا بِرٍّ ومَرْزِئَةٍ ... لَقَدْ سَلَكْتَ طَرِيقاً غَيْرَ مَسْلُوكِ[(٥)]
ظَنَنْتَ عِرْضَكَ لا يُرْمَى بقارِعَةٍ ... وَما أُراكَ على حالٍ بِمَتْرُوكِ

أخبرني عَمِّي قال: حدّثني الحسن بن الحسن بن رَجاء عن أبيه قال: كان لسليمان بن وَهْبٍ نديمٌ يأنَسُ به ويألَفه، فعَرْبَد عليه ليلةً من الليالي عَرْبَدَةً قبيحةً، فأطّرحه وجفاه مدّة. فوقف له على الطريق. فلما مَرَّ به وَثَب إليه فقال له: أيها الوزير، ألاَ تكون في أمري كما قال عليّ بن الجَهْم: [البسيط]

القَوْمُ إخْوانُ صِدْقٍ بَيْنَهُمْ نَسَبُ ... مِنَ المَوَدَّةِ لم يُعْدَلْ بها نَسَبُ
تَراضَعُوا دُرَّةَ الصَّهْباءِ بَيْنَهُمُ ... فأوْجَبُوا لِرَضِيعِ الكأسِ ما يَجِبُ
لا تَحْفَظَنَّ على السَّكْرانِ زَلَّتَهُ ... ولا تَرِيبَنْكَ مِن أخْلاقِهِ رِيَبُ

فقال له سليمان: قد رَضِيتُ عنك رضاً صحيحاً، فَعُدْ إلى ما كنتَ عليه من ملازمتي. وأوّل هذه الأبيات:

الوَرْدُ يَضْحَكُ وَالأوتارُ تَصْطَخِبُ ... وَالنَّايُ يَنْدُبُ أشْجاناً ويَنْتَحِبُ

---

(١) عمر بن الفرج الرُّخجيّ: كان هو وأبوه فرج من أعيان الكتّاب في أيام المأمون إلى أيام المتوكل.
(٢) نجاح: هو نجاح بن سلمة أبو الفضل. كان على ديوان التوقيع وتتبع العمال في عهد المتوكل.
(٣) المألكة: الرسالة.
(٤) الرُّخجُ: كورة ومدينة من نواحي بابل، وينسب إلى الرُّخج فرج وابنه عمر بن فرج. (معجم البلدان ٣/ ٣٨).
(٥) المرزئة: نقصان المال.

وَالرَّاحُ تُعْرَضُ في نَوْرِ الرَّبِيعِ كما ... تُجْلَى العَرُوسُ عليها الدُّرُّ وَالذَّهَبُ[1]
وَاللَّهْوُ يُلْحِقُ مَغْبُوقاً بِمُصْطَبِحٍ ... وَالدور سيَّان مَحْثُوثٌ ومُنْتَخَبُ
وَكُلَّما انْسَكَبَتْ في الكأسِ آوِنَةً ... أقْسَمْتُ أنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ

أخبرني عَمِّي قال: حدّثنا محمد بن سَعْد قال: حدّثني أسْلَم مولى عبد الله بن طاهر قال: دخل عليّ بن الجَهْم يوماً على عبد الله بن طاهر في غُدْوة من غُدْوات الرَّبيع وفي السماء غَيْم رقيق والمطرُ يجيء قليلاً ويسكن قليلاً، وقد كان عبد الله عزَم على الصَّبُوح. فغاضبتْه حَظِيَّةٌ له، فتنغَّص عليه عَزْمُه وفَتر. فخُبِّر عليّ بن الجَهْم بالخبر وقيل له: قُلْ في هذا المعنى شيئاً، لعله ينشَط للصَّبوح. فدخل عليه فأنشده:

صوت

[البسيط]

أمَا تَرَى اليَوْمَ ما أحْلَى شَمائِلَهُ ... صَحْوٌ وَغَيْمٌ وإبْراقٌ وإرْعادُ
كأنَّهُ أنْتَ يا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ ... وَصْلٌ وهَجْرٌ وتَقْرِيبٌ وإبْعادُ
فَبَاكِرِ الرَّاحَ واشْرَبْهَا مُعتَّقَةً ... لَمْ يَدَّخِرْ مِثْلَها كِسْرَى ولا عادُ
وَاشْرَبْ على الرَّوْضِ إذ لاحَتْ زَخارِفُهُ ... زَهْرٌ وَنَوْرٌ وأوْراقٌ وأوْرادُ
كَأنَّما يَوْمُنا فِعْلُ الحَبِيبِ بنا ... بَذْلٌ وبُخْلٌ وإبْعادٌ ومِيعادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فِعْلِكُمُ ... غَيٌّ ورُشْدٌ وإصْلاحٌ وإفْسادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار؛ وحمَله وخلَع عليه، وأمر بأن يُغَنَّى في الأبيات. الغِناء لبَذْل الطَّاهريّة، خفيفُ رَمَلٍ. وفيه لغيرها هَزَجٌ.

حدّثني عمِّي قال: حدّثني محمد بن سَعْد قال: حدّثني رجلٌ من أهل خُرَاسان قال: رأيت عليّ بنَ الجَهْم بعدما أُطلِقَ من حَبْسه جالساً في المقابر؛ فقلت له: ويحك! ما يُجلسك ها هنا؟! فقال: [البسيط]

يَشْتَاقُ كُلُّ غَرِيبٍ عِنْدَ غُرْبَتِهِ ... وَيَذْكُرُ الأهْلَ وَالجِيرانَ وَالوَطَنا
وَلَيْسَ لِي وَطَنٌ أمْسَيْتُ أذْكُرُهُ ... إلاّ المَقَابِرَ إذْ صارَتْ لَهُمْ وَطَنا

(١) نَوْرُ الربيع: زهره الأبيض. واحدته نَوْرَة. وجمعها أَنْوارٌ.

حدّثني عَمِّي قال: أنشدنا أحمد بن عُبيد ومحمد بن سعد لعليّ بن الجهم وفيه غناء:

صوت

[مجزوء الرمل]

لَــوْ تَـنَـصَّــلْــتَ إلَـيْـنــا ... لَــوَهَـبْـنــا لـكَ ذَنْـبَـكْ
بِــأبِـي مــا أبْـغَـضَ الـعَـيْــ ... شَ إذا فــارَقْــتُ قُــرْبَــكْ
لَـيْـتَـنِـي أمْـلِـكُ قَـلْـبِـي ... مِـثْـلَ مـا تَـمْـلِـكُ قَـلْـبَـكْ
أيُّــهــا الـــواثِـــقُ بـــالله ... لَــقَــدْ نــاصَـحْــتَ رَبَّــكْ
مــا رَأى الـنّــاسُ إمــامــاً ... أنْــهَــبَ الأمْــوالَ نَــهْـبَــكْ
أصْـبَـحَـتْ حُـجَّـتُـكَ الـعُـلْــ ... يــا وَحِــزْبُ اللهِ حِــزْبَــكْ

الغِناءُ لعرِيبَ رَمَلٌ. وفيه لغيرها هَزَجٌ.

حدّثني عَمِّي قال: حدّثنا محمد بن سَعْد قال: كان عليّ بن الجَهْم قد مدح أبا أحمد بن الرَّشيد فلم يُعْطِه شيئاً، فقال يهجوه: [مجزوء الرمل]

يــا أبــا أحْـمَـدَ لا يُــنْــ ... ـجِي مِــنَ الـشِّـعْـرِ الـفِـرارُ
لِـبَـنِـي الـعَـبّـاس أحْــلا ... مُ عِــظــامٌ وَوَقــارُ
وَلَـهُـمْ فــي الـحَـرْب إقْــدا ... مٌ وَرَأْيٌ واصْــطِــبــارُ
وَلَـهُـمْ ألْـسِـنَـةٌ تَـبْـ ... ـري كَــمــا تَـبْـري الـشِّـفـارُ
وَوُجُــوهٌ كَــنُــجُــومِ الــ ... ـلَّـيْـلِ تَـهْـدِي مَــنْ يَـحـارُ
وَنَـسِـيـمٌ كَـنَـسِـيـمِ الـ ... ـرَّوضِ جــادَتْــهُ الـقِـطـارُ
وَلِـعَـطْـفَـيْـكَ عَــنِ الـمَـجْـ ... ـدِ شِـمـاسٌ وَازْوِرارُ
إنْ تَـكُـنْ مِـنْـهُـمْ بِـلاَ شَـ ... ـكٍّ فَـلِـلْـعُـودِ قُـتـارُ(1)

حدّثني جَحْظة وعَمِّي قالا: حدّثنا عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر قال: دخل إلينا عليّ بن الجَهْم بعقب موت أبي والمجلسُ حافلٌ بالمعزِّين، فمثَل قائماً وأنشدَنا يرثيه: [الخفيف]

أيُّ رُكْـنٍ وَهَـى مِـنَ الإسْـلامِ ... أيُّ يَـوْمٍ أخْـنَـى عَـلَـى الأيّـامِ

(1) القُتارُ: رائحة العود المحرق.

جَـلَّ رُزْءُ الأمـيـر عـن كـلِّ رُزْءٍ أَدْرَكَــتْـهُ خـواطـرُ الأوهـام
سَـلَـبـتْـنـا الأيّـامُ ظِـلاً ظَـلِـيـلاً وَأبـاحَـتْ حِـمَـى عَـزِيـزَ الـمَـرام
يـا بَـنِـي مُـصْـعَـبٍ حَـلَـلْـتـم مـن الـنـا س مَـحَـلَّ الأرواح فـي الأجْـسـام
فـإذا رَابَـكُـمْ مِـنَ الـدَّهْـرِ رَيْـبٌ عَـمَّ مـا خَـصَّـكُـمْ جَـمِـيـعَ الأنـام
أنْـظُـروا هَـلْ تَـرَوْنَ إلاَّ دُمُـوعـاً شـاهِـداتٍ عـلـى قُـلُـوبٍ دَوامِـي
مَـنْ يُـداوِي الـدُّنـيـا ومَـنْ يَـكْـلأُ الـمُـلْـ ـكَ لَـدَى فـادِحِ الـخُـطُـوبِ الـعِـظـام
نَـحْـنُ مُـتْـنـا بِـمَـوْتِـهِ وَأَجَـلُّ الـ ـخَـطْـبِ مَـوْتُ الـسَّـاداتِ والأعْـلام
لَـمْ يَـمُـتْ والأمِـيـرُ طـاهِـرُ حَـيٌّ دائِـمُ الانْـتِـقـامِ والإنْـعَـام[1]
وَهْـوَ مِـنْ بَـعْـدِهِ نِـظـامُ الـمَـعـالِـي وَقِـوامُ الـدُّنْـيـا وَسَـيْـفُ الإمـام

قال: فما أذكر أني بكيت أو رأيتُ في دُورِنا باكياً أكثر من يومئذٍ.

حدّثني عمّي قال: حدّثنا أبو الدِّهْقانةِ النَّديمُ قال: دخلنا يوماً إلى المعتزّ وهو مُصْطَبِحٌ على صوتٍ اختاره واقترحه على عَرِيبَ، وأظُنُّ الصنعة لها، فلم يزل يشرب عليه بقيَّةَ يومِه، فلمّا سَكِر أمر لها بثلاثين ألف درهم، وفرَّق على الجلساء كلِّهم الجوائزَ والطِّيبَ والخلعَ. والصوتُ: [البسيط]

الـعَـيْـنُ بَـعْـدَكَ لَـمْ تَـنْـظُـرْ إلى حَـسَـنِ وَالنَّفْسُ بَعْدَكَ لم تَسْكُنْ إلى سَكَنِ
كَـأنَّ نَـفْـسِـي إذا مـا غِـبْـتَ غـائِـبَـةٌ حتى إذا عُدْتَ لي عادَتْ إلى بَدَني

وَالشِّعْرُ لعليّ بن الجَهْم.

حدّثني جَحْظَةُ ومحمد بن خَلَف وَكِيعٌ وعَمِّي قالوا جميعاً: حدّثنا عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر قال: لمّا أطْلق أبي طاهرٌ عليَّ بن الجَهْم من الحبس أقام معه بالشاذِيَاخ[2] مدّةً. فخرجوا يوماً إلى الصَّيْد، واتّفق لهم مَرْجٌ كثيرُ الطير والوحش، وكانت أيّامُ الزَّعْفران، فاصطادوا صَيْداً كثيراً حسناً، وأقاموا يشربون على الزَّعْفَران. فقال عليّ بن الجَهْم يَصِف ذلك: [الطويل]

وَطِـئـنـا ريـاضَ الـزَّعْـفـران وأمْـسـكَـتْ عـلـيـنـا الـبـزاةُ الـبِـيـضُ حُـمْـرَ الـدَّرارِجِ[3]

---

(١) طاهر: أراد طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين.

(٢) الشاذياخ: من ضواحي نيسابور (معجم البلدان ٣/ ٣٠٥).

(٣) الدرارج: جمع دراج، وهو طائر جميل المنظر ملوّن الريش.

ولـم تَـخـمِـهـا الأدغـالُ مـنّـا وإنّـمـا أبَـحْنـا حِـمَـاهـا بـالـكـلاب الـنـوابـج[١]
بـمُـسْـتَـرْوِحـاتٍ سـابـحـاتٍ بـطـونُـهـا على الأرض أمثالَ السِّهام الزَّوَالج[٢]
ومُـسْـتَـشْـرِفـاتٍ بـالـهَـوادِي كـأنـهـا وما عَقَفتْ منها رؤوسُ الصَّوالج[٣]
ومِـن دالِـعـاتٍ ألْـسـنـاً فـكـأنّـهـا لحيَ من رجالٍ خاضعين كَوَاسج[٤]
فَـلَـيْـنـا بـهـا الـغِـيـطـانَ فَـلْـياً كـأنّـهـا أناملُ إحدى الـغـانـيـات الـحـوالـج[٥]
فَقُلْ لبُغاةِ الصَّيد هل من مُفَاخرٍ بصَيْدٍ وهل من واصفٍ أو مُخارِج[٦]
قَـرَنّـا بُـزَاةً بـالـصُّـقـورِ وحَـوَّمَـتْ شواهيننا من بعد صَيْدِ الزَّمَامِجِ[٧]

حدّثني عَمِّي قال: حدّثنا محمد بن سَعْد قال: كتب عليّ بن الجَهْم إلى المتوكِّل وهو محبوس:

صوت

[المتقارب]

أَقِـلْـنِـي أَقَـالَـكَ مَـنْ لـم يَـزَلْ يَـقِـيـكَ ويَـصْـرِفُ عـنـكَ الـرَّدَى
وَيَـغْـذُوكَ بـالـنِّـعَـم الـسَّـابـغـاتِ وَلِـيـداً وذا مَـيْـعَـةٍ أَمْـرَدَا[٨]
وتَـجْـرِي مـقـادِيـرُهُ بـالَّـذِي تُـحِـبُّ إلـى أن بـلـغـتَ الـمَـدَى
ويُـغْـلِـيـكَ حـتـى لَـوَ انَّ الـسَّـمـاء تُـنَـالُ لَـجَـاوَزْتَـهـا مُـصْـعِـدا
فـمـا بَـيْـنَ رَبِّـكَ جَـلَّ اسْـمُـهُ وَبَـيْـنَـكَ إلاّ نَـبِـيُّ الـهُـدَى
فَـشُـكْـراً لأَنْـعُـمِـهِ إنَّـهُ إذا شُـكِـرتْ نِـعْـمَـةٌ جَـدَّدا
وَعَـفْـوَكَ عـن مُـذْنـبٍ خـاضِـعٍ قَـرَنْـتَ الـمُـقِـيـمَ بـه الـمُـقْـعِـدا
إذا ادَّرع الـلَّـيْـلَ أَفْـضَـى بـه إلـى الـصُّـبـح مـن قـبـلِ أن يَـرْقُـدا

(١) الكلاب النوابج: النوابح.
(٢) المستروحات: التي تتشمّم الشيء. والسابحات: السريعات. والزوالج: السريعات أيضاً.
(٣) الهوادي: الأعناق وعقفت: عطفت، عوجت.
(٤) دالعات ألسناً: مخرجات ألسنتهن من أفواهها. والكواسج: جمع كوسج، وهو الذي لا شعر على عارضيه.
(٥) الحوالج: جمع حالجة، وهي التي تندف القطن.
(٦) المخارج: المناهد، الناهض.
(٧) الزمامج: جمع زمج، وهو طائر يصاد به دون العقاب. والبازي والصقر والشاهين والزمج كلها طيور جارحة لاحمة.
(٨) ذو الميعة: الشاب في أول الشباب. وميعة الشيء: أوله.

عفا الله عنكَ ألاَ حُرْمَةٌ تَعُوذ بفضلكَ أن أُبْعَدا
لئن جَلَّ ذَنْبٌ ولم أعْتَمِدْ لأنْتَ أجَلُّ وأعلَى يَدَا
ألم تَرَ عَبْداً عدَا طَوْرَه ومولىً عفا ورشيداً هَدَى
ومُفْسِدَ أمرٍ تلافَيْتَهُ فعادَ فأصْلَحَ ما أفْسدا
فلا عُذْتُ أعْصِيكَ فيما أمَرْ تَ حتى أزورَ الثَّرَى مُلْحَدا
وإلاّ فخالفتُ ربَّ السماء وخُنْتُ الصَّديقَ وعِفْتُ النَّدى
وكنتُ كعَزُّونَ أو كابنِ عمرو مُبِيحِ العِيالِ لِمَنْ أوْلدا
يكثِّر في البَيْتِ صِبيانَهُ يَغِيظُ بهم مَعْشَراً حُسَّدا

حدَّثني عَمّي قال: حدّثنا محمد بن سَعْد قال: لَما فُلِجَ ٱبنُ أبي دُواد شَمِت به عليّ بن الجَهْم وأظهر ذلك له وقال فيه: [الكامل]

لم يَبْقَ منك سِوَى خيالِكَ لامعاً فوق الفِراش مُمَهَّداً بوسادِ
فَرِحَتْ بمَصْرَعِكَ البَرِيَّةُ كلُّها مَنْ كان منهم مُوقِناً بمَعَادِ
كَمْ مَجْلِسٍ لله قد عَطَّلتَهُ كي لا يُحَدَّثَ فيه بالإسنادِ
ولَكَمْ مَصابِيح لنا أطفأتَها حتى يزولَ عن الطريقِ الهادي
ولَكَمْ كَرِيمَةِ مَعْشَرٍ أرْمَلْتَها ومُحَدِّثٍ أوْثَقْتَ في الأقيادِ
إنَّ الأسارَى في السُّجون تَفَرَّجوا لَمَّا أتتْكَ مَواكِبُ العُوَّادِ
وغدا لمصرعِك الطبيبُ فلم يجد شيئاً لدائكَ حِيلةَ المُرْتادِ
فَذُقِ الهَوانَ مُعَجَّلاً ومؤجَّلاً واللَّهُ رَبُّ العَرْشِ بالمِرصادِ
لا زالَ فالِجُكَ الَّذي بكَ دائباً وفُجِعْتَ قبلَ المَوْتِ بالأولادِ

أنشدني عَمِّي لابن الجَهْم وفيه غِناء لعَرِيبَ: [الكامل]

نَطَقَ الهوى بجَوًى هُوَ الحَقُّ وَمَلَكْتَني فَلْيَهْنِكَ الرِّقُّ
رِفقاً بقلبي يا معذِّبَهُ رفقاً وليس لظالم رِفْقُ
وإذا رأيتُكَ لا تُكَلِّمُني ضاقت عليَّ الأرضُ والأُفُقُ

وأنشدني له وفيه غناء أيضاً، ويقال إنه آخر شعر قاله: [المنسرح]

يا رَحْمَةً للغريبِ بالبلدِ النـ ـازِحِ ماذا بنفسه صَنَعَا
فارَقَ أحبابَه فما ٱنتفعُوا بالعيش من بعده وما ٱنتفعا

وقال لمغنٍّ حضرَ معه مَجْلِساً وكان غيرَ طيِّب: [الخفيف]

كنتُ في مجلِسٍ فقالَ مُغَنِّي الْـ قَومِ كمْ بينَنا وبينَ الشتاءِ
فذَرَعْتُ البِساطَ مِنِّي إليه قلتُ هذا المقدارُ قبل الغِناء
فإذا ما عَزَمْتَ أن تتغنَّى آذَنَ الحَرُّ كلُّه بانقضاء

أخبرني عليّ بن العبّاس بن أبي طَلْحة قال: حدّثني عبد الله بن المُعْتزّ قال:

لمّا حبَس أميرُ المؤمنين المتوكِّلُ عليَّ بنَ الجهم، وأجمع الجُلَسَاءُ على عَدَاوته وإبلاغِ الخليفة عنه كلَّ مكروه ووَصْفِهم مساويَه. قال هذه القصيدةَ يمدحه ويذكِّره حقوقَهُ عليه، وهي: [المتقارب]

عفا الله عنكَ ألا حُرمةٌ تَعوذُ بِعَفْوِكَ أن أُبْعَدا

ووجَّه بها إلى بَيْدون الخادم، فدخل بها إلى قَبيحةَ وقال لها: إنّ عليّ بنَ الجَهم قد لاذ بِكِ وليس له ناصرٌ سواكِ، وقد قصده هؤلاء النُّدماءُ والكتَّاب لأنه رجل من أهل السنّة وهم روافضُ، فقد اجتمعوا على الإغراء بقتله. فدَعَتِ المُعْتزَّ وقالت له: اذهب بهذه الرُّقْعة يا بُنَيّ إلى سيِّدك وأوصِلْها إليه، فجاء بها ووقف بين يَدَيْ أبيه. فقال له: ما معكَ فديتُك؟ فدنا منه وقال: هذه رُقْعة دَفعتها إليّ أمِّي. فقرأها المتوكِّل وضحِك. ثم أقبل عليهم فقال: أصبح أبو عبد الله ـ فديتُه ـ خَصْمَكم. هذه رقعة عليّ بن الجَهْم يستقيل[1]، وأبو عبد الله شفيعُه، وهو ممن لا يُرَدّ، وقرأها عليهم. فلمّا بلغ إلى قوله: [المتقارب]

فلا عُذْتُ أعْصِيكَ فيما أمَرْتَ إلى أن أحُلَّ الثَّرَى مُلْحَدَا
وإلاّ فَخالَفْتُ رَبَّ السَّماءِ وخُنْتُ الصَّدِيقَ وعِفْتُ النَّدى
وكنتُ كَعَزُّونَ أو كابنِ عَمْرٍو مُبِيحِ العيالِ لمن أوْلَدَا

وَثَب ابن حَمْدون وقال للمعتزّ: يا سيّدي فمَنْ دفع هذه الرُّقْعة إلى السيِّدة؟ قال بَيْدون الخادم: أنا. فقالوا له: أحسنتَ! تُعادِينا وتوصل رُقعةَ عدوِّنا في هجائنا!! فانصرف بيدون وقام المُعْتَزّ فانصرف. واستَلَب ابنُ حَمْدون قولَه:

[المتقارب]

وكنتُ كَعَزُّونَ أو كابن عمرو مُبِيحِ العيالِ لمن أوْلَدا

(١) يستقيل من الذنب: يطلب الإقالة منه ويرجو العفو عنه.

فجعل يُنْشِدهم إيّاه وهم يشتُمون ٱبنَ حَمْدون ويَضِجُّون والمتوكِّل يضحَك ويصفِّق ويَشْرَب حتى سَكِر ونام، وسرَقوا قصيدته من بين يَدَيِ المتوكِّل وٱنصرفوا، ولم يوقِّع بإطلاقه ونَسِيه. فقالوا لابن حَمْدون: ويْلَك! تُعِيد هجاءنا وشَتْمنا!! فقال: يا حَمْقَى والله لو لم أفعل ذلك فيضحَكَ ويَشْرَبَ حتى يَسْكَر وينام لوقَّع في إطلاقه ووقَعْنا معه في كلِّ ما نكره.

أخبرني عليّ بن الحسين قال: حدّثني جعفر بن هارون بن زِياد قال: حدّثني أحمد بن حَمْدُون قال: لمّا ٱفتُتِحت أرْمِينِيةُ وقُتِلَ إسحاق بن إسماعيل[1] دخل عليّ بن الجَهْم فأنشد المتوكِّلَ قصيدتَه التي يُهَنِّيه فيها بالفتح ويمدحه، فقال فيها وأومأ بيده إلى الرسول الوارد بالفتح وبرأس إسحاقَ بن إسماعيل: [الرجز]

أهْــلاً وَسَــهْــلاً بــكَ مــن رســولِ جـئـتَ بـمـا يَـشْـفِـي مـن الـغَـلِـيـلِ
بـجـمـلـةٍ تُـغْـنِـي عـن الـتـفـصـيـلِ بـرأس إسـحـاقَ بـن إسـمـاعـيـلِ
* قَـهْـراً بـلا خَـتْـلٍ ولا تـطـويـلِ *

فاستحسن جميعُ مَنْ حضَر ارتجالَه هذا وابتداءه، وأمر له المتوكِّل بثلاثين ألف درهم، وتمَّم القصيدة. وفيها يقول: [الرجز]

جـاوز نَـهْـرَ الـكُـرِّ بـالـخُـيـولِ تَـرْدي بِـفـتْـيـانٍ كـأُسْـدِ الـغِـيـلِ[2]
مُـعَـوَّداتٍ طَـلَـبَ الـذُّحُـول خُـزْر الـعـيـون طـيِّـبـي الـنُّـصـولِ[3]
شُـعْـثٌ عـلـى شُـعْـث مـن الـفـحـول جـيـشٌ يَـلُـفُّ الـحَـزْن بـالـسُّـهـولِ[4]
كـأنّـه مُـعْـتَـلِـجُ الـسُّـيـولِ يَـسُـوسُـه كَـهْـلٌ مـن الـكـهـولِ[5]
لا يَـنْـثـنـي لـلـصَّـعْـب والـذَّلُـول عـلـى أغَـرَّ واضـحِ الـحُـجُـولِ
حـتـى إذا أصْـحَـرَ لِـلْـمَـخْـذُولِ نـاجَـزَهُ بـصـارِمٍ صَـقِـيـلِ[6]

(١) إسحاق بن إسماعيل مولى بني أمية ظفر به بغا وأحرق مدينة تفليس سنة ٢٣٨ هـ.
(٢) نهر الكُرّ: نهر بين أرمينية وأران يشق مدينة تفليس، وتروي الخيل: ترجم الحصا بحوافرها لسرعتها وشدة وطئها. والغيل: الأجمة وعرين الأسد.
(٣) الذحول: جمع ذحل، وهو الثأر. وخزر العيون: ضيقو العيون، كناية عن الغضب والغيظ.
(٤) الحزن: الأرض الغليظة.
(٥) معتلج السيول: متلاطم السيول.
(٦) أصحر: برز. والصارم الصقيل: السيف المجلوّ.

ضَرْباً طِلَخْفاً ليسَ بالقليلِ ومَنْجَنِيقٍ مِثْلِ خَلْقِ الفيلِ[١]
تَزْفِضُ عن خُرْطومه الطويلِ صواعقٌ من حَجَرِ السِّجيلِ[٢]
تتركُ كَيْدَ القَوْمِ في تَضْليلِ ما كانَ إلاّ مِثْلُ رَجْعِ القِيلِ
حتى انْجَلَتْ عن حِزْبِهِ المَفْلُولِ وعن نساءٍ حُسَّرٍ ذُهُولِ
صَوارخٍ يَعْثُرْنَ في الذُّيولِ ثَواكِلِ الأولادِ والبُعُولِ
لا والذي يُعْرَف بالعُقُولِ من غيرِ تَحْديدٍ ولا تَمْثيلِ
ما قامَ لله وللرَّسُولِ بالدِّينِ والدُّنيا وبالتَّنْزيلِ

* خليفةٌ كجعفَرَ المأمولِ *

أخبرني عليّ بن العبّاس قال: حدثني محمد بن عبد السلام قال:

رأيتُ مع عليّ بن يحيى المنجِّم قصيدةَ عليّ بن الجَهْم يمدح المتوكِّل ويصف الهارونيّ[٣]، فقلت له: يا أبا الحسن، ما هذه القصيدة معك؟ فضحِك وقال: قصيدةٌ لعليّ بن الجَهم سألني عَرْضَها على أمير المؤمنين فعرَضتها. فلمّا سمع قوله: [المتقارب]

وقُبَّةُ مُلْكٍ كأنّ النُّجو مَ تُصْغِي إليها بأسْرارِها
تَخِرُّ الوفودُ لها سُجَّداً إذا ما تَجَلَّتْ لأبْصارِها
وفَوّارةٌ ثأرُها في السَّماءِ فَلَيْسَتْ تُقَصِّرُ عن ثارِها
تَرُدُّ على المُزْنِ ما أنْزَلَتْ إلى الأرض من صَوْب مِدْرارِها

تهلّل وجهه واستحسنها. فلما انتهيت إلى قوله:

تَبَوَّأتُ بعدَكَ قَعْرَ السُّجون وقد كنتُ أرْثي لزوّارِها

غضِب وتربَّد وجهُه[٤] وقال: هذا بما كَسَبَتْ يداه، ولم يَسْمع تمامَ القصيدة.

[مقتله]

أخبرني عليّ بن العبّاس قال: حدّثني الحسين بن موسى قال: لمّا شاع في

(١) الطَّلَخف: الشديد. والمنجنيق: آلة حربية ترمى بها الحجارة (فارسي معرب).
(٢) السِّجيل: حجارة كالمدر.
(٣) الهاروني: قصر قرب سامراء ينسب إلى هارون الواثق بالله العباسي. (معجم البلدان ٥/ ٣٨٨).
(٤) تربد وجهه: عبس وتغير.

الناس مذهب عليّ بن الجَهْم وشَرُّه وذِكْرُه كلَّ أحدٍ بسوءٍ من صديقه وعدوّه تحاماه الناسُ، فخرج عن بغداد إلى الشام، فاتفقنا في قافلةٍ إلى حَلَب. وخرج علينا نَفَرٌ من الأعراب، فتسرَّع إليهم قومٌ من المُقاتِلة، وخرج فيهم فقاتل قتالاً شديداً وهزم الأعرابَ. فلمّا كان من غدٍ خرج علينا منهم خَلْقٌ كثير، فتسرَّعت إليهم المُقَاتِلَةُ وخرج فيهم فأصابتْه طَعْنَةٌ قتلتْه، فجئنا به واحتملناه وهو يَنْزِف دمُه. فلما رآني بكى وجعل يُوصيني بما يريد. فقلت له: ليس عليك بأس. فلما أمسينا قَلِق قلقاً شديداً وأحسَّ بالموت، فجعل يقول: [المجتث]

أَزِيدَ في اللَّيلِ لَيلُ ... أَم سَالَ بالصُّبحِ سَيلُ
ذَكَرتُ أَهلَ دُجَيلِ ... وأَينَ مِنِّي دُجَيلُ[1]

فأبكى كلَّ من كان في القافلة، ومات مع السَّحَر، فدُفِن في ذلك المنزل على مرحلة من حَلَب.

ومن صنعة أبي عيسى بن المتوكِّل.

صوت

[الطويل]

إنِ النَّاسُ غَطَّوْني تَغَطَّيْتُ عنهمُ ... وإن بحثوا عنِّي ففيهم مَباحِثُ
وإن حفَروا بئري حَفَرْتُ بِئارَهم ... فَسَوْفَ تَرَى ماذا تُثيرُ النَّبائثُ[2]

الشعر لأبي دُلامة. والغِناء لأبي عيسى بن المتوكِّل، ولحنه ثقيلٌ أوّلُ عن المعتزّ.

(١) دُجَيْل: نهر مخرجه من أعلى بغداد مقابل القادسية (معجم البلدان ٢/ ٤٤٣).

(٢) النبائث: جمع نبيثة، وهي تراب البئر.

أخبار أبي دُلاَمَةَ ونسبُه

[توفي ١٦١ هـ/ توفي ٧٧٨ م]

[اسمه وولاؤه وبعض سماته]

أبو دُلامة زَنْد بن الجَوْن. وأكثرُ الناس يُصَحِّف اسمَه فيقول «زيد» بالياء، وذلك خطأ، وهو زَنْد بالنون. وهو كوفيٌّ أسودُ، مولًى لبني أسد. كان أبوه عبداً لرجل منهم يقال له فضافض فأعتقه. وأدرك آخرَ أيّام بني أميّة، ولم يكن له في أيّامهم نباهة، ونبغ في أيّام بني العبّاس، وٱنقطع إلى أبي عَبّاس وأبي جعفر المنصور والمهديّ، فكانوا يقدِّمونه ويَصلونه ويستطيبون مجالستَه ونوادرَه. وقد كان ٱنقطع إلى رَوْح بن حاتم المُهَلبيِّ أيضاً في بعض أيّامه. ولم يصِل إلى أحدٍ من الشعراء ما وصل إلى أبي دُلاَمة من المنصور خاصة. وكان فاسدَ الدِّين، رديءَ المذهب مرتكباً للمحارم، مُضَيِّعاً للفروض، مجاهراً بذلك، وكان يُعْلَم هذا منه ويُعْرَف به، فيُتَجافَى عنه لِلُطْفِ مَحَلِّه. وكان أوّلُ ما حُفِظَ من شعره وأُسْنِيَتِ الجوائزُ له به قصيدةً مدح بها أبا جعفر المنصور وذكَر قَتْلَه أبا مسلم. فأخبرني أحمد بن عُبَيْد الله بن عَمّار قال: حدّثني محمد بن داود بن الجَرَّاح عن محمد بن القاسم عن أحمد بن حَبِيبٍ قال: لمّا قال أبو دُلاَمَةَ قصيدتَه في قتل أبي مسلم التي يقول فيها:

أبا مُسْلِم خَوَّفتَنِي القَتْلَ فٱنْتَحَى عليكَ بما خوَّفتَني الأَسَدُ الوَرْدُ
أبا مُسْلِمٍ ما غَيَّرَ الله نِعْمَةً على عَبْدِهِ حتى يُغَيِّرَها العَبْدُ

أنشدها المنصورَ في مَحْفِلٍ من الناس، فقال له: ٱحتكم. قال: عشرة آلاف درهم، فأمَر له بها. فلمّا خلا به قال له: إيهِ، أمَا والله لو تَعَدَّيْتَها لقتلتُك.

أخبرني أحمد بن عُبَيد الله بن عَمّار قال: حدّثني عليّ بن مُسْلمٍ عن أبيه

قال: سَمَّى لي أبو دُلامَةَ نفسَه زَنْداً (بالنون) ٱبنَ الجَوْن. وأسلم مولاه فضافض، وله أيضاً شعر، وكان في الصَّحَابة.

[علاقته بالخلفاء العباسيين]

أخبرني الحَرَميّ بن أبي العَلاَء قال: حدّثنا الزُّبَير بن بَكَّار قال: حدّثني جعفر بن الحسين المُهَلَّبيّ قال: كان أبو جعفر المنصور قد أمر أصحابَه بلُبْس السَّوَاد وقَلانِسَ طِوالٍ تُدْعَم بِعيدانٍ من داخلها، وأن يعلقوا السُّيوفَ في المناطق[1]، ويكتبوا على ظهورهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2]. فدخل عليه أبو دُلامة في هذا الزِّي. فقال له أبو جعفر: ما حالُك؟ قال: شَرُّ حالٍ، وجْهِي في نِصْفِي، وسَيْفي في ٱستي، وكتابُ الله وراءَ ظهري، وقد صبغت بالسَّواد ثيابي. فضحِك منه وأعفاه وحدَه من ذلك، وقال له: إيّاك أن يَسْمَع هذا منك أحد.

ونسختُ من كتابٍ لابن النَّطاح[3] فذكَر مِثْلَ هذه القصة سواءً وزاد فيها:

[الطويل]

وكُنّا نُرَجّي من إمامٍ زيادةً ... فجاد بطُولٍ زادَهُ في القَلانِسِ
تَرَاها على هامِ الرِّجالِ كأنَّها ... دِنانُ يَهُودٍ جُلِّلَتْ بالبَرانِسِ

فضحِك منه وأعفاه.

أخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال: حدّثني محمد بن يزيد النحويّ قال حدّثني الجاحظ قال: كان أبو دُلاَمةَ بين يَدَي المنصور واقفاً ـ وأخبرني إبراهيم بن أيّوب عن ٱبن قُتَيْبة أنه كان واقفاً بين يَدَيِ السَّفَّاح ـ فقال له: سَلْني حاجتَك. قال أبو دُلامة: كلبٌ أتصيَّد به. قال: أعطوه إيّاه. قال: ودابَّة أتَصَيَّد عليها. قال: أَعطُوه. قال: وغلامٌ يَصِيد بالكلب ويقوده. قال: أعطُوه غلاماً. قال: وجاريةٌ تُصْلِح لنا الصَّيْدَ وتُطْعِمنا منه. قال: أعطوه جاريةً. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدُك فلا بُدَّ لهم من دارٍ يسكنونها. قال: أعطوه داراً تجمعهم. قال: فإن لم تكن

(١) المناطق: جمع منطقة وهي النطاق.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٣) ابن النطاح: هو محمد بن صالح بن مهران بن النطاح مولى بني هاشم، عالم بالأنساب والسير توفي سنة ٢٥٢ هـ.

لهم ضَيْعةٌ فمن أين يعيشون! قال: قد أعطيتُك مائةَ جَرِيبٍ[١] عامرةً ومائةَ جَرِيب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: ما لا نباتَ فيه. فقال: قد أقطعتُك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَرِيب غامرةً من فَيَافِي بني أَسَد. فضحِك وقال: اجعلوها كلَّها عامرةً. قال: فأْذَنْ لي أن أُقبِّل يدَك. قال: أمّا هذه فدَعْها. قال: والله ما منعتَ عيالي شيئاً أقلّ ضرراً عليهم منها. قال الجاحظ: فٱنْظُرْ إلى حِذْقه بالمسألة ولُطْفِه فيها: ابتدأ بكلب فسهَّل القصّةَ به، وجعل يأتي بما يليه على ترتيبٍ وفُكاهةٍ، حتى نال ما لو سأله بديهةً لَمَا وصل إليه.

أخبرني عليّ بن سليمانَ الأخفش قال: حدّثني السُّكَّري عن محمد بن حَبِيبَ قال: اِسم أبي دُلامة زَنْدٌ بالنون، ومن الناس من يرويه بالياء، وكُنّيَ أبا دُلامة بٱسم جبلٍ بمكة يقال له أبو دُلاَمة[٢]، وكانت قريش تَئِدُ فيه البناتِ[٣] في الجاهليّة؛ وهو بأعلى مكة.

وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قال: حدّثنا عمر بن شَبّة، وأخبرني عمّي قال: حدّثني الكُرانيّ عن العُمَريّ عن الهَيْثَم قال:

دخل أبو دُلاَمةَ على المنصور فأنشده قصيدتَه التي يقول فيها:

إنّ الخَلِيطَ أجَدَّ البينَ فٱنتجعوا ... وزَوَّدوكَ خَبالاً بئسَ ما صَنَعُوا[٤]
واللّهُ يعلم أنْ كادَتْ لِبَيْنِهِمُ ... يومَ الفِراقِ حَصَاةُ القَلْبِ تَنصَدِعُ[٥]
عَجِبْتُ من صِبْيَتِي يَوْماً وأُمِّهِمُ ... أُمِّ الدُّلاَمةِ لمّا هاجَها الجَزَعُ
لا باركَ الله فيها من مُنَبِّهةٍ ... هَبَّتْ تَلُوم عيالي بعدما هَجعوا
ونحنُ مُشْتبِهو الألوان أوْجُهُنا ... سُودٌ قِبَاحٌ وفي أسمائنا شَنَعُ
إذا تَشَكَّتْ إليَّ الجُوعَ قلتُ لها ... ما هاجَ جُوعَكِ إلاّ الرِّيُّ والشِّبَعُ

ويُرْوَى وهو الجيّد:

أذَابَكِ الجوعُ مُذْ صارت عيالَتُنا ... على الخَلِيفَةِ منه الرِّيُّ والشِّبَعُ

---

(١) الجريب من الأرض (٣٦٠٠ ذراع) وقيل (١٠٠٠٠ ذراع).
(٢) أبو دلامة: جبل بمكة يطل على الحجون. (معجم البلدان ٢/ ٤٥٧).
(٣) وأد البنت يئدها: دفنها وهي حية.
(٤) انتجعوا: طلبوا الكلأ في مواضعه.
(٥) البَيْن: البعد.

لا والذي يا أميرَ المؤمنينَ قَضى — لكَ الخلافةَ في أسبابِها الرُّفَعُ
ما زِلتُ أُخلِصُها كَسْبِي فتأكُلُه — دوني ودون عيالي ثم تضطجعُ
شَوْهاءُ مَشْنَأةٌ في بَطْنِها ثَجَلٌ — وفي المفاصِلِ من أوصالها فَدَعُ[1]
ذَكَّرْتُها بكتابِ الله حُرْمَتَنا — ولم تَكُنْ بكتابِ الله تَنْتَفِعُ
فاخْرَنْطَمَتْ ثم قالت وهي مُغْضَبَةٌ — أأنتَ تتلو كتابَ الله يا لُكَعُ[2]
أُخْرُجْ لِتَبْغِ لنا مالاً ومَزْرَعَةً — كما لِجِيرانِنا مالٌ ومُزْدرَعُ
وٱخْدَعْ خَليفتَنا عنها بِمَسْألَةٍ — إنّ الخَليفَةَ للسُّؤال يَنْخَدِعُ

فضحِك أبو جعفر وقال: أرضوها عنّي وٱكتبوا له بمائتي جَرِيب عامرة ومائتي جرِيب غامرة ـ وقال الهيثم: بستمائة جَريب عامرة وغامرة ـ فقال له: أنا أُقْطِعك يا أمير المؤمنين أربعةَ آلاف جَريب غامرة فيما بين الحِيرة والنَّجَف، وإن شئتَ زِدتُك. فضحِك وقال: اجعلوها كلَّها عامرة.

حدّثني محمد بن أحمد بن الطَّلاَّس قال: حدّثنا أحمد بن الحارث الخَرَّاز عن المدائنيّ قال: شهِد أبو دُلاَمة بشهادة لجارة له عندَ ٱبن أبي ليلى[3] على أتانٍ نازعها فيها رجل. فلمّا فرغ من الشهادة قال: اسْمَعْ ما قلتُ فيك قبل أن آتيَك ثم ٱقْضِ ما شئتَ. قال: هات؛ فأنشده: [الطويل]

إنِ النَّاسُ غَطَّوْنِي تَغَطَّيْتُ عنهمُ — وإن بَحَثُوا عنّي ففيهم مَباحِثُ
وإن حَفَرُوا بئري حَفَرْتُ بِئارَهُمْ — لِيُعلَمَ يوماً كيفَ تلك النَّبائثُ

ثم أقبل على المرأة فقال: أتَبيعينِني الأتانَ؟ قالت نعم. قال: بكم؟ قالت: بمائة درهم. قال: ادفعوها إليها ففعلوا. وأقبل على الرجل فقال: قد وهبتُها لك، وقال لأبي دُلاَمة: قد أمْضَيْتُ شهادتك ولم أبحث عنك، وٱبتعتُ ممّن شَهِدتَ له، ووهبتُ مِلْكي لمن رأيتُ. أرَضِيتَ؟ قال نعم، وٱنصرف.

أخبرني الحسن بن عليّ الخَفَّاف قال: حدّثنا أبو بكر أحمد بن أبي خَيْثَمة قال: حدّثنا محمد بن سَلاَّم عن عليّ بن إسماعيل قال: كنتُ أَسْقِي أبا دُلاَمة

---

(١) الثَّجَل: عظم البطن واسترخاؤه. والفدع: الاعوجاج.
(٢) اخرنطمت: رفعت أنفها كبراً وغضبت.
(٣) ابن أبي ليلى: هو محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي قاضٍ فقيه. توفي ١٤٨ هـ.

والسيّد[١]، إذ خرجتْ بنتٌ لأبي دُلاَمة، فقال فيها أبو دُلامة: [الوافر]

فـمـا وَلَـدَتْـكِ مَـرْيَـمُ أمُّ عـيـسَـى ولا ربَّـاكِ لُـقْـمـانُ الـحَـكـيـمُ

أجِزْ يا أبا هاشم. فقال السيد: [الوافر]

وَلـكـنْ قَـدْ تَـضُـمُّـكِ أمُّ سَـوْءٍ إلـى لَـبَّـاتِـهـا وأبٌ لَـئِـيـمُ

فضحِك لذلك. ثم غدا أبو دُلاَمة إلى المنصور فألفاه في الرَّحْبة يُصْلِح فيها شيئاً يريده، فأخبره بقصّة بنته وأنشده البيتين، ثم آندفع بعدهما: [البسيط]

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشَّمْسِ من كَرَمٍ قَـوْمٌ لَقِيلَ آقْعُدوا يـا آلَ عـبّـاسِ
ثم آرْتَقُوا في شُعاعِ الشَّمْسِ كلُّكُمُ إلى السَّماءِ فأنْتُمْ أطْهَرُ النَّاسِ
وقدِّموا القائمَ المنصورَ رأسَكُمُ فالعَيْنُ والأنفُ والأذْنانِ في الراسِ

فآستحسنها، وقال له: بأيِّ شيءٍ تحبُّ أن أُعِينَكَ على قُبْحِ آبنتِك هذه؟ فأخرج خَريطةً[٢] قد كان خاطها من الليل فقال: تملأ لي هذه دراهمَ، فمُلِئتْ فوَسِعتْ أربعةَ آلاف درهم.

وقد أخبرني بهذا الخبر عمّي قال: حدّثنا الكُرَانيّ قال: حدّثني العُمَريّ عن الهَيْثَم بن عَديّ قال: دخل أبو عَطَاء السِّنْدِيّ يوماً إلى أبي دُلاَمة فآحتبسه عنده، ودعا بطعام فأكلا وشبِعا، وخرجتْ إلى أبي دُلامة صَبيَّةٌ له فحملها على كتفه، فبالت عليه فنبَذها عن كتفه، ثم قال: [الوافر]

بَـلَـلْـتِ عـلـيّ - لاحُـيِّـيتِ - ثَـوْبـي فـبـالَ عـلَـيْـكِ شَـيْـطـانٌ رَجِـيـمُ
فـمـا وَلَـدَتْـكِ مَـرْيَـمُ أُمُّ عـيـسـى ولا ربَّـاكِ لُـقْـمـانُ الـحـكـيـمُ

ثم آلتفت إلى أبي عطاء فقال له: أجِزْ. فقال: [الوافر]

صَـدَقْـتَ أبـا دُلامـة لـم تَـلِـدْهـا مـطَـهَّـرَةٌ ولا فَـحْـلٌ كـريـمُ
ولـكـن قـد حَـوَتْـهـا أمُ سَـوْءٍ إلـى لَـبَّـاتِـهـا وأبٌ لـئـيـمُ

فقال له أبو دُلامة: عليك لعنةُ الله! ما حملكَ على أن بلغتَ بي هذا كلّه!

---

(١) السيد: هو السيد الحميري الشاعر المتوفى سنة ١٧٣ هـ.
(٢) الخريطة: وعاء من جلد أو غيره يشدّ على ما فيه.

والله لا أُنازِعك بيتَ شعرٍ أبداً. فقال أبو عَطاء: لأن يكونَ الهربُ من جهتك أحبُّ إليّ.

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدّثني عبد الله بن المعتزّ قال: حدّثني أبو مالك عبد الله بن محمد قال: حدّثني أبي قال: لمّا تُوفِّي أبو العباس السفَّاح دخل أبو دُلامَةَ على المنصور والناس عنده يُعَزُّونه؛ فأنشأ أبو دُلامة يقول: [الكامل]

أمْسَيْتَ بالأنبار يابنَ مُحَمَّدٍ ... لم تَسْتَطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
وَيْلي عليكَ وويْل أهلي كُلِّهِمْ ... وَيْلاً وعَوْلاً في الحياة طويلا
فَلْتَبْكِيَنَّ لكَ النِّساءُ بِعَبْرةٍ ... وَلْيَبْكِيَنَّ لكَ الرِّجالُ عَويلاَ
ماتَ النَّدَى إذ مُتَّ يابْنَ محمدٍ ... فجعلتَهُ لكَ في الثَّراء عديلا
إنّي سألتُ النّاسَ بعدكَ كُلَّهُمْ ... فوَجَدْتُ أسْمَحَ مَنْ سألتُ بخيلا
ألِشِقْوتي أُخِّرتُ بعدَكَ لِلَّتي ... تَدَعُ العَزيزَ من الرِّجالِ ذليلا
فلأحْلِفَنَّ يَمِينَ حقٍّ بَرَّةً ... بالله ما أُعْطِيتُ بَعْدَكَ سُولا

قال: فأبْكَى الناسَ قولُه. فغضِب المنصورُ غضباً شديداً وقال: لئن سمعتُك تُنْشِدُ هذه القصيدةَ لأقطعنّ لسانَك. فقال أبو دُلاَمة: يا أمير المؤمنين، إنّ أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لي مُكْرِماً وهو الذي جاء بي من البَدْو كما جاء الله بإخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لإخوته: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾[1]. فسُرِّيَ عن المنصور وقال: وقد أقلناك يا أبا دُلاَمة، فسَلْ حاجتَك. فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العَبَّاس أَمَر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبِضْها. فقال المنصور: ومَنْ يعرِف هذا؟ فقال: هؤلاء، وأشار إلى جماعة ممن حضَر. فوثَب سليمانُ بن مُجالِد وأبو الجَهْم فقالا: صدَق أبو دُلاَمة، نحن نعلم ذلك. فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مَغِيظ: يا سليمانُ ٱدفَعْها إليه وسيِّرْه إلى هذا الطاغية (يعني عبد الله بن عليّ[2]، وقد كان خرج بناحية الشام، وأظهر الخلافَ). فوثَب أبو دُلامة فقال: يا أمير المؤمنين، إني أُعِيذُك بالله أن أخرج معهم، فوالله إني لمشؤوم. فقال المنصور: اِمْضِ فإنّ يُمْني يَغْلِب شُؤْمَك فاخْرُجْ. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أُحِبُّ لك أن

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
(٢) عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس عم الخليفة المنصور، وهو الذي هزم مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين في معركة الزاب. توفي سنة ١٤٧ هـ.

تجرِّب ذلك منِّي على مثل هذا العسكر؛ فإني لا أدري أيُّهما يَغْلِب: أَيُمْنُكَ أم شؤمي، إلاّ أني بنفسي أوثَقُ وأعْرَفُ وأَطْوَلُ تجربةً. قال: دَعْني من هذا فما لَك من الخروج بدّ فقال: إني أَصْدُقُكَ الآنَ، شَهِدتُ واللهِ تسعةَ عشرَ عسكراً كلُّها هُزِمتْ؛ وكنتُ سبَبَها. فإن شئتَ الآنَ على بَصيرةٍ أن يكون عسكُرك العشرين فافْعَلْ. فٱستغرب أبو جعفر ضحِكاً[١]، وأمره أن يتخلَّف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

أخبرني عمّي قال: حدّثنا الكرّاني قال: حدّثني العُمَريّ عن الهَيْثَم بن عَدِي قال: لمّا مات أبو العبّاس السفّاح ووَلِيَ المنصورُ، دخل عليه أبو دُلاَمَةَ، فقال له أبو جعفر: ألستَ القائلَ لأبي العبَّاس: [الوافر]

وَكُنَّا بالخليفةِ قد عَقَدْنا لِواءَ الأمْرِ فانْتَقَضَ اللِّواءُ
فَنَحْنُ رَعِيَّةٌ هَلَكتْ ضَياعاً تَسُوقُ بنا إلى الفِتَنِ الرِّعاءُ

قال: ما قلت هذا يا أمير المؤمنين. قال: كذبتَ واللهِ! أَفَلَستَ القائل [الكامل]

هلَكَ النَّدَى إذ بِنْتَ يابْنَ محمَّدٍ فجعلتَهُ لكَ في التراب عَدِيلاَ
ولقد سألتُ النَّاسَ بعدَكَ كلَّهم فوَجَدْتُ أكرَمَ مَنْ سألتُ بَخِيلا
ولقد حَلَفْتُ على يَمِينٍ بَرَّةٍ باللهِ ما أُعْطِيتُ بَعْدَكَ سُولا

فقال أبو دُلاَمة: إنّ أخاك صلَّى الله عليه غلَبني على صبري، وسلَبني عزيمتي، وعَزَّني بإحسانه إليّ وجزعي عليه، فقلت ما لم أتأمَّله، وإني أرغب في الثمن فٱستَفْرَهَ[٢] السِّلْعةَ حيًّا وميّتاً. فإن أعْطَيْتَ ما أعطى، أخذتَ ما أخذ. فأمر به فحُبِسَ ثلاثاً ثم خَلَّى سبيلَه ودعاه إليه فوصلَه، ثم عاد له إلى ما كان عليه.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني أحمد بن سعيد الدِّمَشْقِيّ قال: حدّثني أبو دُلامة قال: أُتِيَ بي المنصورُ أو المهديُّ وأنا سكران، فحلَف ليُخْرِجَنِّي في بَعْثِ حربٍ، فأخرجني مع رَوْح بن حاتم المهلَّبيّ لقتال ٱلشُّراةِ[٣]. فلما ٱلتقى الجمعان قلت لرَوْح: أمَا واللهِ لو أنّ تحتي فرسَكَ ومعي سلاحَكَ لأثَّرتُ في عدوّك اليوم أثراً ترتضيه. فضحك وقال: واللهِ العظيم لأدفعنّ ذلك إليك، ولآخذنّك بالوفاء بشرطك. ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إليّ، ودعا بغيرهما فاستبدل به.

---

(١) استغرب ضحكاً: أكثر من الضحك لدرجة المبالغة.
(٢) استفره السلعة: استكرمها.
(٣) الشراة: الخوارج.

فلمّا حصَل ذلك في يدي وزالت عنِّي حلاوة الطمع، قلت له: أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت بيتين فٱسمعهما. قال: هات، فأنشدتهُ: [الكامل]

إني ٱستَجَرْتُك أنْ أُقَدَّمَ في الوَغَى ... لِتَطَاعُنٍ وتَنَازُلٍ وضِرابِ
فهَبِ السُّيوفَ رأيتُها مَشْهُورَةً ... فتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ في الهُرَّابِ
ماذا تقولُ لِمَا يجيءُ وما يُرَى ... من وارداتِ المَوْتِ في النُّشَّابِ

فقال: دع عنك هذا وستعلم. وبَرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة، فقال: اخرج إليه يا أبا دُلامة. فقلت: أَنْشُدكَ اللهَ أيُّها الأمير في دمي. قال: والله لَتَخْرُجَنّ. فقلت: أيها الأمير فإنه أوّل يوم من الآخرة وآخرُ يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما شَبِعَتْ منِّي جارحةٌ من الجوع، فَمُرْ لي بشيءٍ آكله ثم أخرُج. فأمر لي برغيفين ودَجاجة، فأخذتُ ذلك وبرزتُ عن الصفّ. فلما رآني الشارِي أقبل نحوي عليه فَرْوٌ وقد أصابه المَطَرُ فٱبتلّ، وأصابته الشمس فٱقْفَعلَّ[1] وعيناه تَقِدان، فأسرع إلي. فقلت له: على رِسلِك يا هذا كما أنت، فوقف. فقلت: أتقتل مَنْ لا يقاتلك؟ قال لا. قلت: أتقتل رجلاً على دِينك؟ قال: لا. قلت: أفتستحِلُّ ذلك قبل أن تدعوَ مَنْ تقاتله إلى دينك؟ قال: لا، فٱذهب عنّي إلى لعنة الله. قلت: لا أفعل أو تسمعَ منِّي. قال: قل. قلت: هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو ترةٌ[2]، أو تعرِفُني بحالٍ تُحْفِظك عليّ[3]، أو تعلم بين أهلي وأهلك وِتْراً؟ قال: لا والله. قلت: ولا أنا والله لك إلا جميل الرأي، وإني لأهواك وأنتحل مذهبكَ وَأَدِين دينَك وأريد السُّوءَ لمن أراده لك. قال: يا هذا جزاك الله خيراً فٱنصرِفْ. قلت: إنّ معي زاداً أُحِبُّ أن آكُلَه معك، وأُحِبُّ مُوَاكلَتك لتتوكّدَ المودّةُ بيننا، ويرى أهلُ العسكر هوانَهم علينا. قال: فٱفعل. فتقدّمتُ إليه حتى ٱختلفت أعناق دوابِّنا وجمعْنا أرجلنا على مَعَارفها والناس قد غُلِبوا ضَحِكاً. فلما ٱستَوْفَيْنا ودّعَني. ثم قلت له: إنّ هذا الجاهلَ إن أقمتَ على طلب المبارزة ندَبني إليك فتُتْعِبُنِي وتَتْعَبُ. فإن رأيتَ ألاَّ تبرُز اليوم فافعلْ. قال: قد فعلتُ، ثم ٱنصرف وٱنصرفتُ. فقلت لرَوْح: أمَّا أنا فقد كفَيْتُك قِرْنِي

---

(١) اقْفَعَلّ: تقبّض.
(٢) الترة: الثأر.
(٣) تحفظك عليّ: تغضبك عليّ.

فقل لغيري أن يَكْفِيَكَ قِرْنَه كما كفَيْتُك، فأمسك. وخرج آخر يدعو إلى البِرَازِ، فقال لي: اخرج إليه. فقلت: [البسيط]

إنــي أَعُــوذُ بِــرَوْحٍ أن يُــقَــدِّمَــنِــي ... إلـى الـبِـرازِ فَـتَـخْـزَى بـي بَـنُـو أَسَـدِ
إنّ الــبِــرازَ إلــى الأقــرانِ أعْــلَــمُــهُ ... مِـمّـا يُـفَـرِّقُ بـيـن الـرُّوحِ والـجَـسَـدِ
قد حـالـفَـتْـكَ الـمـنـايا إذ صَـمَـدْتَ لـهـا ... وأصْـبَـحَـتْ لـجـمـيـعِ الـخَـلْـقِ بـالـرَّصَـدِ
إنّ الـمُـهَـلَّـبَ حُـبَّ الـمَـوْتِ أورثَـكُـمْ ... ومـا وَرِثْـتُ اْخـتـيـارَ الـمَـوْتِ عَـنْ أحَـدِ
لَـوْ أنّ لـي مـهـجـةً أُخْـرَى لَـجُـدتُ بـهـا ... لٰـكِـنَّـهـا خُـلِـقَـتْ فَـرْداً فـلـم أُجُـدِ

فضحِك وأعفاني.

أخبرني إبراهيم بن أيّوب عن اْبن قُتَيْبة قال: قال أبو دُلاَمةَ: كنتُ في عَسْكَر مروانَ[١] أيام زَحف إلى سِنَانٍ الخارجيّ. فلمّا التقى الزَّحْفان خرج منهم رجلٌ فنادى: مَنْ يبارز! فلم يخرج إليه أحدٌ إلاّ أعجله ولم يُنَهْنِهْهُ[٢]. فغاظ ذلك مروانَ وجعل يندُب الناسَ على خَمْسمائة، فقُتِل أصحابُ الخمسمائة، فزاد مروانُ وندَبهم على ألفٍ، ولم يزل يَزيدهم حتى بلغ خمسةَ آلاف درهم. وكان تحتي فرس لا أخاف خَوْنَه؛ فلمّا سمِعتُ بالخمسة آلاف ترقّبته واْقتحمتُ الصَّفَّ. فلمّا نظرني الخارجيُّ علِم أنّي خرجتُ للطمع؛ فأقبل إليّ مُتهيِّئاً وإذا عليه فَرْوٌ قد أصابه المطر فاْبتلّ، ثم أصابته الشمسُ فاْقْفَعَلَّ، وإذا عيناه تَقِدانِ كأنّهما من غَوْرهما في وَقْبَيْن[٣]. فلمّا دنا منّي أنشأ يقول: [الرجز]

وخـارجٍ أخْـرَجَـهُ حُـبُّ الـطَّـمَـعْ ... فَـرَّ مـن الـموتِ وفـي الـمَـوْتِ وَقَـعْ
* مَـنْ كـان يَـنْـوِي أهْـلَـهُ فـلا رَجَـعْ *

فلمّا وقَرتْ في أُذُني اْنصرفتُ عنه هارباً. وجعل مروانُ يقولُ: مَنْ هذا الفاضحُ؟ اِيتوني به، فدخلتُ في غِمار النّاس فنجَوْتُ.

[علاقته بالخمرة والصلاة والصوم]

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني أحمد بن سعيد قال: حدّثنا الزبير قال:

---

(١) مروان: هو مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. توفي سنة ١٣٢ هـ.
(٢) لم ينهنهه: لم يمهله.
(٣) الوقب: الحفرة في الجبل يجتمع فيها الماء.

حدّثنا جعفر بن الحُسَين اللِّهْبيّ قال: عزم موسى بن داود بن عليّ الهاشميّ على الحج. فقال لأبي دُلامة: احجُجْ معي ولك عشرةُ آلاف درهم. فقال: هاتِها، فدُفِعَتْ إليه، فأخذها وهرب إلى السَّوَاد، فجعل يُنْفِقها هناك ويَشْرَب بها الخمر. فطلبه موسى فلم يقدر عليه، وخشِي فَوْتَ الحج فخرج. فلما شارف القادسيَّة إذا هو بأبي دُلاَمة خارجاً من قرية إلى أُخرى وهو سكرانُ، فأمر بأخذه وتَقْييدِه وطَرْحِه في مَحْملٍ بين يديه ففُعِل ذلك به. فلمّا سار غيرَ بعيد أقبل على موسى وناداه:

[البسيط]

يا أيُّها النَّاسُ قولوا أجْمَعونَ معاً ... صلَّى الإلٰهُ على موسَى بْنِ داودِ
كأنَ دِيبَاجتَيْ خَدَّيْهِ من ذَهَبٍ ... إذا بدا لَكَ في أثوابِهِ السُّودِ
إنّي أعُوذُ بداودٍ وأَعْظُمِهِ ... من أنْ أُكَلَّفَ حَجًّا يابنَ داودِ
خُبِّرتُ أنَّ طريقَ الحَجِّ مَعْطَشَةٌ ... من الشَّرابِ وما شُرْبي بتَصْريدِ
واللهِ ما فيَّ من أجْرٍ فتَطْلُبَهُ ... ولا الثَّناءُ على دِيني بمحمودِ

فقال موسى: أَلْقُوه لعنَه اللهُ عن المَحْمل ودَعُوه ينصرفُ، فأُلْقِيَ وعاد إلى قَصْفه بالسَّوَاد، حتى نَفِدتِ العشرةُ آلافِ درهم.

أخبرني الحَرَميّ بن أبي العَلاَء قال: حدّثنا الزُّبَير عن جعفر بن الحسين اللِّهْبيّ، وأخبرني عمِّي عن الكُرَانيّ عن العُمَري عن الهَيْثم بن عَدِيّ قالا:

قال أبو أيّوب المُوريانِيّ لأبي جعفر، وكان يَشْنأ[1] أبا دُلاَمَةَ: إنّ أبا دلامة معتكفٌ على الخمر فما يحضُر صلاةً ولا مسجداً، وقد أفسد فِتيانَ العسكر. فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرْتَ فيه وفي غيره من فِتيان عسكرك بقَطْعِه عنهم. فلمّا دخل عليه أبو دُلاَمةَ قال له: يابْنَ اللَّخْناء، ما هذا المجُون الذي يبلُغني عنك!. قال أبو دُلاَمة: يا أمير المؤمنين ما أنا والمجونُ وقد شارفتُ بابَ قبري!. قال: دَعْنِي من ٱستكانتك وتَضَرُّعِك، وإيّاك أن تفوتَك صلاةُ الظهرِ والعصرِ في مسجدي. فلئن فاتتاكَ لأُحْسِنَنَّ أدبَك ولأُطِيلنَّ حَبْسَك. فوقع في شرٍّ ولَزِم المسجدَ أيّاماً، ثم كتب قِصَّتَه ودفَعها إلى المهديّ فأوصلها إلى أبيه، وكان فيها: [الطويل]

ألم تَعْلَمَا أنَّ الخليفةَ لَزَّني ... بمسجدِهِ وَالقَصْرِ ما لي وَلِلْقَصْرِ![2]

---

(١) يشنأ: يبغض، يكره.

(٢) لزّني بالمسجد: ألزمني إياه.

أُصَلِّي به الأُولى جميعاً وَعَصْرَها فوَيْلِي من الأولى ووَيْلي من العصرِ
أُصَلِّيهما بالكَرْهِ في غير مسجدي فما لِيَ في الأولى ولا العصرِ من أَجْرِ
لقد كانَ في قومي مساجدُ جَمَّةٌ سواه وَلٰكِنْ كانَ قَدْراً من القَدْرِ
يكلِّفني من بعدِ ما شِبْتُ خُطَّةً يَحُطُّ بها عنِّي الثَّقِيلَ من الوِزْرِ
وما ضَرَّه والله يغفرُ ذَنْبَهُ لَوَ انَّ ذُنُوبَ العالمينَ على ظَهْرِي

قال: فلمّا قرأ المنصور قِصَّتَه ضحِك وأعفاه من الحضور معه، وأحْلَفه أن يصلِّيَ الصلاةَ في مسجد قبيلته.

أخبرنا محمد بن العبّاس اليَزيديّ قال: حدّثنا أحمد بن سعيد عن الزُّبَيْر عن عمِّه، ونسختُ من بعض الكتب عن نصر بن محمد الخَرَّاز عن أبيه عن الهَيْثم بن عَدِيّ ورَوَّانِيه بعضُ من روى عن الزُّبَيْر، أنّ أبا جعفر كان يُحِبُّ العَبَثَ بأبي دُلاَمة ـ وقال الآخر: إنّ أبا العبّاس السَّفَّاح كان يحب ذلك ـ فكان يسأل عنه فيوجَد في بيوت الخَمَّارين لا فَضْلَ فيه. فعاتبه على انقطاعه عنه؛ فقال: إنما أفعل ذلك خوفاً أن تَمَلَّني. فعلم أنه يُحَاجِزُه[1]، فأمر الربيعَ أن يوكِّل به من يُحضِره الصلواتِ معه في جماعةٍ في الدار. فلمّا طال ذلك عليه قال: [الطويل]

ألم تَرَيا أنّ الخَلِيفَةَ لَزَّني بمسجده والقصرِ ما لي وللقصرِ!
فقد صَدَّني عن مسجدٍ أسْتَلِذُّه أُعَلَّلُ فيه بالسَّماع وبالخمرِ
وكلَّفني الأولى جميعاً وعصرَها فويلي من الأولى وعَوْلِي من العَصْرِ
أُصَلِّيهما بالكَرْهِ في غير مسجدي فما لي من الأولى ولا العصرِ من أجْرِ
يكلِّفني من بعد ما شِبْتُ تَوْبةً يَحُطُّ بها عني المثاقيلَ من وِزْرِي
لقد كانَ في قَوْمِي مساجدُ جَمَّةٌ ولم ينشرحْ يوماً لغِشْيانها صدري
ووالله مالي نِيَّةٌ في صلاته ولا البِرُّ والإحسانُ والخير من أمري
وما ضَرَّه والله يَغْفِرُ ذَنْبَهُ لَوَانّ ذنوبَ العالمينَ على ظَهْري

فبلغته الأبيات فقال: صدَق! ما يَضُرُّني ذلك، واللهِ لا يصلحُ هذا أبداً، فدَعُوه يعمَل ما يشاء. وقال الهيثم في خبره: فقال له أبو جعفر: قد أعفَيْناك من هذه الحال، ولكن على ألاّ تَدَعَ القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظل. فقال: أفعَلُ. قال: إنك إن تأخّرتَ لشُرْب الخمر عَلِمتُ ذلك. ووالله لئن فعلتَ لأحُدَّنّك.

(١) يحاجزه: يتخلص منه بانتحال المعاذير.

فقال أبو دُلامة: البليَّةُ في شهر أصلَحُ منها في طول الدهر، سمعاً وطاعةً. فلمّا حضَر شهرُ رمضان لزم المسجدَ. وكان المهديّ يبعث إليه في كل ليلة حَرَسِيًّا يجيء به؛ فشَقَّ ذلك عليه، وفزِع إلى الخَيْزُران وأبي عُبَيد الله وكلِّ مَنْ كان يلوذ بالمهديّ ليشفَعوا له في الإعفاء من القيام، فلم يُجبهم. فقال له أبو عُبَيْد الله: الدَّالُّ على الخير كفاعله، فكيف شُكْرُك؟ قال: أتمُّ شكر. قال: عليك برَيْطةَ[1] فإنه لا يخالفها. قال: صدَقْتَ والله، ثم رَفع إليها رُقْعةً يقول فيها: [مجزوء الرمل]

أبْـلِـغـا رَيْـطَـةَ أنّـي كُـنْـتُ عَـبْـداً لأبِـيـهـا
فَـمَـضَـى يَـرْحَـمُـهُ الـلّـ ـهُ وأوْصَـى بِـي إلـيـهـا
وَأراهـا نَـسِـيَـتْـنِـي مِـثْـلَ نِـسْـيـانِ أخِـيـهـا
جـاء شـهـر الـصَّـوْم يَـمْـشِـي مِـشْـيَـةً مـا أشْـتَـهِـيـهـا
قـائـداً لِـي لَـيْـلَـةَ الـقَـدْ رِ كـأنّـي أبْـتَـغِـيـهـا
تَـنْـطَـحُ الـقِـبْـلَـةَ شَـهْـراً جَـبْـهَـتِـي لا تـأتَـلِـيـهـا
وَلَـقَـدْ عِـشْـتُ زمـانـاً فـي فَـيـافِـيَّ وَجِـيـهـا
فـي لَـيـالٍ مِـنْ شِـتـاءٍ كـنـتُ شـيـخـاً أصْـطَـلِـيـهـا
قـاعِـداً أُوقِـدُ نـاراً لِـضِـبـابٍ أشْـتَـوِيـهـا
وَصَـبُـوحٍ وَغَـبُـوقٍ فـي عِـلابٍ أحْـتَـسِـيـهـا
مـا أُبـالِـي لَـيْـلَـةَ الـقَـدْ رِ ولا تُـسْـمِـعُـنِـيـهـا
فـاطْـلُـبـي لِـي فَـرَجـاً مـنـ ـهـا وأَجْـرِي لَـكِ فِـيـهـا

فلمّا قرأتِ الرُّقْعةَ ضَحِكتْ وأرسلتْ إليه: اصطبِرْ حتى تَمْضي ليلةُ القَدْر. فكتب إليها: إني لم أسألكِ أن تكلِّميه في إعفائي عاماً قابلاً؛ وإذا مضت ليلة القدر فقد فَنِيَ الشَّهْر. وكتب تحتها أبياتاً: [البسيط]

خافِي إلٰهَكِ في نَفْسٍ قَدِ اْحتُضِرَتْ قامَتْ قِيامَتُها بينَ المُصَلِّينا
ما ليلةُ القَدْرِ مِنْ هَمِّي فأطْلُبَها إنّي أخافُ المنايا قَبْلَ عِشرينا
يا ليلةَ القدرِ قد كَسَّرْتِ أرْجُلَنا يا ليلةَ القَدْرِ حَقًّا ما تُمنّينا!؟
لا بارَكَ الله في خَيْرٍ أؤمِّلُهُ في ليلةٍ بَعْدَ ما قُمْنا ثلاثِينا

فلمّا قرأتِ الأبياتَ ضحِكتْ، ودخلت إلى المهديّ فشفَعتْ له إليه، وأنشدتْه

(١) ريطة: ابنة أبي العباس السفاح، وزوجة المهدي.

الشعرين، فضَحِك حتى اَستلقى، ودعا به ورَيْطةُ معه في الحَجَلَة[١] فدخل؛ فأخرج رأسَه إليه وقال: قد شفَّعْنا رَيْطةَ فيك، وأمَرْنا لك بسبعة آلاف درهم. فقال: أمّا شفاعةُ سيِّدتي فيَّ حتى أعفَيْتَني فأعفاها الله من النار. وأمّا السبعة الآلاف فما أعجبني ما فعلتَه؛ إمّا أن تُتِمَّها بثلاثة آلاف فتصيرَ عشرة، أو تَنْقُصَني منها ألفين فتصير خمسة آلاف، فإنّي لا أُحسِنُ حسابَ السبعة. فقال: قد جعلتُها خمسة. قال: أُعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنتَ. فعبِث به المهديُّ ساعةً ثم تكلَّمتْ فيه رَيْطةُ فأتمَّها له عشرةَ آلافِ درهم.

أخبرني الحسين بن عليّ عن حَمّاد عن أبيه قال: مَرَّ أبو دُلاَمة بنَخّاس يَبِيع الرقيقَ، فرأى عنده منهنّ من كل شيءٍ حَسَن، فانصرف مهموماً، فدخل إلى المهدي فأنشده: [الكامل]

إن كنتَ تَبْغِي العَيْشَ حُلْواً صافِياً ... فالشِّعْرَ أَغْزِبْهُ وَكُنْ نَخّاسا[٢]
تَنَلِ الطَّرائِفَ مِنْ ظِرافٍ نُهَّدٍ ... يُحْدِثْنَ كُلَّ عَشِيَّةٍ أَعْراسا
وَالرِّبْحُ فيما بَيْنَ ذلكَ راهِنٌ ... سَمْحاً بِبَيْعِكَ كُنْتَ أو مَكّاسا[٣]
دارَتْ على الشُّعَراءِ حِرْفَةُ نَوْبَةٍ ... فَتَجَرَّعُوا من بعدِ كأسٍ كاسا
وَتَسَرْبَلُوا قُمُصَ الكَسادِ فحاوَلُوا ... بِالنَّخْسِ كَسْباً يُذْهِبُ الإِفلاسا

فجعَل المهديّ يضحك منه.

نسختُ من كتاب ابن النَّطّاح قال: دخل أبو دُلاَمةَ على المنصور فأنشده:

رَأَيتُكَ في المنامِ كَسَوْتَ جِلْدِي ... ثياباً جَمَّةً وَقَضَيْتَ دَيْني
فكانَ بَنَفْسَجِيُّ الخَزِّ فِيها ... وساجٌ ناعِمٌ فأَتَمَّ زَيْنِي[٤]
فَصَدِّقْ يا فَدَتْكَ النَّفْسُ رؤيا ... رَأَتْها في المَنامِ كذاكَ عَيْنِي

فأمر له بذلك وقال له: لا تَعُدْ أن تتحلَّم عليَّ ثانيةً، فأَجْعَلَ حُلْمَك أضغاثاً ولا أُحَقِّقَه. ثم خرج من عنده ومضى فشرب في بعض الحانات فسكِر وانصرف وهو يميل فلقِيه العَسَسُ فأخذوه، وقيل له: من أنت وما دِينُك؟ فقال:

---

(١) الحجلة: بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.
(٢) أغزِبْه: أبعِده.
(٣) المكّاس: الذي ينتقص الثمن إذا أراد الشراء. والمراد بالمماكسة هنا: المشاحّة في البيع والشراء.
(٤) الساج: الطيلسان.

[الرجز]

دينِي علَى دِين بَنِي العَبّاسِ   ما خُتِم الطِّينُ على القِرْطاسِ
إنّي اصْطَبَحْتُ أربَعاً بالكاسِ   فقد أدارَ شُرْبُها بِراسي
* فَهَلْ بما قُلْتُ لكم مِن باسِ *

فأخذوه ومَضَوْا، وخرَقوا ثيابَه وساجَه وأُتِيَ به أبو جعفر ـ وكان يؤتَى بكلِّ مَنْ أخذه العَسَسُ ـ فحبَسه مع الدَّجَاج في بيت. فلمّا أفاق جعل ينادي غلامَه مَرَّةً وجاريتَه أُخرى فلا يجيبه أحد، وهو في ذلك يسمَع صوتَ الدَّجَاج وزُقَاءَ الدُّيوك. فلمّا أكثر قال له السَّجّان: ما شأنك؟ قال: وَيْلَكَ مَنْ أنتَ وأين أنا؟ قال: في الحبس، وأنا فلان السَّجّانُ. قال: ومَنْ حبَسني؟ قال: أميرُ المؤمنين. قال: ومَنْ خرَق طَيْلَساني؟ قال: الحَرَس. فطلب منه أن يأتِيَه بدواةٍ وقِرْطاس ففعل، فكتب إلى أبي جعفر: [الوافر]

أمِيرَ المؤمنينَ فَدَتْكَ نَفْسِي   عَلامَ حَبَسْتَني وخَرَقْتَ ساجِي
أمِنْ صَفْراءَ صَافِيَةِ المِزاجِ   كأنَّ شُعاعَها لَهَبُ السِّراجِ
وَقَدْ طُبِخَتْ بنارِ الله حَتَّى   لَقَدْ صارَتْ من النُّطَفِ النِّضاجِ[1]
تَهَشُّ لَها القُلُوبُ وَتَشْتَهِيها   إذا بَرَزَتْ تَرَقْرَقُ في الزُّجاجِ
أُقادُ إلى السُّجُونِ بِغَيْرِ جُرْمٍ   كأنّي بَعْضُ عُمّالِ الخَراجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حُبِسْتُ لكانَ سَهْلاً   وَلٰكِنّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجاجِ
وَقَدْ كانَتْ تُخَبِّرُني ذُنُوبِي   بأنّي مِنْ عِقابِكَ غَيْرُ ناجِي
عَلَى أنّي وإنْ لاقَيْتُ شَرًّا   لِخَيْرِكَ بَعْدَ ذاكَ الشَّرِّ راجِي

فدَعَا به وقال: أين حُبِسْتَ يا أبا دُلامَة؟ قال: مع الدَّجاج. قال: فما كنت تصنع؟ قال: أُقَوْقِي معهنَّ حتى أصبحتُ. فضحِك وخَلَّى سبيلَه وأمر له بجائزة. فلمّا خرج قال له الرَّبيع: إنه شرِب الخمرَ يا أمير المؤمنين. أمَا سمعتَ قولَه: «وقد طبخت بنار الله» (يعني الشمس). فأمر برَدِّه ثم قال: يا خبيث شربتَ الخمرَ؟ قال لا. قال: أفلم تقل «طُبِخَتْ بنار الله» تعني الشمس. قال: لا والله ما عَنَيْتُ إلاَّ نارَ الله المُوقَدة التي تَطَّلِعُ على فؤاد الرَّبيع. فضحِك وقال: خُذْها يا ربيع ولا تعاود التعرُّضَ.

(١) النُّطَف: جمع نطفة، وهي الماء الصافي.

قال ابن النَّطّاح: ومَرَّ أبو دُلاَمة بتَمَّار بالكوفة فقال له: [المتقارب]

رَأيتُكَ أطْعَمْتَني في المَنام قَوَاصِرَ من تَمْرِكَ البارِحَهْ[1]
فَأُمُّ العِيالِ وصِبْيانُها إلى البابِ أعْيُنُهُمْ طامِحَهْ

فأعطاه جُلَّتَيْ[2] تَمْر وقال له: إنّ رأيتَ هذه الرؤيا ثانيةً لم يَصِحَّ تفسيرُها. فأخذهما وانصرف.

وقال ٱبنُ النطّاح: لمّا قدِم المهديّ من الرَّيِّ دخل عليه أبو دُلاَمةَ فأنشأ يقول: [الكامل]

إنّي نَذَرْتُ لَئِنْ رأيتُكَ سالماً بِقُرَى العِراق وأنتَ ذو وَفْرِ
لَتُصَلِّيَنَّ على النَّبِيِّ محمدٍ وَلَتَمْلأنَّ دراهِماً حِجْرِي

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وأمّا الدراهم فلا. فقال له: أنت أكرمُ من أن تُفَرِّق بينهما ثم تختارَ أسهلَهما. فأمر بأن يُمْلأَ حِجْرُه دراهم.

ومِثْلُ هذا وإن لم يكن منه، ما حدّثني به الحسنُ بن عليّ عن أحمد بن الحارث عن المدائنيّ قال: قدِم المُهَلَّبُ من بعض غَزَواته، فلَقِيَتْه عجوزٌ من الأَزْد فقالت: أيُّها الأمير، أسألك بالله والرَّحِم إلاّ وقفتَ فوقَف. فدَنَتْ وقبَّلتْ يدَه وقالتْ: هذا نَذْرٌ كان عليّ، إنّي نذرتُ عليّ الله أن أُقَبِّل يدَك إن قَدِمتَ سالماً وتهَبَ لي أربعمائة درهم وجاريةً صُغْدِيَّةً تخدِمُني. فضحِك وقال: أمّا نحن فقد وَفَّيْنا بنَذْرِك؛ ادفعوا إليها ذلك، وإيَّاكِ يا أمَّاه وهذه النُّذورَ؛ فليس كلُّ أحد يَفِي لكِ بها ويَنْشَط لتحليلكِ منها.

قال ٱبن النطّاح: وصام الناسُ في سنة شديدة الحرّ على عهد المهديّ، وكان أبو دُلامة يتنجَّز جائزةً[3] أمَر له المهديّ بها. فكتب إليه أبو دُلاَمة رُقْعَةً يشكو فيها أذى الحَرّ والصوم وهي: [الكامل]

أدْعُوكَ بِالرَّحِم التي هِيَ جَمَّعَتْ في القُرْبِ بينَ قَرِيبِنا والأبْعَدِ
إلاّ سَمِعْتَ وأنتَ أكْرَمُ مَنْ مَشَى من مُنْشِدٍ يرجو جَزاءَ المُنْشَدِ

---

(١) القواصر: جمع قوصرة، وهي وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البواري.
(٢) الجلّة: القفة الكبيرة.
(٣) يتنجز الجائزة: يطلب إنجاز الوعد بها.

جـاءَ الـصِّـيـامُ فـصُـمْـتُـهُ مُـتَـعَـبِّـداً أرْجُـو رجـاءَ الـصَّـائِـمِ الـمُـتَـعَـبِّـدِ
وَلَـقِـيـتُ مـن أمْـرِ الـصِّـيـامِ وحَـرِّهِ أمْـرَيْـنِ قِـيـسَـا بـالـعـذابِ الـمـؤْصَـدِ[1]
وسـجـدتُ حتى جَبْـهَـتِـي مَشْـجُـوجَـةٌ مـمّـا يُـنـاطِـحُـنِـي الحَـصـا فـي المسجدِ
فـأمْـنُـنْ بِـتَـسْـرِيـحِـي بـمَـطْـلِـك بـالّـذِي أسْـلَـفْـتَـنِـيـهِ مِـنَ الـبَـلاءِ الـمُـرْصَـدِ

فلمّا قرأ المهديّ رُقْعَتَه غَضِب وقال: يا عاضَّ كذا من أُمّه أيُّ قَرابةٍ بيني وبينكَ؟! قال: رَحِمُ آدمَ وحَوَّاء، أنَسِيتَهما يا أميرَ المؤمنين! فضحِك وقال: لا والله ما نسيتُهما؛ وأمَر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه. وأخبرني بهذا الخبر الحسن بن عليّ قال: حدّثنا الخُزَاعيّ عن المدائنيّ وزاد فيه قال: وأنشده أيضاً في ذمِّ الصَّوْم:

[البسيط]

هَـلْ فـي الـبـلادِ لِـرزْقِ اللهِ مُـفْـتَـرَشٌ أم لا فـفـي جِـلْـدِهِ مـن خُـشْـنَـةٍ بَـرَشُ

ـ يعني أنّ جِلْدَ الرِّزق خَشِن المَلْمَس فهو يُحْترش كما يُحْترش الضَّبُّ ـ الشِّعْر:

أضْحَى الصِّيامُ مُنِيخاً وَسْطَ عَرْصَتِنا لَيْتَ الصِّيامَ بأرْضٍ دُونَها حَرَشُ[2]
إنْ صُمْتُ أوْجَعَني بَطْنِي وأقْلَقَنِي بينَ الجَوانِحِ مَسُّ الجُوعِ والعَطَشُ
وَإنْ خَرَجْتُ بِلَيْلٍ نَحْوَ مَسْجِدِهِمْ أضَـرَّنـي بَـصَـرٌ قـد خـانَـهُ الـعَـمَـشُ

أخبرني محمد بن العبّاس اليزيديّ عن أحمد بن زُهَيْر عن الزّبَيْر عن عمّه، ونسخت من كتاب ابن النطّاح: قال اليزيديّ في خبره: دخل أبو دُلامةَ على رَيْطَةَ بعد وفاة المهديّ، وقال ابن النطّاح: دخل على أمّ سَلَمةَ بنتِ يعقوب بن سَلَمةَ[3] بعد وفاة أبي العبّاس، وهو الصحيح، فعزّاها به وبكى وبكتْ معه، ثم أنشدها:

[الكامل]

مَنْ مُجْمِلٌ في الصَّبْرِ عَنْكَ فَلَمْ يَكُنْ صَبْـرِي عـلـيـكَ غَـدَاةَ بِـنْـتَ جـمـيـلا
يـسـجـدون أبْـدَالاً بـه وأنـا امْـرُؤٌ لـو مُـتُّ وَجْـداً مـا وجـدتُ بـديـلا
إنّـي سـألـتُ الـنـاس بـعـدَكَ كُـلَّـهُـمْ فَـوَجَـدْتُ أجْـوَدَ مَـنْ سـألـتُ بـخـيـلا

---

(١) العذاب المؤصد: المطبق.
(٢) الحرش: الخشونة.
(٣) أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومية زوجة أبي العباس السفاح.

فقالت أمُّ سَلَمةَ: لم أرَ أحداً أُصِيب به غيري وغيرَك يا أبا دلامة. فقال: ولا سَوَاءَ يرحَمُكِ الله، لك منه ولد وما ولدتُ أنا منه. فضحِكتْ ـ ولم تكن منذ مات أبو العبّاس ضحِكتْ إلا ذلك الوقتَ ـ وقالت له: لو حدّثتَ الشيطانَ لأضحكته.

[بين المديح والهجاء والخداع وإعمال الحيلة والإضحاك]

أخبرنا محمد بن يحيى الصُّوليّ قال: حدّثنا الغَلاَبيّ قال: حدّثنا عبد الله بن الضحّاك قال: دخل أبو دُلامة على المهديّ وهو يبكي. فقال له: ما لك؟ قال: ماتت أمّ دُلاَمة، وأنشده لنفسه فيها: [الطويل]

وكـنّـا كـزَوْجٍ مـن قَـطـاً فـي مَـفَـازةٍ لـدى خَفْضِ عَيشٍ ناعـم مُؤنـقٍ رَغْـدِ
فـأفـردنـي رَيْـبُ الـزّمـانِ بـصَـرْفِـهِ ولـم أرَ شـيـئـاً قـطُّ أوْحَـشَ مـن فَـرْدِ

فأمر له بثيابٍ وطيبٍ ودنانير، وخرج. فدخلتْ أُمُّ دُلاَمة على الخَيْزُران فأعلمتْها أنّ أبا دُلامة قد مات، فأعطتْها مِثْلَ ذلك، وخرجتْ. فلمّا التقى المهديّ والخَيْزُران عَرَفا حيلتَهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجَبان منه.

أخبرنا أحمد بن عبد العزيز قال: حدّثنا عمر بن شَبّة، ونسختُ أنا من كتاب أبن النطّاح قال: دخل أبو دُلامةَ على المنصور فأنشده: [الرجز]

أمَـا وربِّ الـعـاديـاتِ ضَـبْـحَـا حـقًّـا وربِّ الـمُـورِيـاتِ قَـدْحَـا[1]
إنّ الـمُـغِـيـراتِ عَـلَـيَّ صُـبْـحَـا والـنـاكـئـاتِ مـن فـؤادي قَـرْحـا[2]
عَـشْـرُ لـيـالٍ بـيـنـهـن ضَـبْـحـا يَـجْـلُـفْـنَ مـالـي كـلَّ عـامٍ صبـحـا[3]

فقال له أبو جعفر: وكم تذبح يا أبا دُلامة؟ قال: أربعاً وعشرين شاة. ففرض له على كل هاشمي أربعةً وعشرين ديناراً، فكان يأخذها منهم. فأتى العباسَ بن محمد في عَشر الأضْحَى يتنجّزها. فقال: يا أبا دُلامة، أليس قد مات أبنُك؟ قال بلى. قال: أنقُصُوه دينارين. قال: أصلَح الله الأميرَ لا تفعل، فإنه ترك عليّ ولدين. فأبى إلاّ أن يَنْقُصَه. فخرج وهو يقول: [البسيط]

أخـطـاك مـا كـنـتَ تـرجـوه وتـأمُـلُـه فـاغْـسِـلْ يـديك من الـعـبّـاس بـالـيـاس

(١) الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت، ليس بصهيل ولا حمحمة.
(٢) نكأ القرح: قشره قبل البرء.
(٣) يجلفن: يستأصلن.

وٱغْسِلْ يديك بأُشنانٍ فأنقِهِما ... مما تؤمِّل من معروف عبّاس[1]
جزاك ربُّك يا عبّاسُ عن فَرَجٍ ... جَنّاتِ عَدْنٍ وعنّي جُرْزَتَيْ آس[2]

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحِك، وٱغتاظ على العبّاس، وأمره بأن يبعث إليه بأربعة وعشرين ديناراً أُخرى. هذه رواية يزيد. وأمّا ٱبنُ النطّاح فإنه ذكر أن الذي نقَصه الدينارين عليُّ بن صالح وقال له: إنما نَقَصْتُك دينارين لموت ٱبنك دُلامة. فحَلَف ألاّ يأخذ إلاّ خمسين ديناراً، ثم قام مُغْضَباً؛ فأتبعه الرسولَ فأعطاه إيّاها. فقال له: أَوْلَى لَهُ. أمّا ما سبق فلا حيلةَ فيه، والمستأنَفُ فقد أمِنه. وقد كان قال فيه: [الخفيف]

لِعَلِيِّ بنِ صالحِ بْنِ عَلِيٍّ ... نَسَبٌ لو يُعِينُهُ بسَمَاحِ
وبنو مالِكٍ كَثِيرٌ ولٰكنْ ... ما لنا في بَقائِهِمْ من فَلاَحِ
غيرَ فَضْلٍ فإنّ لِلْفَضْلِ فَضْلاً ... مُسْتَبِيناً على قُرَيْشِ البِطَاحِ

أخبرني محمد بن أحمد عن محمد بن العبّاس اليَزيديّ قال: حدّثنا أحمد بن الحارث الخرّاز عن المدائنيّ قال: خاصم رجلٌ أبا دُلامةَ في داره، فٱرتفعا إلى عافيةَ القاضي؛ فأنشأ أبو دُلامة يقول: [المتقارب]

لَقَدْ خاصَمَتْنِي دُهاةُ الرِّجالِ ... وخاصَمْتُها سَنَةً وافِيَهْ
فما أَدْحَضَ اللّٰهُ لي حُجَّةً ... ولا خَيَّبَ الله لي قافِيَهْ
ومَنْ خِفْتُ من جَوْرِه في القضاءِ ... فَلَسْتُ أخافُكَ يا عافِيَهْ

فقال له عافيةُ: أمَا واللهِ لأشكونّك إلى أمير المؤمنين ولأُعْلمنّه أنك هَجَوْتَني. قال: إذاً يَعْزِلَك. قال: ولِمَ؟ قال: لأنّك لا تعرف المديح من الهجاء. فبلغ ذلك المنصورَ فضحِك وأمر لأبي دُلامة بجائزة.

أخبرني محمد بن أحمد بن الحارث عن المَدائنيّ قال: دخل أبو دُلامة على المهديّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم. فقال له: أنا أُعطي اللهَ عهداً لئن لم تَهْجُ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك - ويقال إنه قال: لأضربنّ عُنُقَك - فنظر إليه القوم، فكلّما نظر إلى واحد منهم غمزه بأنّ عليه رِضاه. قال أبو دلامة:

---

(١) الأشنان: حمض يغسل به.
(٢) الجرزة: الحزمة.

فعلمتُ أنّي قد وقعتُ وأنها عَزْمَةٌ من عَزَماته لا بدَّ منها، فلم أرَ أحداً أحقَّ بالهجاء منّي، ولا أدْعَى إلى السلامة من هجاء نفسي، فقلت: [الوافر]

ألاَ أبْــلِــغْ إلــيــكَ أبــا دُلاَمَــهْ   فَــلَــيْــسَ مــن الــكــرام ولا كَــرامَــهْ
إذا لــبِــس الــعــمــامــةَ كــان قِــرْداً   وخِــنْــزيــراً إذا نــزَع الْــعِــمــامَــهْ
جَــمَــعْــتَ دَمَــامَــةً وَجَــمَــعْــتَ لُــؤمــاً   كــذاكَ الــلُّــؤْمُ تَــتْــبَــعُــهُ الــدَّمــامَــهْ[1]
فــإنْ تــكُ قــد أصَــبْــتَ نَــعِــيــمَ دُنْــيَــا   فــلا تَــفْــرَحْ فــقــد دَنَــتِ الــقــيــامَــهْ

فضحك القوم ولم يبق منهم أحدٌ إلاّ أجازه.

أخبرني الحرميّ بن أبي العَلاَء قال: حدّثنا الزُّبَير عن عمِّه قال:

خرج المهديّ وعليّ بن سليمان إلى الصَّيْد، فسنَح لهما قَطيعٌ من ظِباء، فأُرْسِلَتِ الكلابُ وأُجريتِ الخيلُ، فرمى المهديُّ ظبياً بسهم فصرَعه، ورمى عليُّ بن سليمان فأصاب بعضَ الكلاب فقتله. فقال أبو دُلامة: [مجزوء الرمل]

قــد رمــى الــمــهــديُّ ظَــبْــيــاً   شَــكَّ بــالــسَّــهْــم فُــؤادَهْ
وعــلــيُّ بــن ســلــيــمــا   نَ رَمَــى كَــلْــبــاً فَــصَــادَهْ
فَــهَــنِــيــئــاً لــهــمــا كــلُّ امْــرئٍ يــأكــل زادَهْ

فضحِك المهديّ حتى كاد أن يسقُط عن سرْجه، وقال: صدَق والله أبو دُلامة، وأمر له بجائزة سَنِيَّة. أخبرني بهذا الخبر عَمّي عن الكُرَانيّ عن العُمَريّ عن الهَيْثم بن عَدِيّ فذكر مِثْلَ ما ذكره وقال فيه: فلُقِّب عليُّ بن سليمان «صائدَ الكلب» وَعَلِقَ به. قال ابنُ النَّطّاح: وأنشد أبو دُلامة المنصورَ يوماً: [الكامل]

هــاتــيــك والــدتــي عَــجُــوزٌ هِــمَّــةٌ   مثلُ البَلِيَّة دِرْعُها في المِشْجَبِ[2]
مــهــزولــةُ الــلَّــحْــيَــيْــن مَــنْ يَــرَهــا يَــقُــلْ   أبصرتُ غُولاً أو خيالَ القُطْرُبِ[3]
مــا إن تَــرَكَــتْ لــهــا ولا لابْــنٍ لــهــا   مــالاً يُــؤمَّــلُ غــيــرَ بَــكْــرٍ أجْــرَبِ
ودجــائــجــاً خــمــســاً يَــرُحْــنَ إلَــيْــهِــمُ   لَــمَّــا يَــبِــضْــنَ وغيــرَ عَيْــرٍ مُــغْــرِبِ[4]
كــتــبــوا إلــيَّ صَــحِــيــفَــةً مــطــبــوعــةً   جــعــلــوا عــلــيــهــا طِــيــنــةً كــالــعَــقْــرَبِ
فَــعَــلِــمْــتُ أنَّ الــشَّــرَّ عــنــد فَــكَــاكِــهــا   فــفــكَــكْــتُــهــا عَــنْ مِــثْــلِ رِيــحِ الــجَــوْرَبِ

---

(١) عجوز همّة: عجوز فانية. والمشجب: ما تعلّق عليه الثياب وغيرها.
(٢) اللحي: عظم الحنك. والقطرب: ذكر الغيلان، أو الصغير من الجن.
(٣) العَيْر: الحمار.

وإذا شَـبِـيـةٌ بـالأفـاعِـي رُقِّـشَـتْ يُـوعِـدْنَـنِـي بـتـلـمُّـظٍ وتَـثَـؤُّبِ
يـشـكـونَ أنَّ الـجُـوعَ أهـلَـكَ بَـعْـضَـهُـمْ لَـزَبـاً فـهـل لـكَ فـي عـيـالٍ لُـزَّبِ(١)
لا يـسـألـونـكَ غـيـرَ طَـلِّ سَـحـابـةٍ تـغـشـاهُـم مـن سَـيْـلِـك الـمُـتَـحَـلِّـبِ
يـا بـاذلَ الـخَـيْـراتِ يـاَبـنَ بَـذُولِـهـا وآبـنَ الـكـرامِ وكـلِّ قَـرْمٍ مُـنْـجِـبِ
أنـتُـمْ بـنـو الـعَـبّـاسِ يُـعْـلَـمُ أنَّـكُـمْ قِـدْمـاً فـوارِسُ كُـلِّ يـومٍ أشْـهَـبِ
أَحْـلاَسُ خَـيْـلِ الله وهْـيَ مُـغِـيـرةٌ يَـخْـرُجْـنَ مـن خَـلَـلِ الـغُـبـارِ الأكْـهَـبِ(٢)

قال: فأمر له بدارٍ يسكنها وكُسوة ودراهمَ. وكانت الدار قريبةً من قصره، فأمر بأن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته إليها. فدخل عليه أبو دُلامة فأنشده قولَه: [الخفيف]

يـاَبـنَ عَـمِّ الـنـبـيِّ دعـوة شَـيْـخٍ قـد دنـا هَـدْمُ داره ودَمَـارُهْ
فـهـو كـالـمـاخض الـتي اعـتـادهـا الـطَّلْـ ـقُ فـقَـرَّتْ ومـا يَـقِـرُّ قَـرارُهْ
إن تَـحُـزْ عُـسْـرَهُ بِـكَـفَّـيْـكَ يـومـاً فَـبِـكَـفَّـيْـكَ عُـسْـرُهُ وَيَـسـارُهْ
أو تَـدَعْـه فـلـلـبَـوارِ، وأنَّـى ولـمـاذا وأنـت حَـيٌّ بَـوَارُهْ
هـل يـخـاف الـهَـلاَكَ شـاعـرُ قـومٍ قَـدُمـتْ فـي مـديـحـهـم أشـعـارُهْ
لـكُـم الأرضُ كـلُّـهـا فـأعـيـروا شـيـخَـكـم مـا احـتـوى عـلـيـه جِـدارُهْ
فـكـأنْ قـد مَـضَـى وخـلَّـف فـيـكـم مـا أَعَـرْتُـمْ وأَقْـفَـرَتْ مـنـه دارُهْ

فاستعبَر المنصورُ، وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله.

قال ابن النطّاح: ودخل أبو دُلامة على المهديّ وعنده مُحْرِز ومُقَاتِل ابنا دُؤال يعاتبانه على تقريبه أبا دُلامة ويَعِيبانه عنده. فقال أبو دُلامة: [الطويل]

ألاَ أيُّـهـا الـمـهـديُّ هَـلْ أنتَ مُـخْـبِـرِي وإن أنتَ لـم تـفـعلْ فهل أنتَ سائلي
ألـم تَـرْحَـم الـلَّـحْـيَـيْـن من لِـحْـيَـتَـيْـهِـمـا وكـلـتـاهـمـا فـي طُـولِـهـا غَـيْـرُ طـائِـلِ
وإن أنتَ لَـم تفعلْ فهل أنتَ مُكْـرِمِي بِـحَـلْـقِـهـمـا مـن مُـحْـرِزٍ ومُـقَـاتِـلِ
فـإنْ يـأذَنِ الـمَـهْـدِيُّ لـي فـيـهـمـا أَقُـلْ مـقـالاً كـوقـع الـسـيـف بـيـن الـمـفـاصـلِ

(١) اللَّزَب: الضيق الشديد. واللُّزَّب: جمع لازب وهو المصاب بالضيق الشديد.

(٢) أحلاس خيل: أي هم دائماً على صهوات خيولهم كالأحلاس، والحِلْس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت السرج والقتب والرحل. والأكهب: الأغبر المشرب سواداً.

وإلاّ تَـدَغـنـي والـهُـمُـومُ تَـنُـوبـنـي ... وقلبي من العِلْجَيْنِ جَمُّ البلابلِ(١)

فقال: أو آخُذُ لك منهما عشرةَ آلاف درهم يَفْدِيان بها أعراضَهما منك؟ قال: ذلك إلى أمير المؤمنين. فأخذها له منهما وأمسك عنهما.

قال ابن النطّاح: ودخل أبو دُلامة على سَعيد بن دَعْلَج مولى بني تَميم فقال:

[الوافر]

إذا جـئـتَ الأمـيـرَ فـقُـلْ سلامٌ ... عـلـيـكَ ورحـمـةُ الله الـرَّحـيـمِ

وأمّـا بـعـد ذاكَ فـلِـي غَـريـمٌ ... مـن الأعـرابِ قُـبِّـحَ مـن غـريـمِ

غَـرِيـمٌ لازمٌ بـفِـنـاءِ بَـيْـتِـي ... لُـزُومَ الـكـلـب أصـحـابَ الـرَّقِـيـمِ

لـه مـائـةٌ عـلـيَّ ونـصـفُ أُخـرَى ... ونِـصْـفُ الـنِّـصْـفِ فـي صَـكٍّ قـديـمِ

دراهـمُ مـا انْـتَـفَـعْـتُ بـهـا ولـكـنْ ... وَصَـلْـتُ بـهـا شُـيـوخَ بـنـي تَـمـيـمِ

أتَـوْنـي بـالـعَـشِـيـرَةِ يـسـألـونـي ... ولـم أكُ فـي الـعَـشِـيـرَةِ بـالـلَّـئـيـمِ

فضحِك وأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهماً وقال: ما أساء من أنصف، وقد كافأتك عن قومك ورَدْتُك مائةً.

أخبرني الحَرَميّ قال: حدّثنا الزُّبَير عن جعفر بن الحسين اللِّهبيّ عن عمّه مُصْعب: أنّ حَمَّادةَ بنت عيسى تُوفِّيَتْ وحضر المنصورُ جنازتَها. فلمّا وقف على حُفْرتها قال لأبي دُلامة: ما أعددتَ لهذه الحفرة؟ قال: بنتَ عمِّك يا أمير المؤمنين حَمَّادةَ بنت عيسى يُجاء بها الساعةَ فتُدْفَنُ فيها. فضحِك المنصور حتى غُلِبَ فستَر وجهه.

أخبرني عمِّي رحمه الله تعالى قال: حدّثنا محمد بن سعد الكُرَانيّ قال: قال أبو عمر حَفْص بن عمر العُمَريّ: حدّثنا الهَيْثَم قال: حَجّت الخَيْزُرانُ، فلمّا خرجتْ صاح بها أبو دُلاَمةَ. قالت: سَلُوه ما أمرُه. فقالوا له: ما أمرُك؟ فقال: أدْنُوني من مَحْملها. قالتْ: أدنوه، فأُدْنِيَ. فقال: أيّتها السيّدة، إنّي شيخ كبير وأجرُكِ فيّ عظيم. قالت: فَمَهْ. قال: تَهَبِينَ لي جاريةً من جواريكِ تؤنسني وترفُق بي وتُريحني من عجوز عندي، قد أكلتْ رِفْدي، وأطالت كَدِّي، وقد عاف جلدي جلدَها، وتمنَّيتُ بُعْدَها، وتشوَّقت فَقْدَها. فضحكتِ الخَيْزُرانُ وقالت: سوف آمرُ

(١) البلابل: جمع بلبال: وهو شدة الهمّ والوسواس.

لك بما سألتَ. فلما رجعتْ تلقَّاها وذكَّرها، وخرج معها إلى بغداد فأقام حتى غَرِض[١]. ثم دخل على أُمِّ عبِيدة حاضنةِ موسى وهارون، فدفَع إليها رُقعةً قد كتبها إلى الخَيْزُران فيها: [السريع]

أَبْلِغي سيِّدتي بالله يا أُمَّ عَبِيدَهْ

أنها أَرْشَدها الله وإن كانَتْ رَشِيدَهْ
وَعَدتْني قبل أن تخرجَ لِلْحَجِّ وَلِيدَهْ
فتأنَّيتُ وأرسلْتُ بعشرين قصيدَهْ
كُلَّما أَخْلَقْنَ أَخْلَفْتُ لها أُخرى جديدَهْ
ليس في بيتي لتمهيد فِراشي من قَعِيدَه
غيرُ عَجْفاءَ عَجُوزٍ ساقُها مِثْلُ القَدِيده[٢]
وجهُها أقبحُ من حُوتٍ طَرِيٍّ في عَصِيده
ما حياةٌ مَعَ أُنثى مِثْلِ عِرْسي بسعيدَهْ

فلمّا قُرِئتْ عليها الأبياتُ ضحِكتْ وٱستعادتْها منه لقوله: «حُوت طَرِيّ في عصيده» وجعَلتْ تضحك، ودعت بجارية من جواريها فائقةٍ فقالت لها: خُذِي كل ما لَكِ في قصري ففعلتْ، ثم دعت ببعض الخدم وقالت له: سَلِّمْها إلى أبي دُلامة. فٱنطلق الخادمُ بها فلم يصادفه في منزله. فقال لامرأته: إذا رجعَ فٱدفعيها إليه، وقولي له: تقول لك السيِّدةُ: أَحسِنْ صُحْبَةَ هذه الجارية فقد آثرتُك بها؛ فقالت له نعم. فلمّا خرج دخل ٱبنُها فوجد أُمَّه تبكي. فسألها عن خبرها فأخبرتْه وقالت: إن أردتَ أن تَبَرَّني يوماً من الدهر فاليوم. فقال: قُولي ما شئتِ فإني أفعله. قالت: تدخل عليها فتُعْلِمُها أنّك مالِكُها وتَطَؤُها فتَحْرُم عليه، وإلاّ ذهبتْ بعقله وجفاني وجفاك. ففعل ودخل إلى الجارية فوطِئها ووافقها ذلك منه، وخرج. ثم دخل أبو دُلامةَ فقال لامرأته: أين الجارية؟ قالت: في ذلك البيت. فدخل إليها شيخٌ محطّمٌ ذاهبٌ، فمدَّ يدَه إليها وذهب ليقبّلها. فقالت له: ما لَك وَيْلَك! تَنَحَّ وإلاّ لطمتُك لَطْمةً دقَقْتُ منها أنفَك. فقال لها: أبهذا أوصَتْكِ السيِّدة!. فقالت: إنّها قد بعثتْ بي إلى فتًى من حالِه وهيئته كيت وكيت، وقد كان عندي آنِفاً، ونال منّي حاجته.

---

(١) غرض: ضجر
(٢) القديد: اللحم المقدد، والثوب الخلق.

فعلِم أنه قد دُهِيَ من أمّ دُلامَةَ وٱبنها. فخرج إليه أبو دُلامة فلطَمه ولَبَّبه[(١)] وحلف ألاّ يفارقَه إلاّ عند المهديّ. فمضَى به مُلَبِّباً حتى وقَف على باب المهديّ. فعُرِّف خبرَه وأنه قد جاء بابنه على تلك الحالة فأمر بإدخاله. فلمّا دخل قال له: ما لك وَيْلك؟! قال: عَمِل بي هذا ٱبنُ الخبيثة ما لم يعمل ولدٌ بأبيه، ولا تُرضيني إلاّ أن تقتله. فقال له: وَيْلَك فما فعل؟ فأخبره الخبرَ. فضحِك حتى ٱستلقَى ثم جلس فقال له أبو دُلامةَ: أعجبك فعلُه فتضحَكَ منه؟ فقال: عليَّ بالسيف والنِّطْع. فقال له دُلامةُ: قد سمِعتَ حُجَّتَه يا أمير المؤمنين فٱسمعْ حُجَّتي. قال: هاتِ. قال: هذا الشيخُ أصْفَقُ الناسِ وجهاً، يَنِيك أُمِّي منذ أربعين سنة ما غَضِبتُ، ونِكتُ جاريتَه مرّة واحدة فغضِبَ وصنعَ بي ما تَرى! فضحِك المهديّ أكثرَ من ضحكه الأوّل، ثم قال: دَعْها له يا أبا دُلامة وأنا أُعطيك خيراً منها. قال: على أن تَخْبأها لي بين السماء والأرض، وإلاّ ناكها والله كما ناك هذه. فتقدّم إلى دُلامة ألاّ يُعاوِد بمثلِ فعله، وحلَف أنه إن عاود قتلَه، ووهَب له جاريةً أُخرى كما وعَده.

وقال ٱبن النطّاح: دخل أبو دُلاَمةَ على المهديّ وعنده شاعرٌ يُنْشِده. فقال له: ما تَرَى فيه؟ قال: إنه قد جَهَدَ نفسَه لك فٱجْهَدْ نفسَك له. فقال المهديّ: وأبيك إنها لكلِمةٌ عَذْراءُ منك، أحسِبك تعرفه! قال: لا والله ما عرفتُه ولا قلت أنا إلاّ حقًّا. فأمر للشاعر بجائزة، ولأبي دُلامة بمثلها لحسن مَحْضَرِه.

قال ٱبن النطّاح وحدّثني أبو عبد الله العُقَيليّ قال: رأيتُ على أبي دُلامة فَرْوَةً في الصّيف، فقلتُ له: ألاَ تَمَلُّ هذه الفروةَ! قال: بلى، وربَّ مملولٍ لا يُستطاع فِراقُه. فنزعتُ فاضلَ ثيابي في موضعي ودفعتُها إليه.

قال: وأُهْدِيَ للمهديّ فِيلٌ، فرآه أبو دُلامة فولَّى هارباً وقال:

يـا قـوم إنـي رأيـتُ الـفـيـلَ بـعـدَكُـم ... لا بـارك الـلّـهُ لـي فـي رؤيـة الـفـيـلِ
أبـصـرتُ قـصـراً لـه عـيـنٌ يـقـلّـبـهـا ... فـكِـدْتُ أرمِي بـسَـلْـحي في سَـرَاويـلـي

قال ٱبنُ النطّاح: ودخل أبو دُلامة على المهديّ فأنشده قصيدتَه في بغلته المشهورة: [الوافر]

أتـانـي بَـغْـلَـةً يَـسْـتـام مِـنّـي ... عـريـقٌ فـي الـخـسَـارة والـضَّـلال[(٢)]
فـقـال تـبـيـعـهـا؟ قـلـت ٱرْتَـبِـطْـهـا ... بـحـكـمـك إن بـيـعـي غـيـرُ غـالـي

---

(١) لبّبه: أخذ بتلابيبه. أي جمع ثيابه عند صدره وعنقه ثم جره.
(٢) استام: طلب السوم، أي تعيين الثمن.

فـأقـبـل ضـاحـكـاً نـحـوي سـروراً وقـال: أراك سَـمْـحـاً ذا جَـمـال
هَـلُـمَّ إلـيَّ يـخـلـو بـي خِـداعـاً ومـا يَـدْرِي الـشَّـقـيُّ بـمـن يُـخـالـي
فـقـلـتُ بـأربـعـيـن فـقـال: أحسِـنْ إلـيَّ فـإن مِـثْـلَـك ذو سِـجـال(١)
فـأتـرُكُ خـمـسـةً مـنـهـا لـعـلـمـي بـمـا فـيـه يـصـيـر مـن الـخَـبـال

فقال المهديّ: لقد أفلَتَّ من بَلاَءٍ عظيم. قال: والله يا أمير المؤمنين لقد مكثتُ شهراً أتوقَّع صاحبَها أن يَرُدَّها. قال: ثم أنشده: [الوافر]

فـأبـدِلْـنـي بـهـا يـا ربّ طِـرْفـاً يـكـون جَـمـالُ مَـرْكَـبِـه جَـمـالـي(٢)

فقال لصاحب دوابِّه: خَيِّرْه من الإِصْطَبْل مَرْكَبين. قال: يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لي وقعتُ في شرٍّ من البغلة، ولكن مُرْهُ أن يختار لي، فقال: ٱختَرْ له. وأخبرني به عمّي عن الكُرانيّ عن العُمَريّ عن الهَيْثَم بن عَدِيّ، وخبرُه أتمّ.

وأخبرني محمد بن خَلَف عن أحمد بن الهَيْثَم عن العُمَريّ عن الهَيْثَم بن عَدِيّ قال: دخل أبو دُلامةَ يوماً على المهديّ، فحادثه ساعةً وهو يضحَك وقال له: هل بقي أحدٌ من أهلي لم يَصِلْك؟ قال: إن أمَّنْتني أخبرتُك، وإن أعْفَيْتني فهو أحبُّ إليّ. قال: بل تُخبرني وأنت آمِنٌ. قال: كلُّهم قد وصَلَنِي إلاّ حاتِمَ بني العَبّاس. قال: ومن هو؟ قال: عمُّك العبّاس بن محمد. فالتفتَ إلى خادم على رأسه وقال: جَأْ(٣) عُنُقَ العاضِّ بَظْرَ أُمِّه. فلمّا دنا منه صاح به أبو دُلامةَ: تَنَحَّ يا عبدَ السَّوْء لا تُخنِث مولاك وتَنْكُثْ عهدَه وأمانَه. فضحك المهديّ وأمر الخادمَ فتنحَّى عنه، ثم قال لأبي دُلامة: وَيْلك! والله عمِّي أبخلُ الناس. فقال أبو دُلامة: بل هو أَسْخَى الناسِ. فقال له المهديّ: والله لو مُتَّ ما أعطاك شيئاً. قال: فإن أنا أتيتُه فأجازني؟ قال: لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثةُ دراهم. فٱنصرف أبو دُلامة فحبَّر للعبّاس قصيدةً ثم غدا بها علَيه وأنشده: [البسيط]

قِـفْ بـالـديـار وأَيُّ الـدَّهْـرِ لـم تَـقِـفِ على المنازلِ بين الظَّهر والنَّجَفِ(٤)

---

(١) السجال: المجادلة في السعر.

(٢) الطرف من الخيل: الكريم.

(٣) جَأْ: فعل أمر من وجأه أي دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق.

(٤) الظَّهر: اسم موضع (معجم البلدان ٤/ ٦٣). والنجف: موضع بظهر الكوفة، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. (معجم البلدان ٥/ ٢٧١).

ومـا وُقُـوفُـك فـي أطـلالِ مَـنْـزِلَـةٍ لولا الذي ٱستدرجتْ من قلبكَ الكَلِفِ
إنْ كنتَ أصْبَحْتَ مشغوفاً بساكِنِها فـلا وربِّـكَ لا تَـشـفـيـكَ مـن شَـغَـفِ
دَعْ ذا وقُلْ في الذي قد فازَ من مُضَرٍ بـالـمَـكْـرُمـات وعِـزٍّ غـيـرِ مُـقْـتَـرَفِ[١]
هٰـذي رسـالـةُ شـيـخٍ مـن بَـنـي أَسَـدٍ يُهْدِي السَّلامَ إلى العبّاسِ في الصُّحُفِ
تَـخُـطُّـها من جَواريَ الَـمِـصْـر كـاتِـبَـةٌ قـد طـالَـمـا ضَـرَبـتْ فـي الـلام والألِـفِ
وطـالـمـا ٱخـتـلـفـت صَـيْـفـاً وشـاتِـيـةً إلـى مُـعَـلِّـمِـهـا بـالـلَّـوْح والَـكَـتِـفِ
حـتّـى إذا نَـهَـدَ الـثَّـديـانِ وامـتـلاَ منها وَخِيفَتْ على الإسْرَافِ والقَرَفِ[٢]
صِـيـنَـتْ ثـلاثَ سِـنـيـنٍ مـا تَـرى أَحَـداً كـمـا يَـصُـونُ تِـجَـارٌ دُرَّةَ الـصَّـدَفِ
فبينما الشيخُ يَهْوِي نحو مَجْلِسِهِ مُـبـادِراً لِـصَـلاة الـصُّـبـح بـالـسَّـدَفِ[٣]
حـانـت لـه لَـمْـحَـةٌ مـنـهـا فـأبْـصَـرَهـا مُطِلَّةً بَيْنَ سِجْفَيْها من الغُرَفِ[٤]
فَـخَـرَّ والله مـا يَـدْري غَـدَاتَـئِـذٍ أخَـرَّ مُـنْـكَـشِـفـاً أم غـيـرَ مـنـكـشـفِ
وجـاءه الـنَّـاسُ أفـواجـاً بِـمـائِـهِـمُ لِيَغْسِلُوا الرَّجُلَ المَغْشِيَّ بالنُّطَفِ[٥]
ووَسْـوَسُـوا بِـقُـرانٍ فـي مـسـامـعـه مَـخـافَـةَ الـجِـنِّ والإنـسـانُ لـم يَـخَـفِ[٦]
شـيـئـاً ولـكـنّـه مـن حُـبِّ جـارِيَـةٍ أمسى وأصبحَ موقوفاً على التَّلَفِ
قالوا: لك الوَيْلُ ما أبْصَرْتَ؟ قلتُ لهم تَطَلَّعَتْ من أعالي القَصْرِ ذي الشُّرَفِ
فـقـلـتُ أيُّـكُـمُ والـلَّـهُ يـأجُـرُه يُـعِـيـنُ قُـوَّتَـهُ فـيـهـا عـلـى ضَـعَـفِ
فـقـامَ شَـيْـخٌ بَـهِـيٌّ مـن رِجـالِـهِـمُ قـد طـالـمـا خـدَعَ الأقـوامَ بـالـحَـلِـفِ
فـأبْـتـاعَـهـا لـي بـألْـفَـيْ دِرْهَـمٍ فـأتـى بـهـا إلَـيّ فـألـقـاهـا عـلـى كَـتِـفـي
فَـبِـتُّ أَلْـثِـمُـهـا طَـوْراً وأَلْـزَمُـهـا طوراً وأصنعُ بعضَ الشيء في اللُّحُفِ
فـبـيـن ذاك كـذا إذ جـاء صـاحـبُـهـا يَبْغِي الدراهمَ بالميزان ذي الكِفَفِ
وذِكْـرَ حـقٌّ عـلـى زَنْـدٍ وصـاحـبِـه والحقُّ في طَرَفٍ وَالطِّينُ في طَرَفِ
وبـيـنَ ذاك شُـهـودٌ لا يَـضُـرُّهُـمُ أكُـنْـتُ مُـعْـتَـرِفـاً أمْ غَـيْـرَ مُـعْـتَـرِفِ
فـإنْ يـكُـنْ مـنـكَ شـيءٌ فَـهْـوَ حَـقُّـهُـمُ أوْ لاَ فـإنّـي مَـدْفُـوعٌ إلـى الـتَّـلَـفِ

---

(١) مقترف: مكتسب. اسم فاعل من اقترف. يقال: اقترف لعياله: اكتسب لهم. واقترف المال: اقتناه.

(٢) القرف: التهمة.

(٣) السَّدف: اختلاط الضوء والظُّلمة معاً. .

(٤) السِّجف: أحد السِّترين المقرونين، بينهما فرجةٌ، جمعه أسجافٌ وسُجُوفٌ.

(٥) النُّطَف: جمع نطفةٌ. الماء الصافي.

(٦) القُران: القرآن الكريم.

قال: فضحِك العبّاس وقال: وَيْحَك أصادقٌ أنت؟ قال: نعم والله. قال: يا غلام ادفع إليه ألْفَيْ درهم ثمنَها. قال: فأخذها ثم دخل على المهديّ فأخبره القِصّةَ وما آحتال له به. فأمر له المهديُّ بستة آلاف درهم. وقال له المهديّ: كيف لا يضرّهم ذلك؟ قال: لأنّي مُعْدِم لا شيء عندي.

وقال عمّي في خبره: فقال العباس بن محمد: شاركْني في هذه الجارية. قال: أفعلُ ولكن على شريطةٍ. قال: وما هي؟ قال: الشَّرِكةُ لا تكون إلاّ مفاوضةً، فاشْترِ معها أُخرى، ليبعثَ كلُّ واحدٍ منا إلى صاحبه ما عنده ويأخذ الأُخرى مكانَها ليلةً وليلة. فقال له العباس: قَبَحك الله وقَبَح ما جئتَ به! خذ الدراهمَ لا بارك الله لك فيها وانصرِفْ.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني العَنْبِسيّ قال: كان أبو دُلامةَ مع أبي مسلم في بعض حروبه مع بني أمَيّة. فدعا رجلٌ إلى البِراز؛ فقال له أبو مسلم: ابْرُزْ إليه. فأنشأ يقول: [الطويل]

ألاَ لا تَـلُـمْـنـي إن فَـرَرْتُ فـإنَّـنِـي ... أخافُ عـلـى فُـخَّـارَتي أن تَـحَـطَّـمـا
فـلـو أنّـنـي فـي السُّـوقِ أبـتـاعُ مِـثْـلَـهـا ... وَجَـدِّكَ مـا بـالَـيْـتُ أن أتَـقَـدَّمـا

فضحك وأعفاه.

ونسخت من كتاب ابن النَّطّاح: أنّ رَيْطةَ وعَدتْ أبا دُلامة جاريةً فمطَلتْهُ حتى آمتَدَحها بعدَّة قصائد، كلُّ ذلك لا تَفِي له، ثم خرجتْ إلى مكّة ورجعتْ. وكانت لها جاريةٌ يقال لها أمُّ عَبِيدةَ تخرج وتُكلِّم الرجالَ وتبلِّغ عنها الرسائل. فقال أبو دُلامة لأمّ عَبِيدةَ حين عِيلَ صبرُه: [مجزوء الرمل]

أبـلـغـي سـيِّـدتـي إن ... شـئـتِ يـا أمَّ عَـبِـيـدهْ
أنّـهـا أرْشَـدَهـا الـلّـ ... ـهُ وإن كـانـتْ رشـيـدهْ
وَعَـدَتْـنِـي قَـبْـلَ أن تـخـ ... ـرجَ لِـلْـحَـجِّ وَلِـيـدهْ
فـتـنـظَّـرتُ وأرسـلـ ... ـتُ بـعـشـريـنَ قـصـيـدهْ
كـلَّـمـا تَـخْـلَـقُ أُولـى ... بُـدِّلَـتْ أُخْـرَى جـديـدهْ
إنَّـنِـي شَـيْـخٌ كـبـيـرٌ ... لـيـسَ فـي بـيـتـي قَـعِـيـدهْ
غَـيْـرُ مِـثْـلِ الـغُـولِ عـنـدي ... ذاتِ أوصـالٍ مَـدِيـدهْ
وَجْـهُـهـا أَسْـمَـجُ مـن خُـو ... تِ طَـرِيٍّ فـي عَـصِـيـدهْ
ذاتِ رِجْـلٍ ويـدٍ كـلـ ... ـتـاهـمـا مِـثْـلُ الـقَـدِيـدهْ

فدخلتُ على رَيْطةَ فأنشدتُها الشعرَ، فأمرتْ له بجارية ومائتي دينار للنفقة عليها.

أخبرني الحسين بن يحيى نسختُ من كتاب إسحاق الموصلي حدّثني أبي عن جدّي: أنّ أبا دُلامة نَزل بالكوفة، فأتاه أضيافٌ فغدّاهم، ثم بعث إلى سِنْدِيَّةٍ نَبَّاذة[١] يقال لها دَوْمةُ، فبعثتْ إليهم جرَّةً من نَبِيذ فشربوها، ثم أعاد فبعثتْ إليهم بأخرى، ثم جاءت تتقاضى الثمنَ. فقال: ليس عندي الثمن، ولكني أمْدَحك بما هو خيرٌ من نَبِيذِك. فقال: [الوافر]

ألا يــا دَوْمُ دامَ لــكِ الــنّــعــيــمُ وأحْـمَـرُ مِـلْءُ كَـفِّـكِ مـسـتـقـيـمُ
شَـدِيـدُ الأصْـلِ يَـنْـبِـذُ حـالِـبـاهُ يَـئِـنُّ كـأنّـهُ رَجُـلٌ سَـقِـيـمُ

وهذا الخبر يُرْوَى عن الأُقَيْشِر[٢] أيضاً.

قال إسحاق وحدّثني أبي: أنّ أبا دُلامة كان كثير الزيارة للجُنَيْد النَّخاس، وكان يتعشَّق جاريةً له ويُبْغِضه. فجاءه يوماً فقال: أخْرِجْ لي فلانةَ. فقال: إلى متى تخرج إليك ولستَ بمشترٍ!! قال: فإن لم أكن مشترياً فإني أخٌ يمدَح ويُطري. قال: ما أنا بمخرجها إليك أو تقولَ فيها شعراً. قال: فاحلِفْ بعِتْقها أن ترويَها إيّاه وتأمُرَها بإنشاده مَنْ أتاك يعترِضها ولا تحجُبَها. فحلَف لا يحجُبها. فقال أبو دُلامَةَ: [الكامل]

إنـي لأحـسَـبُ أن سَـأُمـسِـي مَـيِّـتـاً أو سـوف أُصْـبِـحُ ثـم لا أُمـسِـي
مِـنْ حُـبِّ جـارِيَـةِ الـجُـنَـيْـدِ وبُـغْـضِـه وكِـلاهُـمـا قـاضٍ عَـلَـيَّ نَـفْـسِـي
فـكـلامُـهـا يُـشْـفَـى بـه سَـقَـمِـي فـإذا تَـكَـلَّـمَ عـادَ لِـي نَـكْـسِـي

أخبرني عمّي قال: حدّثني الكُرانيّ قال: حدّثنا العُمَريّ عن الهَيْثَم بن عَدِيّ قال: دخل أبو دُلامةَ على إسحاقَ الأزرقِ يَعُوده، وكان إسحاق قد مرِض مرضاً شديداً، ثم تعافَى منه وأفاق، فكان من ذلك ضعيفاً، وعند إسحاق طبيبٌ يَصِفُ له أدويةً تقوّي بدنَه. فقال أبو دُلامة للطبيب: يابنَ الكافرة! أتَصِفُ هذه الأدويةَ لرجل أضعفه المرض! ما أردتَ والله إلاّ قَتْلَهُ. ثم ٱلتفت إلى إسحاق فقال: إسمَعْ أيها

---

(١) النبّاذة: بائعة النبيذ.

(٢) الأقيشر: هو المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسدي شاعر هجاء ولد في الجاهلية ونشأ في أول الإسلام وقتل سنة ٨٠ هـ خنقاً بالدخان.

الأمير منّي. قال: هات ما عندك يا أبا دُلامة. فأنشأ يقول: [الخفيف]

نَحِّ عنكَ الطَّبِيبَ واسْمَعْ لِنَعْتِي ... إنَّنِي ناصِحٌ من النُّصَّاحِ
ذو تجاريبَ قد تَقَلَّبْتُ في الصحّـ ... ـةِ دهراً وفي السَّقام المُتاحِ
غادِ هذا الكَبابَ كلَّ صَباحٍ ... من مُتُون الفَتِيَّةِ السُّحَّاحِ[1]
فإذا ما عَطِشتَ فاشْرَبْ ثلاثاً ... من عتيقٍ في الشَّمِّ كالتُّفَّاحِ
ثم عندَ المساءِ فاعْكُفْ على ذا ... وعلى ذا بأعظم الأقداحِ
فتقوِّي ذا الضَّعْفَ مِنْكَ وتُلْفَى ... عن ليالٍ أصحَّ هٰذي الصِّحاحِ
ذا شفاءٌ ودَعْ مَقالَةَ هذا ... ناكَ ذا أمَّهُ بأيْرِ رَبَاحِ[2]

فضحِك إسحاق وعُوَّادُه، وأمر لأبي دُلامة بخمسمائة درهم. وكان الطبيب نصرانيًّا فقال: أعوذ بالله من شَرِّك يا رَكُل (يريد يا رجل). وقال الطبيب: اقْبَلْ منّي أصلحك الله ولا تسألني عن شيء قُدّامَه. فقال أبو دُلامة: أمّا وقد أخذتُ أُجْرَةَ صَفْقَتِي وقَضَيْتُ الحقَّ في نُصْحِ صديقي، فانْعَتْ له الآن أنتَ ما أحببتَ.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثني أبو الشِّبْل عاصم بن وهب البُرْجُمِيّ قال: دخل أبو دُلامة على المهديّ وبين يديه سَلَمةُ الوصيف واقفاً، فقال: إنّي أهدَيْتُ إليك يا أمير المؤمنين مُهْراً ليس لأحد مثلُه. فإن رأيتَ أن تُشَرِّفَني بقبوله. فأمره بإدخاله إليه. فخرج وأدخل إليه دابّتَه التي كانت تحته، فإذا به بِرْذَوْنٌ مُحَطَّمٌ أَعْجَفُ هَرِمٌ. فقال له المهديّ: أيُّ شيءٍ هذا وَيْلَكَ! ألم تزعم أنه مهر!. فقال له: أو ليس هذا سَلَمَة الوصيفَ بين يديك قائماً تسمِّيه الوصيفَ وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيفٌ! فإن كان سَلَمةُ وصيفاً فهذا مُهْرٌ. فجعل سَلَمةُ يشتُمه والمهديّ يضحك. ثم قال لسَلَمَةَ: ويْلَك، إنّ لهذه منه أخوات، وإن أتى بها في مَحْفِلٍ فَضَحَك. فقال أبو دُلامة: والله لأفضحنَّه يا أمير المؤمنين؛ فليس من مواليك أحدٌ إلاّ وقد وَصَلني غيرُه، فإنّي ما شربت له الماء قطّ. قال: فقد حكمتُ عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك. قال: فعلتُ على أن لا يُعاوِد. فقال له: ما ترى؟ قال: أَفْعَلُ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئاً قطّ ما فعلتُ معه مثْلَ هذه. فمضى سَلَمةُ فحمَلها إليه.

---

(١) السُّحّاح: جمع ساح وساحة، وهي السمينة.

(٢) رباح: القرد.

[الجميع خبثاء: أبو دلامة وزوجته وابنه]

أخبرني عمّي قال: حدّثني محمد بن سعد الكُرانيّ قال: حدّثني الخليل بن أسَد عن عبد الرحمن بن صالح قال: جاء ٱبن أبي دُلامة يوماً إلى أبيه وهو في مَحْفِلٍ من جِيرانه وعَشِيرته جالس، فجلس بين يديه، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم: إن شيخي، كما ترون، قد كَبِرَتْ سِنُّه، ورَقَّ جِلدُه، ودَقَّ عظمُه، وبنا إلى حياته حاجة شديدة، فلا أزال أشير عليه بالشيء يُمْسِك رَمَقَه ويُبْقي قُوته، فيخالفني فيه. وأنا أسألكم أن تسألوه قضاءَ حاجة لي أذكرها بحضرتكم، فيها صلاحُ لجسمه، وبقاءٌ لحياته، فأسعفوني بمسألته. فقالوا: نفعلُ حُبًّا وكَرامةً. ثم أقبلوا على أبي دُلامة بألسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضِي وهو ساكت، فقال قولوا للخبيث فليَقُلْ ما يُريد، فستعلمون أنّه لم يأت إلاّ ببليَّة. فقالوا له: قل. فقال: إنّ أبي إنما يقتله كثرةُ الجماع، فتُعَاونوني عليه حتى أَخْصِيَه، فلن يقطعَه عن ذلك غيرُ الخِصاء، فيكون أصحّ لجسمه وأطولَ لعمره. فعَجِبوا من ذلك وعلموا أنه إنما أراد أن يعبَث بأبيه ويخجِّله حتى يَشِيعَ ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر، فضحِكوا منه. ثم قالوا لأبي دُلامة: قد سمِعتَ فأجِبْ. قال: قد سمعتم أنتم وعرَّفتكم أنه لن يأتي بخير. قالوا: فما عندك في هذا؟ قال: قد جعلتُ أمَّه حَكَماً بيني وبينه فقوموا بنا إليها. فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها، وقَصَّ أبو دُلامة القصَّةَ عليها، وقال لها: قد حكَّمتُكِ. فأقبلتْ على الجماعة فقالت: إنّ ٱبني ـ أصلحه الله ـ قد نصح أباه وبَرَّه ولم يألُ جُهْداً، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحْوَجَ منّي إلى بقائه، وهذا أمرٌ لم تقع به تجربةٌ منّا، ولا جَرَتْ بمثله عادةٌ لنا، وما أشُكُّ في معرفته بذلك. فَلْيبدأ بنفسه فلْيَخْصِها؛ فإذا عُوفِيَ ورأينا ذلك قد أَثَّر عليه أثراً محموداً ٱستعمله أبوه. فَنَعر[1] أبوه وجعل يضحَك به، وخَجِل ٱبنه، وٱنصرف القوم يضحكون ويعجَبون من خُبْثهم جميعاً وٱتّفاقِهم في ذلك المذهب.

أخبرني عمّي قال: حدّثنا مَيْمون بن هارون عن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه قال: كان عند المهديّ رجل من بني مَرْوان، فدخل إليه وسلَّم عليه. فأُتي المهديُّ بِعلْج[2] فأمر المَرْوانيَّ[3] بضَرْبِ عُنُقِه، فأخذ السيفَ وقام

(١) نعر: صاح وصوّت بخيشومه.
(٢) العلج: الرجل من كفار العجم.
(٣) المرواني: نسبة إلى مروان بن الحكم الأموي.

فضربه فنَبَا السيفُ عنه، فرَمَى به المروانيّ وقال: لو كان من سيوفنا ما نَبَا. فسمع المهديّ الكلام فغاظه حتى تغيَّر لونُه وبَانَ فيه. فقام يَقْطِينٌ فأخذ السيفَ وحسرَ عن ذراعيه ثم ضرب العِلْجَ فرمى برأسه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنّ هذه سيوف الطاعة لا تعمل إلاّ في أيدي الأولياء ولا تعمل في أيدي أهل المعصية. ثم قام أبو دُلامة فقال: يا أمير المؤمنين، قد حَضَرني بيتان أفأقولهما؟ قال: قل. فأنشده:

[الخفيف]

أيُّهَذَا الإِمامُ سَيْفُكَ ماضٍ ... وَبِكَفِّ الوليِّ غيرُ كَهَامِ[1]
فإذا ما نَبا بكفٍّ عَلِمْنا ... أنها كفُّ مُبْغِضٍ للإِمامِ

قال: فسُرِّيَ عن المهديّ وقام من مجلسه، وأمر حُجّابه بقتل الرجل المروانيّ فقُتِل.

(١) السيف الكهام: الكليل الذي لا يقطع.

أخبار عبد الله بن المعتزّ

[٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٦٢ ـ ٩٠٩ م]

وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبَرَع وتقدَّم جميعَ أهلِ عصره فَضْلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرّفاً في سائر الآداب أبو العبَّاس عبد الله بن المُعْتَزّ بالله.

[أدبه وشعره]

وأمرُه، مع قرب عهده بعصرنا هذا، مشهور في فضائله وآدابه شهرةً تشرِكُ في أكثر فضائله الخاصَّ والعامَّ. وشعرُه وإن كان فيه رِقّةُ الملوكيّة وغَزَلُ الظُّرفاء وهَلْهَلةُ المُحْدَثين، فإن فيه أشياءَ كثيرةً تجري في أسلوب المُجيدين ولا تقصُر عن مَدَى السابقين، وأشياءَ ظريفةً من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية. فليس يمكن واصفاً لِصَبُوح في مجلس شَكِلٍ ظريف، بين نَدَامَى وقِيان، وعلى ميادين من النَّوْر[1] والبَنَفْسَج والنَّرْجِس ومنضودٍ من أمثال ذلك، إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفُرُش ومختار الآلات، ورقَّة الخَدَم، أن يَعْدِل بذلك عما يُشْبهُ من الكلام السَّبْط[2] الرقيق الذي يفهمه كُلُّ مَنْ حضَر، إلى جَعْد[3] الكلام ووَحْشِيّه، وإلى وصف البِيد والمَهامِهِ والظَّبْي والظَّلِيم[4] والناقة والجمل والديار والقِفار والمنازل الخالية المهجورة؛ ولا إذا عدَل عن ذلك

(١) النَّوْر: الزهر الأبيض.
(٢) السَّبط: السهل المرسل.
(٣) الجعد: المعقَّد.
(٤) الظليم: ذكر النعام.

وأحسن قيل له مُسِيء، ولا أن يُغْمَطَ[١] حقَّه كلَّه إذا أحسن الكثيرَ وتوسَّط في البعض وقَصَّر في اليسير، ويُنْسَبَ إلى التقصير في الجميع، لنشر المقابح وطَيِّ المحاسن. فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحدٍ بمن تقَدم لوجد مَسَاغاً. ولو أنّ قائلاً أراد الطعن على صدور الشعراء، لقد رأى أن يطعن على الأعشى ـ وهو أحدُ مَنْ يقدّمه الأوائل على سائر الشعراء ـ بقوله: «فأصاب حَبّة قلبه وطِحالَها». ويقوله:

[الطويل]

ويأمر لليَحْمومِ كلَّ عَشِيَّةٍ بقَتٍّ وتَعْليقٍ فقد كاد يَسْنَقُ[٢]

وأمثالٍ لهذا كثيرةٍ. وإنما على الإنسان أن يحفَظ من الشيء أحسَنه، ويُلغِيَ ما لم يستحسنه، فليس مأخوذاً به. ولكنّ أقواماً أرادوا أن يرفعوا أنفسَهم الوضيعةَ، ويُشيدوا بذكرهم الخامل، ويُعْلُوا أقدارَهم الساقطةَ بالطعن على أهل الفضل والقَدْح فيهم، فلا يزدادون بذلك إلاّ ضَعَةً، ولا يزداد الآخَرُ إلاّ ارتفاعاً. ألاَ ترى إلى ابن المعتزّ قد قُتل أسوأ قِتْلة، ودَرَج فلم يَبق له خَلَفٌ يقرّظه ولا عَقِبٌ يرفع منه، وما يزداد بأدبه وشعرِه وفضلِه وحُسْنِ أخباره وتصرُّفه في كلّ فنٍ من العلوم إلاّ رِفْعةً وعُلُوّا. ولا نُظِر إلى أضداده كلّما ازدادوا في طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مِثْلهم في ثَلْبه والطعنِ عليه، زادوها سقوطاً وضَعَةً، وكلّما وصفوا أشعارهم وقرّظوا آدابهم، زادوا بها ثِقَلاً ومقتاً. فإذا وقع عليهم المُحَصِّل الموافق، عدَلوا عن ثَلْبه في الآداب، إلى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبي طالب، وهم أوّل من فعل ذلك وشنَّع به على آل أبي طالب عند المُكْتَفِي حتى نهاهم عنه، فعدَلوا عن عَيْب أنفسهم بذلك إلى عيبه، وارتكبوا أكثر منه. وأنا أذكر ذلك بعقب أخبار عبد الله، مُصَرِّحاً به على شرحٍ إن شاء الله تعالى.

وكان عبد الله حسن العلم بصناعة المُوسِيقى، والكلام على النغم وعِلَلِها. وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتبٌ مشهورةٌ، ومراسلاتٌ جَرَتْ بينه وبين عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حَمْدون وغيرهم، تدلّ على فضله وغَزارة علمه وأدبه.

ولقد قرأتُ بخطّ عُبَيْد الله بن طاهر رُقْعةً إليه بخطّه، وقد بعث إليه برسالة

---

(١) غمطه حقه: أنكره عليه.

(٢) اليحموم: اسم فرس. والقت: حبّ بري، ما يعلق للدابة من شعير وقطاني وغيرها. ويسنق: يبشم.

إلى ابن حَمْدون في أنه يجوز ولا يُنْكر أن يغيِّر الإنسانُ بعضَ نَغَم الغِناء القديم، ويعدِلَ بها إلى ما يحسُن في حَلْقه ومذهبه. وهي رسالةٌ طويلةٌ، وشاوره فيها. فكتب إليه عبيد الله: «قرأتُ ـ أيّدك الله ـ الرسالة الفاضلةَ البارعة الموفَّقَة. فأنا والله أقرأُها إلى آخرها، ثم أعود إلى أوّلها مبتهجاً، وأتأمّل وأدعو مبتهلاً، وعينُ الله التي لا تنام عليك وعلى نعمه عندك. فإنها ـ علِم الله ـ النعمةُ المعدومة المِثْل. ولقد تمثّلت وأنا أكرِّر نظري فيها قول القائل في سيّدنا وابن سيّدنا عبدِ الله بن العبّاس: [الطويل]

كَفَى وشَفَى ما في النفوس ولم يَدَعْ ... لذي إرْبةٍ في القول جِدًّا ولا هَزْلا[1]

ولا والله ما رأيتُ جدًّا في هَزْلٍ، ولا هَزْلاً في جدٍّ يُشْبِه هذا الكلام في بلاغته وفصاحتِه وبيانه وإنارة برهانه وجزالة ألفاظه، ولقد خُيِّل إليّ أنّ لسان جَدِّكَ العبَّاسِ عليه السلام ينقسم على أجزاء، فلك ـ أعزّك الله ـ نصفُها، والنصف الآخر مقسوم بين أبي جعفر المنصور والمأمون رحمة الله عليهما. ولو أنّ هذه الرسالة جَبَهت الإبراهيمَيْن إبراهيمَ بنَ المهديّ وإبراهيمَ الموصليّ وابنَه إسحاق وهم مجتمعون لبُهِت منهم الناظر، وأُخرِس الناطق، ولأقَرّوا لك بالفضل في السَّبْق، وظهور حُجَّةِ الصِّدْقِ، ثم كان قولُك لهم فَرْقاً بين الحقّ والباطل، والخطأ والصواب. ووالله ما تأخذ في فنٍّ من الفنون، إلاّ بَرَّزْتَ فيه تبريز الجواد الرّائع، المُغَبِّر في وجه كلّ حِصان تابع. عَضَد الله الشرفَ ببقائك، وأحيا الأدبَ بحياتك، وجَمَّل الدنيا وأهلَها بطول عمرك».

هذا كلام العقلاء وذوي الفضل في مِثْلِه، لا كلام الثقلاء وذوي الجهل. والإطالةُ في هذا المعنى مُسْتَغْنًى عنها. والمشهورُ عنه وعن أضداده وما يأتي من أخباره بعد ذلك ففي معنى ما شَرَطتُه من جنس ما هو المَقْصِد في كتابي هذا.

فمن صنعة عبد الله بن المعتز في شعره على أنّ أكثرها هذه سبيلُه فيها:

صوت

[البسيط]

هَلْ تَرجِعَنّ لَيالٍ قد مَضَيْنَ لنا ... والدّارُ جامعةٌ أزمانَ أزمانا

(١) الإربة: الغاية.

صَنْعَتُه في بيتٍ واحد، ولحنُه ثقيلٌ أوّل.

ومن صنعته في الثقيل الأوّل أيضاً ـ وفيه لعَلّويه رَمَلٌ قديم، وما لحنُه بدون لحن عَلّويه:

صوت [الطويل]

سَقَى جانبَ القَصْرَيْن فالدَّيْرَ فالحِمَى إلى الشَّجَرِ المَحْفُوفِ بالطِّينِ والمَدَرْ

ومن صنعته الظَّريفةِ الشَّكِلَةِ مع جودتها:

صوت [الخفيف]

وا بلائي من مَحْضَرٍ ومَغيبِ وحبيبٍ منّي بَعيدٍ قريبِ
لم تَرِدْ ماءَ وجهِهِ العَيْنُ إلاّ شَرِقَتْ قبل رِيِّها بِرَقيبِ

خفيفُ ثقيلٍ، ابتداؤه نشيد.

ومن صنعته، وله خبر أخبرني به عليّ بن هارون بن المنجِّم عن زِرْيابَ قالت: زرتُ عبدَ الله بن المعتزّ في يوم السَّعانين، فسُرَّ بورودي وصنع من وقته لحناً في شعر عبد الله بن العباس الرَّبيعيّ الذي له فيه هَزَج وهو:

صوت [الرمل]

أنا في قَلبي من الظَّبي كُلُومُ فَدَعِ اللَّومَ فإنَّ اللَّوْمَ لُومُ[1]
حَبَّذا يومُ السَّعانِينِ وما نِلْتُ فيه من سرورٍ لو يَدومُ

ـ الشعرُ لعبد الله بن العبّاس، ولحنُه فيه هَزَجٌ ـ قالت: فصنَع عبدُ الله بن المعتزّ في البيت الثاني، وبعده بيتٌ أضافه إليه، هَزَجاً وهو: [الرمل]

زارني مَوْلايَ فيه ساعَةً لَيْتَهُ واللهِ ما عِشْتُ يُقيمُ

ولحنُ ابن المعتزّ في «حبذا يوم السّعانين» وهذا البيتِ خفيفُ رَمَلٍ، وهو من نهايات الأغاني التي صنعها.

---

(١) اللُّوم: اللؤم.

ومن صنعته التي تَظَارفَ فيها ومَلُح: [الرجز]

زاحَمَ كُمِّي كُمَّه فأَلْتَوَيَا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العَيْنِ ويا هَمِّي ويا

أراد هنا بقوله «ويا» ما يقوله الناس في حكاية الشيء الذي يخاطبون به الإنسان من جميل أو قبيح، فيقولون: قلتُ له يا سيدي ويا مولاي ويا ويا، وكذلك ضدّه ليُستغنَى بالإشارة بهذا النِّداء عن الشرح. ولحنُ ٱبن المعتزّ في هذا هَزَجٌ.

حدّثني جعفر بن قُدَامة قال: كنّا عند ٱبن المعتزّ يوماً وعنده نَشْرُ، وكان يحبها ويَهيم بها، فخرجتْ علينا من صدر البستان في زمن الربيع، وعليها غِلالةٌ مُعَصْفَرة وفي يديها جنّابى[1] باكورة باقِلا. فقالت له: يا سيّدي تلعبُ معي جنّابى؟ فٱلتفتَ إلينا وقال على بديهته غيرَ متوقِّفٍ ولا مفكّر: [البسيط]

فديْتُ مَنْ مَرَّ يمشِي في مُعَصْفَرةٍ عَشِيَّةً فسَقَاني ثم حيّاني
وقال تلعبُ جنّابى فقلتُ لَهُ مَنْ جادَ بالوَصْلِ لم يلعبْ بهِجران

وأمر فغُنِّي فيه. غَنَّتْ فيما أرى فيه هَزَارُ لحناً، وهو رَمَل مُطْلَق.

حدّثني جعفر قال: كان لعبد الله بن المعتزّ غلامٌ يحبّه، وكان يغنّي غِناءً صالحاً، يقال له «نَشْوانُ». فجُدِر[2] وجَزِع عبدُ الله لذلك جزعاً شديداً، ثم عُوفِيَ ولم يؤثّر الجُدَرِيُّ في وجهه أثراً قبيحاً. فدخلتُ إليه ذاتَ يومٍ فقال لي: يا أبا القاسم، قد عُوفيَ فلانٌ بعدَك، وخرج أحسنَ مما كان، وقلتُ فيه بيتين وغَنَّتْ زِرْيابُ فيهما رَمَلاً ظَريفاً، فٱسمعهما إنشاداً إلى أن تسمعهما غِناءً. فقلت: يتفضّل الأميرُ، أيّده الله تعالى، بإنشادي إيّاهما. فأنشدني: [السريع]

لِيَ قمرٌ جُدِّرَ لمّا ٱستوى فزاده حُسْناً فزادتْ هُمومْ
أظنُّه غَنّى لشمس الضُّحَى فنَقَّطَتْهُ طَرَباً بالنُّجُومْ

فقلت: أحسنتَ والله أيها الأمير. فقال لي: لو سمعتَه من زِرْيابَ كنتَ أشدَّ

---

(١) جنابى لعبة من لعب الصبيان في زمن الشاعر. كذا في المعاجم، ويظهر أنها كلمة تعني سلة أو شيئاً توضع فيه الأشياء، ولم نعثر على هذا المعنى.
(٢) جُدِر: أُصيب بالجدري.

ٱستحساناً له. وخرجتْ زِرْيابُ فغنّتْه لنا في طريقةِ الرَّمَلِ في أحسن غِناء، فشربنا عليه عامّة يومنا.

حدّثني جعفر قال: غضِب هذا الغلام على عبد الله بن المعتزّ؛ فجهَد في أن يترضّاه، فلم تكن له فيه حيلة. فدخلتُ إليه فأنشدني فيه: [مجزوء الخفيف]

بـأبـي أنـتَ قـد تَـمـا ... دَيْتَ فـي الـهَـجْـرِ وَالـغَـضَـبْ
وٱصْـطِـبـاري عـلـى صُـدُو ... دِكَ يَـوْمـاً مـن الـعَـجَـبْ
لَـيْـسَ لـي إنْ فَـقَـدْتُ وَجْـ ... هَـكَ فـي الـعَـيْـشِ مـن أرَبْ
رَحِـمَ الـلَّـهُ مَـنْ أعـا ... نَ عـلـى الـصُّـلْـحِ واحْـتَـسَـبْ

قال: فمضَيْتُ إلى الغلام؛ ولم أزل أُداريه وأَرْفُقُ به حتى ترضَّيْتُه وجئتُه به، فمرَّ لنا يومئذٍ أطيبُ يومٍ وأحسنُه، وغَنَّتْنا هَزَارُ في هذا الشعر رَمَلاً عجيباً.

أخبرني الحسين بن القاسم الكاتب قال: حدّثني إبراهيم بن خليل الهاشميّ قال: دخلت يوماً إلى أبي عيسى بن المتوكِّل، فوجدتُ عبدَ الله بن المعتز وقد جاءه مُسَلِّماً، وسِنُّه يومئذٍ دون عشرين سنة، إذ دخل عليُّ بن محمد بن أبي الشَّوَارِب القاضي، فأكرمه أبو عيسى ونهَض إليه. فلما ٱستقرّ به المجلس قال لأبي عيسى: قد احتجتُ إلى مَعُونتك في أمر دُفِعتُ إليه لم أسْتغنِ فيه عن تكليفك المعاونةَ. قال: وما هو؟ قال: زوَّجْتُ بنتاً من بناتنا رجلاً من أهلنا، فخرج عن مذاهبنا، وأساء عِشْرة أهلِه، وجعل منزل عيسى بن هارون أكثرَ مظَانِّه وأوطانِه، ويهدِّدنا ويُوعِدنا بشَرِّه، حتى لقد نالنا من عيسى بَسْطٌ ليده ولسانِه فينا بالقبيح والقولِ السيِّيء، وكثرةُ معاونته له على ما يُزْرِي بدينه ونسبه. وقد توعّدنا بأنه يكشِف وجهه لنا في معاونة صِهْرنا هذا الغاوي علينا. ولولا نسبه الذي فخرُه لنا وعارُه علينا، لانتصفنا منه بالحق دون التعدّي، إلاّ أنّي أستعيذكَ منه. فقال له أبو عيسى: أنا أُوَجِّه إليه بعد انصرافك، وأُراسله بما أنا المتكفّل بعده بألاّ يعود إلى عِشْرته، والضامن أن أرُدّ هذا الصِّهْرَ إلى حيث تحبّ ويَقَعُ بموافقتك. فشكره ودعا له وانصرف. فقال أبو عيسى: ألاَ تَرَون إلى هذا الرجل النّبيه الفاضل السَّريّ الشريف يُدْفَع إلى مِثْلِ هذا! طُوبَى لمن لم تكن له بنت. فقال عبدُ الله بن المعتزّ: أيّها الأمير إنّ لولدك في هذا المعنى شيئاً قاله وٱستحسنه جماعةٌ ممن يعلم ويقول الشعر. فقال: هاته فِداكَ عمُّك. فأنشده لنفسه: [الوافر]

وبِـكْـرٍ قـلـتُ مـوتـي قَـبْـلَ بَـعْـلٍ ... وإن أثْـرَى وعُـدَّ مـن الـصَّـمِـيـمِ

أأمزج بـاللـئـام دَمِـي ولَـحْـمِـي فـمـا عُـذري إلـى الـنَّـسَـبِ الـكـريـمِ

فقال له أبو عيسى: أمْتَعَ الله أهلَك ببقائك، وأحسن إليهم في زيادة إحسانه إليك، وجَمَّلَهم بكمال محاسِنك، ولا أرانا شرًّا فيك.

أخبرني الحسين بن القاسم قال: حدّثني عبدُ الله بن موسى الكاتب قال: دخلت على عبد الله بن المعتزّ وفي داره طبقاتٌ من الصُّناع، وهو يبني دارَه ويُبَيِّضُها. فقلت: ما هذه الغرامةُ الحادثةُ؟ فقال: ذلك السَّيْلُ الذي جاء مُذْ ليالٍ أَحْدَثَ في داري ما أَحْوَجَ إلى الغرامة والكُلْفَة، وقال: [المتقارب]

ألاَ مَـنْ لـنـفـسٍ وأحـزانِـهـا ودارٍ تَـدَاعَـى بـحِـيـطـانِـهـا
أظَـلُّ نـهـاريَ فـي شَـمْـسِـهـا شَـقِـيًّـا مُـعَـنًّـى بِـبُـنْـيـانِـهـا
أُسَـوِّدُ وَجْـهِـي بِـتَـبْـيِـيـضِـهـا وأَهْـدِمُ كِـيـسِـي بـعُـمْـرانِـهـا

حدّثني جعفر بن قُدامة قال: كنت عند عبد الله بن المعتزّ ومعنا النُّمَيْرِيّ، وحَضَرَتِ الصلاةُ، فقام النُّمَيْرِي فصلَّى صلاةً خفيفةً جدًّا، ثم دعا بعد ٱنقضاء صلاته وسجد سَجْدَةً طويلةً جدًّا، حتى ٱستثقله جميعُ مَنْ حَضَر بسببها، وعبدُ الله ينظُر إليه متعجّباً ثُمَّ قال: [المتقارب]

صـلاتُـك بـيـنَ الـوَرَى نَـقْـرَةٌ كـمـا ٱخـتـلـسَ الـجَـرْعَـةَ الـوالـغُ[1]
وَتَـسْـجُـدُ مـن بَـعْـدِهـا سَـجْـدَةً كـمـا خُـتِـمَ الـمِـزْوَدُ الـفـارغُ[2]

أخبرني الحسين بن القاسم قال: حدّثني عبيد الله بن موسى الكاتب قال: كانت بنت الكراعة تألَف عبدَ الله بن المعتزّ، وكان يحب غناءها ويستظرفها ويحبُّها ويواصل إحضارها، ثم ٱنقطعت عنه فقال: [الخفيف]

لـيـتَ شِـعـرِي بِـمَـنْ تَـشـاغـلْـتِ بَـعْـدِي وهـو لا شَـكَّ جـاهِـلٌ مَـغْـرُورُ
هٰـكَـذا كـنـتُ مِـثْـلَـه فـي سُـرورٍ وغَـداً فـي الـهـمـوم مِـثْـلِـي يَـصِـيـرُ

حدّثني جعفر بن قُدامة قال: كنا عند ٱبن المعتز يوماً ومعنا النُّمَيْرِي، وعنده جاريةٌ لبعض بنات المغنِّين تغنِّيه، وكانت مُحْسنة إلاّ أنها كانت في غايةٍ من القُبْح،

(١) الورى: الناس، والنَّقْرَة: نقرة الديك، شبه الصلاة بسرعتها بنقرة الديك، والجرعة: شربة الماء. والوالغ: الشارب.

(٢) المزود: وعاء الزاد.

فجعل عبدُ الله يُجَمِّشُها ويتعلّق بها. فلمّا قامت قال له النُّميريّ: أيّها الأمير، سألتُك بالله أتتعشق هذه التي ما رأيتُ قطّ أقبَح منها؟ فقال عبدُ الله وهو يضحَك:

[السريع]

قـلـبـيَ وثّـابٌ إلـى ذا وذا ... لـيـس يـرى شـيـئـاً فـيـأبـاهُ
يَـهِـيـمُ بـالـحُـسْـنِ كـمـا يـنـبـغـي ... ويَـرْحَـمُ الـقُـبْـحَ فـيـهـواهُ

أخبرنا الحسين بن القاسم قال: حدّثني أبو الحسن الأمويّ قال: حدّثني عبدُ الله بن المعتزّ قال: كانت خُزَامَى جاريةُ الضبط المغنّي تُنادمني وأنا حَدَثٌ ثم تركتِ النبيذَ. وكانت مُغَنِّية مُحْسنةً شاعرةً ظريفةً. فراسلتُها مراراً فتأخرتْ عنّي، فكتبتُ إليها: [الطويل]

رأيـتُـكِ قـد أظْـهَـرْتِ زُهْـداً وتـوبـةً ... فقد سَمُجَتْ من بَعْدِ تَوْبَتِكِ الخَمْرُ
فـأهْـدَيْـتُ وَرْداً كـي يُـذَكِّـرَ عِـيـشَـةً ... لـمـن لـم يُـمَـتِّـعْـنا بـبـهـجـتـهـا الـدَّهْـرُ

فأجابت: [الطويل]

أتـانـي قـريـضٌ يـا أمِـيـري مُـحَـبَّـرٌ ... حَكَى لِيَ نَظْمَ الدُّرِّ فُصِّلَ بالشَّذْرِ[1]
أأنْـكَـرْتَ يـآبـن الأكـرمـيـنَ إنـابـتـي ... وقد أفصحتْ لي ألْسُنُ الدَّهْرِ بالزَّجْرِ
وآذَنَـنـي شَـرْخُ الـشَّـبَـاب بـبَـيْـنِـهِ ... فيا ليتَ شِعْرِي بعد ذلكَ ما عُذْرِي

حدّثني جعفر بن قُدامة قال: كنت أَسْرَح مع عبد الله بن المعتزّ في يوم من أيّام الرّبيع بالعبَّاسِيَّة[2] والدنيا كالجنّة المُزَخْرَفَة. فقال عبد الله: [مجزوء الرمل]

حَـبَّـذا آذارُ شـهـراً ... فـيـه لـلـنَّـوْر انـتـشـارُ
يَـنـقُـصُ الـلَّـيْـلُ إذا جـا ... ءَ ويَـمْـتَـدُّ الـنَّـهـارُ
وعـلـى الأرض اخْـضِـرارٌ ... واصْـفِـرارٌ واحْـمِـرارُ
فـكـأنَّ الـرَّوْضَ وَشْـيٌ ... بـالَـغَـتْ فـيـهِ الـتِّـجَـارُ
نَـقْـشُـهُ آسٌ ونِـسـريـ ... ـنٌ وورْدٌ وبَـهـار

أخبرني محمد بن يحيى الصُّوليّ قال: كتب عبدُ الله بن المعتزّ إلى عُبَيْد

(١) القريض: الشعر. والشَّذْر: خرز تُفصل به الجواهر في النظم.

(٢) العباسية: محلة كانت ببغداد ثم خربت. (انظر معجم البلدان ٤/ ٧٥).

الله بن عبد الله بن طاهر وقد ٱستخلَف مؤنسٌ[١] ٱبنَه محمد بن عُبَيْد الله على الشُّرْطة ببغداد: [الطويل]

فَرِحتُ بما أضعافُهُ دون قَدْرِكُمْ ... وَقُلْتُ عَسَى قَدْ هَبَّ من نَوْمِهِ الدَّهْرُ
فَتَرْجِعَ فينا دولَةٌ طاهِرِيَّةٌ ... كما بَدَأَتْ، والأمرُ مِنْ بَعْدِهِ الأمْرُ
عسى اللَّهُ، إنَّ اللَّهَ ليسَ بغافلٍ ... ولا بُدَّ من يُسْرٍ إذا ما ٱنتهى العُسْرُ

فكتب إليه عُبَيْد الله قصيدةً منها: [الطويل]

ونحنُ إذا ما نالَنا مَسُّ جَفْوَةٍ ... فَمِنّا على لأوائها الصَّبْرُ والعُذْرُ
وإن رَجَعَتْ من نعمةِ الله دَوْلَةٌ ... إلينا فمِنّا عندَها الحَمْدُ والشُّكْرُ

قال: وجاءه محمد بن عُبَيْد الله بِعَقِبِ هذا شاكراً لتهنئته، ثم لم يَعُدْ إليه مدّةً طويلة. فكتب إليه عبدُ الله بن المعتزّ:

قد جئتَنا مَرَّةً ولم تَعُدِ ... ولم تَزُرْ بَعْدَها ولم تَعِدِ
لَسْتُ أرى واجداً بنا عِوَضاً ... فٱطْلُبْ وجَرِّبْ وٱسْتَقْصِ وٱجْتَهِدِ
ناوَلَني حَبْلَ وَصْلِهِ بِيَدٍ ... وَهَجْرُهُ جاذباً له بِيَدِ
فلم يَكُنْ بينَ ذا وذا أَمَدٌ ... إلاّ كما بين لَيْلَةٍ وغَدِ

صوت

أمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمَانةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ[٢]
بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وأطْلاؤها يَنْهَضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ[٣]
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجَّةً ... فلأياً عَرَفتُ الدارَ بعد توهُّمِ[٤]
فلمّا عرفتُ الدارَ قلتُ لِرَبْعها ... ألاَ عِم صباحاً أيُّها الرَّبْعُ وٱسْلَمِ
ومَنْ يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنّه ... يُطيعُ العَوَالِي رُكِّبَتْ كلَّ لَهْذَمِ

---

(١) مؤنس الخادم: كان من خدم المعتضد العباسي، ثم تعاظم أمره حتى بلغ رتبة الملوك. أخيراً قتله القاهر سنة ٣٢١ هـ.

(٢) أمن أم أوفى دمنة: أي أمن منازل أم أوفى؟. والدراج مكان لم تحدده المراجع التي بين أيدينا. والمتثلم: موضع في أول أرض الصمان. (معجم البلدان ٥/ ٥٣).

(٣) العِين: جمع عيناء وهي الواسعة العينين. والآرام: الظباء البيض. والأطلاء: جمع طلا، وهو ولد البقرة والظبية الصغير.

(٤) حِجّة: سنة.

ومَنْ هـابَ أسـبـابَ الـمـنـيّـة يَـلْـقـهـا ولـو رام أسـبـابَ الـسـمـاء بـسُـلَّـم

عروضُه من الطويل. الحَوْمانةُ، فيما ذكر الأصمعيّ، الأرضُ الغليظة، وجمعُها حَوَامينُ. وقال غيره: الحَوْمانةُ: ما كان دون الرَّمْلِ. والدَّرّاجُ والمتثلَّم: موضعان. وروى أبو عمرو عن بعض ولدِ زُهَيْر «الدُّرّاج» مضمومةَ الدال. والعينُ: البَقَرُ. والآرامَ تسكن الجبال. خِلْفَةً: يذهب فَوْجٌ ويجيء فَوْجٌ يخلُفه مكانَه. ويُرْوى: مَجْثَم ومَجْثِم. فمن قال مَجْثَم قال: جَثَمَ يجثُم جُثُوماً، ومَنْ قال مَجْثِم قال: جَثَمَ يَجْثِمُ جَثْماً، واللأيُ: البطء. الزِّجاجُ: جمعُ زُجّ. قال: وأصله أنّ القوم كانوا إذا أرادوا صلحاً قلبوا زِجاج الرماح إلى فوق، فإن أبوا إلاّ الحربَ قلَبوا الأسِنَّة. واللَّهْذَم: السِّنان المحدَّد؛ يقال رمح لَهْذَمٌ وسِنانٌ لَهْذَمٌ: حادّ. وأُمُّ أَوْفَى: امرأة كانت لزُهَيْر فطلَّقها. وله في ذلك خبرٌ يُذْكَر بعد هذا.

الشعر لزُهَيْر بن أبي سُلْمَى. والغِناء للغَرِيض، ثاني ثقيلٍ بإطلاق الوتر في مجرى البِنصر عن إسحاق في الأوّل والثاني من الأبيات. وفيها لبَذْل الكبيرة ثقيلٌ أوّل بالبِنصر. ولعَلّويه في الثالث والرابع ثقيل أوّل. ولإبراهيم ثاني ثقيلٍ بالوسطى في الخامس والسادس. وفيهما ثقيل أوّل يقالُ إنه ليزيدِ حَوْراءَ.

نَسَبُ زُهَير وأخبارُه

هو زُهَيْر بن أبي سُلْمَى. وٱسم أبي سُلْمَى رَبيعة بن رِياح بن قُرَّة بن الحارثِ بن مازِن بن ثَعْلَبَةَ بن ثَوْر بن هَرْمة بنِ الأصمّ بن عثمان بن عمرو بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر بن نِزار. ومُزَيْنَةُ أُمُّ عمرو بن أُدّ هي بنت كلب بن وبرة.

[شعره ومكانته بين شعراء الجاهلية]

وهو أَحَدُ الثلاثة المُقَدَّمين على سائر الشعراء، وإنما ٱختُلِف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه. فأمّا الثلاثة فلا ٱختلاف فيهم، وهم ٱمرؤ القيس وزُهَيْر والنّابغة الذُّبيانيّ.

أخبرني أبو خَلِيفة عن محمد بن سَلاَّم عن أبي قَيْس عن عِكْرِمة بن جرير عن أبيه قال: شاعرُ أهلِ الجاهليّةِ زُهَيْر.

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجَوهريّ قال: حدّثنا عمر بن شَبَّة قال: حدّثنا هارون بن عمر قال: حدّثنا أيُوب بن سُوَيْد قال: حدّثنا يحيى بن يزيد عن عمر بن عبد الله اللَّيْثيّ عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب ليلة مَسِيره إلى الجابية[1]: أين ابن عبّاس؟ فأتيته؛ فشكا تخلُّف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. فقلت: أوَلم يعتذر إليك؟ قال: بلَى، قلت: فهو ما اعتذَر به. ثم قال: أوّلُ مَنْ رَيَّثَكم عن هذا الأمر أبو بكر. إنّ قومكم كرِهوا أن يجمعوا لكم الخلافةَ والنبوَّة ـ ثم ذكر قصّةً طويلةً ليست من هذا الباب فتركتها أنا. ثم قال: هل تَرْوِي لشاعر الشعراء؟ قلت: ومَن هو؟ قال: الذي يقول: [الطويل]

وَلَوْ أنَّ حَمْداً يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدوا ولكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدِ

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق. (معجم البلدان ٢/ ٩١).

قلت: ذاك زُهَيْر. قال: فذاك شاعرُ الشعراء. قلت: وبِمَ كان شاعرَ الشعراء؟ قال: لأنه كان لا يعاظِل في الكلام وكان يتجنَّب وَحْشِيَّ الشعر، ولم يمدح أحداً إلاّ بما فيه. قال الأصمعيّ: يعاظِل بين الكلام: يداخِل فيه. ويقال: يتّبع حُوشِيَّ الكلامِ، ووَحْشِيَّ الكلام، والمعنى واحد.

أخبرنا أبو خَليفة قال: قال ٱبن سَلاّم، وأخبرني عمر بن موسى الجُمَحِيُّ عن أخيه قُدامةَ بن موسى ـ وكان من أهل العلم ـ: أنه كان يقدِّم زُهَيْراً. قلت: فأيّ شيء كان أعجب إليه؟ قال: الذي يقول فيه: [البسيط]

قد جعل المبتغون الخَيْرَ مِنْ هَرِمٍ والسائلونَ إلى أبوابِهِ طُرُقَا

قال ٱبن سلاّم وأخبرني أبو قَيْس العَنْبريّ ـ ولم أرَ بدوياً يَفِي به ـ عن عِكْرِمةَ بن جَرير قال: قلتُ لأبي: يا أبَتِ مَنْ أشعرُ الناس؟ قال: أعن الجاهليّة تسألني أم عن الإسلام؟ قلت: ما أردتُ إلاّ الإسلام. فإذ ذكرتَ الجاهليةَ فأخْبِرْني عن أهلها. قال: زُهَيْرٌ أشعرُ أهلِها. قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق نَبْعةُ الشعر. قلت: فالأخطل؟ قال: يُجيد مَدْحَ الملوك ويُصيب وصْفَ الخمر. قلت: فما تركتَ لنفسك؟ قال: نَحَرْتُ الشعرَ نَحْراً.

أخبرني الحسن بن عليّ قال: أخبرنا الحارث بن محمد عن المدائنيّ عن عيسى بن يزيد قال: سأل معاويةُ الأحنفَ بن قَيْسٍ عن أشعر الشعراء، فقال: زُهَير. قال: وكيف؟ قال: ألقى عن المادحين فضولَ الكلام. قال: مِثل ماذا؟ قال: مثل قوله: [الطويل]

فما يَكُ من خيرٍ أتَوْه فإنّما تَوَارَثَهُ آباءُ آبائهم قَبْلُ

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال: حدّثنا عمر بن شَبَّةَ قال: حدّثنا عبدُ الله بن عمرو القَيْسِيّ قال: حدّثنا خارجةُ بن عبد الله بن سليمان عن زيد بن ثابت عن عبد الله بن أبي سُفيانَ عن أبيه عن ٱبن عبّاس، قال: وحدّثَنيه غيرُه وهو أتمُّ من حديثه، قال: قال ٱبن عبّاس: خرجتُ مع عمر في أوّل غَزَاةٍ غَزَاها. فقال لي ذاتَ ليلةٍ: يابنَ عبّاس أنشِدْني لشاعر الشعراء. قلتُ: ومَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابنُ أبي سُلْمى. قلت: وبِمَ صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتّبع حُوشِي الكلام، ولا يعاظِل من المنطق، ولا يقول إلاّ ما يعرِف، ولا يمتدح الرجلَ إلاّ بما يكون فيه. أليس الذي يقول:

[الطويل]

إذا ٱبتدرتْ قَيْسُ بنُ عَيْلانَ غايَةً مِنَ المَجْدِ مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ(١)
سَبَقْتَ إليها كلَّ طَلْقٍ مُبَرِّزٍ سبُوقٍ إلى الغايات غيرِ مُزَنَّدِ(٢)
كفعلِ جوادٍ يَسْبِقُ الخيلَ عَفْوُهُ الـ ـسِّراعَ وإن يَجْهَدْ ويَجْهَدْنَ يَبْعُدِ
ولو كانَ حَمْدٌ يُخْلِد الناسَ لم تمُتْ ولكنَّ حَمْدَ النَّاس ليس بمُخْلِدِ

أَنْشِدْني له، فأنشدته حتى بَرَقَ الفجرُ. فقال: حَسْبُكَ الآنَ، اقرأ القرآن. قلت: وما أقرأ؟ قال: اقرأ الواقعة، فقرأتُها ونَزَل فأذَّن وصلَّى.

أخبرني محمد بن القاسم الأنباري قال: حدّثني أبي قال: حدّثنا أحمد بن عُبيد قال: أخبرنا أبو عُبيدة عن عيسى بن يزيدَ بن بكر قال: قال ٱبن عبّاس: خرجت مع عمر، ثم ذكر الحديثَ نحوَ هذا.

وجدتُ في بعض الكتب عن عبد الله بن شَبِيب عن الزُّبير بن بَكّار عن حُمَيد بن محمد بن عبد العزيز الزُّهريّ عن أخيه إبراهيم بن محمد يرفَعه: أنّ رسولَ اللهﷺ نظر إلى زُهَير بن أبي سُلمى وله مائةُ سنة فقال: «اللهم أعِذني من شيطانه» فما لاك بيتاً حتى مات.

قال ٱبن الأعرابيّ وأبو عمرو الشَّيْبانيّ: كان من حديث زُهَير وأهلِ بيتِه أنهم كانوا من مُزَينة، وكان بنو عبد الله بن غَطَفانَ جيرانَهم، وقِدْماً ولدتْهم بنو مُرَّة. وكان من أمرِ أبي سُلْمَى أنه خرج وخالَه أسْعدَ بنَ الغَدِير بن مُرَّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيان بن بَغِيض وٱبنَه كعبَ بن أسعد في ناسٍ من بني مُرَّة يُغِيرون على طَيِّء، فأصابوا نَعَماً كثيرةً وأموالاً حتى ٱنتهوا إلى أرضهم. فقال أبو سُلْمى لخاله أسعد وٱبنِ خاله كعبٍ: أَفْرِدا لي سَهْمي، فأبَيَا عليه ومنعاه حقَّه، فكفَّ عنهما؛ حتى إذا كان الليلُ أتى أمَّه فقال: والذي أحلِف به لَتَقُومِنَّ إلى بعيرٍ من هذه الإبل فَلَتَقْعُدنَّ عليه أو لأضربَنَّ بسيفي تحت قُرْطَيْكِ. فقامت أمُّه إلى بعير منها فٱعتنقتْ سَنامه، وساق بها أبو سُلْمى وهو يرتجز ويقول: [الرجز]

وَيْلٌ لأجمالِ العَجُوزِ مِنِّي إذا دَنَوْتُ وَدَنَوْنَ مِنِّي
* كأنَّني سَمَغْمَعٌ من جِنِّ *

(١) ابتدرت: تسابقت.
(٢) الطلق: السريع. والمبرز: السبّاق إلى الخير والكرم. والمزنّد: اللئيم.

سَمَغْمَغٌ: لطيفُ الجسم قليلُ اللحم ـ وسَاقَ الإبلَ وأُمَّه حتى ٱنتهى إلى قومه مُزَيْنَةَ. فذلك حيث يقول: [الكامل]

ولــتَــغْــدُوَنْ إبِــلٌ مــجــنَّــبــةٌ مــن عــنــد أَسْــعَــدَ وٱبــنِــه كــعــب

ـ مُجَنَّبة: مجنوبة ـ

الآكــلــيْــن صَــرِيــحَ قــومِــهــمــا أَكْــلَ الــحُــبَــارَى بُــرْعُــمَ الــرُّطَــبِ

ـ البُرْعُم: شجرة ولها نَوْرٌ ـ قال: فلبِث فيهم حيناً، ثم أقبل بمزَينة مُغيراً على بني ذُبيان. حتى إذا مُزَيْنةُ أَسْهَلَتْ وخَلَّفتْ بلادَها ونظروا إلى أرض غَطَفانَ، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحدَه. فذلك حيث يقول:

مَـنْ يَـشْـتـري فـرسـاً لـخـيرٍ غَـزْوُهـا وأَبَـتْ عَـشِـيـرةُ رَبِّـهـا أن تُـسْـهِـلا

يعني أن تنزِل السَّهْلَ. قال: وأقبل حين رأى ذلك من مُزَيْنة حتى دخل في أخواله بني مُرَّة. فلم يزل هو وولدُه في بني عبد الله بن غَطَفان إلى اليوم.

[معلقة زهير، وسببها وزواج الحارث بن عوف]

وقصيدة زُهَيْر هذه أَغني:

* أَمِـنْ أُمِّ أَوْفَـى دِمْـنَـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ *

قالها زُهَيْر في قتْل وَرْد بن حابِس العَبْسِي هَرِمَ بن ضَمْضَم المُرِّيّ الذي يقول فيه عَنْتَرَةُ وفي أخيه: [الكامل]

ولـقـد خَـشـيـتُ بـأن أمـوتَ ولـم تَـدُرْ لِـلْـحَـرْبِ دائـرةٌ عـلـى ٱبـنَـيْ ضَـمْـضَـمِ

ويمدح بها هَرِمَ بن سِنان والحارث بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيانَ المُرِّيَّيْن لأنهما ٱحتملا دِيتَه في مالهما؛ وذلك قول زُهَيْر: [الطويل]

سَـعَـى سـاعـيـا غَـيْـظِ بـنِ مُـرَّةَ بَـعْـدَمـا تَـبَـزَّلَ مـا بـيـن الـعَـشِـيـرَةِ بـالـدَّمِ[1]

يعني بني غَيْظ بن مُرَّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبيان.

قال الأَثْرَمُ أبو الحسن: حدّثني أبو عُبيدة قال: كان وَرْدُ بنُ حابس العبسيّ

(١) تبزّل: تشقق.

قتل هَرِمَ بنَ ضَمْضَم المُرِّيّ فتشاجر عَبْسٌ وذُبيان قبل الصلح، وحلف حُصَين بن ضَمْضَم ألاّ يغسِل رأسَه حتى يقتل وَرْدَ بنَ حابس أو رجلاً من بني عَبْس ثم من بني غالب، ولم يُطْلِع على ذلك أحداً، وقد حَمَل الحَمالَة[1] الحارثُ بن عَوْف بن أبي حارثة، وقيل بل أخوه حارثة بن سِنان. فأقبل رجلٌ من بني عَبْس ثم أحدُ بني مخزوم، حتى نزل بحُصَيْن بن ضَمْضَم. فقال له حُصَيْن: مَنْ أنت أيُّها الرجل؟ قال: عَبْسِيٌّ. قال: من أيِّ عَبْس؟ فلم يزل يَنْتَسِب حتى ٱنتسب إلى بني غالب، فقتله حُصَيْن. وبلغ ذلك الحارثَ بنَ عَوْف وهَرِمَ بنَ سِنان فاشتدّ عليهما، وبلغ بني عَبْس فركِبوا نحوَ الحارث. فلمّا بلَغه ركوبُهم إليه وما قد ٱشتدّ عليهم من قَتْلِ صاحبِهم وأنّهم يريدون قَتْلَ الحارث، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ٱبنه، وقال للرسول: قل لهم: الإبلُ أحبُّ إليكم أم أنفسُكم؟ فأقبل الرسول حتى قال لهم ذلك. فقال لهم الرَّبيع بن زِياد: يا قوم إنّ أخاكم قد أرسل إليكم: «الإبلُ أحبُّ إليكم أم ٱبني تَقتلونه مكانَ قتيلكم». فقالوا نأخذ الإبل ونصالح قومَنا، ونُتِمّ الصُّلْحَ. فذلك حين يقول زُهَيْر يمدح الحارثَ وهَرِماً:

* أمِنْ أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ *

وهي أوّلُ قصيدة مدَح بها هَرِماً، ثم تابع ذلك بعدُ.

وقد أخبرني الحسن بن عليّ بهذه القصة، وروايتُه أتمُّ من هذه، قال: حدّثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدّثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبِيّ قال: حدّثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عَوْف عن أبيه قال: قال الحارثُ بن عوف بن أبي حارثَة: أتُراني أخطب إلى أحد فيردّني؟ قال نعم. قال: ومَنْ ذاك؟ قال: أَوْسُ بنُ حارثة بن لأم الطَّائيّ. فقال الحارث لغلامه: ٱرحَلْ بنا، ففعل. فركبا حتى أتيا أوْسَ بنَ حارثة في بلاده فوجداه في منزله. فلمّا رأى الحارثَ بنَ عَوْفٍ قال: مرحباً بك يا حارِ. قال: وبكَ. قال: ما جاء بك يا حارِ؟ قال: جئتُك خاطباً. قال: لستَ هناك. فانصرف ولم يكلّمْه. ودخل أوسٌ على ٱمرأته مُغْضَباً وكانت من عَبْس فقالت: مَنْ رَجُلٌ وَقَفَ عليك فلم يُطِلْ ولم تكلِّمْه؟ قال: ذاك سَيِّدُ العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرِّيّ. قالت: فما لَكَ لم تستنزله؟ قال: إنه

(١) الحمالة: الدية.

استحمَقَ. قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً. قالت: أفتريد أن تزوّج بناتِك؟ قال نعم. قالت: فإذا لم تُزَوِّجْ سَيِّدَ العرب فمَنْ؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارَكْ ما كان منك. قال: بماذا؟ قالت: تَلْحَقُه فتردُّه. قال: وكيف وقد فَرَط منّي ما فَرَط إليه؟ قالت تقول له: إنك لَقيتَني مُغْضَباً بأمرٍ لم تقدِّم فيه قولاً، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعتَ، فانصرِفْ ولك عندي كلُّ ما أحببتَ فإنه سيفعل. فرَكِب في أثرهما. قال خارجةُ بن سِنان: فوالله إني لأسيرُ إذ حانت منّي التفاتةٌ فرأيتُه، فأقبلتُ على الحارث وما يُكَلِّمني غَمًّا فقلت له: هذا أوْسٌ بن حارثة في أثَرِنا. قال: وما نصنع به، امْضِ!. فلمّا رآنا لا نقف عليه صاح: يا حار ارْبَعْ عليَّ ساعةً. فوقفنا له فكلّمه بذلك الكلام فرجع مسروراً. فبلغني أن أوْساً لمّا دَخل منزلَهُ قال لزوجته ادْعي لي فلانَة (لأكبر بناته) فأتته، فقال: يا بُنَيَّة، هذا الحارث بن عَوْف سَيِّدٌ من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردتُ أن أُزَوِّجَكِ منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولِمَ؟ قالت: لأني امرأة في وجهي رَدَّة[1]، وفي خُلُقي بعضُ العُهْدة[2]، ولستُ بأبنة عمِّه فيرعَى رَحِمي، وليس بجارِك في البلد فَيَسْتَحِي منك، ولا آمَنُ أن يرى منِّي ما يَكره فيطلِّقَني فيكونَ عليّ في ذلك ما فيه. قال: قُومي بارك الله عليكِ ادْعِي لي فلانةَ (لابنتِهِ الوسْطَى)؛ فدعتْها، ثم قال لها مِثْلَ قوله لأختها؛ فأجابته بمثل جوابها وقالت: إني خَرْقاءُ[3] وليست بيدي صِناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلِّقني فيكونَ عليّ في ذلك ما تَعْلم، وليس بابن عمّي فيرعَى حقِّي، ولا جارِكَ في بلدك فيَسْتَحْيِيكَ. قال: قُومي بارك اللهُ عليكِ. ادْعي لي بُهَيْسةَ (يعني الصغرى)، فأُتِيَ بها فقال لها كما قال لهما. فقالت: أنت وذاك. فقال لها: إني قد عرضت ذلك على أُختيكِ فأبتاه. فقالت: ـ ولم يذكر لها مقالَتَيْهما ـ لكنّي والله الجميلةُ وجهاً، الصَّناعُ يداً، الرفيعةُ خُلُقاً، الحسيبةُ أباً، فإن طلَّقني فلا أَخْلَفَ اللهُ عليه بخير. فقال: بارك الله عليكِ. ثم خرج إلينا فقال: قد زوَّجتُك يا حارثُ بُهَيْسَةَ بنتَ أَوْسٍ. قال: قد قَبِلتُ. فأمر أُمَّها أن تُهَيِّئها وتُصْلِح من شأنها، ثم أمر ببيت فضُرِب له، وأنزله إيّاه. فلمّا هُيِّئَتْ بعث بها إليه. فلمّا أُدخلت إليه لبِث هُنَيْهةً ثم خرج إليّ. فقلت: أَفَرَغْتَ من شأنك؟ قال: لا والله.

---

(١) الرَّدّة: تقاعس في الذقن إذا كان في الوجه بعض القباحة ويعتريه شيء من جمال.

(٢) العهدة: العيب.

(٣) الخرقاء: الحمقاء.

قلت: وكيف ذاك؟ قال: لمّا مَدَدْتُ يدي إليها قالت: مَهْ! أعند أبي وإخوتي!! هذا والله ما لا يكون. قال: فأمر بالرِّحلة فارتحلنا ورحلنا بها معنا، فسِرنا ما شاء الله. ثم قال لي: تقدّمْ فتقدمتُ، وعدَل بها عن الطريق، فما لبِثَ أن لَحِقَ بي. فقلت: أَفَرَغْتَ؟ قال لا والله. قلت: ولِمَ؟ قال: قالت لي: أكما يُفْعَل بالأَمَةِ الجَلِيبةِ أو السَّبِيَّة الأخيذة! لا والله حتى تنحرَ الجُزُرَ، وتذبح الغنمَ، وتدعُوَ العربَ، وتَعْمَلَ ما يُعْمل لمثلي. قلتُ: والله إني لأرى هِمَّةً وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة مُنْجِبةً إن شاء الله. فرحلنا حتى جئنا بلادَنا، فأحْضَرَ الإبلَ والغنمَ، ثم دخل عليها وخرج إليّ. فقلت: أفَرَغْتَ؟ قال لا. قلت: ولِمَ؟ قال: دخلتُ عليها أُريدها، وقلتُ لها قد أحضَرْنا من المال ما قد تَرَيْن، فقالت: والله لقد ذكرتَ لي من الشرف ما لا أراه فيك. قلت: وكيف؟ قالت: أتفرُغ لنكاح النِّساء والعربُ تقتل بعضها! (وذلك في أيام حرب عَبْس وذُبيان). قلت: فيكون ماذا؟ قالت: اخرُجْ إلى هؤلاء القوم فأصْلِح بينهم، ثم ارجعْ إلى أهلك فلن يفوتك. فقلت: والله إني لأرى هِمَّةً وعقلاً، ولقد قالت قولاً. قال: فاُخرُجْ بنا. فخرجنا حتى أتَيْنا القومَ فمشيْنا فيما بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحتَسِبوا القتلى؛ فيؤخذَ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الدِّياتِ، فكانت ثلاثةَ آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذِّكْر.

قال محمد بن عبد العزيز: فمُدِحوا بذلك، وقال فيه زُهَيْر بن أبي سُلْمَى قصيدتَه:

* أمِـنْ أمِّ أوْفَـى دِمْـنَـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ *

فذكرهما فيها فقال: [الطويل]

تـداركـتـمـا عَـبْـسـاً وذُبْـيـانَ بَـعْـدَمـا ... تـفـانَـوْا ودَقُّـوا بـيـنـهـم عِـطْـرَ مَـنْـشَـمِ[1]

فـأصـبـح يَـجْـري فـيـهـمُ مـن تِـلادكـم ... مَـغَـانِـمُ شَـتَّـى مـن إفـالِ الـمُـزَنَّـمِ[2]

يُـنَـجِّـمُـهـا قـومٌ لـقـومٍ غـرامـةً ... ولـم يُـهَـرِيـقـوا بـيـنـهـم مِـلْءَ مِـحْـجَـمِ[3]

وذكر قيامهم في ذلك فقال:

(١) منشم: عطارة من خزاعة كانوا إذا تطيّبوا في عطرها اشتدّت الحرب بينهم فصارت مثلاً في الشرّ، ولذلك يقال: أشأم من عطر منشم.

(٢) الإفال: جمع أفيل وهو الصغير من الإبل. والمزنم: اسم فحل معروف. والتلاد: المال القديم الموروث.

(٣) ينجمها: يدفعها نجوماً.

«صحا القلبُ عن سَلْمَى وقد كاد لا يسلو»

وهي قصيدة يقول فيها: [الطويل]

تداركتُما الأحلافَ قد ثُلَّ عرشُها وذُبيانَ قد زَلَّتْ بأقدامِها النَّعْلُ[1]

وهذه لهم شرفٌ إلى الآن. ورجَع فدخل بها، فولَدَتْ له بنينَ وبنات.

[من شعر زهير الذي غُنِّيَ]

ومما مدح به هَرِماً وأباه وإخوتَه وغُنِّيَ فيه قولُه:

صوت

[البسيط]

إنّ الخليطَ أجَدَّ البينَ فانفرقا وعَلِقَ القلبُ من أسماء ما عَلِقا
وأخلفتْكَ ابنةُ البَكْرِيِّ ما وَعَدَتْ فأصْبَحَ الحَبْلُ منها واهناً خَلَقا
قامَتْ تَبَدَّى بِذِي ضالٍ لِتَحْزُنَني ولا مَحَالةَ أنْ يشتاقَ مَنْ عَشِقا
بِجِيدِ مُغْزِلَةٍ أدْماءَ خاذِلَةٍ من الظِّباء تُراعِي شادِناً خَرِقا

انفرق: انفعل، من الفُرْقة. وأجَدَّ وجَدَّ بمعنىً واحد، من الجِدِّ خلاف اللعب. والواهن والواهي واحد. والحبل: السَّبَبُ في المودّة. والضّال: السِّدْرُ الصِّغارُ، واحدتُها ضالَة. والجِيد: العُنُق. والمُغْزِلَةُ: الظبية التي لها غزال. والأدْماء: البيضاء. والخاذلة: المقيمة على وَلَدِها ولا تتبع الظباء. والشَّادنُ: الذي قد شَدَن أي تحرّك ولم يَقْوَ بعدُ. والخَرِق: الدَّهِشُ.

غَنَّى مالك في الأوّل والثاني من الأبيات خفيفَ رمَلٍ بالوُسْطَى، وقيل إنه لابن جامع، وقيل بل لحنُ ابن جامع بالبِنْصر. وفي الثالث والرابع لابن المَكِّيّ رَمَلٌ صحيحٌ من روايتَيْ بَذْل والهشاميّ.

وفي هذه القصيدة يقول يمدح هَرِماً: [البسيط]

قد جعل المبتغون الخيرَ من هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقا
من يَلْقَ يوماً على عِلاّته هَرِماً يَلْقَ السماحةَ منه والنَّدَى خُلقا

---

(١) الأحلاف: أسد وغطفان وطيّء. وثل عرشها: تهدم.

لَيثٌ بعَثَّرَ يصطادُ اللُّيوثَ إذا ... ما اللَّيثُ كذَّب عن أقرانه صَدَقا[١]
يطعَنُهم ما ٱرْتَمَوْا حتى إذا ٱطَّعنوا ... ضاربَ حتى إذا ما ضارَبوا ٱعتنقا

ومن مدائحه إيّاهم قوله يمدح أبا هَرِم سِنَان بن أبي حارثةَ. وذكر ٱبنُ الكَلْبيّ أنه هوِي ٱمرأةً فٱسْتُهِيم بها؛ وتَفَاقم به ذلك حتى فُقِد فلم يُعْرَف له خبر. فتزعُم بنو مُرَّة أنّ الجِنّ ٱستطارتْه فأدخلتْه بلادَها، وٱستعجلتْه لكَرَمه. وذكر أبو عُبَيْدة أنه قد كان هَرِم حتى بلَغ مائة وخمسين سنة؛ فهام على وجهه خَرَفاً ففُقِد. قال: فزعَم لي شيخٌ من علماء بني مُرَّة أنه خرج لحاجته بالليل فأبْعَد، فلمّا رجع ضَلّ فهام طولَ ليلته حتى سقط فمات، وتبع قومُه أثرَه فوجدوه ميتاً. فرثاه زُهَير بقوله: [الكامل]

إنّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلُها ... ما تبتغي غَطَفانُ يومَ أضَلَّتِ
إنّ الرِّكابَ لتَبْتَغي ذا مِرَّةٍ ... بجَنُوب نَجْدَ إذا الشهورُ أحَلَّتِ[٢]
ينْعَيْنَ خيرَ النّاسِ عندَ شديدةٍ ... عَظُمتْ مُصِيبَتُهُ هناكَ وجَلَّتِ
ومُدَفَّعٍ ذاقَ الهَوانَ مُلَعَّنٍ ... راخَيْتَ عُقْدةَ حَبْلِهِ فٱنْحَلَّتِ
ولَنِعمَ حَشْوُ الدِّرْعِ كانَ إذا سَطَا ... نَهِلَتْ من العَلَقِ الرِّماحُ وعَلَّتِ[٣]

والذي فيه غِناء من مدائح زُهَير قولُه:

صوت

[المتقارب]

أمِنْ أُمِّ سَلْمَى عرَفتَ الطُّلولاَ ... بذي حُرُضٍ مَاثِلاَتٍ مُثُولا[٤]
بَلِينَ وتحسَبُ آياتِهِن ... على فَرْطِ حَوْلَيْن رَقًّا مُحِيلا[٥]

الماثل هاهنا: اللاطِئُ بالأرض، وفي موضع آخر: المُنْتَصِبُ القائم. وذو حُرُضٍ: موضعٌ. والحُرُضُ: الأُشْنان. وآياتُهنّ: علاماتُهنّ. وفَرْطُ حَوْلَيْن: تَقَدُّمُ حولين، والفارِط: المتقدِّم.

---

(١) عَثّر: مأسدة بناحية تبالة. (انظر معجم البلدان ٤/ ٨٥).
(٢) ذو مرّة: صاحب عقل.
(٣) العلق: الدم.
(٤) ذو حُرُض: وادٍ لبني عبد الله بن غطفان عند النقرة. (معجم البلدان ٢/ ٢٤٢).
(٥) الرق المحيل: الجلد الدارس الذي مضى عليه حول فأثر عليه وأبلاه.

غَنَّى في هذين البيتين إسحاق، وله فيهما لحنان: أحدهما ثاني ثقيلٍ بإطلاق الوَتَر في مَجْرَى البِنْصر، من كتابه. والآخر ماخُورِيٌّ من مجموع غِنائه، وروايته عن الهِشامِيّ. وفيهما للزُّبَير بن دَحْمانَ خفيفُ ثقيلٍ أوّل بالبِنْصر عن عمرو. يقول فيها:

إلـيـك سِـنـانُ الـغَـدَاةَ الـرَّحـيـ ... ـلُ أَعْصِي النُّهاةَ وأُمْضِي الفُؤولا[1]

جمع فأل، أي لا أتطيَّر.

فــلا تــأمَــنَــي غَــزوَ أفْــراسِــهِ ... بَـنِـي وائـلٍ وٱحْـذَرِيـهِ جَـدِيـلا[2]

وكـيـفَ ٱتِّـقـاءُ ٱمْـرِئٍ لا يـؤو ... بُ بالقومِ في الغَزْوِ حتى يُطِيلا[3]

ومن الغِناء في مدائح هَرِم قولُه:

صوت

[البسيط]

قِفْ بـالـدِّيارِ الـتي لـم يَعْفُـهـا القِدَمُ ... بَـلَـى وَغَـيَّـرَهـا الأَرْواحُ والـدِّيَـمُ

كـأنّ عـيـنـي وقـد سـالَ الـسَّـلِيـلُ بـهـم ... وعَـبْـرَةٌ مـا هُـمُ لـو أنّـهـم أَمَـمُ[4]

غَـرْبٌ عـلـى بَـكْـرة أو لـؤلـؤٌ قَـلِـقٌ ... فـي الـسِّـلـك خـانَ بـهِ رَبَّـاتِـهِ الـنُّـظُـمُ

الدِّيَمُ: جمع دِيمَة وهو المطر الذي يَدُوم يوماً أو يومين مع سكون. سال السَّلِيلُ بهم: أي ساروا فيه سيراً سريعاً. والسَّلِيلُ: وادٍ. وقولُه وعَبْرةٌ ما هُمُ أي هم عَبْرةٌ، وما ها هنا صِلَةٌ. لو أنهم أَمَم أي قَصْدٌ كنتُ أزورهم. والأَمَمُ: بين القريب والبعيد. والقَلِقُ: الذي لم يستقرّ لما ٱنقطع الخَيْط. والنُّظُمُ: جَمْعٌ واحدها نِظام، شبَّه دموعَه بلؤلؤ ٱنقطع سِلْكه، وبماءٍ سال من الغَرْب.

الغِناءُ في هذه الأبيات رَمَلٌ لابن المكيّ بالوسطى عن عمرو. وذكر عمرو أن لإِسحاق فيها لحناً أيضاً. وذكر يونس أن فيها لحناً لمالك.

---

(١) النهاة: جمع ناهٍ، وهو الناصح والآمر بعدم الإقدام على شيء. والفؤول: جمع فأل، وهو قول أو فعل يستبشر به.

(٢) بنو وائل، وجديلة: قبيلتان عربيتان.

(٣) يؤوب: يرجع.

(٤) السليل: وادٍ. (انظر معجم البلدان ٣/ ٢٤٣).

صوت

[الكامل]

لِـمَـنِ الـدِّيـارُ بِـقُـنَّـةِ الـحَـجْـرِ أَقْـوَيْـنَ مُـذْ حِـجَـجٍ ومُـذْ دَهْـرِ(١)
لَـعِـبَ الـرِّيَـاحُ بِـهَـا وغَـيَّـرَهَـا بَـعْـدِي سَـوَافِـي الـرِّيـحِ والـقَـطْـرِ
دَعْ ذا وعَـدِّ الـقَـوْلَ فـي هَـرِمٍ خَـيْـرِ الـكُـهُـولِ وسَـيِّـدِ الـحَـضْـرِ
لـو كـنـتَ مـن شـيءٍ سِـوَى بَـشَـرٍ كُـنْـتَ الـمُـنَـوِّرَ لـيـلـةَ الـبـدرِ

القُنَّةُ: الجبل الذي ليس بمنتشر. أَقْوَيْنَ: خَلَوْنَ. والسَّوَافِي: ما تَسْفِي الرياحُ. قال: والقَطْر مخفوضةٌ بنَسْقه على الرِّيح والقَطْرُ لا سَوَافي له وهذا تفعله العرب في المجاورة، وهو مثل قولهم: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ.

غَنَّى في هذه الأبيات سائب خاثر(٢) من رواية حَمّاد عن أبيه، ولم يجنِّسْه. وفيه ثقيلٌ أوّلُ بالبِنصر نَسَبه عمرو بن بانَةَ إلى مَعْبَد، ونَسَبه غيرُه إلى سائب، وإلى الأَوْسِيَّة مما ذكر حَبَشٌ. قال: وهي من قِيان الحجاز القدائم مولاةٌ للأَوْسِ.

ومنها قوله يمدح سِنَانَ بن أبي حارثةَ:

صوت

[الطويل]

صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وقد كادَ لا يَسْلُو وأَقْفَرَ من سَلْمَى التَّعَانِيقُ فالثُّقْلُ(٣)
وقـد كُـنْـتُ مـن سَـلْـمَـى سِـنِـينَ ثـمـانـيـاً عـلـى صِـيـرِ أَمْـرٍ مـا يَـمُـرُّ ومـا يَـحْـلُـو
وكـنـتُ إذا مـا جـئـتُ يـومـاً لـحـاجَـةٍ مَضَتْ وأَجَمَّتْ حاجةُ الغَدِ ما تَخْلو
وكـلُّ مُـحِـبٍّ أَحْـدَثَ الـنـأيُ عـنـدَه سُـلُـوَّ فـؤادٍ غـيـرَ حُـبِّـكِ مـا يَـسْـلُـو
تـأَوَّبَـنـي ذِكْـرُ الأحِـبَّـةِ بـعـدَ مـا هَـجَـعْـتُ ودوني قُـلَّـةُ الحَـزْنِ فـالـرَّمْـلُ
فـأقـسـمـتُ جَـهْـداً بـالـمـنـازل من مِـنًى ومـا سُـحِـقَـتْ فـيـه الـمَـقَـادِيـمُ والـقَـمْـلُ
لأَرْتَـحِـلَـنْ بـالـفـجـر ثـم لأَدْأَبَـنْ إلـى الـلَّـيْـلِ إلاَّ أن يُـعَـرِّجَـنِـي طِـفْـلُ
وهـل يُـنْـبِـتُ الـخَـطِّـيَّ إلاَّ وَشِـيـجُـه وتُـغْـرَسُ إلاَّ فـي مَـنَـابـتـهـا الـنَّـخْـلُ

التَّعَانِيقُ والثُّقْلُ: موضعان. ويُرْوَى: فالنَّخل. وقولُه على صِيرِ أمرٍ: أي على

(١) حجر: مدينة باليمامة (معجم البلدان ٢/ ٢٣١) وحجج: سنين، جمع حجة.
(٢) سائب خاثر: أحد أئمة التلحين والغناء في زمنه. توفي سنة ٦٣ هـ.
(٣) التعانيق والثقل: موضعان (معجم البلدان ٢/ ٣٣ و٢/ ٨١).

شَرَف أمر. وأجَمَّتْ: دَنَتْ. وتأوّبني: أتاني ليلاً. والتأويبُ: سَيْرُ يوم إلى الليل. سُحِفَتْ: حُلِقَتْ، يقال سَحَف رأسَه وسَبَتَه وجَلَطَهُ: حَلَقَه. وقولُه «يُعَرِّجني طِفْلٌ» قال يقال الطَّفْلُ: الليل، ويقال الطَّفْلُ: مَغِيبُ الشمس، وقال أبو عُبَيْدة: الطفل: الحَزَنُ، وإيقادُه نارَ التَّحْيير. والخَطِّيُّ: رِماحٌ نَسَبَها إلى الخَطّ وهي من جزيرة بالبحرين تُرْفَأ إليها سُفُنُ الرماح. والوَشِيجُ: القَنَا واحدُها وَشِيجةٌ. والوُشُوجُ: دخولُ الشيء بعضِه في بعض.

غَنَّى إبراهيمُ المَوْصِليّ في الأوّل والثاني ثقيلاً أوّل بالبِنصر من رواية الهشاميّ وعمرو. وغَنَّى إبراهيم أيضاً في السادس والسابع والثامن خفيفَ ثقيلٍ. وفي الثالث لمَعْبَد خفيفُ ثقيلٍ. ولعَلّويه في السابع والثامن خفيفُ رَمَلٍ. وذكر حَبَشٌ أن لإبراهيم في الثامن لَحناً ماخُورِيًّا.

ومن الغِناء في مدائحه هَرِماً قولُه:

صوت

[الوافر]

لِـمَـن طَـلَـلٌ بِـرامَـةَ لا يَـرِيـمُ ... عَـفَـا وأحـالَـه عَـهْـدٌ قَـديـمُ[1]

تَـطَـالَـعُـنـي خـيـالاتٌ لِـسَـلْـمَـى ... كـمـا يَـتَـطـالَـعُ الـدَّيْـنَ الـغَـرِيـمُ

غَنّاه دحْمَانُ ثانيَ ثقيلٍ بالبِنصر عن عمرو. وعَفَا: درس هاهنا، وفي موضع آخر: كثُر، وهو من الأضداد. وخيالاتٌ: جمع خيال.

[هرم في قلب زهير وشعره]

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجَوْهري وحبيب بن نصر المُهَلَّبيّ قالا: حدّثنا عمر بن شَبَّة، وقال المُهَلَّبيّ في خبرٍ له عن الأصمعي قال: أُنشِد عمرُ بن الخطاب قولَ زُهَير في هَرِم بن سِنان يمدحه:

[الكامل]

دَعْ ذا وعَـدِّ الـقَـوْلَ فـي هَـرِمٍ ... خَـيْـرِ الـكـهـول وسَـيِّـدِ الـحَـضَـرِ

لـو كـنـتَ مـن شـيءٍ سـوى بَـشَـرٍ ... كـنـتَ الـمُـنَـوِّرَ لـيـلـةَ الـبـدرِ

ولأنـت أَوْصَـلُ مَـنْ سَـمِـعـتُ بـه ... لِـشَـوابِـكِ الأرحـامِ والـصِّـهْـرِ

---

(١) رامة: منزل على طريق البصرة إلى مكة. (معجم البلدان ٣/ ١٨). ويريم: يبرح.

وَلَـنِـعْـمَ حَـشْـوُ الـدِّرعِ أَنْـتَ إذا ... دُعِـيَـتْ نَـزَالِ ولُـجَّ فـي الـذُّعْـرِ
وأراكَ تَـفْـرِي مـا خَـلَـقْـتَ وبـعـ ... ـضُ الـقـومِ يـخـلُـق ثـم لا يَـفْـرِي[1]
أُثْـنِـي عـلـيـكَ بـمـا عَـلِـمْـتُ ومـا ... أَسْـلَـفـتَ فـي الـنَّـجَـداتِ مـن ذِكْـرِ
والـسِّـتْـرُ دونَ الـفـاحـشـات ولا ... يَـلْـقـاكَ دونَ الـخَـيْـرِ مـن سِـتْـرِ

فقال عمر: ذلك رسولُ اللهﷺ.

قال وقال عمر لبعض ولَدِ هَرِم: أنشِدْني بعضَ مَدْح زُهَيْرٍ أباك، فأنشده. فقال عمر: إن كان لَيُحْسِن فيكم القولَ. قال: ونحن والله إن كنّا لَنُحْسِن له العطاءَ. فقال: قد ذهب ما أعطيتموه وبَقِيَ ما أعطاكم.

قال: وبلغني أنّ هَرِماً كان قد حَلَف ألاّ يمدحه زُهَير إلاّ أعطاه، ولا يسألَه إلاّ أعطاه، ولا يسلِّمَ عليه إلاّ أعطاه: عَبْداً أو وَلِيدة أو فَرَساً. فاستحيا زهيرٌ مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عِمُوا صباحاً غيرَ هَرِمٍ، وخيرَكم ٱستثنيتُ. وروى المُهَلَّبيّ: وخيرَكم تركتُ.

أخبرني الجَوْهريّ والمهلَّبيّ قالا: حدّثنا عمر بن شَبّة قال: قال عمر لابن زُهَير: ما فعلتِ الحُلَلُ التي كساها هَرِمٌ أباك؟ قال: أبلاها الدهر. قال: لكنَّ الحُلَلَ التي كساها أبوك هَرِماً لم يُبْلِها الدهر. وقد ذكر الهَيْثَمُ بنُ عَدِيّ أن عائشةَ خاطبتْ بهذه المقالةِ بعضَ بناتِ زُهَيْر.

وقال أبو زيد عمر بن شَبَّة: ومما سَبَقَ فيه زُهَير في مَدْح هَرِمٍ ولم يَسْبِقْه إليه أحد قولُه: [البسيط]

قد جعلَ المبتغونَ الخَيْرَ من هَرِمٍ ... والسّائلونَ إلى أبوابِهِ طُرُقا
مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاّته هَرِماً ... يَلْقَ السَّماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقا
يطلبُ شأوَ ٱمرأين قَدَّما حَسَباً ... بَذَّا الملوكَ وبَذَّا هذه السُّوَقا[2]
هو الجوادُ فإن يَلْحَقْ بشأوهما ... على تكاليفه فمِثْلُه لَحِقَا
أو يسبقاه على ما كان من مَهَلٍ ... فمِثْلُ ما قَدّما من صالحٍ سَبَقا

---

(١) يفري: يقطع.
(٢) بذّ: غلب، سبق.

أخبرني الجوهريّ والمهلَّبيّ قالا: حدّثنا عمر بن شَبّة قال: قال المدائنيّ: قال عبد الملك بن مروان: ما يضرُّ مَنْ مُدِحَ بما مَدَح به زُهَيْرٌ آلَ أبي حارثة من قوله: [الطويل]

علـى مُكْـثِريـهـم رِزْقُ مَـنْ يَـعْـتَـرِيـهُـمُ   وعـنـدَ الـمقلّين الـسَّـمـاحَـةُ والـبَـذْلُ[1]

ألاّ يَمْلِك أمورَ الناس (يعني الخلافة). قال ثم قال: ما ترك منهم زُهَيْرٌ غنِيًّا ولا فقيراً إلاّ وصفه ومدحه.

وقال ٱبن الأعرابيّ قال أبو زِياد الكلابيّ أُنشِد عثمان بن عَفَّانَ قولَ زهير: [الطويل]

ومـهـمـا تـكـن عـنـد ٱمرئٍ من خَـلِيـقـةٍ   وإن خـالَـهـا تَـخْـفَـى عـلـى الـنّـاس تُـعْـلَـمِ

فقال: أحسن زُهَيْرٌ وصدَق، لو أنّ رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدّث به الناس. قال وقال النبيّ ﷺ: **«لا تَعْمَلْ عملاً تكْرهُ أن يُتحدَّثَ عنك به»**.

قال: وقال عليّ بن المدائنيّ: حدّثني ٱبن جَعْدويه: أنَّ عُرْوةَ بن الزُّبَيْر لَحِقَ بعبد الملك بن مروان بعد قَتْلِ أخيه عبدِ الله بن الزُّبَيْر. فكان إذا دخل إليه منفرداً أكرمه. وإذا دخل عليه وعنده أهل الشام ٱستخفّ به. فقال له يوماً: يا أمير المؤمنين، بئس المَزورُ أنت؛ تُكْرِم ضيفَك في الخَلاَ، وتُهِينه في المَلاَ، وقال: لله دَرّ زُهَيْر حيث يقول: [الوافر]

فـقَـرِّي فـي بـلادِكِ إنّ قَـومـاً   مَـتَـى يَـدَعُـوا بـلادَهُـمُ يَـهُـونُـوا

ثم ٱستأذنه في الرُّجوع إلى المدينة، فقَضَى حوائجَه وأذِن له. وهذا البيت من قصيدة لزُهَيْر قالها في بني تميم، وقد بلغه أنها حَشَدَتْ لغزو غَطَفان؛ أوّلها: [الوافر]

ألا أبـلِـغْ لَـدَيْـكَ بَـنـي تَـمِـيـمٍ   وقـد يـأتـيـك بـالـخـبـر الـظَّـنُـونُ

الظَّنون: الذي لستَ منه على ثقة. والظنين: المتَّهَم.

[زهير والحارث بن ورقاء]

وقال ٱبن الأعرابيّ: كان الحارث بن ورْقاء الصَّيْداوي من بني أَسَد أغار على

(١) المكثرون: الأغنياء. والمقلّون: الفقراء. ويعتريهم: يقصدهم طالباً رفدهم.

بني عبد الله بن غَطَفان فغَنِم فاْستاق إبِلَ زُهَيْر وراعيَه يساراً. فقال زُهَيْر. [البسيط]

بـان الـخَلِيطُ ولـم يَـأْوُوا لـمـن تـركـوا ... وزوّدوك اْشـتـيـاقـاً أيّـةَ سَـلَـكـوا

وهي طويلة يقول فيها: [البسيط]

لـئـن حـلَـلْـتَ بـجَـوٍّ فـي بَـنـي أسَـدٍ ... في دِين عـمـرو وحـالـت بـيـنـنـا فَـدَكُ(١)

لَـيـأتِـيَـنَّـك مِـنِّـي مَـنْـطِـقٌ قَـذِعٌ ... بـاقٍ كـمـا دَنَّـسَ الـقُـبْـطِـيَّـةَ الـوَدَكُ(٢)

فـاْرْدُدْ يَـسَـاراً ولا تَـعْـنُـف عـلـيـه ولا ... تَـمْـعَـكْ بـعِـرضِـك إنّ الـغـادر الـمَـعِـكُ(٣)

ولا تـكـونَـنْ كـأقـوامٍ عَـلِـمْـتُـهُـمُ ... يَـلْـوُون مـا عـنـدهـم حـتـى إذا نُـهِـكـوا(٤)

طـابَـتْ نُـفـوسُـهُـم عـن حـقِّ خَـصْـمِـهِـمُ ... مَـخـافـةَ الـشّـرِّ واْرتـدُّوا لـمـا تَـرَكـوا

وفي هذه القصيدة مما يغنَّى فيه:

صوت

أَهْـوَى لـهـا أَسْـفَـعُ الـخَـدَّيْـنِ مُـطَّـرِقٌ ... رِيـشَ الـقَـوادم لـم يُـنْـصَـبْ لـه شَـرَكُ

وقـد أكـونُ أمـامَ الـحَـيِّ تَـحْـمِـلُـنـي ... جَـرْداءُ لا فَـحَـجٌ فـيـهـا ولا صَـكَـكُ

أهوى لها ـ يَعني القطاة تقدّم وصفُه إيّاها ـ صقرٌ. ورواه الأصمعيّ: «هوى لها» وقال: هوى: اْنقض، وأهوى: أوفى. ومُطَّرِقٌ: ريشُه بعضُه على بعض ليس بمنتشر، وهو أعتقُ له. وقوله لم يُنْصَب له شَرَكُ: أي لم يُصْطَدْ ولم يُذَلَّل ـ والقوادِم: العشرُ المتقدّماتُ. والفَحَجُ: تباعُدُ ما بين الفخذين. والصَّكَكُ: اْصطكاك العُرْقُوبين في الدوابّ، وفي الناس الركبتين. قال: فلمّا أُنْشد الحارثُ هذا الشعرَ بعث بالغلام إلى زهير. وقيل: بل أُنْشِد قولَ زُهَير: [الوافر]

تَـعَـلَّـمْ أنّ شـرَّ الـنَّـاس حَـيٌّ ... يُـنَـادَى فـي شِـعـارِهِـمُ يَـسَـارُ(٥)

ولـولا عَـسْـبُـهُ لَـرَدَدْتُـمُـوهُ ... وشَـرُّ مَـنِـيـحَـةٍ أَيْـرٌ مُـعَـارُ(٦)

---

(١) جَوّ: وادٍ. وفدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحاً.

(٢) القبطية: ثياب كتان كانت تصنع بمصر منسوبة إلى القبط. والودك: الدسم.

(٣) لا تمعك: لا تمطل. والمَعِك: المَطِلُ.

(٤) يلوون: يمطلون. ونهكوا: بولغ في شتمهم وهجائهم.

(٥) الشعار: علامة القوم في سفرهم. ويسار: اسم رجل.

(٦) العسب: الضراب، وماء الفحل.

إذا جَـمَـحَـتْ نِـسـاؤكُـم إلـيـهِ   أشَـظَّ كـأنّـه مَـسَـدٌ مُـغَـارُ[1]
يُـبَـربِـرُ حـيـن يـعـدو مـن بـعـيـدٍ   إلـيـهـا وهـو قَـبْـقَـابٌ قُـطَـارُ[2]

فردّه عليه. فلامه قومه وقالوا له: اقتله ولا تُرسِلْ به إليه، فأبى عليهم. فقال زهير عند ذلك:

أبـلـغ لـديـكَ بَـنـي الـصَّـيْـدَاء كُـلَّـهُـمُ   أنّ يَـسَـاراً أتـانـا غـيـرَ مَـغْـلُـولِ
ولا مُـهـانٍ ولـكـنْ عـنـدَ ذي كَـرَمٍ   وفـي حِـبـالٍ وَفِـيِّ الـعَـهْـدِ مـأمُـولِ

وهي قصيدة. فقال الحارث لقومه: أيُّما أصْلَحُ: ما فعلتُ أو ما أردتُم؟ قالوا: بل ما فعلتَ.

[علاقته بخاله بشامة بن الغدير]

قال ابن الأعرابيّ وحدّثني أبو زِياد الكِلابيّ: أنّ زهيراً وأباه وولدَه كانوا في بني عبد الله بن غَطَفان، ومنزلُهم اليوم بالحاجِر[3]، وكانوا فيه في الجاهلية. وكان أبو سلْمَى تزوج إلى رجل من بَنِي فِهْر بن مُرَّة بن عَوْف بن سَعْد بن ذُبْيان يقال له الغَدِير ـ والغدير هو أبو بَشَامة الشاعر ـ فولَدت له زُهَيْراً وأوْساً، ووُلِد لزهير من امرأة من بني سُحَيْم. وكان زُهَيْر يذكر في شعره بَنِي مُرَّة وغَطَفان ويمدحهم. وكان زهير في الجاهلية سيِّداً كثيرَ المال حليماً معروفاً بالورع.

قال: وحدّثني حَمَّاد الراوية عن سعيد الراوية عن سعيد بن عمرو بن سعيد: أنه بلغه أنّ زُهَيْراً هجا آلَ بيتٍ من كلب من بني عُلَيْم بن جَنَاب، وكان بلغه عنهم شيءٌ من وَرَاءَ وَرَاءَ، وكان رجل من بني عبد الله بن غَطَفانَ أتى بني عُلَيم، وأكرموه لما نزل بهم وأحسنوا جِوارَه، وكان رجلاً مُولَعاً بالقِمار فنهَوْه عنه، فأبى إلاّ المقامرةَ. قُمِرَ مرةً فردّوا عليه، ثم قُمِرَ أُخرى فردّوا عليه، ثم قُمِرَ الثالثة فلم يردوا عليه، فترحّلَ عنهم وشَكَا ما صُنِع به إلى زُهَيْر، والعربُ حينئذٍ يتّقُون الشعراءَ اتقاءً شديداً. فقال: ما خرجتُ في ليلة ظَلْمَاءَ إلاّ خِفْتُ أن يُصيبَني الله بعقوبة

(١) أشظّ: أنعظ. والمسد: الحبل. والمغار: المفتول فتلاً جيداً.

(٢) يبربر: يصوت. والقبقاب: الهادر. والقبقبة: هدير الفحل. والقطار: الذي يقطر ويسيل، وقيل الرافع الرأس.

(٣) الحاجر: موضع. (انظر معجم البلدان ٢/ ٢٠٤).

لهجائي قوماً ظلمتُهم. قال: والذي هجاهم به قوله: [الوافر]

عَفَا مِن آل فاطمةَ الجِواءُ فَيُمْنٌ فالقوادِمُ فالحِسَاءُ
فذُو هَاشٍ فَمِيثُ عُرَيْتِنَاتٍ عفتْها الرِّيحُ بعدَك والسماءُ(١)
جَرَتْ سُنُحاً فقلتُ لها أَجِيزي نَوًى مَشْمُولةً فَمَتَى اللِّقاءُ
كأنَّ أوابِدَ الثِّيران فيها هجائنُ في مَغَابِنِها الطِّلاءُ
لقد طالَبْتُها وَلِكُلِّ شيءٍ وإن طالَتْ لَجَاجَتُهُ انْتِهاءُ
وقد أغدو على شَرْبٍ كرام نَشَاوَى واجِدِينَ لما نشاءُ(٢)
لَهُمْ طاسٌ وراوُوقٌ ومِسْكٌ تُعَلُّ به جلودُهُم وماءُ(٣)

الجِواءُ: أرض. ويُمْنٌ والقوادمُ: في بلاد غَطَفان. والمِيثُ: جمع مَيْثاء. قال أبو عمرو: إذا كان مَسِيلُ الماء مثل نصف الوادي أو ثُلُثَيْه فهي مَيْثاء. والسماء هاهنا: المطر. والسّانح: ما أَقْبلَ من شِمالك يريد يمينك والبارِحُ: ضِدُّه. وقال أبو عُبَيْدة: سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح فقال: السانح: ما ولاَّك ميامِنه. والبارِح: ما ولاَّك مشائمه. وأجيزي: انْفُذي. قال الأصمعيّ: يقال أجزتُ الواديَ إذا قطعتَه وخلَّفتَه، وجُزْتُه: إذا سرتَ فيه فتجاوزتَه. والأوابِدُ: الوحشية. والهجائن: إبِلٌ بِيضٌ. والمغابِن: الأرفاغ، واحدها مَغْبِنٌ. ومشمولةٌ: سريعة الانكشاف. أخذه من الريح الشَّمال إذا كانت مع السحاب لم يلبث أن يذهب. وجعل مشمولة هاهنا في النوى لأن نيّتهم كانت سريعة، فأَجْرى ذلك مجرى الذَّمِّ، فهذه السُّنُح.

غنّى في الأوّل والثاني والسابع مَعْبَدٌ ثقيلاً أوّل بالسبَّابة في مجرى الوسطى عن إسحاق. وذكر عليّ بن يحيى أنّ للغَرِيض فيها خفيفَ ثقيل. وذكر حَبَشٌ أن فيه للهُذَليّ ثانيَ ثقيلٍ بالوسطى. وفي الثالث والرابع مع بيت ليس لزهير أُضِيف إلى الشعر وهو: [الوافر]

بِنَفْسِي مَنْ تَذَكُّرُهُ سَقَامٌ أُعالِجُهُ ومَطْلَبُهُ عَناءُ

في هذه الأبيات الثلاثة خفيفُ ثقيل أوّل بالوُسطى في مَجْراها، ذكر إسحاق

(١) الأسماء في البيتين: أسماء مواضع.
(٢) الشَّرْب: الجماعة الشاربون.
(٣) الطاس: إناء يشرب فيه.

أنه للغَرِيض، وغيرُه ينسُبه إلى ٱبن سُرَيج وإلى ٱبن عائشة. وفي الرابع والخامس لعَلّويه رَمَل لا يُشَكّ فيه من غِنائه.

وقال ٱبن الأعرابيّ: حدّثني أبو زِياد، وذكر بعضَ هذا الخبر إسحاقُ الموصليّ عن حَمَّاد الراوية وعن ٱبن الكلبيّ عن أبيه قال: وكان بَشَامةُ بن الغَدير خالَ زهير بن أبي سُلْمى، وكان زُهَيْر منقطعاً إليه وكان مُعْجَباً بشعره. وكان بَشَامةُ رجلاً مُقْعَداً ولم يكن له ولد، وكان مُكْثِراً من المال، ومن أجل ذلك نزل إلى هذا البيت في غَطَفان لخؤولتهم. وكان بَشَامةُ أحزمَ الناس رأياً، وكانت غَطَفان إذا أرادوا أن يَغْزُوا أتَوْه فٱستشاروه وصَدَروا عن رأيه، فإذا رجَعُوا قَسَمُوا له مِثْلَ ما يَقْسِمون لأفضلهم، فمن أجل ذلك كثُر مالُه. وكان أسعدَ غَطَفانَ في زمانه. فلما حَضَره الموتُ جعل يَقْسِم مالَه في أهل بيته وبين بني إخوته. فأتاه زُهَيْرٌ فقال: يا خالاَهْ لو قَسَمْتَ لي من مالك!! فقال: والله يأبن أختي لقد قَسَمْتُ لك أفضلَ ذلك وأجْزَلَه. قال: وما هو؟ قال: شعري وَرِثْتَنِيه. وقد كان زُهَيْرٌ قبل ذلك قال الشعرَ، وقد كان أوّلَ ما قال. فقال له زهير: الشعر شيءٌ ما قلتَه فكيف تعتدّ به عليّ؟ فقال له بَشَامةُ: ومن أين جئتَ بهذا الشعر! لعلك ترى أنّك جئتَ به من مُزَيْنَةَ، وقد عَلِمت العرب أن حَصَاتَها وعينَ مائها في الشعر لهذا الحيّ من غَطَفان ثم لي منهم، وقد رَوَيْتَه عنّي. وأحذاه نصيباً من ماله ومات. وبَشَامةُ شاعر مُجيد وهو الذي يقول:

صوت

[البسيط]

أَلاَ تَـرَيْـنَ وقـد قَـطَّـعـتِـنـي قِـطَـعـاً ... مـاذا من الفَوْتِ بينَ البُخْلِ وَالجُودِ
إلاّ يَـكُـنْ وَرَقٌ يَـوْمـاً أَرَاحُ بـهِ ... لـلـخـابِـطِـيـنَ فـإنّـي لَـيِّـنُ الـعُـودِ

الغناء لإسحاقَ ثقيلٌ أوّل بالبنصر، وقيل: إنه لإبراهيم.

[أحداث جرت في حياته]

قال ٱبن الأعرابيّ: أُمُّ أَوْفَى التي ذكرها زُهَيْرٌ في شعره كانت ٱمرأتَه، فولَدتْ منه أولاداً ماتوا، ثم تزوَّج بعد ذلك ٱمرأةً أُخرى، وهي أمُّ ٱبنَيْه كَعْب وبُجَيْر؛ فغارت من ذلك وآذتْه، فطلّقها ثم نَدِم فقال فيها:

[الوافر]

لَعَمْرُكَ والخُطُوبُ مُغَيِّراتٌ وفي طول المُعَاشرةِ التَّقالِي[١]
لقد بالَيْتُ مَظْعَنَ أُمِّ أَوْفَى وَلْكِنْ أُمُّ أَوْفَى ما تُبالِي
فأمّا إذ نأيتِ فلا تقولي لذي صِهْرٍ أَذِلْتُ ولم تُذَالِي[٢]
أصبتُ بَنِيَّ منكِ ونِلْتِ منّي من اللّذاتِ والحُلَلِ الغَوالِي

وقال ٱبن الأعرابيّ:

كان لزهير ٱبنٌ يقال له سالم، جميل الوجه حسن الشَّعر. فأهدى رجلٌ إلى زهير بُرْدَيْن، فلَبِسهما الفتى وركِب فرساً له، فمرَّ بٱمرأةٍ من العرب بماء يقال له النُّتَاءة[٣]، فقالت: ما رأيتُ كاليوم قطّ رجلاً ولا بُرْدَيْن ولا فرساً. فعثَر به الفرس فٱندقَّتْ عُنُقُه وعُنُقُ الفَرس وٱنشقَّ البردان. فقال زُهَيْر يرْثِيه: [الطويل]

رأتْ رجلاً لاقَى من العيشِ غبطةً وأخطأه فيها الأمورُ العظائمُ
وشَبَّ له فيها بَنُون وتُوبِعت سلامةُ أعوامٍ له وغنائمُ
فأصبح مَحْبُوراً يُنَظِّر حولَه بِغِبْطَتِهِ لَوَ أنّ ذلكَ دائِمُ[٤]
وعندي من الأيّام ما ليسَ عنده فقلت تَعَلَّمْ أنّما أنت حالمُ
لَعَلّكِ يوماً أن تُراعي بفاجعٍ كما راعَنِي يومَ النُّتَاءةِ سالمُ

قال ٱبن الأعرابيّ: كان لزُهَيْرٍ في الشعر ما لم يكن لغيره، وكان أبوه شاعراً، وخالُه شاعراً، وأُختُه سَلْمَى شاعرةً، وٱبناه كعبٌ وبُجَيْر شاعرين، وأخته الخنساء شاعرةً، وهي القائلة تَرثيه: [الوافر]

وما يُغْني تَوَقِّي المَوْتِ شيئاً ولا عَقْدُ التَّمِيمِ ولا الغَضَارُ

ـ والغضار: كان أحدهم إذا خَشِيَ على نفسه يعلِّق في عُنُقه خَزَفاً أخضر ـ

إذا لاقَى منيَّتَه فأمْسَى يُساق به وقد حَقَّ الحِذارُ
ولاقاهُ من الأيّام يومٌ كما من قَبْلُ لم يَخْلُدْ قُدَارُ[٥]

وٱبنُ ٱبنِه المُضَرَّب بن كعب بن زُهَيْر شاعرٌ، وهو القائل: [البسيط]

(١) التقالي: التباغض.
(٢) أُذلتُ: أُهِنْتُ.
(٣) النُّتَاءة: ماء لبني عميلة. (معجم البلدان ٥/ ٢٦٠).
(٤) المحبور: المنعم.
(٥) قدار: هو قدار بن سالف عاقر ناقة صالح عليه السلام.

إنـي لأخـبِسُ نـفـسـي وهـي صـاديـةٌ ... عن مُصْعَبٍ ولقد بانت ليَ الطُّرُقُ
رُغْـوَى عـلـيـه كـمـا أَرْعَـى عـلـى هَـرِمٍ ... جَدّي زُهَيْرٌ وفينا ذلك الخُلُقُ[1]
مَـدْحُ الـمـلـوك وسَعْيٌ فـي مَـسَرَّتِـهـم ... ثـم الـغِـنَـى ويـدُ الـمـمـدوح تـنـطـلـقُ

أخبرني أبو خَليفة عن محمد بن سَلاَّم قال: مَنْ قَدَّم زُهَيْراً آحتجَّ بأنه كان أحسنَهم شعراً، وأبعدَهم من سُخْفٍ، وأجمعَهم لكثير من المعاني في قليلٍ من الألفاظ، وأشدَّهم مبالغةً في المدح، وأكثرَهم أمثالاً في شعره.

أخبرني الحسين بن يحيى عن حمّاد عن أبيه عن الأصمعيّ قال: كان لزهير ابنٌ يقال له سالم، وكان من أمّ كعب بن زُهَير؛ فمات أو قُتل فجزع عليه كعب[2] جزعاً شديداً، فلامته آمرأته وقالت: كأنه لم يُصَبْ غيرُك من الناس! فقال:

[الطويل]

رأت رجـلاً لاقـى مـن الـعـيـش غـبـطـةً ... وأخـطـأه فـيـهـا الأمـورُ الـعـظـائـمُ
وشَـبَّ لـه فـيـهـا بَـنُـونَ وتُـوبِـعـتْ ... سـلامـةُ أعـوامٍ لـه وغـنـائـمُ
فـأصْـبَـحَ مَـحْـبـوراً يُـنَـظِّـرُ حَـوْلَـهُ ... بِـغِـبْـطَـتِـهِ لَـو أنّ ذلـك دائـمُ
وعـنـدي مـن الأيـام مـا لـيـس عـنـده ... فـقـلـت لـه مـهـلاً فـإنَّـك حـالـمُ
لـعـلـك يـومـاً أن تُـراعِـي بـفـاجـعٍ ... كـمـا راعـنـي يـوم الـنُّـتَـاءة سـالـمُ

صوت

عَـزَفْـتَ ولـم تَـصْـرِمْ وأنـت صَـرومٌ ... وكـيـف تَـصَـابِـي مَـنْ يـقـالُ حَـلـيـمُ
صَـدَدتَ فـأطْـوَلْـتَ الـصُّـدودَ ولا أرى ... وِصـالاً عـلـى طُـولِ الـصّـدودِ يَـدُومُ

عَروضه من الطويل. عزفت عن الشيء: إذا تركتَه وأَبَتْه نفسُك. قال ابن الأعرابيّ: يقول لم تَصْرِمِ صُرْمَ بَتَاتٍ. ولكن صَرَمْتَ صُرْمَ دَلالٍ. وأطْوَلْتَ الصدودَ أي أطلته. وإنما قال هذا ضرورةً. الشعر للمَرّار بن سَعيد الفَقْعَسِيّ والغناء لإسحاق رَمَل.

---

(١) رُغْوَى عليه: بُقْيا عليه.

(٢) سبقت الأبيات وأنها لزهير. ووردت هنا لكعب بن زهير، ويظهر أن ذلك خطأ من النساخ. وهذه الأبيات لزهير في ابنه سالم.

ذكر المَرّار وخبره ونَسَبه

[اسمه ونسبه وبعض صفاته]

هو المَرَّارُ بن سَعيد بن حبيب بن خالد بن نَضْلَة بن الأَشْيَم بن جَحْوان بن فَقْعَس بن طَرِيف بن عمرو بن قُعَين بن الحارث بن ثَعْلبةَ بن دُودَان بن أَسَد بن خُزَيْمة بن مُدْرِكةَ بن الياس بن مُضَر بن نزارٍ. وأُمُّ المَرار بنتُ مَرْوان بن مُنقِذ الذي أغار على بني عامر بثَهْلان فقتل منهم مائةً بحبيب بن مُنْقِذ عمّه، وكانوا قتلوه.

وكان المَرّار قصيراً مُفْرِطَ القِصَرِ ضئيلَ الجسم. وفي ذلك يقول: [الرجز]

عَدُونيَ الثَّعْلَبَ عندَ العَدَدِ حتى اْستثاروا بِيَ إحدَى الإحَدِ
لَيْثاً هِزَبْراً ذا سِلاحٍ مُعْتَدِي يَرْمِي بطَرْفٍ كالحريق المُوقَدِ

[المرار بين الهجاء والرثاء]

وكان يُهَاجِي المُسَاوِرَ بن هند بن قيس بن زُهَيْر بن جَذِيمةَ العَبْسيّ. وفيه يقول المَرّار: [الكامل]

شَقِيَتْ بنو سَعْدٍ بشِعْرِ مُسَاوِرٍ إنّ الشَّقِيَّ بِكُلِّ حَبْلٍ يُخْنَقُ

والمُسَاوِر القائل فيه: [البسيط]

ما سرَّني أنّ أُمّي من بَني أَسَدٍ وأنَّ رَبِّيَ يُنْجِيني من النّارِ
أو أنَّهُمْ زَوَّجُونِي من بَناتِهِمُ وأنَّ لِي كُلَّ يَوْمٍ ألفَ دينارِ

والمرَّارُ من مُخَضْرَمِي الدولتين. وقد قيل: إنّه لم يُدْرِكْ الدولةَ العبّاسيّة.

وقال هذه القصيدة وهو محبوس. ذكر محمد بن حَبِيب عن آبن الأعرابيّ عن المُفَضَّل والكوفيّين أنّ المرَّار بن سعيد كان أتى حُصَيْنَ بن بَرّاق من بني عَبْس، فوقف على بيوتهم فجعل يحدِّث نساءهم ويُنْشِدهنَّ الشعرَ. فنظروا إليه وهم

مجتمعون على الماء فظنُّوا أنه يَعِظُهُنَّ. ثم ٱنصرف من عند النساء حتى وقف على الرجال. فقال له بعضهم: أنت يا مَرَّارُ تَقِفُ على أبياتنا وتُنشد النساءَ الشعر! فقال: إنّما كنتُ أسألهن. فجرى بينه وبينهم كلامٌ غليظ، فوثَبوا عليه وضرَبوه، وعقَروا بعيره؛ فٱنصرف من عندهم إلى بني فَقْعَس فأخبرهم الخبرَ، فركبوا معه حتى أتَوْا بَنِي عَبْس فقاتلوهم فهزموهم، وفقأتْ بنو فَقْعَس من بني عَبْسٍ عيناً وقتلوا رجلاً ثم ٱنصرفوا. فحمل أبو شَدّاد النَّصْريّ لبني عَبْسٍ مائتي بعيرٍ وغلَّظوا عليهم في الدِّية. ثم إنّ بدر بن سعيد أخا المَرَّار قال: قد استوفتْ عَبْسٌ حقَّها، فعلامَ أترك ضَرْبَ أخي وعَقْرَ جَمَلِهِ! فخرج حتى أتى جِمالاً لبني عَبْس في المَرْعَى فرمى بعضَها فعقَرها ثم ٱنصرف. فقال للمَرَّار: إنّه والله ما يُقْنَعُ بهذا ولكن اخرُجْ بنا. فخرجا حتى أغارا على إبلٍ لبني عَبْس فطرداها وتوجها بها نحو تَيْمَاءَ[1]. فلمّا كانا في بعض الطريق ٱنقطع بِطانُ راحلة بدر فندَرَ[2] عن رَحْلِه. فقال له المَرَّار: يا أخي أطِعْني وٱنصرِفْ ودَعْ هذه الإبلَ في النار، فأبَى عليه. ثم سارا، فلمّا كانا في بعض الطريق عرَض لهما ظبيٌ أعْضَبُ[3] أحدِ القرنين. فقال المَرَّار لبدر: قد تطيَّرتُ من هذا السفر، ولا والله ما نرجع من هذا السفر أبداً، فأَبَى عليه بدرٌ. فتفرّقت عَبْسٌ فِرْقتين في طلب الإبل، فعمَدت فرقةٌ إلى وادي القُرَى[4]، وفرقةٌ إلى تَيْماء؛ فصادفوا الإبل بتَيْماء تُباع، فأخذوا المَرَّارَ وبَدْراً فرفعوهما إلى الوالي. وعُرِفتْ سِماتُ عَبْسٍ على الإبل فدُفِعتْ إليهم، ورُفِع المَرَّارُ وأخوه إلى المدينة فضُرِبا وحُبِسا، فمات بدرٌ في الحبس. فكلَّمتْ عِدَّةٌ من قريش زيادَ بن عبد الله النَّصْرِيّ في المَرَّار فخلاّه. وقال في حبسه:

* صَـرَمْـتَ ولـم تَـصْـرِمْ وأنـتَ صَـرُومُ *

وهي طويلة.

وقال يَرْثِي أخاه بدراً: [الطويل]

ألاَ يـا لَـقـومـي لـلـتَّـجَـلُّـدِ والـصَّـبْـرِ ... وَلِـلْـقَـدَرِ الـسّـاري إلَـيْـكَ ومـا تَـدْرِي

---

(١) تيماء: بلدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق الحاج من دمشق. (معجم البلدان ٢/ ٦٧).

(٢) ندر سقط.

(٣) الأعضب: المكسور.

(٤) وادي القرى: وادٍ بين المدينة والشام من أعمال المدينة. (معجم البلدان ٥/ ٣٤٥).

وللشَّيْءِ تَنساه وتَذكُرُ غَيرَهُ ... وللشَّيْءِ لا تَنساهُ إلاّ على ذُكْرِ
وما لكما بالغيبِ عِلْمٌ فتُخبِرَا ... وما لكما في أمر عثمانَ من أمْرِ

وهي طويلة، يقول فيها:

ألاَ قاتلَ الله المقاديرَ والمُنَى ... وطيراً جَرَتْ بين السُّعافات والحِبْرِ[(١)]
وقاتلَ تكذيبي العِيافةَ بعد ما ... زجرتُ فما أغْنَى اعتيافي ولا زَجْري
تَروَّحْ فقد طالَ الثَّوَاءُ وقُضِّيَتْ ... مَشَارِيطُ كانت نحوَ غايتها تجري

ـ المشاريط: العلامات والأمارات ـ

وما لقُفُولِ بعدَ بَدْرٍ بشاشَةٌ ... ولا الحَيُّ آتيهم ولا أوْبَةِ السَّفْرِ
تُذَكِّرني بدراً زعازعُ جَحْرَةٍ ... إذا عَصَفَتْ إحْدَى عَشِيَّاتِها الغُبْرِ

ـ الزعازعُ: الشديدةُ الهُبوب. والجَحْرة: السنة الشديدة ـ

إذا شَوْلُنا لم تُؤتَ منها بِمحْلَبٍ ... قَرَى الضَّيْفَ منها بالمهنّد ذي الأثْرِ[(٢)]
وأضيافُنا إن نبَّهونا ذكرتُه ... فكيف إذاً أنساه غابرةَ الدَّهْرِ
إذا سَلَّمَ السّاري تَهَلَّلَ وَجْهُهُ ... على كل حالٍ من يَسارٍ ومن عُسْرِ
تذكَّرتُ بدراً بعد ما قيل عارفٌ ... لما نابَه يا لَهْفَ نفسي على بَدْرِ
إذا خَطَرَتْ منه على النَّفسِ خَطْرةٌ ... مَرَتْ دمعَ عيني فاستَهلَّ على نَحْرِي[(٣)]
وما كنتُ بَكّاءً ولكنْ يَهيجُ لي ... على ذِكْره طِيبُ الخلائِق والخُبْرِ
أعينَيَّ إنّي شاكِرٌ ما فَعَلْتُما ... وحُقَّ لما أبْلَيْتُمانِيَ بالشُّكْرِ
سألتُكما أن تُسْعِداني فجُدْتُما ... عَوانَيْن بالتَّسْجام باقِيَتَيْ قَطْرِ[(٤)]
فلمّا شَفَانِي اليأسُ عنه بسَلْوةٍ ... وأَعْذَرْتُما لا بَلْ أَجَلّ من العُذْرِ
نَهَيْتُكما أن تُسْهِراني فكُنْتُما ... صَبُورَيْنِ بعدَ اليأسِ طاوِيَتَيْ غُبْرِ

يقول: طويتما أغبارَ دمعكما. والأغبار: البقايا كأغبار اللَّبن.

أخبرني الحُسَيْن بن يحيى عن حَمّاد عن أبيه قال: حدّثني رجل عن

---

(١) السعافات، والحبر: موضعان. (معجم البلدان ٣/ ٢٢٠، و٢/ ٢١٢).

(٢) الشول: النوق التي خفّ لبنها، واحدتها: شائلة. والمحلب: وعاء الحلب. والأثر: فرند السيف ورونقه.

(٣) مَرَت دمع عيني: استدرّته. استهلّ: سال.

(٤) العَوان: النصف في كل شيء.

واصِل بن زكريّا بن المَرّار أن المَرّار قال: خرجتُ حاجًا فَأَنَخْتُ بناحية الأبْطَح، فجاء قوم فَنَحَّوْني عن موضعي وضربوا فيه قُبّةً لرجل من قُرَيش. فلمّا جاء وجلس أتيتُه فقلتُ: [الرجز]

هٰـذا قَـعُـودِي بـارِكـاً بـالأَبْـطَـحِ عـلـيـه عِـكْـمَـا أكْـمُـرٍ لـم تُـفْـتَـحِ[1]

فقال: وما قصّتك؟ فأخبرتُه. فقال: والله لا تفتحُ منهما شيئاً حتى تنصرفَ، فأَقِمْ معنا، يدُك مع أيدينا، وقَعُودُك مع أباعِرِنا. فوالله ما فتحتُ العِدْلَيْن حتى انصرفتُ بهما إلى أهلي. فما هجاني أحد قطُّ هجاءَه.

[المرار في السجن]

أخبرني هاشم بن محمد الخُزَاعيّ قال: حدّثنا أبو غَسَّان دَمَاذ عن أبي عُبَيْدة قال: أخبرني أبو مَوْهَبٍ رُتَيْلٌ الزُّبَيري أحدُ بَنِي زُبَيْر بن عمرو بن قُعَيْن قال: كان المَرَّارُ وأخوه بدر لِصَّيْن، وكان بدرٌ أشهرَ منه بالسرقة وأكثرَ غاراتٍ على الناس. فأغار بدر على ذَوْدٍ لبعض بني غَنْم بن ذُودَان فطردَها، فأُخِذ ورُفِع إلى عثمانَ بن حَيَّانَ المُرِّيّ، وهو يومئذٍ على المدينة فحبسه، وطرَد المَرَّارُ طَرِيدةً فأُخِذ معها وهو يَبيعها بوادي القُرَى أو بِبِرْمَةَ[2]، فرُفِع إلى عثمان بن حَيّان فحبَسه. قال: فاجتمعا ومكثا في السجن مدّةً؛ ثم أفْلَت المَرَّارُ وبقيَ بدرٌ في السجن حتى مات محبوساً مقيَّداً. فقال المَرَّار وهو في الحبس: [الطويل]

أنـارٌ بَـدَتْ مـن كُـوَّةِ الـسِّـجْـنِ ضَـوْؤُهـا عَـشِـيَّـةَ حَـلَّ الـحَـيُّ بـالـجَـرَعِ الـعُـفْـرِ[3]
عَـشـيَّـة حَـلَّ الـحـيُّ أرضـاً خَـصِـيـبـةً يَـطِـيـبُ بـهـا مَـسُّ الـجـنـائـبِ والـقَـطْـرِ[4]
فـيـا ويـلـتـا سـجـن الـيـمـامـة أطْـلِـقَـا أسيرَكـما يَـنْـظُـرْ إلى البرق ما يَفري[5]
فـإن تـفـعـلا أَحْـمَـدْكُـمـا وَلَـقَـدْ أرَى بـأنَّـكـمـا لا يـنـبـغـي لـكـمـا شُـكْـرِي
ولـو فـارقـتْ رجـلـي الـقُـيـودُ وجـدتُـنـي رفيقاً بنَصِّ العِيسِ في البلد القَفْرِ[6]

---

(١) العِكم: العِدْل. والأكمر: جمع الكمر، وهو البر سقط على الأرض فأصبح رطباً.
(٢) برمة: عرض من أعراض المدينة بين خيبر ووادي القرى. (معجم البلدان ١/ ٤٠٣).
(٣) الجَرَع: جمع جَرَعَة، وهي الرملة الطيبة لا وعوثة فيها.
(٤) الجنائب: جمع جنوب، وهي ريح تقابل الشمال.
(٥) يا ويلتا: أظن أنها محرفة عن كلمة أخرى لأنها في البيت لا معنى لها. ويفري: يشق.
(٦) النص: أقصى السير وأعلاه. والعيس: النوق.

جـديـراً إذا أُمـسـي بـأرضٍ مَـضَـلَّـةٍ بـتـقـويـمـهـا حتى يُرَى وَضَحُ الـفـجـر

وقال أبو عمرو الشَّيْبانيّ: كان بين المَرَّار وبين رجل من قومه لِحَاءٌ(١)، فتقاذفا وتسابّا، ثم صارا إلى الضرب بالعصا؛ فقال في ذلك:

صوت [الوافر]

ألـم تَـرْبَـعْ فـتُـخْـبِـرَكَ الـمَـغَـانِـي فـكـيـف وهُـنَّ مُـذْ حِـجَـجٍ ثَـمَـانِ(٢)
بَـرِئـتُ مـن الـمـنـازِل غـيـرَ شَـوْقٍ إلـى الـدارِ الـتـي بِـلِـوَى أَبَـان(٣)

لإسحاقَ في هذين البيتين هَزَجٌ بالخنْصر في مجرى البِنْصر من كتاب ابن المَكّي.

[من شعر أخيه بدر]

وكان بدر بن سعيد أخو المَرَّارِ شاعراً وهو الذي يقول:

صوت [البسيط]

يـا حَـبَّـذا حـيـن تُـمْـسِـي الـرِّيـحُ بـارِدَةً وادِي أُشَـيٍّ وفِـتْـيـانٌ بـه هُـضُـمُ(٤)
مُـخَـدَّمُـونَ كِـرامٌ فـي مَـجَـالِـسِـهِـمْ وفـي الـرِّحـالِ إذا لاقـيـتَـهُـمْ خَـدَمُ
ومـا أُصـاحِـبُ مـن قَـوْمٍ فـأذكُـرَهُـمْ إلاَّ يَـزِيـدُهُـمُ حُـبّـاً إلـيّ هُـمُ

الغِناء لابن مُحْرِزٍ ثاني ثقيل بالخِنْصر والبنصر عن ابن المَكّيّ. وفيه لمتيَّم خَفِيفُ رَمَلٍ. وذكر حَبَشٌ، أن الثقيل للهُذَلِيّ. وفيه لمحمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر ثقيلٌ أوّلُ عن الهِشَاميّ.

---

(١) لحاء: ملاحاة، مشاتمة، سباب.
(٢) المغاني: المنازل.
(٣) أبان: موضع. (انظر معجم البلدان ١/ ٦٢).
(٤) وادي أُشيّ: موضع باليمامة. (معجم البلدان ١/ ٢٠٣). والهُضُم: أراد الذين يسرفون في صرف أموالهم.

صوت


خَطَاطِيفُ حُجْنٌ في حِبالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ إلَيْكَ نَوَازِعُ
فإن كُنْتَ لا ذا الضِّغْنِ عنّي مكذِّبا ولا حَلِفي عند البَرَاءَةِ نافِعُ
فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْرِكي وإن خِلْتُ أنّ المُنْتَأى عنكَ واسعُ

عروضُه من الطَّويل. يقول: أنا في قَبْضتِك متى شئتَ قدَرْت عليّ كأني في خَطَاطِيفَ تَجْذِبُني إليك ولا أَقْدِر على الهَرَبِ منك. ويُرْوَى «وإن خلتُ أن المُنْتَوَى» أي الموضع الذي أنتوي قصدَه. والمُنْتَأى: المُفْتَعل من النأي. والحُجْن: المُعْوجَّةُ. والنّوازِع: الجواذِب. والضِّغْن: الحقد.

الشعر للنابغة الذُّبْيانيّ. والغناء لابن صاحبِ الوضوء من رواية إسحاق وعمرو ماخُورِيٌّ بالبِنْصر.

انتهى الجزء العاشر من كتاب الأغاني.

فهرس التراجم


Bibliotheca Alexandrina
04442332